الدول المستقلة في المشرق الإسلامي

منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي

الدكتور
عصام الدين عبد الرؤوف الفقي



دار الفكر العربي

الدول المستقلة في المشرق الإسلامي

منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي

دراسة لدول آسيا الوسطى (الكومنولث الجديد)
في عصورها الإسلامية المزدهرة

الدكتور
عصام الدين عبد الرؤوف الفقي

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٩٥٣ عصام الدين عبد الرءوف الفقى.
ع ص دو الدول المستقلة فى المشرق الإسلامي: منذ مستهل العصر العباسى حتى الغزو المغولى، دراسة لدول آسيا الصغري (الكومنولث الجديد) فى عصورها الإسلامية المزدهرة/ عصام الدين عبد الرءوف الفقى. ـ ط١. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.

418 ص:.

تدمك: ٢ - ١٢١١ - ١٠ - ٩٧٧.

١٠ آسيا الوسطى. ٢٠ الأخلاق الإسلامية.
٣٠الحضارة الإسلامية. ٤٠ العالم الإسلامى - تاريخ - العصر العباسي. ٥٠ المسلمون فى آسيا الوسطى. ٦٠النظم الإسلامية. أ٠ العنوان.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وجهنى أستاذى الجليل، صاحب الذكرى العطرة الدكتور/ محمد جمال الدين سرور، طيَّب الله ثراه، وأنار قبره، إلى دراسة المشرق الإسلامى؛ لأنه ميدان بكر يستحق الدراسة؛ ولأن المتخصصين فى التاريخ والحضارة الإسلامية، انصرفوا عن دراسة هذا الموضوع، وانشغلوا بدراسة مصر والشام والمغرب والأندلس والعراق وغير ذلك.

لذلك شُغلتُ منذ عدة عقود بدراسة المشرق الإسلامى، ووجدت أن المشرق الإسلامى، لعب دورا أساسيا فى الحضارة الإسلامية، كما أن مفكرى الإسلام الذين برزوا فى ديار الإسلام، من المشرق صنفوا أهم المؤلفات فى كل فروع العلم والأدب والفكر، وأضافوا الكثير إلى الثقافة الإنسانية، واستفاد الأوربيون من علماء المشرق الإسلامى فى بناء حضارتهم وتأسيس علومهم على أسس قوية سليمة. والدول التى قامت فى المشرق الإسلامى، قامت بدور أساسى فى نشر الإسلام فى بلاد لم تعرف هذا الدين الحنيف، فنشرت دول المشرق الإسلام فى الهند والصين وآسيا الصغرى وبلاد الترك وغيرها.

وبدأت دراستى للمشرق الإسلامى، بوضع كتاب عن الإسلام فى جنوب غرب آسيا، درست فيه الدولة الغزنوية سياسيا وحضاريا، وهى أول دراسة أكاديمية فى هذا المجال.

وواصلت دراسة المشرق الإسلامى، فصنفت كتاب «**الدول المستقلة فى المشرق الإسلامى**» وصنفت كتاب «**بلاد الهند فى العصر الإسلامى**»، وكتبت عدة بحوث فى المشرق الإسلامى.

ولقد طُبِعَ كتاب «**الدول الإسلامية المستقلة**» عدة مرات وازداد الطلب عليه فى مصر والبلاد العربية والإسلامية.

لذلك رأيت أن أعيد طبع الكتاب فى ثوب جديد، أضفت إليه الكثير من المعلومات المفيدة من مصادرها الأصلية حتى يكون الكتاب فى متناول القارئ العام والقارئ المتخصص. ورأيت أن أرضى نفسى الحائرة بوضع هذا الكتاب، واعتكفت من أجل ذلك فى صومعتى الفكرية التأملية عدة سنين ورأيت أن أزود الكتاب ببعض الرسوم والخرائط والصور حتى يخرج الكتاب فى صورة فنية وعلمية لائقة به.

ووجدت فى تأليف هذا الكتاب - كما قال إخوان الصفا - سلوى لى عن المعاناة والآلام التى أواجهها بصلابة وقوة بأس، ودراسة المشرق الإسلامى لابد لها من التحلى بأدوات كإتقان اللغة الفارسية وبعض اللغات الأوربية، وهذا ما حرصت عليه فى دراستى.

ولم أترك مكتبة فى مصر إلا واستفدت منها، وخصوصا مكتبة جامعة القاهرة التى أعشقها وأذكر بالحب والعرفان فضلها على، كما استفدت من مكتبة شيخى ووالدى العالم الفقيه، الشيخ عبدالرءوف الفقى.

ولقد وجهت طلابى إلى دراسة المشرق الإسلامى، فوجدت إقبالا كثيرا منهم على هذا النوع من الدراسة الهامة، وحصل بعضهم على درجة الدكتوراه، وشغلوا وظائفهم اللائقة بهم فى الجامعات.

قسمت كتابى إلى قسمين، القسم الأول: تاريخ سياسى، وهى الدول المستقلة فى المشرق، **والقسم الثانى:** حضارة المشرق، ويتضمن دراسة نظم الحكم والإدارة والحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية والحياة الثقافية فى المشرق الإسلامى.

والله ولى التوفيق،

د. عصام الدين عبدالرءوف الفقى

مصر الجديدة ٢٠/ ٧/ ١٩٩٨

المحتويات

القسم الثاني

حضارة المشرق الإسلامي

الباب الثالث

الباب الرابع

الوضع الاقتصادى والحياة الاجتماعية

الباب الخامس

الحياة الفكرية

تمهيد:

المشرق قبل قيام الدولة المستقلة

بعد أن سقطت إمبراطورية الفرس القديمة بسبب غزو الإسكندر المقدونى لها، قامت فى المشرق الإسلامى الإمبراطورية الساسانية، وأول ملوكها أردشير، وكان ملكه بإصطخر، وقد سيطر على كل أقاليم المشرق، وسيطر على خراسان وأرمينية والجزيرة والعراق وأذربيجان، ولُقبَ أردشير شاهنشاه، ولما دان لُه أهل المشرق بالولاء والطاعة، عهد لابنه سابور بولاية العهد، وتوفى أردشير بعد ملك دام أربع عشرة سنة.

وملك سابور بن أردشير، فغزا بلاد الروم، وفتح منها عدة بلدان، وأسر خلقا من الروم، وبنى مدينة جند يسابور، وأسكنها سبى الروم.(١)

وفى أيام سابور بن أردشير ظهر مانى بن حماد الزنديق ودعا سابور إلى ملته، فآمن بها. وقال مانى: إن مدبر العالم اثنان، وهما شيئان قديمان، نور وظلمة، خالقان، فخالق خير وخالق شر، فالنور والظلمة كل منهما نفسه، اسم لخمس معان: اللون والطعم والرائحة والمجسة والصوت، وأنهما سميعان بصيران عالمان، وأنه ما كان من خير ومنفعة، فهو من قبل النور، وما كان من ضر وبلاء، فهو من قبل الظلمة وأنهما كانا غير ممتزجين، ثم امتزجا، والدليل على ذلك أن الظلمة بدأت للنور بالممازجة، وأنهما كانا متماسين على مثال الظل والشمس. ولما كانت مخالطة الظلام للنور مفسدة له، كان محالا أن يكون النور بدأها؛ لأن النور من شأنه الخير. والخير والشر اثنان قديمان. والذى يكون منه الخير، لا يكون منه الشر، والذى يكون منه الشر لا يكون منه الخير، قلما وجدت المادة الواحدة، لا يكون منها فعلان مختلفان، مثل النار الحارة المحرقة لا يكون منها التبريد، والذى لا يكون منه التبريد لا يكون منه التسخين(٢).

ودعا سابور أهل مملكته إلى اعتناق الدين الجديد، فعارضه الكثير، واستنكر حكماء المملكة أقوال مانى. ووضع مانى كتبا، يثبت فيها الاثنين، النور وهو الخير، والظلمة، أى الشر، وفى كتابه «كنز الأحياء» يصف ما فى النفس من الخلاص النورى والفساد الظلمى، وينسب الأفعال الرديئة إلى الظلمة. وله كتب أخرى، وصف فيها

---

(١) تاريخ اليعقوبى جـ١ ص ١٥٩.

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٠.

النفس الخالصة والمختلطة بالشياطين والعلل، وله اثنى عشر إنجيلا، يسمى كل إنجيل منها بحرف من الحروف ويذكر الصلاة كـوسيلة للخلاص الروحى، على أن سابور عدل عن الديانة المانوية، وعاد إلى المجوسية[1].

ولما توفى سابور ملك بهرام بن هـرمز، وكان شغوفا باللهـو والمجون، واضطهد أتباع مانى ونكل بهم.

ثم ملك بهرام بن بـهرام بن هرمز بن سـابور، وبدأ عهده باسـتقبـال المعزين فى موت أبيه أربعين يوما، ووضع الموبذ - وهو أكبر حكماء المملكة - التاج على رأس الملك الجـديد، ودعـا له، وملك تسع عـشـرة سنة، وخلفـه ولده بهرام بـهرامـيـان، ولُقِبَ كرامنشاه، ولم يكن له ولد يرثه[2].

ثم تعـاقب ملوك آل سـاسـان، واشتـد النزاع بينهم عـلى الحكم، وثارت الفتن والقلاقل فى البلاد، حتى ولى الحكم سابور(٣٠٩ - ٣٧٩م) ذو الأكتاف، وتُوِّج ملكا، وحيَّاه الناس بتـحية الملوك، ودعوا له، ونثروا عليه الجـواهر، وتولى الموبذ شيرويه إدارة شئون الدولة، وأظهر كفاءة ومـقدرة فى إدارة شئون الدولة، ولم يزل سابور يزداد روعة واستـعدادا للمـملكة، وآثر المقام بإصطخـر - مقـر السلاطين - وفى عهـده شن الملك الغسانى غارة على طيسفون فى فارس، وقتل الكثير من الناس وسـبى النساء، واسترق الأولاد، ونهب أموالا كثيرة، وخرب البلاد ودمرها، ومن السبايا عمة سابور، آلت إليه وتسرى بها وأنجب بنتا رائعة الجمال تسمى مالكة. على أن سابور لم يتغاض عن غارات الغساسنة المـدمرة على بلاده، فأرسل جيشـا إلى ديارهم باليمن، وقتل أهلهـا وخربها، وقطع جنده - بأمر منه - أيدى الرجال، ونـزعت أكتافهم، وقتل الغسـانى والكثير من جنده، وقومه؛ لذلك سُمى «سابور ذو الأكتاف» وقويت المملكة فى عهده.

تولى أردشيـر الوصاية على سابور الطفل بعـد وفاة أبيه وحكم البـلاد نيابة عنه، وسار فى الناس سـيرة حسنة، وخـفف عن الناس عبء الضرائب، فـأحبوه، وسـموه أردشير نيكو كار، أى «صاحب الأفعال الحسنة الرضية» وبعد عشر سنين سنة ٣٨٣م من وصايته سلم الملك لابن أخيه سابور، وصار له وزيرا ومشيرا.

---

(١) المصدر السابق جـ١، ص ١٦١.

(٢) الفردوسى : الشاهنامة جـ١ ص ٦١.

وملك سابور بن سابور (٣٨٣ ـ ٣٨٨م)، وحضر كبار رجال الدولة لتهنئته، فوعظهم، ووعدهم بحكم الناس بالعدل، والإحسان إليهم، وعمل الخير، ومات فى رحلة صيد[(١)]، وخلفه ابنه بهرام بن سابور وحكم أربع عشرة سنة، وخلفه ولد صغير يسمى يزدجرد (٣٩٩ ـ ٤٢٠م) ويلقب بالآثم والخشن، وكان ملكا مسالما يكره الحرب، وضرب على العملة، يزدجرد المسالم. وقد يُسرت له فى عهده فرص كثيرة لمحاربة الروم، والاستيلاء على أرضهم فى آسيا، فلم ينتهزها وبلغ من مسالمته إياهم، أن الإمبراطور الرومى أركديوس أوصى إليه بحماية ابنه ثيودسيوسى، فقبل يزدجرد الوصية وأرسل أحد الخصيان من أولى العلم، ليكون حارسا له، ومن نتيجة حسن العلاقات مع الروم، مسالمة يزدجرد للمسيحيين فى بلاده، بعد أن لاقوا من أسلافه ألوان الاضطهاد، وسمح للنصارى بحرية العبادة، وأعاد لهم كنائسهم التى هُدمت، وأساء معاملة المجوس، لذلك أسموه، الخشن أو الآثم[(٢)].

وينسب إلى يزدجرد ظلمه للناس، واستهان بذوى الألباب والعقول، واستوى عنده العالم والجاهل، والبر والفاجر، فعمَّ الظلم والقهر والبؤس أنحاء البلاد، لذلك كان أعوانه لا يعرضون عليه مظالم الناس، لأنه منعهم من النظر فيها.

ثم ملك بهرام جور بن يزدجرد، وكان قد نشأ بأرض العرب، وكان أبوه قد دفعه إلى النعمان، فأرضعته نساء العرب ونشأ على أحلاق جميلة.[(٣)]

ولما مات يزدجرد، كرهت الفرس أن تولى ابنه لأنه نشأ بأرض العرب، لا علم له بالملك، وكان بهرام يؤثر اللهو والعبث والمجون، متشاغلا عن الرعية، وقتله ملك الترك فى غارة له على بلاده، فخلفه يزدجرد بن بهرام، وكان له ابنان أحدهما هرمز والآخر فيروز، وتنافس الأخوان، فولى هرمز الملك، وهرب فيروز، ولكن فيروز جمع جمعا تغلب على أخيه، وولى الملك ولحق بالناس فى أيامه الجدب والقحط وظلت البلاد فى ثلاث سنين تعانى الجوع والبؤس والحرمان، وفاضت الأنهار، وعادت إلى الأرض زخرفها وزينت بالزروع والأشجار[(٤)] ثم ملك بلاسن، وخلفه قباذ بن فيروز ثم ملك كسرى أنوشروان بن قباذ. وهو من أعظم ملوك الساسنيين (٥٣١ ـ ٥٧٨م) وله إنجازات

(١) المصدر السابق: ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٤.

(٣) تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ١٦٢.

(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٣، ١٦٤.

خلدت اسمه فى السلم والحرب، وفى أثناء ملك كسرى، حدث حادث جلل غيَّر مجرى التاريخ فى المشرق والعالم كله، وهو مولد محمد رسول الله ﷺ.

بدأ كسرى أنوشروان عهده بتخفيف الضرائب عن الناس، وخصوصا الخراج أى ضريبة الأرض، فتحسنت أحوال الناس المعيشية وكان له موبذ يسمى بابك، قلده ديوان الجيش، فأعد الجيش خير إعداد، وزوده بالأسلحة، واختار فرقة متميزة من جنده تجول بها فى سائر ولايات مملكته، فى خراسان وجرجان وطبرستان ورفع الناس إلى كسرى شكاوى متعددة من غارات الترك(1) فقام بتحصين البلاد وتأمين الحدود من خطر الترك الداهم.

وكانت الحرب بين الفرس والروم مستمرة فى الغرب والشمال، وكان الفريقان يتعاهدان على وقف الحرب بصفة مؤقتة أو دائمة، ثم ينقض أحد الفريقين العهد. وهكذا استمرت الحرب بين العرب والروم فى عهد كسرى أنوشروان الذى تفوق على الروم. وفى سنة ٥٤٠م أغار أنوشروان على سوريا واستولى على أنطاكية، واستولى على أموالها ومعداتها وأسر العديد من سكانها ونقل كل ذلك إلى المدائن، واستولى كسرى كذلك على الرها ونصيبين ومنبج ودارا وقنسرين وحلب وقامية وحمص. وبذلك اتسعت الإمبراطورية الفارسية وتفوقت على إمبراطورية الروم، وأطلت على البحر المتوسط.

وقويت الإمبراطورية الفارسية الساسانية فى عهد كسرى، وكان من عادته جمع حكماء الدولة لاستشارتهم فى أمور الدولة الهامة، وأشار على أحد كبار الحكماء وهو برزمهر بأن يتكلم، فقال أيها الملك: لم يتسلم أحد المملكة بروعتك، وإذا سلك الملك فى سيرته أقوم منهج، وخاف الله، وسلط سلطان العقل على النفس الأمارة بالسوء، موصوفا بالإنصاف، حسنت أحوال الرعية، وأحبه الناس، وإن رفعة تيجان الملوك مقرونة باحترام العلماء ذوى الآراء السديدة والأفكار الصائبة(2).

وقد دخل كسرى أنوشروان فى حروب مريرة مع الأتراك الهون فى آسيا الوسطى.

وكان كسرى أنوشروان نبيلا كريما ظاهر العدل، لا يسأله إنسان شيئا إلا أجابه، واستنجد به سيف بن ذى يزن أحد زعماء اليمن من استعمار الحبشة لبلاده، فأرسل

---

(1) الفردوسى: الشاهنامه ج٢ ص ١٢٦.

(2) الفردوسى: الشاهنامه جـ ٢ ص ١٣٦.

جيشا، إلى اليمن طرد الأجباش، وقتل أبرهة - حاكم اليمن الحبشى، ولكن كسرى بسط سيطرته على اليمن[١].

وعقد كسرى أنوشروان لابنه هرمز، وكتب له كتاب العهد أوصاه بالعدل والإحسان وحسن التدبير، وامتحنه فوجده بأحسن مايجب، وأجابه بجواب سديد، ولا يأتيه إلابقول حسن نظيف.

تولى هرمز بن أنوشروان الملك بعد أبيه، فقرأ على الناس كتابا غاما يعد فيه بالعدل والإنصاف والعفو والنظر فيما يعود على الناس بالخير والصلاح، وفتح عدة مدن، وهزم أعداء البلاد المتربصين بها مثل الترك الذين أغاروا على خراسان، كما صد هجمات ملك الخزر على أذربيجان، وألحق به هزيمة كبيرة[٢].

تطلع كسرى برويز إلى انتزاع الملك لنفسه والتخلص من أبيه، وساعده الكثيرون، فتغلب على أبيه، وانتزع الملك لنفسه (٥٩٠ ـ ٦٢٨).

كانت المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية، وقد شيد فيها كسرى أنوشروان إيوانا عظيما، وأتمه كسرى برويز، واستعان فى بنائه بالعمال من الهند والصين وإيران والعراق، وكان من عادة الملك أن يجلس فى الإيوان يوم النيروز، وكان فى طاقه حلقة من الذهب فيها سلسلة متدلية من الذهب الأحمر مرصعة باللؤلؤ والجوهر، ويجلس الملك واضعا رأسه تحت التاج على تخت العاج، وكان إلى جانب هذا الإيوان مجلس أصحاب الدواوين والوزراء والكتاب ودونهم الأسواق المشتملة على النفائس والأعلاق، ودونها موضع فقراء الناس وأوساطهم، وتحت الكل موضع إقامة الحدود وإجراء السياسات، ومنادى الملك ينادى فى الناس يعذر وينذر ويردع ويزجر، والملك فى هذا اليوم يتفقد الفقراء والمحتاجين، ويفرق عليهم الأموال الكثيرة[٣].

وقويت الإمبراطورية الفارسية فى عهد كسرى برويز وتدفقت الأموال عليه من الهند والروس والترك والروم، وكثرت خزائنه التى تحمل ثروات ضخمة.

فى بداية حكم كسرى برويز أحرز انتصارات رائعة على الدولة البيزنطية، واقتربت جنوده من القسطنطينية ـ عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ـ واستولى على أنطاكية

(١) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٦.

(٣) الفردوسى الشاهنامه جـ ٢ ص ٢٤٤.

ودمشق والفرس (٦٠٨ ـ ٦١٥) وحمل معه من القدس، صليب الصلبوت، وهو الصليب الذى صُلِبَ عليه المسيح، وفتح كسرى مصر[١].

على أن هرقل أعد العدة لاسترداد البلاد التى انتزعها الفرس وحاول عقد صلح مع كسرى بشرط إعادة الأراضى التى احتلها الفرس إلى الروم، ولكن كسرى رفض الصلح، فقاد هرقل جيشه إلى قيصرية واستردها من الفرس. وفى سنة ٦٢٧م هزم هرقل الفرس فى موقعة نينوى. وفى سنة ٦٢٨هـ خلع ابن كسرى أباه وقتله، وكانت الحروب قد أنهكت الدولتين، ولم يعد فى مقدور إحدى الدولتين إحراز نصر حاسم على الدولة الأخرى، لذلك رأت الدولتان ضرورة الصلح، وتم فعلا على أساس أن تسترد كل دولة أراضيها، وأعيد صليب الصلبوت إلى هرقل، فأعاده إلى القدس وسط تهليل الناس وسعادتهم[٢].

ولما ملك شيرويه بن كسرى برويز، أطلق سراح المسجونين وتزوج بنساء أبيه، وقتل سبعة عشر أخا له ظلما واعتداء، فلم يستقم ملكه، ولم يصلح حاله، فاشتد سقمه[٣]، ومات بعد سبعة أشهر، ثم تعاقب ملوك ضعاف على حكم الإمبراطورية الفارسية، حتى ولى يزدجرد ـ وكانت أمه حجامة، واقعها كسرى ـ وولى البلاد وأمورها مضطربة، تكتسح الجيوش العربية المظفرة إمبراطورية الفرس المتداعية، وتتساقط مدن الفرس فى أيدى العرب، وهُزم يزدجرد، فأخذ يضرب فى الأرض، ويتنقل من بلد إلى بلد، وجند العرب تتبعه، فلجأ إلى مرو، ودخل طاحونة، وقتله صاحب الطاحونة، وبموته سقطت الدولة الساسانية، وتحولت إمبراطورية الفرس إلى ولايات تتبع الدولة العربية الإسلامية.

كان الفرس يعظمون النيران، ولا تتخذ لقصورها أبوابا، إنما يتخذون ستائر بدل الأبواب، وتنكح الأمهات والأخوات والبنات وتذهب إلى أنهن أولى بذلك، وصلة وبر بهن، وتقرب إلى الله بهن[٤].

والفرس يعظمون النار والماء والشمس والقمر والأنوار كلها.

---

(١) هـ . ج ـ ولز: معالم تاريخ الإنسانية، المجلد الثالث ترجمة عبدالعزيز جاويد ص ٧٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ٧٤٣.

(٣) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٧٣.

(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧٤.

ويزعم الفرس عن نبيهم زرادشت، أن يكون النور قديما لم يزل، وهم يسمونه زروان، وأنه فكر فى الشر لهفوة كانت منه، علمهم منها، بأن الحسن مستحيل إلى قبح، والطيب الريح إلى نتن، وأن القديم عندهم غير ممتنع من أن يلزمه التغيير والفساد فى بعضه لا فى كله، قلما فكر القديم فى الشر، تنفس الصعداء، فخرج ذلك الفم من جوفه فامتثل بين يديه، ويسمون هذا الفم، أهرمن أو زروان هرمز. وأراد أهرمن محاربة هرمز، فكره ذلك هرمز حتى لا يفعل شرا فصالحه على أن يصير إليه خلق كل ضار فاسد[1]، وقالوا: إن هرمز النور الفاعل، وأن أهرمن يعقل السوء والمضار والأذى كالسم فى الهوام والغضب والفجر والشرور والاعتداءات.

كانت إصطخر حاضرة ملوك الفرس، واتخذ أنوشروان بن قياذ، المدائن عاصمة لدولته، واتفق المنجمون على حسنها[2].

كانت الإمبراطورية الفارسية، تتكون من خراسان، وكورها نيسابور وهراة ومرو، ومرو الروذ والفارياب والطالقان وبلخ وبخارى وكان على هذه الكور وال يسمى أصبهيذ. ومن كور الجبل، طبرستان والرى وقزوين وزنجان وقم وأصبهان وهمذان ونهاوند والدينور وحلوان وشهر زور وصغاتيان وأذربيجان، وكان لهذه الولايات أصبهيذ أذربيجان وكرمان، يضاف إلى ذلك فارس والعراق[3].

ومن أهم الأحداث التى حدثت فى أواخر عصر الدولة الساسانية، الرسالة التى بعث بها محمد بن عبدالله ﷺ إلى كسرى برويز - ملك الفرس - يدعوه إلى الإسلام، انطلاقا من عالمية الدعوة الإسلامية لأن الإسلام ليس للعرب فقط، بل للناس جميعا، ففى سنة ٦هـ - ٦٢٧م أرسل الرسول ﷺ رسالة إلى ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام جاء فيها [أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس]، وقد غضب كسرى من هذه الرسالة، واعتبرها إهانة له، واستنكر الدين الجديد، والنبى المرسل، ومزق كتاب الرسول، وكاد يقتل حامل الرسالة، ولما علم الرسول بذلك، قال: مزق الله ملكه، وخشى كسرى من انتشار الإسلام فى البلاد التابعة له كاليمن والعراق، وأرسل رجلين لقتل الرسول، ولكن الله حقق دعوة رسوله، فقتل كسرى بواسطة ابنه شيرويه[4].

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٢٩.

(٤) الخزرجى: العسجد المسبوك ورقة ٥.

وكان كسرى ملكا ظالما متكبرا، أنهك شعبه فى الحروب التى قتل فيها الكثيرون، وقتل القواد الذين هزموا فى المعارك، وتزعم شيـرويه بن كسرى معارضة أبيه؛ ذلك أن كسرى عـهد إلى أخيه الأصغر، مـردانشاه وهو ابنه المدلل من محظيته السـريانية، وقتل الثوار كسرى، ونادوا بشيرويه ملكا وسموه قياذ الخامس سنة ٦٢٧م.

وكان كسـرى برويز من أشهر ملوك الفـرس بعد كسرى أنوشـروان وترك قصورا فخمـة وثروات طائلة، وكان له ثلاثة آلاف زوجة وكـانت قصور حريمـه تضم الجوارى الحسان يقمن بالغناء والعزف(١).

قبل أن ينعم الله بالإسـلام على إمبراطورية الفرس، كـانت الديانات السائدة فى هذه البلاد، الزرادشتية والمانوية والمزدكية فى فجر القرن السابع الميلادى، وقد تحدثنا عن عقيدة الزراد شتيين ونضيف إلى ذلك أن ديانة زرادشت تغلبت على ديانات بابل ونينوى القديمـة، ويرجح أن زرادشت ظهر فى سنة ١٠٠ ق.م وديانته تدور حـول الصراع بين الخير والشر، وليس لها أصنام ولكن لها كهنة ومعابد وهياكل(٢).

وفى القرن الثـالث الميلادى ظهرت فى الإمـبراطورية الفارسـية، الديانة المانوية، وَوُلد مؤسس هذه الديانة ـ مانى ـ سنة ٢١٦م، وبعد تأملات فى الكون وتفكير عميق، توصل إلى أنه صاحب النور الكامل، الذى هو القوة المحركة لكل صاحب رسالة دينية، ودفـعتـه الظروف إلى إعـلان مـبادئه، ودعـا إلى ديانته فـى عهـد سـابور الأول سنة ٢٤٢م.(٣) وهو يدعـو إلى الزهد، وتعجل فنـاء العالم بعـدم الزواج والنسل، والتفـرغ للعبـادة والتطلع إلى الله. وهو يذكـر بأن تعاليـمه الدينية تـوضيح للديانات السـابقة، ديانات موسى وعيسى وزرادشت، ومـا فى الحياة من اضطراب وتناقض، هو صراع بين الخير والشر والنور والظلمة، وأهور امـزدا هو الإله، وأهرمن هو الشيطان، وتجول مانى فى أنحاء العالم المعروف يدعو إلى دينه، زار الهند وتركـستان والصين، وبذلك خرجت دعوته من إيران وانتشرت فى بلاد العالم. وفى سنة ٢٧٧م قُتِلَ مانى، واضطهد أتباعه، ومع ذلك بقيت ديانته سائدة فى إمبراطورية الفرس جنبا إلى جنب مع البوذية والمسيحية النسطورية والزرادشتية(٤).

---

(١) شاهين مكاريوس: تاريخ إيران ص ٩٢.

(٢) يحيى الخشاب: تاريخ إيران فى عهد الساسانيين ص ٤٧٧، ٤٧٨.

(٣) ويلز: معالم تاريخ الإنسانية جـ ٣ ص ٧٥٠.

(٤) المصدر السابق ٧٥١.

ومن الديانات التى عرفتها فارس، المزدكية، وهى تدعو إلى الإباحية والفوضى، أى إلغاء كل مظاهر الملكية الخاصة، ملكية الأرض والعقار والنساء، فمن حق أى فرد أن يحصل على قوته من أى مكان، وعلى المرأة التى يريدها. وبذلك أدت هذه الديانة إلى ثورة الفقراء على الأغنياء وسلبهم ممتلكاتهم، وأخلت بتقاليد الحياة الزوجية، وتمزق العائلات، وزيادة الأخطار على النساء، وتفشى الزنا.

ويجب أن نختم كلامنا عن ديانات الفرس ببعض أقوال زرادشت.

إننى بأسرى جسدا لاغير، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد، والجسد مجموعة من الآلات مؤلفة للعقل ومظاهر متعددة، لميدان واحد، إن هو إلا ميدان حرب وسلام، لأن لا تتبجح وتقول أنا وتغتر، هو مضمر الشخصية الظاهر. الجسد هو أنا.

ما الحس والعقل إلا أدوات وألعوبة، والذات الحقيقية كامنة وراءهما، مفتشة بعيون الحس ومصغية بآذان العقل.

إن الجسد السليم يتكلم بكل إخلاص وصفاء، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم، وليس بيانه إلا إفصاحا عن معنى الأرض.

إن الشر يحدث من تخاصم فضائلك، وإذا شعرت بسعادة، فما يكون ذلك إلا لفضيلة مستقرة فيك، وهى تسهل اجتياز الصراط عليك.

وهو فى أقواله يدعو إلى التخلق بالأخلاق الطيبة، والعمل والعلم، وتكوين أسرة متماسكة. والسعى إلى زيادة الإنتاج.

ظل الفرس يدينون بهذه الديانات المختلفة، وكانوا فى حاجة إلى دين يوضح لهم حقيقة الله، وحقيقة الوجود، والقوى التى هى من وراء عظمة الكون، وتفسير ظواهر الطبيعة التى هى إعجاز فى تكوينها وتوضيح أسرار هذا الكون. وقد سعدوا بانتشار الإسلام بينهم الذى غربت بإشراقه الديانات الأخرى(١)، والذى فسر الحقيقة الغائبة عن الناس، حقيقة الله الواحد الأحد «ليس كمثله شيء» لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، إنه الإسلام الذى أشرق على هذه البلاد بنوره الساطع، وأعاد إلى الفرد كرامته وعزته.

---

(١) فردريك نيشة: زرادشت ص ٥٣.

الفتح العربي الإسلامي لإمبراطورية الفرس

منذ أن ولى أبوبكر الصديق الخلافة، دعا العرب إلى الجهاد فى سبيل الله، ونشر الإسلام فى غير بلاد الإسلام، ودرءا لخطر الفرس الذين تربصوا بالعرب، بعد أن علموا بقوتهم بفضل الدين الجديد الذى دعا إليه محمد بن عبد الله ﷺ.

كانت إمبراطورية الفرس تتكون من العراق وإيران وبلاد ما وراء النهر وسجستان (أفغانستان الحالية) وخراسان.

أمر أبوبكر الصديق خالد بن الوليد بأن يسير بجيشه من اليمامة إلى جنوب العراق، واستطاع أن يحقق هناك عدة انتصارات، منها القضاء على مملكة الحيرة العربية، وكان ملوكها المناذرة عملاء للفرس، ومهدت انتصارات خالد بن الوليد فى جنوب العراق إلى ضم بلاد العراق بأكملها إلى الدولة العربية الإسلامية فى خلافة عمر بن الخطاب فلما دفع الفرس فى عهده بقواتهم إلى العراق، على أمل سحق المسلمين هناك، تمكن هذا الخليفة من إعداد جيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل لمواجهتهم، وأسند قيادته إلى سعد بن أبى وقاص فانتصر المسلمون على الفرس فى القادسية سنة ١٦هـ/ ٦٣٦م، وقد فُتِحَ الطريق أمام العرب بَعد هذه الواقعة فى العراق دون مقاومة تذكر، حتى بلغوا المدائن - عاصمة الفرس(١).

هاجم المسلمون المدائن، فلما أيقن يزدجرد - ملك الفرس - من تفوق المسلمين على جنده، ولى هاربا ومعه وجوه القوم، وحمل معه خزائن الدولة والنساء والزرارى، وكانت السنة هذه، سنة مجاعة فى أنحاء فارس، وفتح المسلمون شرق المدائن(٢)، وانتهى سعد بن أبى وقاص من فتح المدائن وجالولاء سنة ١٦ق، ولما نزل إيوان كسرى، تلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان].

على أن يزدجرد أعد جيشا كبيرا، وجهزه بأحدث الأسلحة فى ذلك العصر، وأمره بطرد العرب نهائيا من بلاده، كما أن عمر بن الخطاب اختط مدينتين فى العراق، هما البصرة والكوفة، لنشر الإسلام فى هذه البلاد، ولإقامة العرب، ولتكون معسكرا،

(١) عصام الفقى: معالم تاريخ الإسلام ص ٧٠.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٣٠٠ وما بعدها.

لتحقيق سياسة عمر بن الخطاب فى إنهاء فتح فارس. وقاد الهرمزان جيشا قويا لمحاربة العرب، واسترداد البلاد التى استولوا عليها، ولكن العرب هزموا الفرس، وأسروا الهرمزان وسيق إلى عمر بن الخطاب فى المدينة المنورة.

أعد يزدجرد ـ ملك الفرس ـ جيوشا قوية لمطادرة العرب، فلما علم بذلك عمر ابن الخطاب، كتب إلى أهل الكوفه يأمرهم بأن يسير ثلثاهم، ويبقى ثلثهم لحفظ بلدهم وديارهم، وبعث من أهل البصرة بعثا، وعهد إلى النعمان بن مقرن المزنى بقيادة جيش المسلمين لمطاردة الفرس وحماية ممتلكات المسلمين، وقال: إن أصبت، فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أصبت فالأمير عبدالله بن جربر البجلى، وانتصر المسلمون على الفرس فى نهاوند سنة ٢٠هـ، واستشهد فى المعركة النعمان بن مقرن. وهذه الموقعة لها أهميتها، فيسميها العرب فتح الفتوح، حيث سقطت على أثرها مدن فارس، المدينة تلو الأخرى. وتم على أثرها فتح الدينور وهمذان وقم وقاشان وأصبهان(١).

هرب يزدجرد من المدائن إلى حلوان ثم إلى أصبهان، ولما علم بفتح المسلمين للمدائن، هرب إلى إصطخر، ومنها إلى كرمان، ثم سجستان، ومنها إلى مرو حيث قتل.

واصل المسلمون فتوحاتهم، ففتحوا الرى وقومس وقزوين وزنجان وأذربيجان والموصل وطبرستان وجرجان وبلاد الديلم وأتم العرب المسلمون فتح خراسان(٢).

على أن بعض البلاد التى فتحها العرب، تطلعت إلى الاستقلال، ورفضت أداء الجزية، وأعلنت الثورة ضد العرب بعد وفاة عمر بن الخطاب سنة ٢٣هـ، فلما ولى عثمان بن عفان أرسل الجيوش لقمع حركات التمرد والاستقلال عن الحكم العربى، وتوطيد أقدام المسلمين فيها، فغزا الوليد بن عقبة بن أبى معيط أذربيجان سنة ٢٥هـ، وأجبر المسلمون أهل أذربيجان إلى الولاء والطاعة لدولة الإسلام. وفى سنة ٣٠هـ سار والى الكوفة، سعيد بن العاص إلى طبرستان، وفتحها رغم مناعتها، وأجبر المسلمون أهل خراسان على الولاء لدولة الإسلام، واستسلمت نيسايور وسرخس ونسا وهراة وبادغيس وبوشنج ومرو. الشاهجان، وفتح الأحنف بن قيس طخارستان والجوزجان والطالقان ومرو الروذ وبلخ والصغانيان. وبذلك سيطر المسلمون على معظم أقطار الإمبراطورية الفارسية. ونضيف إلى ذلك أن بلاد ما وراء النهر تم فتحها فيما بعد فى عهد بنى أمية على أيدى القائد قتيبة بن مسلم الباهلى.

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٣٠٠ ومابعدها.

(٢) المصدر السابق ص ٣١٢.

ومن نتائج الفتوحات الإسلامية لبلاد الإمبراطورية الفارسية المتداعية أن أصبحت هذه البلاد ولايات إسلامية، تتبع الدولة العربية الإسلامية، ودخل أهلها بسرعة فى الإسلام؛ لأن الديانات الوثنية تهتز عادة أمام الإسلام، كما أنهم وجدوا فى الإسلام الدعوة إلى المثل العليا والتحلى بمكارم الأخلاق، وتجنب الرذائل والعدل والخير والإحسان والكرم، فضلا عن حل مشكلة الألوهية، وهى الوحدانية، وحدانية الله، الذى ليس كمثله شيء، وتعلم الفرس - أهل الإمبراطورية المتداعية - اللغة العربية، ودرسوا علوم العرب، واندمجت ثقافتهم مع الثقافة العربية، مكونة ثقافة إسلامية ساهمت فى ازدهار الحضارة الإسلامية(١).

واندمج العرب بالفرس بعد هجرة القبائل العربية إلى بلادهم، ونشأ جيل جديد ومجتمع جديد يجمع بين محاسن العنصرين العربى والفارسى.

وهذه البلاد التى كانت تتبع الإمبراطورية الفارسية القديمة، ستشكل فيما بعد ما يسمى بالمشرق الإسلامى الذى قامت فيه دول قوية مستقلة هى موضوع دراستنا فى هذا الكتاب.

الفرس فى عهد بنى أمية

أطلق الأمويون على الفرس والشعوب التى دخلت فى الإسلام من غير العرب، الموالى. ولكن الأمويين اعتبروا الموالى مواطنين من الدرجة الثانية، فحرموهم من المناصب الرئيسية فى الدولة، ومنعوا عنهم العطاء، ولكن بعض الولاة عرف قدرهم، فزياد بن أبيه، جعل عمال ديوان الإنشاء من الفرس لكفاءتهم ومقدرتهم، وحذا حذوه، ابنه عبيد الله، ونقل معاوية بن أبى سفيان بعض الموالى الفرس إلى أنطاكية وبعض المدن الساحلية بالشام للاستفادة منهم فى إنشاء أسطول بحرى، وركوب البحر والدفاع عن السواحل الشامية من الأخطار الخارجية. ونقل عبيد الله بن زياد عددا كبيرا من أهل بخارى إلى البصرة للانتفاع بهم فى شئون الصناعة والعمارة والبناء.

على أن الموالى الفرس، استاءوا من سوء معاملة الأمويين، فانضموا إلى الحركات المعارضة لبنى أمية، مثل حركة عبدالله بن الزبير وحركة المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى قدرهم، ومنحهم العطاء، مما أدى إلى استياء العرب الذين يعتبرون الفرس فيئا لهم(٢).

---

(١) جمال الدين سرور: الحياة السياسية ص ٤١.

(٢)محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية ص ١٤٤ ، ١٤٥.

اشتد وضع الموالى الفرس سوءا بعد تولية الحجاج بن يوسف الثقفى العراق، لأنه أبقى الجزية على من أسلم، وأبقى ضـريبة الخراج على من أسلم أيضا، لـذلك انضموا إلى الحركات المعارضة لبنى أمية ومنها حـركة عبد الرحمن بن الأشعث الكندى. وسبب هذه الثورة أن الحجاج أرسل عبدالرحمن بن الأشـعث الكندى إلى كابل لإخضاع أميرها رتبـيل الذى رفض دفع الإتاوة المقـررة عليـه، وأمره بمواصلة فـتح سـجسـتـان، وهزم عبدالرحمن بن الأشعث رتبيل سنة ٨٠هـ، ورفض طلب الحـجاج التوغل فى سجستان لوعورتها، وشدة البرد فيها، فاتهـمه الحجاج بالجبن، فاتفق مع رتبيل وتحالف معه على أن يقف كل من الرجلين إلى جـانب صاحـبه ضـد الحجـاج وأطلع جنده على كـتاب الحجاج، فبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة السوء، ودارت عدة حروب بين ابن الأشعث والحجاج بن يوسف الثقفى. وهزم ابن الأشعث فى معركة دير الجماجم سنة ٨٢هـ، ومات سنة ٨٣هـ(١).

وقد تحسنت أحوال الموالى فى عهدى سليمـان بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز فقـد أمر برفع الجزية والخراج عـمن أسلم، ولكن الخلفاء من بعـد عمر بن عبـدالعزيز أعادوا الجزية والخراج عمن أسلم، فاستاء الفـرس والترك من هذه السياسة، وقاموا بعدة ثورات ضد بـنى أمية، وانضـموا إلى كل الحـركات المعـارضـة للحـكم الأمـوى، مثل الشيعة والخوارج، وتحـمسوا للدعوة العباسية، ونمت وترعـرعت فى خراسان، حتى أن أكبر دعاة الدعوة العباسية، كـان أبو مسلم الخراسانى، الذى سيطر على إقليم خراسان، وطرد منه ولاة وعمال بنى أمـية، وسار على رأس جيش كبير من المـوالى الفرس برفقة أبوالعباس السفـاح إلى الكوفة، وأعلن بها قيام الدولة العبـاسية، سنة ١٣٢ق، وتحمس لها الموالى الفرس؛ لأنهـا رفعت شعار المساواة بين العرب والفـرس، وهو الشعار الذى يتمشى مع روح الإسلام «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» - «لا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى»، وبذلك تحقق للفرس أملهم فى المساواة، وحقوق المواطنة على قدم المساواة مع العرب.

الفرس فى العصر العباسى الأول

شغل الفرس المناصب الرئيـسية فى الدولة العباسـية، فكان الوزراء والولاة وقادة الجيوش منهم، ولكنهم أسـاءوا استغلال نفوذهم واعـتماد الخلفاء العباسـيين عليهم فى إدارة شئـون الدولة، وظهر هذا منذ فجـر الدولة العباسيـة، فأبومسلم الخـراسانى الذى

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٨٢، ٨٣هـ.

لعب دورا كبيرا فى إقامة الدولة العباسية، يظهر تعصبه وكراهيته للعرب، ويقتل فى خراسان شيوخ العرب وعلمائهم، وحينما أرسله الخليفة المنصور لإخماد ثورة عمه عبدالله بن على، يقتل العرب، ويترك الفرس، وقد فطن المنصور إلى ذلك وخشى على دولته الناشئة منه، فأمر بقتله، حتى ينفرد بالملك ويضمن استمرار الدولة العباسية.

عبر الفرس عن نواياهم نحو الدولة العباسية منذ قيامها، فحاولوا الانتقام من مقتل أبى مسلم الخراسانى، وانضموا إلى بعض الحركات العلوية أو الشيعية المناهضة للخلافة العباسية. على الرغم من أن الفرس نالوا حقوقهم الكاملة فى المساواة، وارتفع شأنهم فى العصر العباسى، حتى أن المنصور لما أقام مدينة بغداد، جعل أهم أبوابها، باب خراسان أو باب الدولة، لإقبال الدولة العباسية منه، وأوصى ابنه المهدى بالفرس؛ لأن دولة بنى العباس قامت بجهودهم.

حاول الفرس مستغلين نفوذهم فى الدولة العباسية، إعادة مجدهم القديم، فأظهروا نحلهم القديمة فى ثوب إسلامى، ونشأت طائفة المسلمية تطالب بالثأر لمقتل أبى مسلم، وسيطروا على بعض مدن خراسان، واستولى على خزائن أبى مسلم، ولكن الخليفة المنصور نكّل بهذه الطائفة.

كما ثارت طائفة الراوندية ضد المنصور، ونكل بها المنصور سنة ١٥٠هـ وشتت المنصور أيضا شمل طائفة تزعمها أستاذ سيس الذى دان بالمزدكية وتعاليمها، الفوضى والإباحية. ووجد الفرس منفذا لحياتهم الاجتماعية المقيدة أو لمتاعبهم الاقتصادية فى الانضمام إلى هذه الطوائف التى ترفض الملكية الخاصة وملكية النساء، وتدعو إلى الانحلال والعبث.

كذلك ظهر المقنع الخراسانى فى مرو بخراسان، وادعى الألوهية، ومن الطبيعى أن يجد من يؤيده من الجهلاء فى هذه البلاد، وادعى أنه يأخذ بثأر أبى مسلم، وانضم إليه بعض الفرس، الحديثى عهد بالإسلام، ولم يتمكن بعد من قلوبهم، ووجدوا فى اتباعه للديانة المزدكية فرصة للخلاص من القيود الاجتماعية التى يعيشون فى ظلها.

كذلك ظهرت الزندقة بين الفرس، وصدروها إلى العرب فى الدولة العباسية، وهى مذهب من مذاهب الفرس الوثنية، وتبيح التخلص من القيود الدينية، مثل تحريم الخمر، واللهو والعبث. ومن الطبيعى أن تجد هذه المعتقدات الإباحية هوى من بعض شباب العرب، فشربوا الخمر، واستباحوا لأنفسهم غشيان النساء والغلمان ـ مع أن ذلك حرام ـ وعبر عن الزندقة – التى أفسدت الرجال والنساء من العرب ـ بعض الشعراء مثل

بشار بن برد الذى أثار النساء وأفسدهن بغزله المكشوف، كما أن أبا نواس ـ وهو من أصل فارسى ـ تغنى بالخمر وتغزل بالنساء والغلمان. وانتشرت الزندقة بين الشباب من العرب فأفسدتهم، لذلك شكل الخليفة المهدى ديوان الزندقة بهدف ملاحقة الزنادقة والتنكيل بهم. وما زال الخلفاء العباسيون ـ من بعد المهدى يلاحقون الزنادقة حتى قضوا عليهم فى النهاية(١).

كذلك تبنت البابية المخرمية، عقائد فاسدة مثل تناسخ الأرواح واتباع عقائد المزدكية، وهذه الطائفة ظهرت فى عهد الفرس الساسانيين، ولكن أنوشروان ـ ملك فارس – قضى عليهم ثم عادت إلى الظهور فى عهد الخليفة المأمون، وشن عليهم عدة هجمات انتهت بالقضاء عليهم وقتل زعيمهم فى عهد الخليفة المعتصم(٢).

وعلى الرغم من ظهور هذه الحركات الإلحادية فى بلاد فارس، وموقفها العدائى من العرب، إلا أن القائمين بهذه الحركات وأنصارهم كانوا مجموعة من الجهلاء العوام الذين لم يفهموا الإسلام على حقيقته ولا يمثلون الشعب الفارسى، فقد حسن إسلام الكثير من الفرس، وتعلموا اللغة العربية، ودرسوا علوم الإسلام، وتحمسوا لدينهم الذى أنعم الله به عليهم، بل تفقه بعضهم فى علوم الإسلام.

يقول الجاحظ: دولة بنى العباس أعجمية خراسانية، وقال المنصور لأهل خراسان: أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا، وأوصى ولى عهده وابنه المهدى بقوله: أوصيك بأهل خراسان خيرا فإنهم أنصارك وشيعتك، بذلوا أموالهم دونك ودماءهم دونك، فأحسن إليهم، وتجاوز عن مسيئهم، وكافئهم على ما كان منهم.

على أن الفرس طموحون يعملون على إحياء مجدهم القديم ويناصرون الشيعة، ويحاول بعضهم إبراز نحلهم القديمة.

اعتمد العباسيون ـ كما قلنا ـ على الفرس فى إدارة دولتهم، فكان منهم الوزراء ورؤساء وكتاب الدواوين والولاة وقادة الجيوش لذلك تصدى لهم العباسيون، وألحقوا بهم الكثير من النكبات؛ لأن اتجاهاتهم تهدد أمن الدولة وسلامتها.

استوزر المهدى، يعقوب بن داود، وفوض إليه إدارة الدولة، وقدمه على جميع الناس، ولكنه استغل نفوذه فى إضعاف الدولة واعتمد على الشيعة فى إدارة شئون الدولة العباسية، وأطلق سراح المسجونين من الشيعة دون إذن الخليفة، فزجه الخليفة فى السجن.

---

(١) انظر كتابنا الدولة العباسية.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا «الدولة العباسية».

وازداد نفوذ البرامكة فى عـهد الرشيد، لأن يحيى بن خالد البـرمكى، كان مؤدبا أى أستاذا للرشيد، وهو الذى ولى الرشيد الخـلافة بعد أن حاول أخاه الهادى خلعه من ولاية العهد، لذلك فوض الرشيد شئون الدولة كلـها إلى يحيى البرمكى، فاعتمد على ولديه الفضل وجـعفر وعلى الفرس فى إدارة شـئون الدولة، ولم يعد للرشـيد فى هذه الدولة إلا الاسم فقط، ولـما فطن الرشيد إلى ذلك، وعـول على استـرداد نفوذه، نكَّل بالبرامكة، وأدت نكبـة البرامكة إلى ضعف نفـوذ الفرس فى الدولة العباسـية، وازدياد نفوذ العرب.

نشأ فى الدولة العباسية حزبان يتـصارعان السلطة والنفوذ، وهما الحزب العربى، والحزب الفارسى. الحزب الـعربى يترأسه ـ الأمين ـ وأمه زبيده ـ زوج الـرشيد والفضل ابن الربيع، والحزب الفارسى يترأسه المأمـون ـ ولى العهد بعد الأمين ـ ولما ولى الأمين الخلافة، سعى الحزب العربى إلى تقوية نـفوذه وإضعاف نفوذ الفرس، وازداد العداء بين العرب والفرس، وخلع الأمين أخاه من ولاية العهد وكان المأمون فى خراسان فى محيط فارسى، فحرضوه على محاربة أخيـه الأمين، ودارت الحرب فعلا بين الأمين والمأمون، وهى حرب بين حزبين وليست بين أخوين، وانتهت هذه الحـرب بانتصار الفرس بزعامة المأمون على العرب وبزعامة الأمين، وقـتل الأمين. وتولى المأمون الخلافة وبذلك ازداد نفوذ الفرس، وضعف شأن العرب.

على أن الفرس أرادوا أن يستثـمروا انتصارهم على حساب العـرب فعزلوا المأمون فى خراسـان، وأرغمـوه على أخذ البـيعة لأحـد العلويين وهو على الرضـا بن موسى الكاظم حتـى يحققـوا حلمهم فى نقل الخـلافة إلى العلويين، وازداد نفـوذ الفضل بن سهل- وزير المأمون ـ ولما رأى أهل بغداد ما حل بالبـيت العباسى من الضعف والانهيار على أيدى الفرس، عزلوا المأمون من الخلافـة، وأسندوها إلى إبراهيم بن المهدى ولقبوه بالمبارك، غير أن المأمون أفاق من تسلط الفـرس عليه وعلى دولته، فتخلص من الفضل ابن سهل وعلى الرضـا، وعاد إلى بغداد، واستـرد نفوذه بها. غير أن نفـوذ الفرس ظل قويا فى عهده.

ولما ولى المعـتصم الخـلافـة رأى أن سبب ضـعف الدولة العـباسـية هو العـرب والفرس، فتخلى عن العرب والفرس وأضعفهم، واعتمد على الترك. وبذلك لم يحقق الفرس آمالهم فى الـدولة العباسية فـتعرضوا لأنواع الاضطهاد؛ لأنهم تمـكنوا من تحقيق نفوذهم. وعبروا عن ذلك بإقامة الدول المستقلة فى محيطهم الفارسى كما سنرى.

القسم الأول

التطور السياسى فى المشرق الإسلامى

الباب الأول

الدول الفارسية
فى المشرق الإسلامى

المشرق الإسلامى

اتسعت الدولة الإسلامية اتساعا كبيرا وخصوصا فى العصر العباسى، وانقسمت الدولة الإسلامية تبعا لذلك إلى قسمين، مشرق ومغرب، والمغرب يتكون من البلاد التى تقع غرب بغداد مثل بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا (تونس والجزائر ومراكش) ويتكون المشرق من البلاد التى تقع شرق بغداد وتشمل بصفة عامة الإمبراطورية الفارسية القديمة التى آلت إلى العرب المسلمين، وهى على وجه التحديد، فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر وسجستان وأذربيجان وزابلستان وبلاد السند، وتتكلم هذه البلاد اللغة الفارسية ولهجات تركية.

وقامت الدولة العباسية من المشرق؛ ذلك لأن هذه البلاد اعتنق أهلها الإسلام بعد الفتح، ولكن ساءهم معاملة العرب لهم فى العهد الأموى معاملة تتنافى مع روح الإسلام، وهى المساواة بين المسلمين جميعا، عرب وغير عرب «ولافرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى» وأطلقوا عليهم اسم موالى، وحرموهم من الوظائف الرئيسية فى الدولة، لذلك ناهض سكان المشرق الإسلامى الدولة الأموية، وساهموا بدور فعال فى إقامة الدولة العباسية، وقام أبومسلم الخراسانى بدور رئيسى فى نشر الدعوة العباسية، وإقامة دولة العباسيين.

واعترف الخليفة أبوجعفر المنصور بفضل أهل المشرق فى إقامة الدولة العباسية، وعبر عن ذلك بقوله: أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا وأوصى ولى عهده بهم بقوله: وأوصيك بأهل خراسان خيرا فإنهم أنصارك وشيعتك، بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك، وأوصاه بالإحسان إليهم، والتجاوز عن مسيئهم، وأن يكافأهم على ما كان منهم(١). وقال الجاحظ: إن الدولة العباسية أعجمية خراسانية.

وعلى ذلك أصبح للمشرق الإسلامى أهمية كبرى فى تطور الأحداث السياسية فى الدولة العباسية، وأصبح له شخصية متميزة، واتخذ العباسيون وزراءهم وقادتهم من

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨هـ.

المشرق، وضم الجيش العباسى فريقا كبيرا من المشرق، وحينما أسس الخليفة المنصور مدينة بغداد، أطلق على الباب الرئيسى منها، باب خراسان، لإقبال الدولة العباسية منه، وقسم الخليفة هارون الرشيد دولته المترامية الأطراف بين ولديه الأمين والمأمون، اختص الأمين بالمغرب الإسلامى فى الشام ومصر وولايات الشمال الإفريقى، بينما أسند إدارة المشرق الإسلامى إلى ابنه المأمون، كما أن الوزير يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد - أسند إدارة دولته إلى ولديه، الفضل وجعفر، اختص الفضل بالمشرق الإسلامى، وجعفر بالمغرب الإسلامى.

احتفظ أهل المشرق بلغتهم الفارسية، وتطورت مع الزمن واختلطت بالعربية، وتعلموها؛ لأنها لغة القرآن ولغة الدولة وأظهر أهل المشرق الإسلامى مقدرتهم الفكرية، فصنعوا الكتب القيمة فى علوم الدين واللغة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والطب والرياضيات والنجوم وغيرها، وساهموا مساهمة كبيرة فى ازدهار الفكر الإسلامى.

استخدم تعبير المشرق الإسلامى فى المكاتبات الرسمية، وأقوال العلماء، فالمقدسى حينما انتهى من زيارة العراق، واتجه إلى بلاد الإسلام شرقى بغداد، أطلق على البلاد التى زارها - خراسان وبلاد ما وراء النهر وفارس وسجستان - اسم المشرق.

وبعد أن ساهم طاهر بن الحسين بدور رئيسى فى التخلص من الأمين فى صراعه مع أخيه المأمون، كافأه الخليفة المأمون بإسناد ولاية الجزيرة له، فشعر طاهر بن الحسين بالغربة فى تلك البلاد التى تختلف عن المشرق - التى هى بلاده - وما زال بالمأمون حتى ولاه سنة ٢٠٥هـ حكم «بغداد إلى أقصى عمل المشرق»(١).

وكانت مراسم الخلفاء العباسيين للأمراء السامانيين، تتضمن تفويضهم حكم ما وراء النهر إلى أقصى بلاد المشرق(٢). وهناك إشارات كثيرة فى كتب تفويض الخلفاء العباسيين لأمراء ولايات المشرق، تتضمن تفويض الخليفة حكم ما وراء بابه - أى بغداد - من البلاد التى تقام فيها الدعوة فى المشرق.

وظهرت فى المشرق الإسلامى مدن، ساهمت مساهمة كبيرة فى ازدهار الفكر الإسلامى، وكانت مراكز إشعاع حضارى فى الدولة الإسلامية، مثل بخارى وسمرقند

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٠٥ هـ.

(٢) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١١٦.

والرى وأصفهان ونيسابور وغزنة، وكانت مساجدها، جامعات، يفد إليها طلاب العلم من كل فج عميق من ديار الإسلام، وجلس فيها شيوخ العلم للتدريس، وصنفوا المصنفات القيمة فى مختلف فروع العلم.

وقامت فى المشرق الإسلامى دول، ساهمت بنصيب كبير فى ازدهار الحضارة الإسلامية والمحافظة على تراث الإسلام، وتراث الفرس الحضارى.

قامت دول فارسية وتركية فى المشرق الإسلامى، الفارسية هى الدول الطاهرية والصفارية والسامانية والبويهية، والتركية هى الدول الغزنوية والسلجوقية والخوارزمية. ويقع بعض الباحثين فى خطأ شديد، حينما يسمون الدول المستقلة فى الشرق الدويلات المستقلة؛ لأن هذه الدول تمتلك مساحات شاسعة ولها ميزانية كبيرة وجيوش قوية، وأنظمة تشريعية وسياسية تميزها عن غيرها، وتضم أقطارا متعددة، فهى إذن دول مستقلة فى نطاق الدولة الأم، الدولة العباسية.

ظهور الدول المستقلة فى المشرق الإسلامى

ضمت الدولة الإسلامية منذ قيامها، مسلمين من المشرق، ومسلمين من المغرب، وعامل الأمويون - كما قلنا - مسلمى المشرق معاملة الموالى، أى مواطنين من الدرجة الثانية، فلم يقبل الموالى الفرس هذه المعاملة؛ لأنهم أهل حضارة عريقة، ودانوا بالإسلام الذى يدعو إلى المساواة بين الشعوب، وعارضوا بنى أمية، وانضموا إلى الحركات المعارضة لحكمهم، وناصروا الدعوة العباسية التى نمت وترعرعت فى المشرق، وتزعمها أبو مسلم الخراسانى، ورفع العباسيون فى دعوتهم شعار المساواة وتحققت أحلام الفرس فى المساواة بعد قيام الدولة العباسية.

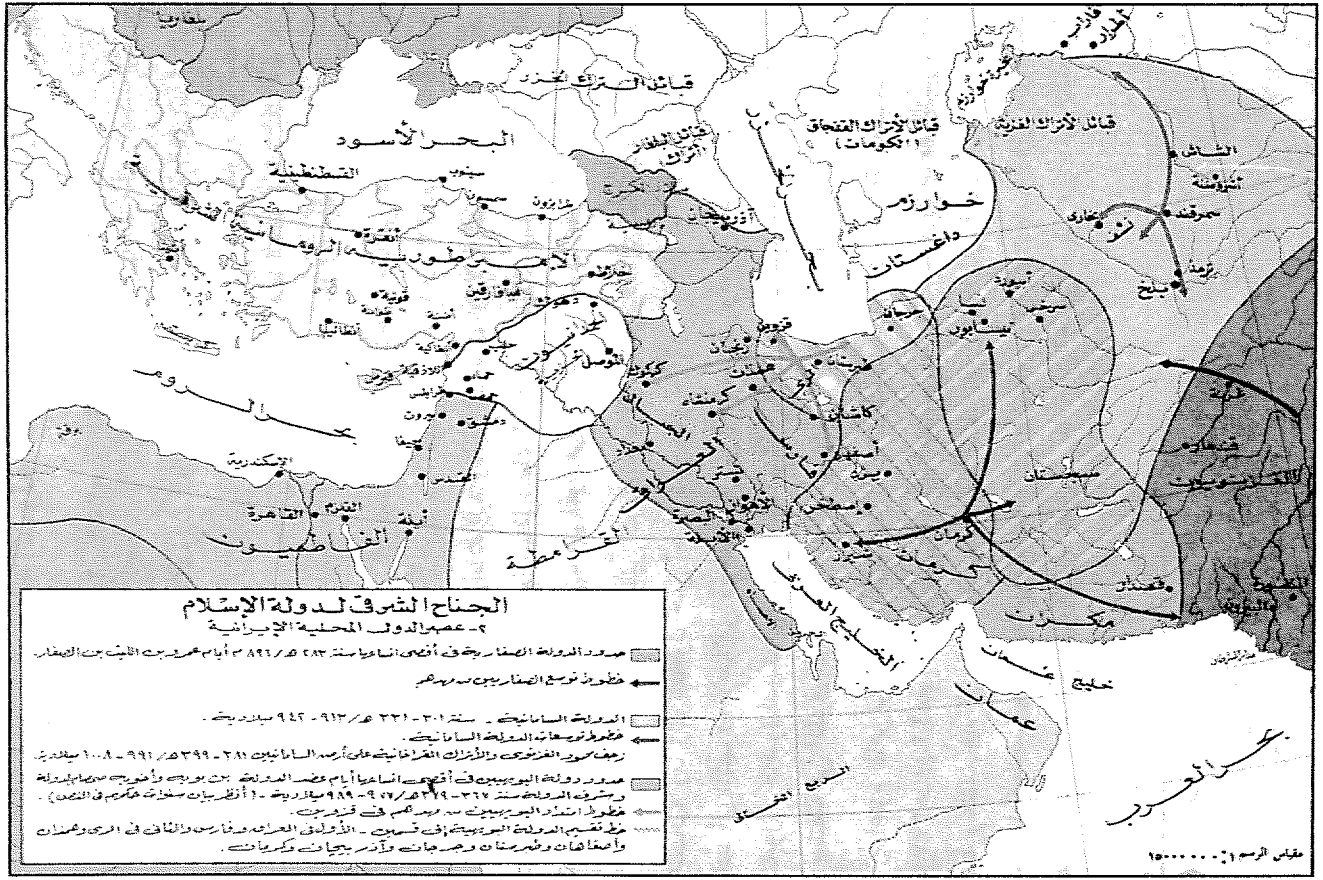
لم يكتف الفرس بما حققوه من مساواة فى ظل الدولة العباسية، ولكنهم استغلوا ما حصلوا عليه من امتيازات، وحاولوا إظهار نحلهم القديمة، والاستبداد بالحكم دون الخلفاء، وناصروا العلويين، وهذا عرضهم لاضطهاد العباسيين فنكب الرشيد البرامكة، وتخلص المأمون من الفضل بن سهل ونكّل العباسيون ببعض وزرائهم الفرس.

لم يقبل العرب ازدياد نفوذ الفرس، فنشأ حزب عربى، تزعمته، زبيدة - زوج الرشيد - والأمين ولى العهد - ونشأ الصراع بين العرب والفرس بعد وفاة الرشيد، انتهى

بمقتل الأمين وانتصار المأمون ـ زعيم الحزب الفارسى ـ وتوليته ـ أى المأمون، الخلافة. وضعف بذلك الحزب العربى.

على أن الحزب الفارسى ضعف كذلك فى عهد المعتصم الذى استعان بالترك، وأبعد العرب والفرس.

وعبر الفرس عن استيائهم بتكوين دول مستقلة فى المشرق فى نطاق الدولة العباسية ـ الأم ـ ومما يسر لهم ذلك ضعف الخلافة العباسية بعد وفاة الخليفة الواثق سنة ٢٣٢هـ ونهاية العصر العباسى الأول ـ عصر الحكم المركزى لكل ولايات الدولة العباسية، وكان الخليفة يجمع فى يديه السلطة والنفوذ على سائر أنحاء الدولة العباسية، وكل أمور ولايات الدولة راجعة إليه، على أن هذه المركزية تغيرت فى العصر العباسى الثانى، حيث أضعف الترك الخلافة العباسية وفقد الحكم المركزى كل مقوماته وصلاحياته، وحلت اللامركزية محل المركزية، حيث حكم حكام الولايات ولاياتهم حكما مستقلا وارتبطوا بالخلافة بروابط اسمية مثل إقامة اسم الخليفة فى الخطبة، ونقشه على العملة، والحصول على تفويض بحكم ولاياتهم. ومن هنا قامت الدول المستقلة فى مشرق دولة الإسلام، ومغربها.


الجناح الشرقي لدولة الإسلام
٢- عصر الدول المحلية الإيرانية
حدود الدولة الصفارية في أقصى اتساعها سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م أيام عمرو بن الليث بن الصفار
خطوط توسع الصفاريين من موطنهم
الدولة السامانية - سنة ٣٠١ - ٣٣١ هـ/ ٩١٣ - ٩٤٢ ميلادية.
خطوط توسعات الدولة السامانية.
زحف محمود الغزنوي والأتراك القراخانية على أرض السامانيين ٣٨١ - ٣٩٩ هـ/ ٩٩١ - ١٠٠٨ ميلادية
حدود دولة البويهيين في أقصى اتساعها أيام عضد الدولة بن بويه وأخويه عماد الدولة وشرف الدولة سنة ٣٦٧ - ٣٧٩ هـ/ ٩٧٧ - ٩٨٩ ميلادية - (أنظر بيانات سنوات حكمهم في النص).
خطوط امتداد البويهيين من موطنهم في قزوين.
خط تقسيم الدولة البويهية إلى قسمين - الأول في العراق وفارس والثاني في الري وهمذان وأصفهان وطبرستان وجرجان وآذربيجان وكرمان.
مقياس الرسم ١: ١٥٠٠٠٠٠٠
البحر الأسود
بحر الروم
بحر العرب
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
الربع الخالي
القسطنطينية
الإمبراطورية الرومانية
قبائل الترك الخزر
قبائل الأتراك القفجاق (الكوماني)
قبائل الأتراك الغزية
خوارزم
داغستان
الفاطميون
القرامطة
القاهرة
الإسكندرية
القدس
دمشق
بيروت
حلب
الموصل
بغداد
البصرة
الأهواز
تستر
همذان
قزوين
زنجان
أصفهان
كاشان
شيراز
كرمان
سجستان
نيسابور
مرو
بلخ
بخارى
سمرقند
الشاش
ترمذ
مكران
قندابيل
غزنة
قندهار

الدول الفارسية فى المشرق الإسلامى

١- الدولة الطاهرية

[٢٠٥ - ٢٥٩هـ/ ٨٢٠ - ٨٧٢م]

أسس طاهر بن الحسين، الدولة الطاهرية - من كبار قواد الدولة العباسية - ولى منطقة بوشنج(١)، حينما بدأ النزاع بين الأمين والمأمون، وقام طاهر بدوره فى محاربة الأمين، طمعا فى المكاسب التى سيحصل عليها من وراء هذا العمل، فاشتبك مع على ابن عيسى - قائد الأمين - وهزمه وقتله(٢) سنة ١٩٥هـ - ٨١٠م.

وتقدم طاهر بن الحسين إلى بغداد، واستولى على ما فى طريقه من البلاد، وحاصر بغداد - والأمين بها، وانتزعها من الأمين سنة ١٩٨هـ-٨١٣م، وكافأه المأمون، بعد أن استقر فى الخلافة، وأسند إليه ولاية الجزيرة، وولاية شرطة بغداد، ورفض المأمون توليته خراسان، حتى لا يستقل بها، إذ أدرك المأمون، مدى ما يتمتع به طاهر ابن الحسين - هذا القائد الفارسى - من نفوذ فى خراسان والمشرق عموما(٣).

على أن طاهر بن الحسين لم يقنع بولاية الجزيرة، إذ كان يطمع فى ولاية خراسان، وما زال بالمأمون حتى أسند إليه سنة ٢٠٥هـ - ٨٢٠م جميع البلاد شرقى بغداد، أى المشرق الإسلامى ووطد طاهر بن الحسين نفوذه فى خراسان، واتخذ من نيسابور - حاضرة لدولته - وعلى ذلك استطاع طاهر بن الحسين أن يؤسس أول إمارة شبه مستقلة فى المشرق الإسلامى(٤).

إعتزم طاهر بن الحسين الاستقلال نهائيا بدولته عن دولة الخلافة العباسية؛ ففى سنة ٢٠٧هـ - ٨٢٢م أسقط اسم الخليفة العباسى من الخطبة، إذ صعد المنبر، وقرأ الخطبة وعندما جاء إلى ذكر اسم الخليفة، أمسك عن الدعاء له وقال: اللهم أصلح أمة محمد ما أصلحت به أولياءك، واكفيها مؤونة من بغى فيها، وحشد عليها، بلم الشعث وحقن الدماء، وإصلاح ذات البين. على أن طاهر بن الحسين توفى فى تلك الليلة.

---

(١) إحدى ضواحى خراسان.

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ٢ ص ٩٣.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٠٨م.

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٠٧هـ.

ترك طاهر بن الحسين وصيته لخليفته ليحدد له السياسة التى يجب أن يتخذها الحاكم المسلم نحو رعيته، وأوصاه بالعدل والإحسان إلى الرعية، والحكم بما أنزل الله والتفقه فى الدين، وإنفاق الأموال فى حقها، وعدم كنز الأموال وإقامة الحدود، وقال فى وصيته: «وأحب أهل الصدق والصلاح وواصل الضعفاء، وصل الرحم، وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى، واملك نفسك عند الغضب، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر، وإذا كانت فى إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم، وكف المؤونة عنهم، نمت وربت وتفقد أمور الجند فى دواوينهم ومكاتبهم[١]......

وكان لهذه الوصية أثرها فى نفوس الناس، فدرسوها وكتبوها، وقدرها الخليفة المأمون، وقال: إن طاهرا لم يترك شيئا من أمور الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ السياسة وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلاقة، إلا وقد أحكمه[٢]، وأمر بأن يُكتب بذلك إلى جميع العمال فى الولايات.

أبقى الخليفة المأمون، الطاهريين فى حكم المشرق الإسلامى، فعهد إلى طلحة بن طاهر، بحكم خراسان بعد أبيه، وخلف عبد الله بن طاهر، أخاه طلحة سنة٢١٣هـ-٨٢٨م، واتسع حتى بلغ الرى وكرمان، علاوة على خراسان، وازداد نفوذه حتى امتد، وشمل المشرق الإسلامى حتى بلاد الهند[٣].

حرص خلفاء طاهر بن الحسين على تحسين علاقاتهم بالخلفاء العباسيين، وراعوا حقوق الدولة فى شئون الحكم والإدارة بل وقفوا إلى جانبهم فى القضاء على حركات التمرد والعصيان التى قامت ضدهم؛ لذلك حرص الخلفاء العباسيون على دعمهم وتأييدهم[٤].

أزال عبدالله بن طاهر فتن الخوارج فى خراسان ولم يتهاون مع حكام الأقاليم الذين ظلموا الرعية، وجمع الفقهاء من العراق وخراسان، وأمرهم بوضع كتاب عن الأرض وملكيتها وأساليب الرى، واستخدام الماء، وألزم أهل دولته باتباع ما جاء فى الكتاب.

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ٢٠٦هـ.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ص ٢١٣.
(٤) الكرديزى: زين الأخبار ص ٢١٨.

وأصدر عبدالله بن طاهر منشورا إلى عماله يحثهم على العدل وتجنب الظلم وقال: «وتساندوا الفلاح الذى صار ضعيفا امنحوه القوة، وأعيدوه إلى ما كان عليه، فإن الله سبحانه وتعالى، جعل الطعام من أيديهم، والسلام من ألسنتهم وحرم الظلم عليهم. . ويجب أن يعطى العلم لأهله ولغير أهله؛ لأن العلم أمنع من أن يثبت مع غير أهله(١). وتوفى عبدالله بن طاهر سنة ٢٣٠هـ(٢).

كان محمد بن طاهر آخر خلفاء الدولة الطاهرية، ولم يكن على شاكلة أسلافه، فقد كان أميرا ماجنا عابثا، فضعف عن إدارة شئون الدولة، وقامت ضده عدة ثورات، عجز عن قمعها، واضطربت البلاد، فاستنجد الناس بيعقوب بن الليث الصفار للقضاء على الفوضى التى شملت بلادهم، فسار يعقوب إلى نيسابور سنة ٢٥٤هـ -٨٦٧م، وقبض على محمد بن طاهر وأفراد أسرته وأهل بيته. وبذلك زالت الدولة الطاهرية.

٭ ٭ ٭

(١) الكرديزى: زين الأخبار ٢١٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٢٥٦ هـ.

٢- الدولة الصفارية

[٢٥٤ - ٢٩٠هـ - ٨٦٧ - ٩٠٣م]

تنسب الدولة الصفارية إلى يعقوب بن الليث الصفار، وكان رجلا مغمورا من قرية من قرى سجستان، تدعى قرنين، وعمل صفارا أى فى طلاء الأسلحة، وإزالة الصدأ عنها، ثم عمل قاطع طريق، وكان شهما جوادا، يجود بكل ما يملك، وكان يرعى حرمة أقربائه، وإذا سرق أحدا، أعاد له بعض ما سرق، وعلت مكانته فى سجستان، وأصبح من أفراد المطوعة، وهى فرق عسكرية تعمل على حماية سجستان، وفارس وكرمان من حالة الفوضى التى تعرضت لها من ثورات الخوارج، وتولى قيادة المطوعة، ومن ثم عظم أمره، حتى أن أهل سجستان استنجدوا به؛ لتخليصهم من الفوضى التى حلت ببلادهم، فسار إليهم يعقوب، ودفع عنهم الضر، ولما رأى أهل سجستان شجاعته وإقدامه، ولّوه قيادتهم[١].

بدأ يعقوب بن الليث بالسيطرة على بست، وطرد واليها نصر بن صالح، ثم استولى على سجستان، وتقدم إلى غزنة، وسيطر على البلاد التى فى طريقه، وخرَّب مدينة غزنة، واستولى على زابلستان، ثم استولى على كابل، وتقدم إلى هراة وبوشنج واستولى عليهما، ثم قصد يعقوب بن الليث نيسابور - حاضرة الطاهريين - وقبض على محمد بن طاهر، واستولى على خزائنه، ونهب أموال الطاهريين، ثم قصد يعقوب فارس والأهواز واستولى عليهما، ودخل شيراز، واستولى على بلخ سنة ٢٥٨هـ ورحل إلى طبرستان وجرجان، وحارب الحسن بن زيد - أمير هذه البلاد، وانتصر عليه، ونهب خزائنه سنة ٢٦٠هـ، وأسر جماعة من العلويين، وأساء إليهم، ودخل آمل فى طبرستان، وهزم الحسن بن زيد مرة أخرى. على أن زلزالا عنيفا حدث فى هذه البلاد، أهلك الكثير من جنده[٢].

اشتد يعقوب فى معاملة أهل البلاد التى استولى عليها ولما شعر يعقوب باستياء الناس منه، واستياء الخليفة من ظلمه تقرب إليه حتى يحصل على تفويض منه بحكم البلاد التى استولى عليها، وأرسل الهدايا إلى الخليفة المعتمد، من بينها هدية عبارة عن مسجد من الفضة الخالصة، يسع خمسة عشر رجلا يصلون فيه، وحمل على عدة

---

(١) الكرديزى: زين الأخبار ص ٢٢٥.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام جـ ٥ ص ١١.

جمال، وكان يحمل إلى الخليفة فى العام خمسة آلاف درهم(١). وعلى أثر ذلك منح الخليفة المعتمد، يعقوب بن الليث تفويضا بحكم خراسان وفارس والرى وطبرستان وجرجان وأذربيجان وكرمان. وبذلك أقام يعقوب بن الليث دولة قوية على أنقاض الدولة الطاهرية.

على أن يعقوب بن الليث لم يكتف بذلك، بل طمع فى العراق وفى بلدان الخلافة، ودارت الحرب بين جيش الخليفة المعتمد وجيش يعقوب بن الليث هُزم فيها الجيش الصفارى فى دير العاقول شر هزيمة، ومن نجا من الصفاريين جُرح وأفرج الخليفة المعتمد عن محمد بن طاهر - الذى كان أسيرا فى جيش الصفاريين. وضعف يعقوب بعد هذه الهزيمة، ومرض فى حاضرة دولته - نيسابور - وتوفى سنة ٢٦٥هـ ٨٧٨م(٢).

استطاع يعقوب بن الليث أن يكفل الأمن والاستقرار لدولته، بعد التدهور والاضطراب الذى عاشت فيه هذه البلاد أواخر أيام الطاهريين، واشتهر باليقظة وحسن التدبير، وكان لا يطلع أحدا على سره ولا يعرف أحدا بتدبيره وعزمه، وأكثر نهاره يقضيه خاليا بنفسه، يفكر فيما يريده، ويظهر غير ما يضمر وكان يحسن اختيار رجاله، وأعد جيوشه أحسن إعداد، واستطاع أن يحافظ على الأمن والنظام فى دولته، ويجبى منها الأموال الكثيرة، حتى عمرت خزينته(٣).

كان يعقوب يجمع المال من مصادراته للأغنياء، ووُجد بعد وفاته أربعة ملايين من الدنانير وخمسين مليونا من الدراهم. وكل متطلبات جنده ودولته من خزانته، فالجند يتسلمون الخيل والعلف من خزانته، وإذا نام يحرسه ألف جندى، اختارهم بصفة خاصة. وله كتيبتان، كتيبة تحمل أعمدة من الذهب، وكتيبة تحمل أعمدة من الفضة، وكان يمتلك خمسة آلاف جمل، وعشرة آلاف حمار.

أقرت الخلافة العباسية عمرو بن الليث خلفا لأخيه يعقوب. وأقرته على فارس وخراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان، وأرسلت إليه العهد ومعه العقد والخلع، واتخذ عمرو بن الليث مع الخلافة العباسية موقفا وديا، فأظهر للخليفة الولاء والطاعة،

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٦٥هـ.

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٧٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٢٨٨.

وبلغ من ثقة الخلافة به أن أسندت إليه ولايـة شرطة بغداد، بالإضافة إلى الولايات التى وليها، وذلك سنة ٢٧٦هـ - ٨٨٩م(١). وبذلك قوى نفوذه وسلطانه.

وضع عمـرو بن الليث نظاما دقيقـا لمراقبة عمـاله وولاته، ورتب موارد الدولة، وعمل على زيادتها، لكن عمرو لم يقنع باتساع رقعة دولته، بل طمع فى ضم المزيد من الأراضى إلى دولته، وطالب الخليفة العباسى بإقراره على حكم بلاد ما وراء النهر، ولم يجد الخليفة العباسى بدا من إقرار عمرو على حكم هذه البلاد، لكن إسماعيل بن أحمد السامانى - أمير بلاد ما وراء النهر - رفض تسليم ولايته إلى عمرو بن الليث، وكتب إليه بحثه على عدم الطمع فى بلاده، وقال له: إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا فى يدى ما وراء النهر، وأنا فى ثغر، واقنع بما فى يدك، واتركنى مقيما فى هذا الثغر. وبذل عمرو ابن الليث محاولات لإقناع الأمير إسماعيل السامانى بالتنازل له عن بلاد ما وراء النهر. ولما فشلت هذه المحاولات، دارت الحـرب بين الأمير السامانى، والأميـر الصفارى سنة ٢٨٨هـ - ٩٠٠م انتهت بهـزيمة عـمرو بن الليث ووقوعـه أسيرا فـى يد غريمه الأمـير إسماعيل السامانى.

وكـانت لهذه الواقـعـة نتائج هامـة فى تطور الأحـداث السيـاسـية فى المشـرق الإسلامى، إذ كانت بداية النهاية للدولة الصفـارية وأمنت الدولة السامانية على حدودها من خطر الصفاريين، بل يسرت للسامانيين مد نفوذهم على ممتلكات الصفاريين.

لما علم الخليفة العباسى المعتضد بهزيمة عمرو بن الليث الصفار سر لذلك، وأشاد بموقف الأميـر إسماعيل السـامانى؛ ذلك لأن ازدياد نفوذ عمـرو بن الليث فى المشرق، يشكل خطرا كبيـرا على أملاك الدولة العباسيـة فى المشرق. ومهما يكن من أمـر، فقد سبق الأمير الصفارى إلى بغداد، وبقى بها حتى وفاته سنة ٢٨٩هـ - ٩٠١م.

ضمت مـيزانية الدولة الصفـارية أموالا كثيـرة، فكان لعمرو بن الليث الصـفار، ثلاث خزائـن، واحدة للسلاح، وثـلاثة للمال، وكانـت الخزائن دائما تـلازمه، الأولى خزينة المال من الـصدقات والجـزية، وتصرف فى رواتب الجند، وخـزينة المال الخاص، تُجمع من الغـلال الذى تنتجه الضـياع، وتصرف فى أوجـه النفقات والمطبخ، والثـالثة

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٨٨.

يجمع مالها من إنتاج الأرض الموات والمصادرات من الذين يمالأون عدوه، وتنفق في الصلات والعطايا للحشم والجواسيس والرسل.

وكان عمرو كثير التفقد لرجاله وجنده، ويأمر لكل منهم بالصلات كل ثلاثة أشهر، ويتحين الفرصة لمصادرة أموال أعدائه وخصومه ومعارضيه(١).

وكان يستعرض جيشه في أول العام، ويتأكد من اهتمام الجندي بزيه ومظهره ونظافة فرسه وعلمه وسلاحه، وكان يتفقد جنده من مكان مرتفع، وينادي العارض على الجند واحدا واحدا، فالجندي الذي يتبع تعاليم حسن المظهر والعناية بسلاحه وفرسه وعدته، يعطيه على قدر رتبته.

ولي طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار حكم الدولة الصفارية بعد موت عمرو بن الليث، وكان غرا صغيرا، نشأ على اللهو والعبث، وغلب عليه سبك السبكري - غلام عمرو بن الليث، ولم يكتف السبكري بذلك، بل قبض على الأمير الصغير، وعلى أخيه يعقوب ٢٩٠هـ - ٩٠٣م، وبعث بهما إلى بغداد، حتى لا يبقى له شريك في الملك(٢).

على أن الأمور لم تصف للسبكري، بعد تخلصه من الأمراء الصفاريين، ففي سنة ٢٩٧هـ - ٩٠٩م سار الليث بن علي بن الليث إلى فارس، وتغلب عليها، وطرد منها السبكري، فاستنجد السبكري بالخليفة المقتدر الذي أمده بالجيش يقوده مؤنس الخادم، أوقع الهزيمة بالليث الصفاري وأسره. على أن السبكري رغم موقف الخلافة المؤيد له، تمرد على الخليفة، وامتنع عن أداء الأموال المقررة عليه الخلافة، فسعت الخلافة إلى التخلص منه، وانتزعت منه فارس، وسار الأمير إسماعيل الساماني إلى سجستان، واستولى عليها، وقبض على سبك السبكري وعلى محمد بن علي بن الليث الصفار، وبعث بهما إلى بغداد ٢٩٧هـ - ٩١٠م ومن ثم زالت الدولة الصفارية.

وصفوة القول أن الدولة الصفارية زالت بسبب جهود الخلافة العباسية المتصلة للقضاء عليها، والهزائم المتكررة التي مُنى بها الصفاريون من أعدائهم السامانيين، فقد

(١) للكرديزي: زين الأخبار ص ٢٢٧.

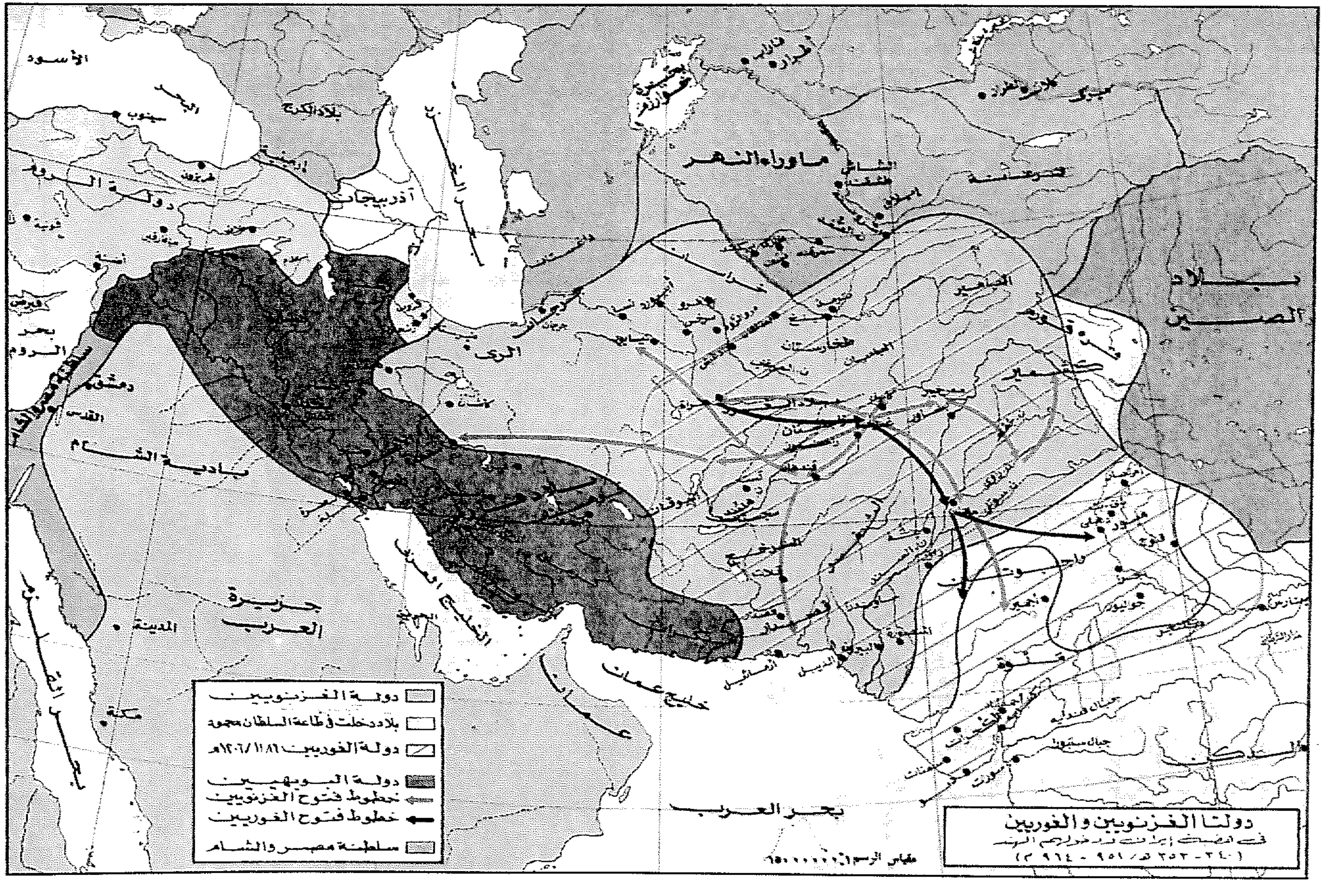
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨.

هُزم عمــرو بن الليث ـ كما رأينا ـ من إسمــاعيل السامــانى، واستولى ابنه على البقــية الباقية من ملك الصــفاريين، وكانت سياسة الصفاريين جامــحة، لا تقف أطماعهم عند حد، قضــوا سنين حكمهم فى الغزو وفــتح البلاد،(١) وإذا اســتولوا على بلد مــا، لا ينتظرون لإقرار الأمور فيها، إنما يواصلون الفتح والغزو. ومن ثم أنهكوا قوى جندهم. ونضــيف إلى ذلك تمرد بعض القــادة على سادتهم، ومــا ترتب على ذلك من ضــعف الدولة وتدهورها.

والدولة الصــفارية معــاصرة للدولة الســامانيــة المجاورة لهــا، ومعاصــرة للدولة الطولونيــة [(٢٥٤هـ ـ ٢٩٢هـ) (٨٦٨ ـ ٩٠٥م)] فى مصــر والشام، ومــعاصــرة لدولة الأغالبــة فى تونس [١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م]، ومــعاصرة لدولــة الأدارسة فى مراكش [١٧٢هـ ـ ٣٧٥هـ ـ ٧٧٨ ـ ٩٨٥م]، ومعاصرة للإمارة الأموية فى الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الثانى حتى أواخر عهد الأمير عبد الله.

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٩٧.



دولتا الغزنويين والغوريين
(٢٤٠ - ٣٥٢هـ / ٩٥١ - ٩٦٤م)
دولة الغزنويين
بلاد دخلت في طاعة السلطان محمود
دولة الغوريين ١١٨١/ ١٢٠٦م
دولة البويهيين
خطوط فتوح الغزنويين
خطوط فتوح الغوريين
سلطنة مصر والشام
ماوراء النهر
بلاد الصين
آذربيجان
دولة الروم
بلاد الكرج
جزيرة العرب
بادية الشام
بحر العرب
خليج عمان
الخليج الفارسي
بحر القلزم
الري
دمشق
القدس
المدينة
مكة

٣- الدولة السامانية

٢٦١ - ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ - ٩٩٩م

أقام السامانيون الفرس دولة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر على أنقاض الدولة الصفارية، والسامانيون، أصحاب نسب عريق، إذ إن جدهم سامان، ينسب إلى بهرام جور، وكان لأسد بن سامان أربعة أبناء هم، نوح وأحمد ويحيى وإلياس، وقد تجلت شجاعتهم فى عهد الخليفة الرشيد، فحينما خرج عليه رافع بن الليث بن نصر بن سيار فى سمرقند، أعان هؤلاء الأبناء الأربعة، الخليفة فى القضاء على ثورة رافع، وهدأ بال الرشيد بعد إخماد ثورة رافع، إذا كان يخشى أن يستولى رافع على سمرقند، وكان رافع قد استولى على سمرقند سنة ١٩٠هـ- ٨٠٥م، وخلع طاعة الرشيد، ودعا إلى نفسه، وانتدب الرشيد، هرثمة بن أعين - نائبه على العراق لمحاربة رافع، وسار الرشيد إليه كذلك، وهزم رافع سنة ١٩٢هـ- ٨٠٧م(١).

لما ولى المأمون الخلافة، عرف منزلة أبناء أسد بن سامان، وقدر إخلاصهم للخلافة العباسية، فولاهم على سمرقند وفرغانة والشاش وهراة، وكان أكبر هؤلاء الأخوة - والى سمرقند، ولما توفى صارت سمرقند لأخيه أحمد بن أسد، وخلفه عليها ابنه نصر سنة ٢٥١هـ - ٨٦٥م، وكان لقوة أواصر الصلة بين السامانيين أثرها فى ازدياد قوة دولتهم، فقد أخذ الهدوء والطمأنينة يسودان بلادهم، بعد أن كانت تقاسى من الاضطرابات(٢).

ازدادت شهرة السامانيين فى البلاد المجاورة، حتى أن بخارى لما اضطربت أمورها، بسبب كثرة الفتن فيها، وتنازع أهلها فيما بينهم، استنجد فريق من أعيانها بالأمير نصر السامانى فى سمرقند، فأرسل إليهم أخاه إسماعيل، وعلى الرغم من الخلافات التى كانت بين أهل بخارى، فقد أحسنوا جميعا استقبال الأمير السامانى، بل نثروا الذهب والعطايا الثمينة بين يدى هذا الأمير، الذى عرفوا عنه الشجاعة وكرم الأخلاق وأقروه واليا عليهم من قبل أخيه الأمير نصر سنة ٢٦٠هـ- ٨٧٤م، وفى نفس السنة أرسل الخليفة العباسى المعتمد منشور ولاية جميع أعمال ما وراء النهر من جيحون إلى أقصى المشرق للأمير نصر وأقام إسماعيل الخطبة فى بخارى لأخيه الأمير نصر،

---

(١) النرشخى فى تاريخ بخارى ص ١٠٥ ، ١٠٦.

(٢) فامبرى: تاريخ بخارى ص ٩٥.

وحذف اسم يعقوب بن الليث من الخطبة. وبذلك آل أمر بخارى إلى السامانيين، بالإضافة إلى سمرقند، بعد أن زال عنهما حكم الصفاريين. ومما زاد فى نفوذ الأمير نصر، اعتراف الخليفة العباسى المعتمد (٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ - ٨٩٢م) بالأمير نصر، إذ أرسل منشورا يقلده حكم بلاد ما وراء النهر، وفوض إليه حكم البلاد الممتدة من شواطئ جيحون حتى أقصى بلاد المشرق(١).

استقرت الأمور فى بخارى بعد أن آلت إلى الدولة السامانية؛ ذلك أن الأمير نصر طهر هذه البلاد من اللصوص وقطاع الطرق وقبض على كبير اللصوص وقتله، وقتل أعوانه وأنصاره الذين زاد خطرهم، واستطار شرهم فى هذه المنطقة التى اضطربت بسبب ضعف الحكم الصفارى، وصد الأمير السامانى الطامعين فى بخارى وسمرقند، فأمن أهل هذه البلاد على أموالهم وأنفسهم(٢).

لم تستمر العلاقات بين الأمير نصر وأخيه إسماعيل على ما كانت عليه من الود والصفاء؛ ذلك أن نصرا فرض على أخيه إسماعيل - والى بخارى من قبله - كل سنة خمسمائة ألف دينار من أموال بخارى، لكن إسماعيل لم يستطع دفع هذا المبلغ بسبب زيادة نفقاته فى الحروب الكثيرة التى خاضها ضد أعدائه الطامعين فى بخارى، فاستاء نصر من أخيه إسماعيل، واعتقد أنه يسعى إلى الاستقلال ببخارى عن دولته الناشئة، فعول على إخضاعه، وسار على رأس جيش كبير، واشتبك الأخوان سنة ٢٧٢هـ-٨٨٥م(٣) فى حرب انتهت بصلح بينهما، بمقتضاه أدى إسماعيل خراج بخارى، وأبقاه نصر فى ولايته. على أن هذا الصلح لم يوضع موضع التنفيذ؛ ذلك أن إسماعيل عاد إلى الامتناع عن دفع الأموال المقررة على بخارى لأخيه نصر، فحارب نصر أخاه إسماعيل لحمله على أداء الأموال المقررة عليه، فهزم إسماعيل أخاه نصر سنة ٢٧٥هـ-٨٨٨م، ووقع نصر أسيرا فى يد أخيه إسماعيل، لكن إسماعيل أحسن إلى أخيه، بل سأله العفو والصفح وقال له إسماعيل: أيها الأمير إنها إرادة الله التى شاءت أن أراك اليوم، وأنت فى الأسر. فرد عليه نصر بقوله: بل هى إرادتك أنت، إذ خرجت على سيدك، وأذنبت بذلك فى حق الله عز وجل، على كل حال أحسن إسماعيل إلى أخيه نصر، وبلغ من حرصه على المحافظة على هيبته أن سيره من فوره إلى حاضرته سمرقند، قبل أن يصلها أبناء الحادث، فلا تتعرض بذلك سمعته فيما وراء النهر إلى شىء من المهانة(٤).

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٩ ص ٥٩٤.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٧٥هـ.

(٣) النرشخى: تاريخ بخارى ص ١١٥ ، ١١٦.

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٧٥هـ.

ولما توفى الأمير نصر سنة ٢٧٩هـ- ٨٩٢م، ذهب الأمير إسماعيل من بخارى إلى سمرقند، وأرسل الخليفة العباسى المعتضد منشورا بولاية إسماعيل بلاد ما وراء النهر سنة ٢٨٠هـ - ٨٩٣م.

ازدادت الدولة السامانية الناشئة قوة فى عهد الأمير إسماعيل، وعلى الرغم من اعتراف الخلافة العباسية بها، إلا أنها كانت تنظر بعين الشك والريبة إلى تلك الدولة الغنية الناشئة التى أخذت تزداد قوة ونفوذا فى المشرق الإسلامى، لذلك اتخذت الدولة العباسية سياسة ذات وجهين، فبينما فوض الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٢م) الأمير إسماعيل حكم بلاد ما وراء النهر تآمر عليه سرا، وأرسل إلى عمرو بن الليث الصفار، يحرضه على التخلص من الأمير السامانى، ولعل الخليفة العباسى كان يهدف من ذلك إلى ضرب خصمين قويين له ببعضهما البعض بقصد إضعافهما أو شغلهما عن الزحف إلى دولته. ومهما تكن النتائج، فإن الخليفة العباسى، هو المستفيد من ورائها؛ لأن الحرب بين الخصمين تضعفهما، أو تضعف واحدا منهما على الأقل. وفى ذلك فائدة - كما قلت - للخلافة العباسية. ومهما يكن من أمر، فقد استمرت الحرب بين الأمير الصفارى والأمير السامانى سنين عددا، انتهت بانتصار إسماعيل، وطارد جند إسماعيل، جند الأمير الصفارى حتى اقتربوا من بلخ، فرأوا عمرا مع خادمين، فقبضوا عليه سنة ٢٨٧هـ - ٩٠٠م، وأكرمه الأمير إسماعيل، وقدم له ماء الورد وتعهد له بعدم قتله، ورد إليه أمواله التى نهبت منه فى المعركة وأمر الخليفة العباسى المعتضد، إسماعيل، بإرسال عمرو إليه، فأذعن إسماعيل إلى أمر الخليفة، وأوصى عمرو إسماعيل برعاية أولاده والإحسان إليهم، وبقى فى سجنه فى بغداد عامين حتى مقتله ٢٨٩هـ- ٩٠٢م(١).

قوى مركز إسماعيل السامانى فى المشرق، بعد أن أرسل إليه الخليفة العباسى، تقليدا بحكم خراسان، وصارت كل البلاد من عقبة حلوان وولاية خراسان وما وراء النهر والتركستان والسند وجرجان تابعة له.

حكم إسماعيل دولته الواسعة بالعدل، وعين على كل بلد أميرا، وكان يراقب أمراءه ويعاقب كل من يظلم الرعية، وكان يطيع الخليفة، ويخلص له.

اتخذ إسماعيل من بخارى حاضرة لدولته(٢) وتوفى سنة ٢٩٥هـ- ٩٠٧م وعمرت ولاية ما وراء النهر فى عهده.

---

(١) الطبرى: المصدر السابق حوادث سنة ٢٨٩هـ.

(٢) النرشخى: المصدر السابق ص ١٢٩.

ولى الأمير أحمد بن إسماعيل الحكم بعد أبيه، وسار سيرة أبيه فى العدل والإحسان إلى الرعية، وقضى على تمرد بعض الولاة، وأحبط محاولاتهم الاستقلالية، غير أنه لم يستطع تخليص طبرستان وبلاد الديلم من الأمير حسن بن على الزيدى - الملقب بالأطروش، فقد تغلب على طبرستان وبلاد الديلم، وهدى الله على يديه الكثير من سكان هذه البلاد - ممن بقى على المجوسية أو الوثنية - إلى الإسلام، ومن ثم التف أهل هذه البلاد حوله، وانتقل بها عن الحكم السامانى(١).

لقب الأمير أحمد بن إسماعيل بالشهيد بعد وفاته وضم سجستان إلى دولته، غير أن ولاية طبرستان وجرجان استقل بها عن الدولة السامانية، الحسين بن العلاء.

كان الأمير أحمد بن إسماعيل محبا للعلماء، وأكثر مجالسته مع العلماء ولهذا نفر منه غلمانه، ونقل لغة البلاد من الفارسية الفصحى إلى العربية، وكان محبا للصيد، ينام فى مخيمه وعلى باب الخيمة أسد يؤذى كل من يحاول اقتحام مخيم الأمير. وفى ليلة من الليالى لم يقف الأسد أمام المخيم لحراسة الأمير، فاقتحم غلمان الأمير المخيم، وقتلوا الأمير سنة ٣٠٠هـ- ٩١٢م(٢)، فحمل الغلمان ابنه نصر - وكان فى الثامنة من عمره - إلى الناس وبايعوه.

ولما ولى نصر بن أحمد حاكم الدولة السامانية بعد أبيه، قتل جميع الغلمان الذين اشتركوا فى مقتل أبيه، ونزل بهراة، وأطال الإقامة فيها، فاشتاق الغلمان إلى الأهل والولد وتوسلوا إليه أن يعيدهم إلى بخارى، وعبَّر الشاعر الرودكى عن مطالبهم بقوله:

اسعدى يا بخارى	وعيشى طويلا
فإن الملك مقبل	ضيفا عليك
الأمير سرو	وبخارى بستان
والسرو يمضى	نحو البستان(٣)
الأمير قمر	وبخارى سماء
والقمر يسرى	إلى السماء

فتأثر الأمير بهذه الأبيات، وعاد وجنده إلى بخارى.

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٩٥هـ.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٠٠هـ.

(٣) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٤٩.

ورق الأمير نصر لأحد أبناء آل الليث حين رآه يعمل عملا بسيطا لا يتناسب مع مكانة أسرته العريقة، فعهد إليه بحكم سجستان وقضى على ثورات عمه وابن عمه فى سمرقند وخراسان، وأحبط محاولات الزيدية الاستقلالية فى طبرستان وبلاد الديلم. وبذلك حافظ على ملك آبائه وأجداده فى بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس وطبرستان وكرمان وجرجان والعراق(١).

وذاع صيت هذا الأمير بفضل انتصاراته الرائعة، واعتمد عليه الخليفة العباسى فى إحباط محاولات الخارجين عليه الاستقلالية. حكم الأمير نصر مدة ثلاثة وثلاثين سنة، وقُتل فى رمضان سنة ٣٣٠هـ- ٩٤١م(٢)، وكان يلقب الأمير السعيد.

لما توفى الأمير نصر، ضعفت الدولة السامانية، حتى أن الأمراء طمعوا فيها، واستقل كل منهم بناحية، فواجه الأمير نوح بن نصر كل هذه الثورات وتصدى لها، فسار إلى نيسابور وقبض على أميرها أبوعلى الأصفهانى، وهزم المتمردين وشتت شملهم، وأسند حكم نيسابور إلى إبراهيم بن سيمجور، كما أن الأمير أبو إسحاق أحمد، سار إلى بخارى، وأظهر العصيان فعاد الأمير نوح بن نصر إلى بخارى، واشتبك مع أبى إسحاق أحمد فى معركة دارت فيها الدائرة على الأمير السامانى، ودخل أبو إسحاق الحاضرة السامانية ظافرا منتصرا سنة ٣٣٥هـ- ٩٤٦م وبايعه جميع أهلها، وقرئت الخطبة فى بخارى باسم أبى إسحاق. على أنه لم ينعم بالحكم طويلا، إذ تمرد عليه جنده، وأعلنوا ولاءهم لأمير البلاد الشرعى - نوح بن نصر، وبذلك فشلت هذه الفتنة، وعاد الأمير نوح إلى حاضرة دولته(٣).

ومن أشد الصعوبات التى واجهت حكم الأمير نوح غزو ركن الدولة البويهى لبلاد الرى، واستيلائه عليها. على أن الجند السامانى بقيادة أبو على طردوه من الرى واستردوها. ثم ثار على سادته السامانيين، واستولى على خراسان، واعترف به الخليفة العباسى. وبذلك انحسر النفوذ السامانى فلم يعد يتجاوز بلاد ما وراء النهر(٤).

ملك الأمير الحميد نوح بن نصر اثنى عشر سنة وتوفى سنة ٣٤٣هـ- ٩٥٤م وقوى فى عهده الأمير التركى ألبتكين.

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٦هـ.

(٢) النرشحى: تاريخ بخارى ص ١٥٠.

(٣) النرشخى: تاريخ بخارى ص ١٥٠.

(٤) فامنبرى: تاريخ بخارى ص ١١٣، ١١٤.

بويع عبدالملك بن نوح بن نصر أميرا بعد وفاة أبيه، وملك أكثر من سبع سنوات، وسقط فى الميدان أثناء عدو حصانه وتوفى على أثر ذلك سنة ٣٥٠هـ-٩٦١م. وفى عهده تولى ألبتكين إمارة بخارى، واتسع ملكه، وزاد نفوذه(١).

وولي الدولة السامانية بعد وفاة الأمير عبدالملك، الأمير السعيد منصور بن عبدالملك، وحكم خمس عشرة سنة، وقد أثر عنه العدل والإنصاف والخيرات، وتوفى سنة ٣٦٦هـ- ٩٧٦م، وكان أبو على محمد بن البلعمى «مترجم تاريخ الطبرى» وزيره(٢).

أخذت الدولة السامانية فى الضعف فى عهد هذا الأمير، ولم يقم بعمل من شأنه المحافظة على وحدة دولته، واستقل البويهيون بأكثر من نصف إيران - وهى بلاد كانت تخضع للسامانيين - كما استقل خلفاء وشمكير بن زياد ببلاد طبرستان وجرجان والديلم، بينما ازدادت الدولة البويهية اتساعا على حساب الدولة السامانية التى ازدادت ضعفا وتدهورا. واضطر السامانيون إلى الارتماء فى أحضان الدولة الغزنوية التى طمعت فى ممتلكاتهم. حتى آل أمر هذه الدولة المتداعية إلى الغزنويين.

زوال الدولة السامانية

ضعفت الدولة السامانية لعدة عوامل، منها الانقسام الشديد بين أمراء البيت الحاكم، وتوليه الإمارة لأطفال لا يدركون أساليب الحكم والإدارة، ومن عوامل ضعف هذه الدولة الثورات التى قام بها أمراء الأقاليم محاولين الاستقلال بولاياتهم، ومن عوامل ضعف هذه الدولة، الاستعانة بالترك فى الجيش وحكم الولايات وشئون الإدارة، والترك من غادتهم كثرة الشغب وإثارة القلاقل والاضطرابات.

على أن أشد ما واجهته الدولة السامانية من متاعب، ازدياد قوة دولة الترك القر خانيين الذين أضعفوا الدولة السامانية، وحاولوا القضاء عليها. ولكن نهاية الدولة السامانية كان على أيدى الدولة الغزنوية الناشئة التى اتسعت على حساب الدولة السامانية، وقضت عليها سنة ٣٩٠هـ - ٩٩٩م.

ويجب أن نشير هنا إلى تحسن أهالى بلاد ما وراء النهر فى العصر السامانى، بسبب ازدهار الصناعة والتجارة والزراعة، واستتباب الأمن والاستقرار النسبى، حتى أن أهل الحرف والصناعات اشتروا الأرض الزراعية من كبار الملاك(٣)، وقد أوضح المقدسى

(١) النرشخى: تاريخ بخارى ١٤٠ - ١٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٥هـ.

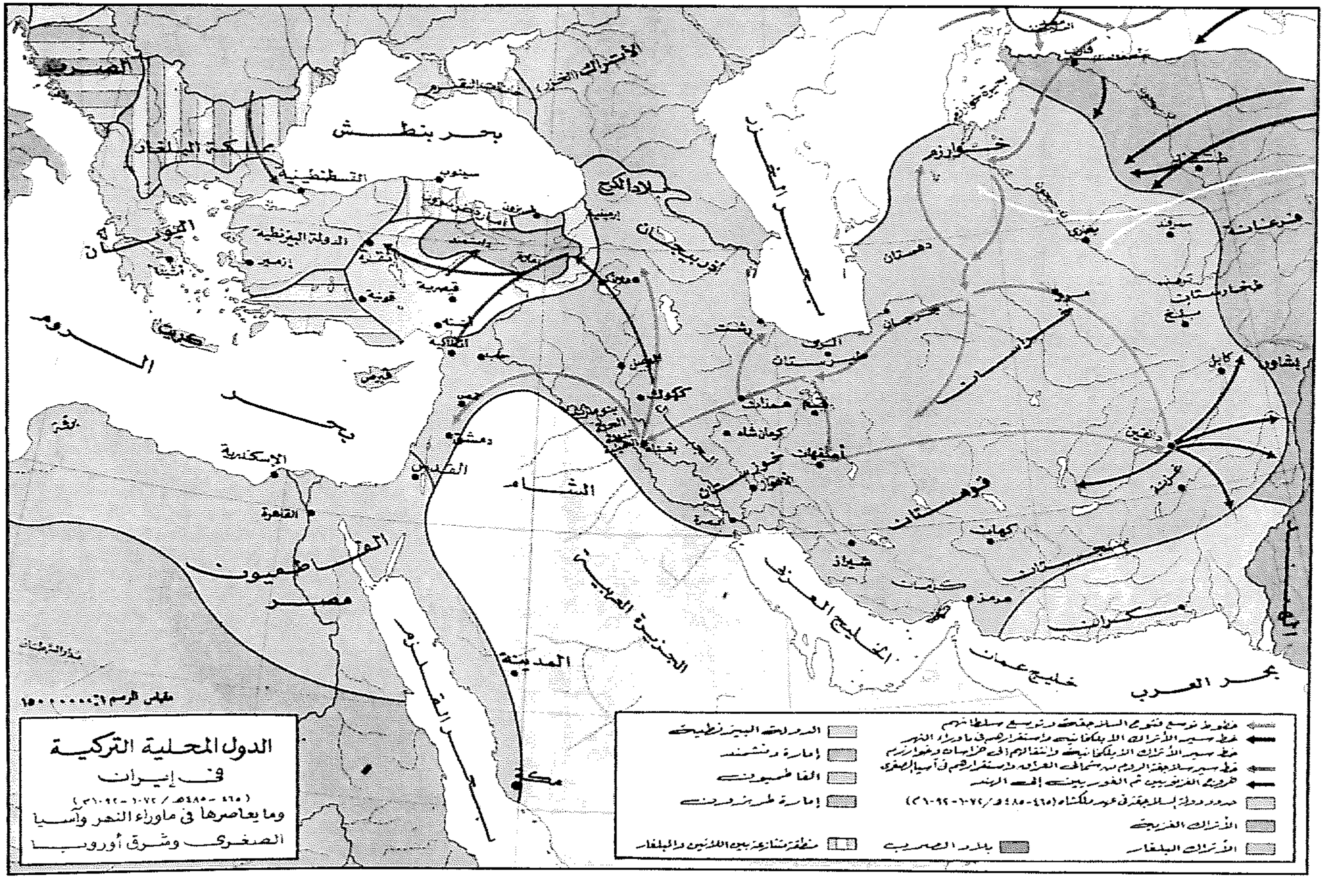
(٣) بارتولد: تركستان ص ٣٦٥.

فى قائمة طويلة المنتجات الزراعية والصناعية والمعدنية لمدن بلاد ما وراء النهر، ونشاط حركة التصدير إلى البلاد الأخرى تبعا لذلك[1].

والدولة السامانية، عاصرت أواخر أيام الدولة الطولونية، ومعظم فترة حكم الدولة الإخشيدية فى مصر والشام، وكذلك الثلاثون سنة الأولى من الحكم الفاطمى لمصر والشام والحجاز واليمن وعاصرت الفترة الأخيرة من حكم الأغالبة فى تونس، وعاصرت دولة بنى زيرى فى المغرب، كما عاصرت الدولة الأموية فى الأندلس، وعاصرت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى. كما عاصرت الدولة العباسية دولة الإسلام الأم ، وعاصرت الدولة البيزنطية المسيحية.

* * *

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥.


الدول المحلية التركية
في إيران
(٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م)
وما يعاصرها في ماوراء النهر وآسيا
الصغرى وشرق أوروبا
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
الدولة البيزنطية
إمارة دانشمند
الفاطميون
إمارة طرابزون
منطقة متنازع عليها بين اللاتين والبلغار
بلاد الصرب
خطوط توسع فتوح السلاجقة وتوسيع سلطانهم
خط سير الأتراك الإيلكخانيين واستقرارهم في ما وراء النهر
خط سير الأتراك الإيلكخانيين وانتقالهم إلى خراسان وخوارزم
خط سير سلاجقة الروم من شمالي العراق واستقرارهم في آسيا الصغرى
فتوح الغزنويين ثم الغوريين إلى الهند
حدود دولة السلاجقة في عهد ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م)
الأتراك الغزية
الأتراك البلغار
بحر بنطش
بحر الروم
بحر الخزر
بحر القلزم
بحر العرب
الخليج العربي
خليج عمان
الجزيرة العربية
الشام
مصر
الفاطميون
القاهرة
الإسكندرية
القدس
دمشق
مكة
المدينة
الدولة البيزنطية
القسطنطينية
مملكة البلغار
خوارزم
خراسان
فرغانة
كابل
بشاور
الهند
مكران
سجستان
قوهستان
خوزستان
أصفهان
همذان
كرمانشاه
كركوك
البصرة
بغداد
شيراز
كرمان
هرمز
طبرستان
دهستان
أذربيجان
بلاد الكرج
سينوب
قبرص
كريت
اليونان
الصرب
الأتراك الخزر
بلخ
غزنة
سمرقند
بخارى

٤- الدولة الزيارية

قامت الدولة الزيارية على أنقاض الدولة الزيدية، وتنسب إلى مرداويج بن زيار، والزياريون ديالمة، وانقسم الديالمة إلى عدة عصبيات، تزعم أقوى هذه العصبيات «مالطان ابن كالحان»، وعصبية الجبل ويتزعمها، أسفاربن شيرويه، وتخلى أسفار عن خدمة الزيدية، بل نكل بهم فى طبرستان، ولكن قادة وجند، أسفار بن شيرويه ساءهم هذا العمل السيئ، فقام قائد أسفار، مرداويج بن زيار بالتخلص من أسفار وسيطر على الديلم، وكون الدولة الزيارية، وتخلص مرداويج من كبار قادة الديلم، ما كان بن كالى، وكون دولة قوية فى طبرستان وجرجان وبلاد الجبل وأصفهان والرى وهمذان ونهاوند، أى إقليم الجبل، والزياريون شيعة، ومع ذلك اعترف الخليفة العباسى بدولتهم، وأرسل إلى ملوكهم العقد والخلع، وحاولت هذه الدولة إحياء الأمجاد الفارسية، واحتضنت الأدباء الفرس، الذين نظموا فى كنفهم إحياء تراث الملوك الساسانيين وتاريخ الدولة الزيارية مختلط بتاريخ الدولة البويهية، وقد تنفس الزياريون الصعداء بهجرة بنى بويه إلى العراق وإيران وانشغالهم بالسيطرة على هذه البلاد.

وظل الزياريون يحكمون بلاد الجبل، حتى قضى على ملكهم السلطان محمود الغزنوى، وضم بلادهم إلى إمبراطوريته، على أنه أى السلطان الغزنوى أبقى على ملوك الزياريين فى حكم بلادهم كنواب عنه.

* * *

٥- الدولة الزيدية فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم

٢٥٠هـ - ٣٦٦هـ / ٨٦٤ - ٩٧٦م

تمهيد:

أطلق العرب اسم طبرستان على «مازندران»، وهى ولاية فى بلاد فارس، وتكتنفها الغابات الكثيفة، وبحر طبرستان من الشمال ومن الجنوب سلسلة جبال البرز، ومن الشرق جرجان. ومن الغرب جيلان ويخترقها عدة نهيرات، والغالب على هذه النواحى الجبال، وأرضها خصبة جيدة المرعى، كثيرة الفاكهة، ونظرا لكثرة غاباتها، فإن أهلها قطعوا الكثير من الأشجار. وعملوا بتصنيع الأخشاب، وهى من أهم الحرف التى يعمل بها السكان، ومن أهم حاصلاتها الزراعية الأرز والكتان والعنب، ويعملون كذلك بصيد الأسماك وطيور الماء، وقد تخرج من أهل هذه البلاد الكثير من رجال العلم والأدب والفقه، ومن أهم مدن طبرستان آمل وسايه وشلوش ووريان، وقد تنقلت عاصمة طبرستان بين سارية وآمل، وظل أهلها يدينون بالمجوسية بعد الفتح الإسلامى حتى حكمها الأمويون(١).

وبلاد طبرستان خصبة منيعة ، وكان ملوك الفرس يولون الحكم زعماء الوراثيين، ويسمى الواحد منهم أسبهبذ، أى رئيس الجند(٢).

أما جرجان فتقع بين طبرستان وخراسان فى جنوب شرق بحر قزوين، أى فى أقصى شمال بلاد الفرس، ويحد جرجان جنوبا إقليم خراسان، وشرقا إقليم خوارزم وغربا بحر قزوين وإقليم طبرستان(٣). ويعتبر هذا الإقليم من مناطق الديلم عاصمته مدينة جرجان، وقد قيل أن من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة، وبرز منها الكثير من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين، ومن أهم مصنوعاتها الإبريسم وثياب الإبريسم تصدره إلى جميع البلدان، وجرجان على واد عظيم، ويزرع بها الزيتون والجوز والرمان وقصب السكر، وبها عدة أنواع من الأحجار الكريمة.

والجزء الجنوبى من جيلان يسمى بلاد الديلم، ويسكنها قبيلة تعرف أيضا بالديلم، ويحده من الشمال جيلان نفسها، ومن الشرق طبرستان، ومن الغرب أذربيجان

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ ٦ ص ١٧ .

(٢) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٤١٧ .

(٣) ياقوت: معجم البلدان جـ ٦ ص ١٧ .

وبلاد الرافـدين، ومن الجنوب نواحى قزوين، وجـزء من الرى، وكان الديلم وثنـيين، ومن ثم تعرضوا لغارات النخاسـين وظلوا على هذه الحال حتى دخلوا فى الإسلام على أيدى الأئمة العلويين(١).

ظهور الإسلام فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم:

بدأ الفتح الإسلامى لطبرستان وجرجان فى عـهد عثمان بن عفان، وكان أول من غزاهم من العرب سـعيد بن العاص - والى الكوفـة فى عهد عثمـان بن عفان، إذ شن على هذه البلاد حملة اشترك فيها بعض الصحابة الأجلاء، ويؤكد البلاذرى(٢)، اشتراك الحسن والحـسين فى هذه الحملة، على حين يذكـر الطبرى(٣) روايتين، تؤكـد إحداهما اشتراكـهما ورواية لا تذكرهمـا، ومهما يكن من أمر فـقد فتح سعيـد بن العاص بعض بلدان طبرستان واستولى على سهل طبرستان والرويان دنباوند(٤).

ثم سار سعيد إلى جرجان فى مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان والموالى والمتطوعة، وابتدأ بقهستان فحاصرها، وكان أهلها من الترك، وشدد عليهم الحصار حتى طلبوا الأمان، فعقد معهم صلحا واسـتولى على المدينة وغنم المسلمون منهم مغانم كثيرة ثم خرج منهـا إلى جرجان، واسـتقـبله أهلها بالصلح، وأطاعوه وهـابوه وصالح ملك جرجان على مائتى ألف درهم(٥) على أن الفتح الإسلامى لطبرستـان وجرجان فى عهد الراشدين لم يكن مستقرا، فكانت تؤدى للعرب الإتاوة تارة ولا تؤديها تارة أخرى.

ولما ولى معاوية بن أبى سفـيان الخلافة اعتزم إقرار الحكم الإسلامى غـير المستقر فى بلاد طبرستان وجرجان، فأرسل حملة بقيادة مصقلة بن هبيرة على رأس جيش عدته عشرة آلاف مقاتل وقيل عشرون ألفا، ولكن هذا الجيش أصيب بهزيمة ساحقة، إذ هلك مصقلة فى ممرات طبرستان، هو والجزء الكبير من جيشه؛ ذلك أن أهلها أهالوا الصخور على المسلمين فـمزقوا شر ممزق. على أن هزيمـة مصقلة لم تضعف عزيمـة المسلمين، فعـملوا على تحقيق هدفـهم الرامى إلى فتح هذه البلاد وإخـضاعهـا لسلطانهم، فأرسل عبدالله بن زياد والى الكوفة مـحمد بن الأشعث بن قيس الكندى إلى طبرستـان، فعقد مع أهلها صلحـا، ولكنهم خدعوه، فلما تم الصلح، وأوغل هو وجـيشه فى بلادهم،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) البلاذرى فتوح البلدان ص ٣٤٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٣٠هـ.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٢هـ.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث ٣٠هـ.

انقضوا على القوات الإسلامية وألحقوا بهم الهزيمة[1] وبذلك تكرر فشل العرب فى فتح هذه البلاد.

ولما ولى سليمان بن عبدالملك الخلافة، أرسل يزيد بن المهلب لغزو طبرستان من جديد واستعادتها، واستطاع يزيد أن ينجح فى مهمته، ويعقد صلحا مع الأصبهيذ بمقتضاه يؤدى جزية للمسلمين قدرها أربعة ملايين وسبعمائة ألف درهم، وأن يبعث بأربعين حمل حمار من الزعفران وأربعمائة رجل يحمل كل منهم ترسا وكأسا من الفضة، وقدرا من الحرير واستخلف عليها واليا، وضع الجزية والخراج على أهلها، وصالح يزيد الرويان ودنباوند على مال وثياب وآنية، ثم مضى إلى جرجان ـ وكانت قد أعلنت العصيان ـ فدخل المسلمون البلدة واستخلف يزيد عليها واليا ففرض على أهلها الجزية والخراج[2].

ظل أهل طبرستان وجرجان يلتزمون بشروط الصلح أحيانا، ويمتنعون عن تنفيذه أحيانا أخرى، فيحاربون ويسالمون، ولما ولى مروان بن محمد الخلافة نقضوا الصلح وأعلنوا العصيان منتهزين فرصة الاضطرابات التى سادت الدولة الأموية فى أواخر أيامها[3].

ولما قبض العباسيون على زمام الأمور لم يتغاضوا عن انفصال طبرستان وجرجان عن الدولة العربية الإسلامية، فوجه الخليفة المنصور إلى هذه البلاد حملة بقيادة خازن بن زيد التميمى، وبذل هذا القائد جهودا مضنية حتى استولى على هذه البلاد، وتغلب على كل مقاومة اعترضت طريقه[4] وفتح محمد بن موسى بن حفص بن عمر بن العلاء جبال شروين من طبرستان، وهى جبال صعبة المسالك كثيرة الفيافى وذلك فى خلافة المأمون والمعتصم[5].

على أن الحكم الإسلامى فى طبرستان وجرجان لم يقدر له الاستقرار رغم المحاولات المتكررة التى بذلت بعد أن آلت إلى حكم الطاهريين، إذ أتموا فتحها، وتغلبوا على كل مقاومة اعترضتهم فى السهل والجبل، وتولاها عبد الله بن طاهر، وطاهر بن عبد الله[6].

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٣٠هـ.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان جـ ٣٤٤.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٣٤٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٩٨هـ.

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٨ ص ٣٩٦.

(٦) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٣٤٦.

نشأة الزيدية

الشيعة حزب نشأ بعد وفاة عثمان بن عفان، وقد التفوا حول على بن أبى طالب وناصروه، وبايعوه بالخلافة على اعتبار أنه أحق بها، وقد ازداد نفوذهم، وانتعشوا بتولية على بن أبى طالب الخلافة، واتخاذه الكوفة حاضرة للدولة العربية الإسلامية، ولم ينته هذا الحزب بوفاة على بل ظل قائما يناصر ويشايع آل على وطالب ببقاء الخلافة وراثية فى ذريته، واعترضوا على تولية أحد من غير أفراد آل بيت رسول الله الخلافة، ولقد استاءوا كثيرا من الصلح الذى عقد بين الحسن بن على ومعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١هـ والذى بمقتضاه تنازل الحسن عن حقه فى الخلافة لمعاوية، لذلك اعترضوا على تولية بنى أمية الخلافة واعتبروهم مغتصبين لها من أصحابها الشرعيين(١)، وأصبحت خطة الشيعة بعد نزول الحسين بن على عن الخلافة لمعاوية تدعو إلى الإمام من آل بيت رسول الله، والانتظار حتى يأمر هذا الإمام، الذى اتخذ المدينة دار إقامة ـ بالخروج لاستعادة سلطانهم الضائع(٢).

ازداد نشاط الشيعة فى العراق طوال الحكم الأموى، وقاموا بعدة ثورات ضد الخلفاء الأمويين حتى ولى هشام بن عبدالملك الخلافة، فعهد بحكم العراق إلى خالد بن عبدالله القسرى، فاتبع سياسة حكيمة مع الشيعة، فكان يحسن وفادة من يفد عليه من بنى هاشم، وكان لهذه السياسة أثرها فى التزام الشيعة جانب الهدوء والسكينة. على أن هذا الحال لم يدم طويلا. فقد خلف يوسف الثقفى، خالد القسرى وانتهج سياسة مع الشيعة تخالف سياسة سلفه فأساء معاملتهم، وتتبعهم، وزج بكل من شك فى نواياه فى السجن(٣).

وأبرز من تعرض لبطش هذا الوالى، زيد بن على زين العابدين بن على بن أبى طالب، وكان زيد من عظماء أهل البيت علما وزهدا وورعا وشجاعة ودينا وكرما، وكان دائما يحدث نفسه بالخلافة، ويرى أنه أهل لذلك «وما زال هذا المعنى يتردد فى نفسه، ويظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه»(٤)، وقد أثنى عليه كبار معاصريه فقال

(١) فلهوزن: الخوارج والشيعة ص ١٤٧ ، ١٤٨.

(٢) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية ص ١٣٢.

(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٠ ، ١١١.

(٤) المصدر السابق ص ١١٨.

عنه الشعبى: وما رأيت أفضل ولا أفقه ولا أشجع من زيد، وقال عنه أبو حنيفة: ما رأيت فى زمانه أفقه ولا أعلم ولا أبرع جوابا، ولا أبين قولا، لقد كان منقطع القرين وكان يقال له حليف القرآن [1].

حامت الشكوك حول زيد وهو بالمدينة المنورة، فقصد يوسف بن عمر إحراجه، وحاول إثارة خلافات بينه وبين بعض أفراد أسرته ، وكما ادعى عليه ادعاءات غير صحيحة، فاتهمه بأنه أخذ جائزة من خالد بن عبدالله القسرى، وابتاع أرضا له[2] ـ أى القسرى - بالمدينة بعشرة آلاف دينار، ثم أخذ الجائزة، ورد الأرض عليه[3] فاستدعى الخليفة الأموى هشام بن عبدالملك، زيدا إلى الشام، وسأله عن الجائزة فاعترف بها، وأنكر ما سوى ذلك وهو الأرض ـ وحلف لهشام، ثم حدث نقاش حاد بينه وبين هشام، وقال هشام: قد بلغنى أنك تطلب الخلافة وتتمناها، ولست أهلا لها وأنت ابن أمة فغضب زيد وقال للخليفة: ليس أحد أولى بالله ولا أرفع عنده منزلة من نبى ابتعثه وقد كان إسماعيل ابن أمة لأم أخيه، فاختاره الله عليه، وأخرج منه خير البشر، واستاء هشام من هذا الجواب المقنع وأزمع زيد الخروج على حكمهم، ودعوة أنصاره للالتفاف حوله، وانتزاع حقه فى الحكم من الأمويين، فلما توجه إلى المدينة، تبعه أهل الكوفة، وقالوا له أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك، وليس عندنا من بنى أمية إلا نفر قليل، ولو أن قبيلة منا صمدت لهم لكفتهم بإذن الله، وما زالوا به حتى قال لهم: «يا قوم، إنى أخاف غدركم فإنكم فعلتم بجدى الحسين ما فعلتم»، وأبى عليهم، فقالوا: نناشدك الله إلا ما رجعت، إلا ونحن نبذل أنفسنا دونك، ونعطيك من الإيمان والعهود والمواثيق ما تثق به ـ فإنا نرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية، فلم يزالوا به حتى ردوه، فلما رجع إلى الكوفة، أقبلت الشيعة تختلف إليه، يبايعونه حتى بلغ عدد أنصاره خمسة عشر ألفا من أهل الكوفة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان والجزيرة[4].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج٢ ص ٤٣٨ ـ ٤٤٠.

(٢) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٩٧.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٢هـ.

(٤) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٩٧.

تعهد أهل الكوفة بالولاء والطاعة للإمام زيد ونصرته حتى الموت وبايعوه وكانت بيعته: إنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسمة هذا الفيء بين أهله، ورد المظالم، وأفعال الخير ونصرة أهل البيت، وكان يعاهد من يبايعه بأن يشترك معه فى قتال العدو، وينصح له فى السر والعلانية(١). ولما اكتمل لزيد وخفقت الألوية على رأسه، قال الحمد لله الذى أكمل لى دينى، والله إنى كنت أستحى من رسول الله أن أرد عليه الحق غدا ولم آمر فى أمته بمعروف ولم أنه عن المنكر(٢).

لما علم يوسف بن عمر – والى العراق – بأن زيد بن على يدعو لنفسه فى الكوفة، أمر عامله عليها بتتبعه، والقضاء على حركته، والقبض عليه، ولكنه وجد صعوبات بالغة فى مهمته وذلك أن زيدا كان يقيم (٣) فى الكوفة فى بيوت متعددة، ولا يعلم بتحركاته إلا أنصاره المقربون إليه.

لكن أهل الكوفة نكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم للإمام زيد، فاجتمع به بعض كبار أعوانه، وسألوه عن رأيه فى أبى بكر وعمر فقال زيد: يرحمهما الله، وغفر لهما، وما سمعت أحدا من أهل بيتى يتبرأ منهما، ولا يقول فيهما إلا خيرا – قالوا: تطلب إذن بدم أهل البيت؟ فكان جواب زيد: رحمهما الله، وغفر لهما، وما سمعت أحدا من أهل بيتى يتبرأ منهما، ولم يبلغ ذلك عندنا بهما كفرا (٤).

اعتقد أنصار زيد حينما استمعوا إلى هذا الجواب بأنه خارج على آراء الشيعة التى ترى أن خلافة كل من أبى بكر، وعمر بن الخطاب غير شرعية، ولذا نكثوا بيعته، وسموا رافضة، وقال عنهم زيد: الرافضة حربى وحرب أبى فى الدنيا والآخرة، مردت الروافض علينا كما مردت الخوارج على على عليه السلام (٥).

لم يبق مع زيد من أهل الكوفة سوى مائتى وثمانية عشر رجلا، كما أن أهل الكوفة كانوا يفتقرون إلى وحدة الصف وكانوا فرقا تناهض الدولة والحكم الأموى، بل كان منهم فريق من الخوارج ولا يمكن قبول الرواية التى تقول: إن أنصار زيد قد التفوا

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ص ١٦٢.

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٨.

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٢هـ.

(٤) المسعودى : مروج الذهب ص ١٦٢.

(٥) ابن الأثير الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٢٢هـ.

حول أخيه محمد الباقر لأنه أحق بالإمامة بل إن زيدا كان يشك في نوايا أهل الكوفة، وقال لهم: إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدي (كما) أن زيدا لم يتجه إلى الكوفة إلا بعد أن استدعاه أهلها.

على كل حال اشتبك زيد بن علي بجنده القليل مع جند يوسف بن عمر في شوارع الكوفة عدة أيام، وانتصر في بعض المعارك، ولكن الدائرة في النهاية دارت عليه(١).

على أن نهاية حياة زيد بن علي لم تنه آراءه، وأفكاره بل ظل صداها يتردد في العالم الإسلامي حتى يومنا هذا، وتجد استجابة لدى كثير من المسلمين، فنشأت طائفة الزيدية التي تتخذ من تعاليمه وأقواله وأحاديثه وفتاويه واتجاهاته الدينية مذهبا يلتزمون بما يشتمل عليه، ولقد بدأ هذا المذهب في الانتشار أولا بواسطة تلاميذه الذين هم من الدرجة الأولى وأصحابه ومريدوه، وهؤلاء التلاميذ نقلوا فقه زيد في الأقاليم الإسلامية لأنهم لم يستطيعوا البقاء في المكان الذي تركهم فيه حين استشهاده، حتى لا يتعرضوا للأذى والاضطهاد من الأمويين، لقد كان فرار هؤلاء التلاميذ الى البلاد الإسلامية المختلفة سببا في نشر الآراء الزيدية، كما أن الأئمة من آل البيت حملوا أمانة ذلك المذهب واجتهدوا فيه وتفرقوا أيضا في الأقاليم وكان له فيها أنصار وأتباع، وانتقلوا في الأمصار الإسلامية فرارا من بطش بني أمية، وهم في تنقلهم ينشرون المذهب ويفقهون فيه، وبذلك انتشرت آراء الإمام زيد في البقاع الإسلامية كلها.

كان زيد بن علي فقيها راوية للحديث، التقى بواصل بن عطاء وأخذ منه آراءه في الاعتزال في البصرة التي كانت مركزا للفرق الإسلامية، حتى أن مذهب المعتزلة في الجملة مذهب الزيدية، ومن أصول مذهب الاعتزال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزيدية تعتمد - كما يرى الشيعة - بانفراد أبناء علي بعلم ضروري من غير تعلم، كما كانوا يعولون على علم مكتوم يأخذه بعضهم عن بعض، وهم يتعللون بالتقية أي بضرورة المداراة ومن مذهبهم الأذان بـ «حي على خير العمل» يعارضون التصوف، ومذهب الزيدية في الفقه يعتبر مذهبا خامسا بعد المذاهب الأربعة، والشروط التي يجب أن تتوافر في الإمام أن يكون من أولاد فاطمة سواء كان من أبناء الحسن أو من أبناء الحسين، وواجب الإمام أن يخرج داعيا لنفسه شاهرا سيفه، كما أجاز هذا المذهب وجود إمامين في قطرين من الفواطم.

---

(١) أبو زهرة الإمام زيد ص ١٩٥.

والإمام زيد اعتبر الإمامة، إقامة لمصلحة عامة، وأن الذى بويع بها معروف بالوصف لا بالشخص، وأنه يطاع الأفضل، وتجوز إمامة المفضول ولذلك رفضوا فكرة الإمام المستور، أو ما يسمى بالمهدى المنتظر؛ لأن الإمام يجب أن يخرج داعيا لنفسه شاهرا سيفه(١).

والزيدية ترى أن الإمام يجب أن يكون واسع العلم، وقد طبق الزيدية هذا المبدأ فنلاحظ أئمتهم كانوا علماء ويتضح ذلك من مؤلفاتهم الكثيرة.

وتقول الزيدية بأنه قد يوجد زمان من غير إمام، ومن هنا كانت سلسلة الإمامة متصلة عبر التاريخ.

ومن هنا يتضح لنا أن الإمام زيد كان أول أهل البيت الذى يحمل فكرا ومذهبا انتهج لنفسه سبيلا فى الدعوة وخاصة فى كل المسائل الدينية التى خاض فيه علماء عصره وطاف بالبلاد الإسلامية واختلط بالفرق الشيعية، وتعرف على آرائها ورد على المنحرف منها وأبدى لهم آراءه وتعاليمه، ودون الفقه المروى من عمل آل البيت فلا غرو أن يلتف حول هذا الإمام رجال العلم والفقه، ولما تخلى عنه أهل الكوفة بقى الفقهاء والقراء والمحدثون وأهل التقى يقاتلون الى جانبه، حتى انتهت المعركة(٢) ولذلك وصفت ثورة الإمام زيد بأنها ثورة فقهاء.

والإمامية الزيدية من أكثر فرق الشيعة تساهلا وأقربها إلى السنة، فأتباعها لا يكفرون أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب والصحابة(٣)، وحينما سأل أصحاب زيد عن رأيه فى أبى بكر وعمر كما سبق أن أشرنا قال: لا أقول فيهما إلاخيرا، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرا وخرجت على بنى أمية الذين قاتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بالمنجنيق والنار، فمذهب الزيدية لا يكفر الشيخين، وإنما يرى أن عليا كان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقهم بالأمر (٤).

على أن الزيدية انقسمت فرقا ، وقالت طائفة أن الصحابة ظلموا على بن أبى طالب وهم الجارودية، وقالت أخرى: إن الصحابة لم يظلموه، لكن نفسه طابت بتسليم حقه إلى أبى بكر وعمر، إنهما إماما هدى، ووقفت بعضهم فى عثمان، وتولاه

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٢١٠.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢٥هـ.

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٥ ، ٢٦.

(٤) الشهرستانى: الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٢ ص ٩٢.

بعضهم. وجميع الزيدية لا يختلفون فى أن الإمامة من جميع ولد على، من خرج منهم يدعو إلى الكتاب والسنة وجب سل السيوف معه، وأوجبوا سل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك(١) ولا يجوز الصلاة خلف الفاسق لأن الله يتقبل من المتقين(٢).

وقد رويت بعض المقتطفات التى نسبت إلى زيد بن على، وتتضمن تفسيرا لبعض آيات القرآن الكريم، ومسألتى الإمامة والحج، وتشمل بصفة عامة مجملا كاملا للفقه، وتعرض لمسائل فى الدين والشريعة. ويرجع السبب إلى ما فيها من تناقض إلى أن الأئمة الذين خلفوا الإمام زيد قد أفاضوا إليها بعض آرائهم، وحذفوا آراء تتعارض مع اتجاهاتهم، وانقسمت الزيدية فرقا كل فرقة لها معتقداتها التى تختلف عن الفرقة الأخرى.

لم تنته الحركة التى قام بها زيد بن على زين العابدين فى الكوفة للتخلص من الحكم الأموى بوفاته، فظل فريق من أتباعه - الذين عرفوا بالزيدية - موالين له، فعمد رجل من بنى أسد إلى يحيى بن زيد، قال له: قد قتل أبوك، وأهل خراسان لكم شيعة، فالرأى أن تخرج إليها وطلب من عبدالملك بن بشر بن مروان أن يستضيفه حتى يكف الطلب عنه فإذا سكن الطلب خرج فى نفر من الزيدية إلى خراسان.

ظل يحيى بن زيد مقيما فى خراسان حتى وفاة هشام بن عبدالملك. وقد التف حوله الزيدية، وبايعوه إماما، على أن الخليفة الأموى يزيد بن الوليد، أمر نصر بن سيار - والى خراسان - بتتبع يحيى بن زيد، وقمع حركته، فأرسل فرقة من جيشه اشتبكت معه ومع أنصاره فى معركة أسفرت عن مقتله سنة ١٢٥هـ(٣).

لما قامت الدولة العباسية عارضها العلويون أيضا، واعتبروا العباسيين مغتصبين الخلافة منهم كما كان الحال بالنسبة للأمويين، ومن ثم قامت ثورات ضد الحكم العباسى منذ بدايته فثار محمد بن عبدالله بن الحسن الملقب بذى النفس الزكية، ضد المنصور، وثار أخوه إبراهيم أيضا وقد أحبط الخليفة المنصور المحاولتين، وأمعن فى التنكيل بالعلويين ففر كثير منهم إلى الأطراف النائية فى الدولة الإسلامية، فمثلا إدريس بن

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٢.
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٧١.
(٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٧٦.

عبدالله العلوى بعد موقعة فخ فر إلى المغرب الأقصى واستطاع أن يقيم الدعوة العلوية هناك، ويؤسس دولة الأدارسة(١).

وفر أخوه يحيى بن عبدالله إلى المشرق سنة١٧٦هـ، ونزل بلاد الديلم واشتدت شوكته، وقوى أمره، ونزح إليه الناس من الأمصار والكور، وأسقط ذلك فى يد الخليفة الرشيد(٢)، ورأى أن هذه الحركة تهدد دولته، وعول على ضرورة قمعها، فسير إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى خمسين ألف مقاتل(٣) ومعه صناديد القواد، وولاة الكور والجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان، وحملت الأموال، فرأى الفضل أخذ يحيى باللين، بدلا من الحرب، فكتب إليه يستميله، وناشده وخيره، وأشار عليه. وبسط أمله، وأرسل إليه والى الديلم مالا، وطلب منه أن يقنع يحيى بالسير إليه(٤) وما زال بيحيى حتى أجابه إلى الصلح، ووافق على أن يعود معه إلى بغداد بشرط أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه على نسخة يبعث بها إليه، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد، فسره، وعظم موقعه عنده، وكتب أمانا إلى يحيى بن عبدالله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم(٥) ووصل الأمان إلى الإمام العلوى، فقدم يحيى إلى الفضل، وسار معه إلى بغداد، وقدم إلى الرشيد فأحسن وفادته، وأمر له بمال كثير، وأجرى له أرزاقا سنية، وأنزله فى دار يليق به، ولكن الرشيد لم يلبث أن توجس منه خيفة، فزجه فى السجن، ولم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل(٦).

على أن ظهور الإمام العلوى فى بلاد الديلم والتفاف الناس حوله ترك انطباعا عند أهلها على الرغم من قصر إقامته بينهم - فأقبلوا على التشيع، وتحمسوا لأهل البيت، وتطلعوا إلى اليوم الذى تتحقق فيه ما تصبو إليه نفوسهم، وهو اليوم الذى يحكمهم فيه إمام من آل بيت رسول الله -، لذلك التفوا حول الطائفة الزيدية التى انتشرت فى هذه البلاد فرارا من بطش العباسيين، وبدأ الإسلام ينتشر فى هذه البلاد على أيديهم، فلا غرو أن ينتشر الإسلام فى هذه البلاد على مذهب الطائفة الزيدية بصفة خاصة، وهذا هو ما حدث أيضا فى طبرستان وجرجان، فقد انتشر الإسلام فيها

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ١٢٥هـ.

(٢) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٠٥.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث ١٧٦هـ.

(٤) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ٣١٢ ، ٣١٣.

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٧٦هـ.

(٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٥٠هـ.

قبل بلاد الديلم، وجهود الزيود ـ الذين لجأوا إلى هذه البلاد ـ أثمرت فيها، إذ اعتنق أهلها المذهب الزيدى(١).

على أن نفوذ الزيدية قد ازداد بصورة واضحة فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم فى النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى، حيث ظهر بالكوفة يحيى بن عمر بن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب وأعلن الثورة ضد بنى العباس الذين أساءوا معاملته، وانضم إليه حشد كبير من الأعراب، وجماعة من أهل الكوفة، ودخل يحيى الكوفة فى عدد من الفرسان وسار إلى بيت مالها وأخذ ما فيه، وفتح السجون وأخرج من فيها، ثم خرج من الكوفة إلى سوادها وتبعه جماعة الزيدية، غير أن الوالى العباسى، اشتبك معه وهزمه، وأوقع العباسيون بمن سار معه من أهل تلك القرى، ولكن يحيى لم يستسلم للهزيمة، فعاد إلى الكوفة وقوى أمره، وعظم بأسه بها بمن انضم إليه من الزيدية، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وعظم جمعه، ومن بايعه فى الكوفة جماعة لهم بصائر وتدبير على تشيعهم، وأقام يحيى على الكوفة، يعد العدة يتأهب للقتال وعلى الرغم من ذلك هزمته القوات العباسية فى المعركة التى نشبت بين الفريقين، وقُتل، وحُملت رأسه إلى الخليفة العباسى(٢).

على أن هذه الثورة ـ على الرغم من فشلها ـ كان لها رد فعل عنيف فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم؛ ذلك أن الناس فى هذه البلاد قد ساءهم إقدام محمد بن عبدالله ابن طاهر على قتل الإمام الزيدى، بل عولوا على الانتقام، فثاروا على رجال محمد بن عبدالله بن طاهر فى هذه البلاد ـ التى كان الخليفة العباسى قد أقطعه إياها ـ وطردوا عماله من بلادهم، لكن عمال الطاهريين لم يذعنوا لثورات أهالى هذه البلاد، بل أغاروا على بلاد الديلم وقتلوا وسلبوا(٣)، فاستنكر أهل طبرستان هذا العمل العدائى على الديلم ـ الذين هم فى موادعة معهم ـ فعقدوا العزم مع الديلم على التحالف والتعاون والتآزر على حرب سليمان بن عبدالله الوالى الطاهرى على بلادهم، واتجهوا

(١) المسعودى: مروج الذهب ص ٢٤٨.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٥٧هـ.
(٣) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ٤١٠، ٤١١.

إلى رجل من العلويين فى طبرستان يقال له محمد بن إبراهيم، يدعونه إلى أن يتقبل مبايعتهم له أميرا عليهم، ولكنه رفض وقال: إننى أدلكم على رجل منا وهو أقيم، ودلهم على منزل الحسن بن زيد - ومسكنه بالرى - فوجه القوم إلى الرى رسالة إلى الحسن بن زيد يدعونه إلى التوجه إلى بلادهم، ليلى حكمهم، ويرفع الظلم والجور عنهم - الذى لحق بهم من بنى طاهر - فوافق الحسن بن زيد، ولقيت هذه الدعوة ترحيبا منه[1] وخصوصا أنها جاءت معبرة عما تطلع إليه الأئمة منذ وقت طويل حول تحقيق غايتهم، وحلمهم المنشود فى تولى حكم البلاد - على حسب ما يرونه - وهو أن حكم المسلمين يجب أن ينحصر فى آل بيت رسول الله[2].

على كل حال توجه الحسن بن زيد إلى طبرستان، وأجمع طبرستان وبلاد الديلم أمرهم على مبايعة الإمام الزيدى، والالتفاف حوله، وقتال الوالى الطاهرى سليمان بن عبدالله فطردوا عماله من بلادهم، وساروا بقيادة إمامهم الحسين بن زيد فى هذه البلاد ودخل وأنصاره من أهل هذه النواحى آمل، واشتبكوا مع الجند الطاهرى هناك، وأوقعوا بهم الهزيمة، ودخلوا آمل، وأجمع الناس على مبايعة الإمام الزيدى، وتقلد حكم هذه البلاد، وكان عليه أن يقضى على كل محاولة تعترضه من جانب الجند الطاهرى، فسار إلى سارية؛ سليمان بن عبدالله، واشتبك معه فى معركة ضارية، انتصر فيها على أعدائه الطاهريين، وفر سليمان وقواته، واستولى الحسن الزيدى على سارية وبذلك آلت طبرستان كلها إلى الإمام الزيدى، وأصبح حاكمها وإمامها[3].

لم يكتف الحسن بن زيد بحكم طبرستان، بل عول على الاستيلاء على الرى فأرسل فرقة من جيشه وأسند قيادتها إلى رجل من أهل بيته، وتمكنت هذه الفرقة من طرد عمال الطاهريين، واستخلف بها رجلا من العلويين يقال له محمد بن جعفر. وبذلك اتسعت الدولة الزيدية الجديدة، وضمت طبرستان والرى[4].

(١) الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٥٧هـ.
(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٥٧هـ.
(٣) المسعودى: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٩٠.
(٤) الطبرى تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٥٧هـ.

على أن محمد بن جعفر لم يلق حكمه تأييدا من أهل الرى بل استاءوا منه، فاستعان بعض أهلها بمحمد بن طاهر بن عبد الله فأرسل إليها قائدا من قبله لاستعادتها يقال له محمد بن ميكال، فالتقى مع محمد بن جعفر فى معركة خارج الرى، انتصر فيها القائد الطاهرى على القائد العلوى، ودخل الرى. على أن الحسن بن زيد لم يتغاض عن الهزيمة التى لحقت بقواته، وانفصال الرى عن دولته، بل أرسل جيشا إلى الرى انتزعها واستردها من محمد بن ميكال. وبذلك عادت الرى إلى حوزة الأمير العلوى.

وفى الوقت الذى كانت فيه الدولة الزيدية الجديدة تزداد قوة بفضل مساندة أهالى طبرستان، والديلم للإمام الزيدى، كانت الدولة الطاهرية تسير فى طريق التدهور والانحلال وكانت الخلافة العباسية مشغولة عن هذا كله بثورة الزنج فى العراق والأهواز، لذلك عجزت الخلافة أو شغلت عن القضاء على الدولة الزيدية الجديدة.

وكان الإمام الزيدى على علم بهذا كله لذا وجد الفرصة سانحة لتوسيع رقعة دولته، ففى سنة ٢٥٧هـ قصد الحسن بن زيد جرجان واستولى عليها، ولما بلغ ابن طاهر - أمير خراسان - اعتزام الحسن قصد جرجان، جمع العساكر، وأعد العدة، وسار إلى جرجان للحيلولة بين الحسن وبين الاستيلاء عليها، لكن الطاهرى فشل فى تحقيق غرضه، وامتلك الحسن جرجان، وقتل كثيرا من الجند الطاهرى، وغنم مغانم كثيرة. وبذلك انضمت جرجان إلى الدولة الزيدية[١].

وكان محمد بن طاهر - آخر حكام الدولة الطاهرية - أميرا ماجنا، يميل إلى اللهو والعبث، فضعف أمره كحاكم، وعجز عن إخضاع الثورات التى قامت ضده، ولما ازدادت الاضطرابات فى كل الدولة الطاهرية - استنجد أهل خراسان بيعقوب بن الليث الصفار لإعادة الأمن والطمأنينة إلى بلادهم، فوجد الأمير الصفارى الفرصة مواتية لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية المتداعية فزحف بجيشه إلى نيسابور سنة ٢٥٩هـ، وقبض على محمد بن طاهر، وعلى أهل بيته وبذلك زالت الدولة الطاهرية[٢]، وولى يعقوب بن الليث بلاد المشرق.

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٥٧هـ.

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٤١.

لم يكتف يعقوب بحكم سجستان بل عول على مد نفوذه إلى البلاد المجاورة، فطمع فى طبرستان، وزحف بجيشه إليها، بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين الإمام حسن ابن زيد، لأنه آوى بعض أعدائه، ومضى إلى الديلم، ودخل يعقوب سارية وآمل وجبى من أهلها خراج سنة، ثم سار فى طلب الحسن، لكن الحسن آوى إلى بعض الجبال المنيعة فى طبرستان، فلم يتمكن يعقوب منه، وفشل يعقوب بن الليث فى القضاء على الدولة الزيدية بسبب صعوبة مسالكها، وخرجت من هذه المحنة قوية ظافرة(١).

وتوفى الحسن بن زيد سنة ٢٧٢هـ بعد أن حكم دولته أكثر من تسعة عشر عاما، بذل خلالها ما يبذله عادة مؤسسو الدولة من جهد فى توطيد وبناء صرح دولته - والذود عنها ضد الأعداء ومحاولة توسيع رقعتها وتقوية شأنها. وكان الإمام حسن عالما بالفقه(٢).

ولى محمد بن زيد حكم الدولة الزيدية خلفا لأخيه الحسن، وواجه صعوبات عديدة تهدف إلى النيل من دولته، ففى سنة ٢٧٢هـ انتزع ادكوتكين الرى من محمد بن زيد فعول الإمام العلوى على استردادها، وسار فى جمع كبير إلى الرى، واشتبك مع ادكوتكين فى معركة دارت فيها الدائرة عليه، وتشتت شمل قواته، ومزقوا شر ممزق، فقد محمد بن زيد الكثير من الأموال والمعدات فى المعركة ودخل ادكوتكين الرى، وأخذ من أهلها أموالا طائلة، وولى حكمها، وبذلك فقدت الدولة الزيدية إقليم الرى(٣).

كذلك تعرضت الدولة الزيدية لمؤامرات أخرى أضعفت من شأنه، ففى سنة ٢٧٦هـ سار رافع بن هرثمة إلى جرجان، وأزال عنها حكم محمد بن زيد، وسار محمد إلى استراباد فحاصره فيها رافع، وأقام فيها نحو سنتين، فارتفعت الأسعار، وندر وجود المواد الغذائية بها، فعم القحط، وساءت أحوال الناس، لذلك غادرها محمد بن زيد متخذا من الليل جملا، وغادرها إلى سارية، وسارت قوات رافع فى أثره، فأسرع محمد بن زيد إلى بلاد الديلم، فتعقبه رافع، ودخل أرض الديلم، وفر منها محمد بن زيد. وبذلك فقدت الدولة الزيدية بعض ممتلكاتها، وضعف أمرها(٤).

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٧٢هـ.
(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٨٧هـ.
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٨٧هـ.
(٤) المصدر السابق.

وفى غضـون ذلك ارتفع شأن الدولة السامـانية، وأضعـفوا من أمر الصـفاريين، واعترف الخليفة العباسى المعتمد بالأمير نصر حاكما على بلاد ما وراء النهر، وفوض إليه حكم البلاد الممتدة من شواطئ جيحون حتى أقصى بلاد الشرق(١).

أخذت الدولة السامانية تزداد قوة ونفـوذا فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية وانتصر الأمير السامانى على عمرو بن الليث الصفار، وضعف أمر الدولة الصفارية سنة ٢٨٨هـ (٢). وتطلع إسماعيل إلى ضم طبرستـان إلى حوزته، فجذب إليه رؤساء الديلم بالأموال والهبـات فانحاز فريق منهم إليه. وكـان إسماعيل قد أثاره كـثرة الغارات التى كانت تشنها قوات الإمـام محمد بن زيد على دولته، فاشتبك فى حـرب معه، وانتصر عليه وضم طبرستان إلى حوزته بعد معركة رهيبة خر فيها الإمام العلوى صريعا(٣).

انتهت الدولة الزيدية فى طبرسـتان وجرجان وبلاد الديلم بمقتل مـحمد بن زيد، ولكن ظلت الدعوة الزيدية منتشرة بين أهل هذه البلاد، وآمـن بها كثيرون، وأقام بينهم الحـسن بن على الملقب بالأطروش نحـو ثلاث عشـرة سنة بعد مـقتل مـحمـد بن زيد يدعوهم إلـى الإسلام، ويؤدون له العشـر وأسلم من أهل هذه البلاد كـثيـرون بعد أن هداهم الله إلى الإسلام. وأقام الأطروش فى بلادهم مساجد يذكر فيها اسم الله وكانت بلاد الديلم تخضع ـ كـما ذكرنا ـ للحكم السـامانى وكان السامـانيون يستمـيلون إليهم رؤساء الديلم بالمنح والهبات، ثم قطعوها عنهم، فاستاء الديلم من آل سامان.

وانتـهز الحسـن بن على الأطروش الفرصـة، فحـرض أهل الديلم على التـمرد والعصيـان على الحكم السامانى، وفعـلا أعلنوا الانفصال عن الدولة السـامانية، ونادوا بالأطروش أميرا عليهم وبذلك بُعثت الدولة الزيدية من جديد فى بلاد الديلم(٤).

عول الأطروش على توسيع رقعة دولته الجديدة، فـهاجم طبرستان. واشتبك مع واليهـا السامانى فى معـركة هزمه فيـها وقتل من أصـحابه كثيـرين، وامتلك الأطروش طبرستان(٥). وأعطى لأهلها أمانا على أنفسـهم وأموالهم سنة ٣٠١هـ؛ وبذلك اتسعت الدولة الزيدية فى عهد الأطروش، فشملت طبرستان وجرجان وبلاد الديلم.

(١) النرشخى: تاريخ بخارى ص ١٢٠ ـ ١٢٢.
(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٨٧هـ.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٠١هـ.
(٥) المسعودى: مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٤٩.

والأطروش يلقب بالناصر الكبير، ولم يكن مؤسس دولة فقط، بل صاحب دعوة، بذل فى نشرها جهودا مضنية، فقد نشر الإسلام - كما ذكرنا - وحرص على نشر الفقه الزيدى بين أهالى دولته؛ لذلك يعتبر الناصر الأطروش محيى المذهب الزيدى من الركود بعد توالى الاضطهاد واستشهاد الكثير من آل بيت رسول الله. وفى ذلك يقول الشهرستانى: لم ينتظم أمر الزيدية، حتى ظهر بخراسان الناصر الأطروش، فطلب مكانه ليقتل، فاختفى، واعتزل إلى بلاد الديلم والجبل، وهم لم يتحلوا بدين الإسلام، فدعا الناس إلى الإسلام على مذهب زيد بن على فدانوا به ونشأوا عليه وبقيت الزيدية فى تلك البلاد، و كان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ويلى أمرهم(١).

ولقد أدى الأطروش مهمته فى أرض بكر لم تعرف الفرق ولا المذاهب المختلفة، وكان الناصر رجل سياسة وعلم فقيها، وكان ذا فهم ومعرفة بالآراء والنحل حتى قيل: إنه عالم آل محمد، ومن أفقههم بالسنة وعلم آل البيت وأقوال وآراء السلف الصالح، وفقهه يعتمد على الآراء والنصوص وكان له فرقة مستقلة تدعى بالناصرية. ويرجع إليه الفضل فى إحياء المذهب الزيدى فى بلاد طبرستان وجرجان والديلم.

ولما توفى الحسن الأطروش ظلت الإمامة فى أولاده وأصهاره حتى سنة ٣١٦هـ حيث انقسم الديلم إلى عصبيتين، عصبية الجبل الممثلة فى اسفارين شرويه، وعصبية الديلم الممثلة فى ماكان بن كالى. وكل طائفة من الناس تجتمع حسب عصبتها، وحول رئيسها الذى تتبعه، ومن التزامات هذا الرئيس أن يجد لجنده مجالا للحرب يرتزقون منه، ولذلك كان بعضهم يخرج على الدولة سعيا وراء مصالح جنده، فأسفار ابن شرويه ترك خدمة الإمام الزيدى وانضم إلى السامانيين، ثم عاد مرة أخرى إلى طبرستان وأساء معاملة الأمراء الزيدية، كما أساء إلى جميع العلويين الذين كانوا موجودين بطبرستان، بل جمع الأمراء العلويين سنة ٣١٦هـ فى آمل وقتلهم، وسير من بقى فى هذه البلاد إلى آل سامان فى بلاد ما وراء النهر. على أن أتباعه استاءوا من فعله، وتزعم مرداويج ابن زيار الديلمى مؤامرة تخلص منه وقتله، وأقام دولة علوية هناك لا إمام لها، بل اعترف بسيادة الخليفة العباسى السنى على بلاده، وظل المذهب الزيدى سائدا بين أهلها(٢).

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٣١١.

(٢) أبو زهرة : الإمام زيد ص ٤٩٩.

٦- الدولة البويهية

[٣٢٠ـ ٤٤٠هـ/ ٩٣٢ ـ ١٠٤٨م]

ومن العناصر الفارسية التى سيطرت على المشرق الإسلامى، بنو بويه، كانوا جنودا مغامرين من بلاد الديلم، ينسبون إلى بهرام جور ـ أحد ملوك الفرس ـ والتحقوا بجيش ما كان بن كالى الديلمى، واستطاعوا بفضل مقدرتهم الحربية وشجاعتهم وكفاءتهم أن يصلوا إلى مركز مرموق فى جيشه، ولما هزم مرداويج بن زيار، ما كان بن كالى، انتقلوا إلى خدمة مرداويج، الذى لم يلبث أن خشى بأس بنى بويه وأطماعهم، فسار على بن بويه إلى أرجان ـ إحدى كورفارس ـ واحتلها سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م(١)، ثم امتلك شيراز فى العام التالى، وتمكن أحمد بن بويه من احتلال كرمان ولما قُتل مرداويج ٣٣٣هـ-٩٤٤م لم يستطع أخوه وخليفته وشريكه الاستيلاء على بلاد الجبل، فسقطت أيضا فى أيدى البويهيين. وظل أحمد بن بويه، يتقدم ناحية الغرب، بينما سيطر أخوه على، على فارس(٢)، وحكم أخوه حسن بلاد الجبل سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م .

دخل أحمد بن بويه مدينه بغداد، فأسند إليه الخليفة المستكفى منصب أمير الأمراء، ولقبه بلقب معز الدولة، ولقب عليا، عماد الدولة ولقب حسن، ركن الدولة . (٣)

عمل الأمراء البويهيون على إضعاف الخلفاء العباسيين، فلم تمض إلا أسابيع قليلة، على دخول معز الدولة بغداد، حتى سمل عينى الخليفة وعزله؛ لأنه اتهمه بالاستعانة بالحمدانيين لطرده من بغداد، وولى ابنه المقتدر، ولقبه المطيع(٤)، وأصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة فى أيدى البويهيين.

لما توفى معز الدولة ٣٥٦هـ-٩٦٧م خلفه ولده عز الدولة بختيار فى حكم كرمان وخوزستان والعراق، ولم يستطع هذا الأمير السيطرة على جنده، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة بن عماد الدولة، فانتهز الفرصة، واستولى على أملاك فخر الدولة بختيار وتمكن عضد الدولة بذلك من توحيد أملاك بنى بويه تحت سيطرته .

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ١ ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) مسكويه: تجارب الأمم ٢٩٦، ٣٠٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٧٢هـ.

(٤) مسكويه: تجارب الأمم ص ٣٧٦ ومايليها.

تولى عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة حكم فارس سنة ٣٣٨هـ-٩٥٠م، وبقى فى الملك أربعة وثلاثين عاما، وهو من أقدر ملوك بنى بويه وأعظمهم شأنا فكان خلاصة تلك الدولة، وزبدة هؤلاء القوم(١).

اتسعت المملكة البويهية فى عهد عضد الدولة، وانتزع طبرستان وجرجان من صاحبها قابوس بن وشمكير، وحليفه فخر الدولة وتصدى بقوة لجيوشهما، ولما سأل الوزير الصاحب إسماعيل بن عباد عن قوة الجيش المضاد، قيل له: إن به فيلة وليس فيه شيوخ، فقال الصاحب: إننى أخاف الشيوخ ذوى الآراء الحصيفة، ولكن لا أخاف من الفيلة الضارية، فيمكن تمزيق جيش برأى حصيف، ولكن لا يمكن قتل أكثر من عشرة بسيف بتار(٢).

حكم عضد الدولة دولته بالعدل، وله إصلاحات كثيرة فى مجال الرى والعمارة، إذ أقام سواقى فارس لتيسير وصول المياه إلى الأراضى الزراعية على مدار السنة، وأسس بيمارستانا فى بغداد، وسورا فى المدينة المنورة، وشيد مدينة قبلى شيراز تسمى سوق الأمير، وأسس قصرا فخما فى بغداد، لم تشهد بغداد أفخم منه، وأجرى الأوقاف على البيمارستان، وبلغت الدولة البويهية فى عهده أوج ازدهارها وعظمتها(٣).

استولى عضد الدولة على العراق وأملاك الحمدانيين فى الموصل وأعمالها سنة ٣٦٧هـ واستولى على ميافارقين وآمد وغيرهما من ديار بكر، واستولى على أملاك أخيه فخر الدولة سنة ٣٦٩هـ.

لما ازدادت قوة عضد الدولة، خشى أفراد أسرته بأسه فتحالفوا مع أعدائه ضده، ذلك أن بختيار بن معز الدولة كان يكاتب ابن عمه فخر الدولة، بعد موت ركن الدولة، ويدعوه إلى التحالف معه ومحاربة عضد الدولة، فدعا عضد الدولة أخويه فخر الدولة ومؤيد الدولة وحليفهما قابوس بن وشمكير ودعاهما إلى المسالمة والموادعة، فلم يجد استجابة إلى الصلح، فأرسل عضد الدولة جيوشه إلى همذان والرى وأعمالهما، وتم الاستيلاء على كل هذه البلاد، وما يجاورها من حصون، ولكن عضد الدولة عاد إلى الموصل بعد أن باغته مرض الصرع، وضعف الذاكرة وكثرة النسيان. على أن جند عضد

(١) تاريخ كزيده ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق ص ٧٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٩هـ.

الدولة استولوا على شهرزور(١) وهزموا بنى شيبان، وتخلصوا من شرورهم وأعمالهم التخريبية وقصد جند عضد الدولة قلاع الهكارية، وانتزعوها من أصحابها الأكراد، على أن الصاحب إسماعيل بن عباد وزير أخيه مؤيد الدولة استطاع التوسط بين عضد الدولة ومؤيد الدولة، وعلى أثر ذلك، أقر عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة على طبرستان وجرجان، وطرد منها حاكمها قابوس بن وشمكير الذى آوى آخاه فخر الدولة، وساعده فى نزاعه ضد أخيه عضد الدولة وملك كرمان كذلك(٢).

وفى سنة ٣٧٢هـ- ٩٨٤م توفى عضد الدولة، فأجلس الصاحب إسماعيل بن عباد، فخر الدولة فى الملك، لأنه كبير البيت، وصاحب تلك البلاد قبل مؤيد الدولة، ولما فيه من آيات الإمارة والملك، واستدعاه من نيسابور وبايعه بالإمارة.

ازدهر ملك فخر الدولة، بسبب الصاحب بن عباد، وفى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م اشتد المرض بابن عباد، فأوصى فخر الدولة بالعدل بين الرعية، وتقريب رجال العلم، وحذره من الخلافات والمنازعات مع أمراء الدولة، وتوفى الصاحب بعد أن ولى الوزارة ثمانية عشر عاما(٣).

على أن فخر الدولة لم يعمل بوصية وزيره، بل صادر أمواله، وحرم ورثته منها، وصادر كل ما قدمه الصاحب من إحسان لبعض أفراد الرعية. وولى بعده وزراء ظلموا الرعية، ونهبوا أموال الناس(٤).

وفى سنة ٣٨٧هـ مات فخر الدولة، وولى ابنه مجد الدولة ـ الذى كان غرا صغيرا ـ فاستولت أمه ـ سيدة أرملة فخر الدولة على الملك. وجدير بالذكر أن فخر الدولة أمر بأن تنقش على قبره هذه العبارة [تركنا قصورنا، وسكنا قبورنا وزال عنا ملكنا، وسيصير من يأتى بعدنا مصيرنا] (٥).

وكانت سيدة ـ أم مجد الدولة ـ التى تولت زمام حكم الدولة البويهية نيابة عن ابنها، كانت حسنة التدبير، وازدهرت المملكة فى عهدها(٦). وفى عهد مجد الدولة، عاد قابوس بن وشمكير إلى بلاده، التى طرده منها عضد الدولة، واستعاد ملكه فى طبرستان وجرجان، وولوا ابنه منوجهر الذى خضع للسلطان محمود الغزنوى.

(١-٥) المصدر السابق حوادث سنة ٣٧٢هـ.

(٦) تاريخ كزيده ص ٦٨.

لما شعـر مجد الدولة بقوته تنازع مـع أمه حول السيـادة والملك، فلجأت إلى بدر ابن حسنويه- أميركردستان- فأكرم وفـادتها، وأحسن إليها، وقدم لها ما يليق(١) بمقامها من خدمات، وأعادها إلى الرى، وطرد منها ابنها مجد الدولة ووزيره.

نشرت سـيدة العدل فى دولتهـا، واستقرت الملكة فى عـهدها، على أن السلطان محمود الغزنوى أرسل إليها يهددها ويطلب منها الولاء والطاعة له ولدولته، فردت على ذلك بقولها: إن السلطان محمود رجل عـاقل، يعلم أن مسألة الحرب فى عالم الغيب، ولو أنه يأتى لمحاربتى ويقهرنى، فلن يكون له من ذلك شهـرة كبيرة؛ لأنه سوف يتغلب على أرملة، أما إذا منى بالهـزيمة، فلن يمحى من جبـين دولته حتى يوم القيـامة، وما قيمة انتصار رجل على امرأة؟. فعـدل السلطان محمود عن الحرب، وفى النهاية صالح مجـد الدولة، أمه سيده، وعـاد إلى ملكه، ومنح حكم همذان لأخيـه شمس الدولة، ولكن ظلت الأم سيده تحكم البلاد دون ابنها مجد الدولة، وظلت هذه المرأة قابضة على زمام الأمور فى الدولة البويهية حتى وفاتها.

اخـتلت الدولة بعـد وفـاة سيـدة، وخـرج الأمراء عـلى طاعة مـجـد الدولة، واضطربت الأمور، وعمت الفوضى فاستنجد مـجد الدولة بالسلطان محمود الغزنوى، فرأى هذا السلطان أن الفرصة سانحة للتخلص من مجد الدولة، وضم بلاده إلى دولته، وسـار السلطان الغـزنوى إلى الرى، وقـبض على مـجـد الدولة وقـتله سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٣٧م(٢).

وآخر ملوك البويهـيين فى بغداد، الملك الرحيم الذى ظل فى بغـداد، حتى قبض عليه السلاجقة سنة ٤٤٧هـ(٣).

(١) تاريخ كزيده ص ٨٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل : حوادث سنة ٤٢٠هـ.
(٣) المصدر السابق ص ٤٤٧هـ.

علاقة الأمراء البويهيين بالخلفاء العباسيين

أساء البويهيون معاملة الخلفاء العباسيين، ولم يراعوا قدر الخليفة ومكانته، فلما دخل معز الدولة بغداد سنة ٣٣٤هـ، استبد بالسلطة دون الخليفة، لذا استاء الخليفة من البويهيين وعمل على استرداد سلطته ونفوذه، والتخلص من البويهيين، واتصل بالحمدانيين والبريديين، وطلب منهم التخلص من البويهيين، وطردهم من بغداد، لذلك أمر معز الدولة البويهى جنده الديلم بالقبض على الخليفة - وهو جالس فى مجلسه - وسيق الخليفة إلى معتقله. وأُجبر على التنازل عن الخلافة، وسملت عيناه، وظل فى معتقله حتى وفاته سنة ٣٣٨هـ(١).

ولى الخليفة المطيع بعد المستكفى، وفى عهده استأثر معز الدولة البويهى بالنفوذ فى الدولة، ولم يعد للخليفة وزير، وإنما له كاتب يدير إقطاعه فقط، وشارك معز الدولة البويهى الخليفة فى الخطبة والنقش على العملة، وازداد نفوذ الجند الديلم فى بغداد، ومما زاد من العداء بين البويهيين والخلافة العباسية، أن البويهيين شيعة والعباسيين سنة.

رأى معز الدولة بعد أن ازدادت قوته فى الدولة العباسية، التخلص من الخلافة العباسية، والمبايعة لإمام علوى حتى يتمشى ذلك مع سياسة العلويين التى تدعو إلى تولية إمام من آل بيت رسول الله ولكن خاصة الأمير البويهى نصحوه بالعدول عن ذلك؛ لأن الخلافة العباسية تتمتع بنفوذ كبير فى أذهان المسلمين، وأنهم يطيعونها طاعة الله ورسوله، والتخلص من الخلافة صعب؛ لأنه قد يؤدى إلى ثورات ضد بنى بويه. ومن السهل لبنى بويه الحكم فى ظل خليفة عباسى ضعيف. ولكن من الصعب الحكم فى ظل خليفة علوى قوى، يحدد سلطان البويهيين، وربما يتخلص منهم بسهولة.

لذلك عدل الأمراء البويهيون عن تحويل الخلافة إلى العلويين، وأبقوا على الخلافة العباسية حتى يستمروا على ما هم فيه من نفوذ وسلطان فى الدولة العباسية.

بالغ بنو بويه فى سلب الخلفاء العباسيين من نفوذهم بل تجاوزوا ذلك إلى أموالهم، فطلب معز الدولة من الخليفة العباسى الكثير من أمواله، ومازال يطلب منه المزيد، حتى اضطر إلى بيع قماشه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٣٨هـ.

ولما ولى بهاء الدولة، أساء إلى الخليفة الطائع، وطالبه بالمال الكثير، ولما عجز عن أداء هذا المال، أرسل إليه الجند الديالمة، فجذبوه من مجلسه، وسيق إلى بيت بهاء الدولة، ونهب الديالمة دار الخلافة وما فيها من مال وتحف وذخائر، وأجبر الخليفة على التنازل عن الخلافة، وولى بهاء الدولة، القادر بالله الخلافة خلفا للطائع سنة ٣٨١هـ(١).

وأصر الأمير عضد الدولة البويهى على مشاركة الخليفة رموز سيادته السياسية والدينية، فأمر بذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة الطائع، بل حذف اسم الخليفة الطائع من الخطبة فترة من الوقت، وأصر البويهيون على نقش أسمائهم وألقابهم على العملة بعد الخليفة، على الرغم من أن الخليفة دون سواه كان ينفرد بذكر اسمه فى الخطبة، ونقشه على العملة(٢).

وجرت المراسم بالنسبة للخليفة العباسى أن تقرع الطبول والدبادب والأبواق ببابه أوقات الصلوات الخمس، فشارك البويهيون الخليفة فى هذه المراسم.

وأصر الأمراء البويهيون على منح الخليفة لهم المزيد من الألقاب، فمنح الخليفة الطائع، عضد الدولة، لقب تاج الملة وبذلك أصبح يحمل لقبين، الأول عضد الدولة ويعنى السلطة السياسية ومكانته من الدولة، والثانى يعنى الرمز الدينى، ولقب الخليفة العباسى، صمصام الدولة، لقب شمس الملة، ولقب شرف الدولة، شاهنشاه أى ملك الملوك، وقد تحرج الخليفة من منح هذا اللقب واستفتى الفقهاء، فأقره بعضهم، وكره البعض الآخر. وبذلك حصل الأمراء البويهيون على الامتيازات السياسية والدينية التى يتمتع بها الخليفة.

وعلى الرغم من كل الامتيازات الدينية والسياسية التى حصل عليها الأمراء البويهيون، إلا أن ذلك لم يمنع السيادة الروحية للخليفة العباسى ومكانته عند المسلمين، فنفوذ الخلفاء دينى اعتقادى، أما الأمراء البويهيون، نفوذهم ملك دنيوى.

---

(١) عصام الدين الفقى: الدولة العباسية ص ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢.

أسباب ضعف وانهيار الدولة البويهية

ضعفت الدولة البويهية وانهارت لعدة أسباب، على رأسها الانقسام الشديد بين أمراء بنى بويه، وحارب الأخ أخاه، واشتدت الحروب بين الأمراء البويهيين، وهذا أضعفهم، ورفع من شأن أعدائهم، وأعطى الفرصة للبلاد التى انتزعها البويهيون إلى محاولة الاستقلال عن هؤلاء البويهيين، واستغل أعداؤهم الفرصة للتخلص منهم وتوسيع رقعة أراضيهم على حساب ملكهم المتداعى.

ومن أسباب ضعف هذه الدولة سوء معاملة أمرائها للخلفاء العباسيين، فشاركوهم فى ألقابهم ومظاهر سيادتهم، وصادروا أموالهم ولم يراعوا مدى تمتعهم بالهيبة فى نفوس الناس، لذلك كرههم أهالى الدولة العباسية، ولم يقدروهم وسعوا إلى إضعافهم.

ومن عوامل ضعف هذه الدولة، أن البويهيين شيعة، وغالبية البلاد الخاضعة لهم سنة، فلم يدينوا لهم بالولاء والطاعة، وتعجلوا فناء دولتهم.

كذلك ولى الدولة البويهية أمراء ضعاف لم يتمكنوا من السيطرة على الدولة، والقبض على زمام الأمور.

كذلك أدى نفوذ الغزنويين إلى ضعف الدولة البويهية وانهيارها فسعى السلطان محمود الغزنوى إلى توسيع رقعة دولته، على حساب أملاك البويهيين، لذلك زحف إلى الرى، وقبض على آخر أمراء البويهيين.

ومن عوامل ضعف الدولة البويهية ازدياد ونفوذ السلاجقة، واستنجاد الخليفة العباسى بالسلطان طغرل السلجوقى، لتخليصه من ثورة البساسيرى، فسار طغرل إلى بغداد، وقبض على الملك الرحيم آخر أمراء بنى بويه.

وأدت كثرة الحروب فى هذه الدولة، ونظام الإقطاع الذى اتبعوه مع قادتهم إلى تدهور الزراعة والصناعة والتجارة؛ لأن الاستقرار والأمن من عوامل تحسن الأحوال الاقتصادية؛ لذلك نرى أن تدهور الوضع الاقتصادى فى هذه الدولة أدى إلى انهيارها، وضعف أمرائها وعجزهم عن تقوية جيوشهم ووسائل دفاعهم، وأداء التزماتهم نحو الدولة والرعية والجند.

عاصرت الدولة البويهية الدولتين الغزنوية والسلجوقية فى المشرق الإسلامى، وعاصرت الدولة الفاطمية فى مصر والشام والحجاز واليمن، وعاصرت الدولة الأموية فى الأندلس، ودولة بنى زيرى فى المغرب، ودولة الأدارسة فى المغرب الأقصى، كما عاصرت الدولة العباسية، والدولة البيزنطية حامية حمى المسيحية فى الشرق.

دولة الأكراد الكاكوية الديالمة فى بلاد الجبل

تمهيد:

يحد إقليم الجبل من ناحية الشرق فارس ومفازة خراسان، ومن جهة الجنوب إقليم خوزستان، ومن جهة المغرب إقليم أذربيجان، ومن جهة الشمال إقليم طبرستان وجبلان اللذين يدخلان فى منطقة الديلم(١). وينقسم إقليم الجبل إلى خمس مناطق رئيسية: كرمانشاه همذان ـ أصبهان ـ الرى ثغر قزوين ـ والأولى تحتل المنطقة الغربية من إقليم الجبل، وتضم هذه المنطقة عددا من الكور:

الدينور، شهرزور ـ حلوان. وكانت همذان تلى المنطقة السابقة جنوبا، وقصبتها همذان(٢)، أما منطقة أصبهان، فيقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من إقليم الجبل، قرب حافة المفازة الكبرى(٣)، وتضم كورها عددا من الرساتيق التى تحوى عددا من القرى(٤).

وتعتبر منطقة الرى من أشهر مناطق الجبل، وقصبتها مدينة الرى، وعدت عاصمة إقليم الجبل، وعلا شأنها بعد أن استولى عليها البويهيون سنة ٣٣٦هـ-٩٤٧م، واستطاعوا أن يسيطروا منها على منطقة واسعة من إقليم الجبل(٥).

الحياة السياسية فى بلاد الجبل قبيل أن يحكمها الأكراد الكاكوية

سيطر بنو بويه على شرق الدولة الإسلامية (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م) وكانوا جنودا مغامرين من أهالى الديلم، التحقوا بجيش ما كان بن كالى الديلمى، واستطاعوا بفضل مكانتهم ومقدرتهم وكفاءتهم العسكرية أن يصلوا إلى مركز مرموق فى جيشه، ولما هزم مرداويج بن زيار، ما كان بن كالى، انتقلوا إلى خدمة مرداويج الذى لم يلبث أن خشى بأس بنى بويه وأطماعهم(٦)، واستطاع الأمراء البويهيون بسط نفوذهم على الكثير من البلدان الإيرانية(٧)، وسيطر حسن بن بويه على بلاد الجبل(٨).

وفى سنة ٣٣٤هـ- ٩٤٥م دخل أحمد بن بويه مدينة بغداد، فأسند إليه الخليفة

(١) الديلم: الجزء الجبلى من جيلان، وتسكنه قبيلة تعرف أيضا بالديلم، ويحده من الشمال جيلان، ومن الشرق طبرستان، ومن الغرب أذربيجان وبلاد الران، ومن الجنوب نواحى قزوين، وكان الديلم وثنيين، ومن ثم تعرضوا لغارات النخاسين، ودخلوا فى الإسلام عن طريق الأئمة الزيدية، (دائرة المعارف الإسلامية).

(٢) الإصطخرى: المسالك والممالك ص ٩٢.

(٣) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٢٩، ٢٣٠.

(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٣٨٥.

(٥) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٣٦٧.

(٦) مسكويه: تجارب الأمم ص ٢٩٦، ٣٠٢.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٧، ١٥٨.

(٨) المصدر السابق ٣٨٩، ٣٩٠.

العباسى المستكفى منصب أمير الأمراء، ولقبه بلقب معز الدولة، ولقب عليا عماد الدولة ولقب حسنا ركن الدولة(١).

لما توفى معز الدولة عام ٣٥٦-٩٦٧م خلفه ولده عز الدولة بختيار فى حكم كرمان وخوزستان والعراق، ولم يستطع هذا الأمير السيطرة على جنده، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة بن عماد الدولة، من أقدر أمراء بنى بويه، وأبعدهم نظرا فى السياسة والإدارة، فأعاد عضد الدولة الأمور إلى نصابها، لكنه لم يكن مخلصا لبختيار، فطمع فى أملاكه، واستولى عليها، وانتزع أملاك أخيه فخر الدولة، وتمكن عضد الدولة بذلك من توحيد المملكة البويهية كلها تحت سلطانه، فبلغت فى عهده أوج ازدهارها وعظمتها(٢).

ولما توفى عضد الدولة نشب القتال بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم سنة ٣٧٢هـ-٩٨٣م(٣)، وانتهى القتال بينهم سنة ٣٨٠هـ-٩٩٠م بانتصار بهاء الدولة. على أن الدولة البويهية ازدادت ضعفا بعد وفاته سنة ٤٠٣هـ-١٠١٢م، فقد انقسمت بين أبنائه الأربعة، وازداد تمرد الجيش من الترك والديلم(٤).

واضمحل فرع الأسرة المنحدر من فخر الدولة، فقد خلف مجد الدولة أباه فخر الدولة، وكان ضعيفا عابثا، وتفككت دولته وآلت إلى الزياريين والأكراد الكاكوية، والغزنويين كما سنرى.

قيام دولة الأكراد الكاكوية

حكمت إيران أسرة ديلمية على أنقاض الحكم البويهى، وهى أسرة الكاكوية، ومؤسسها علاء الدولة محمد وكانت والدة مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه، استعملته على أصفهان، فلما فارقت ولدها مجد الدولة، فسد حال علاء الدولة محمد، وغادر أصفهان، وأقام عند أحد الأمراء البويهيين فى إيران، ولما عادت أم مجد الدولة

(١) الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٦٨ - ٢٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٧٢هـ.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٣٤٦ ومايليها.

(٤) وهو أبو جعفر محمد بن شمنزيار، وإنما قيل كاكوية؛ لأنه كان ابن خال والدة مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه، وكاكوية هو الخال بالفارسية، وعلاء الدولة محمد بن أبى العباس رستم شمنزيار بن مرزبان، ويُلقب أصبهبن، دخل إلى خدمة البويهيين فى الرى والجبل وبجهوده ثبتت أقدام البويهيين فى أراضيهم ضد أطماع الحكام المحليين، الزياريين وغيرهم.

إلى الرى، وباشرت شئون الحكم والإدارة فى هذه البلاد، لضعف ابنها سار علاء الدولة إليها فأسندت إليه حكم أصفهان ثانية، واستقر بها أمره، وعظم شأنه وقوى بأسه(١).

وليس من المؤكد متى تولى علاء الدولة محمد حكم أصفهان نيابة عن أم مجد الدولة، على أن المؤرخ المحلى لأصفهان، المفضل بن سعد المفرخى، ذكر أن علاء الدولة حكم أربعين عاما حتى وفاته سنة ٤٣٣هـ- ١٠٤١م(٢)، وهذا يدل على أن الفترة التى حكمها فى أصفهان تبدأ منذ سنة لا تقل عن ٣٩٣هـ- ١٠٠٣م.

ضعفت حكومة الرى والجبل البويهية فى عهد أم مجد الدولة، حتى فقدت سيطرتها على الأقاليم التابعة لها، واستقل الحكام الكرد بالبلاد التى يحكمونها، وقد شجعهم على ذلك الديالمة، والأسر الحاكمة فى طبرستان وجرجان مثل الزياريين(٣)، وانتهز علاء الدولة محمد فرصة التدهور السياسى فى الإمارة البويهية، وشرع فى مد نفوذه غربا وجنوبا من أصفهان إلى الأراضى التى لم تعد خاضعة للبويهيين، ففى سنة ٤١١هـ- ١٠٢٠م، تقدم علاء الدولة محمد إلى همذان، وقد سادتها القلاقل والاضطرابات بسبب المنازعات بين الجند الأكراد والجند الترك، وفشل أميرها شمس الدولة البويهى - أخو مجد الدولة - فى السيطرة على زمام الأمور فى ولايته، واستطاع علاء الدولة محمد أن يقضى على فتن الجند، ويعزل عناصر الشغب فى مكان يقال له بورجين(٤).

على أن علاء الدولة محمد لم يكتف بذلك بل ترقب الأوضاع فى همذان، ليسيطر عليها، فلما توفى شمس الدولة البويهى - أمير همذان - سنة ٤١٢هـ- ١٠٢١م، آلت إلى ابنه سماء الدولة، ولم يستطع إدارة شئون البلاد بنفسه(٥) واستحوذ على السلطة الحقيقية - وزيره الكردى - تاج الملك أبو ناصر بن برهام وفرهاذ بن مرداويج - الحاكم

---

(١) ابن اسفنديان - تاريخ طبرستان جـ ٢٣٠ ، ٢٣٨.

(٢) محاسن أصفهان ص ١٠٠.

(3) Bosworh: Military Organization under the Buyids of Persia and Iraq. P. 153.

عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمى - أحد قواد أمير قزوين - فطرد حاكمها، واستولى على بلاده ثم فتح الرى وأصفهان وطبرستان وجرجان وهمذان، وبلغت جيوشه نواحى حلوان، وقد أقره الخليفة العباسى على مابيده من البلاد بعد أن تعهد بدفع مبلغ من المال وبلغ من ازدياد طموحه أنه اعتزم السيطرة على بغداد وإعادة مجد الدولة الفارسية وخلفه أخوه وشمكير، (دائرة المعارف الإسلامية).

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٤١هـ.

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٢هـ.

المحلى الإقطاعى للمدينة المجاورة بروجرد(١)، فلجأ الأمير البويهى إلى علاء الدولة محمد فى أصفهان، وطلب منه أن يعاونه فى القضاء على خصومه، ولكن علاء الدولة كان واسع الأطماع، يعمل على ضم المزيد من الأراضى إلى ولايته، فسار إلى همذان، وأسقط حكم سماء الدولة البويهى، وسيطر على همذان والدينور وسابور خواست. وضم كل هذه البلاد إلى حوزته. ولم يستطع مجد الدولة البويهى أن يحرك ساكنا لإنقاذ الإمارة البويهية(٢). وبذلك اتسع نفوذ علاء الدولة محمد فى إيران.

وفشلت محاولة سماء الدولة البويهى فى استعادة همذان والبلاد التى انتزعها منه علاء الدولة محمد، ووطد علاء الدولة حكمه فى هذه البلاد، وقبض على أمراء الديلم الذين يخشى بأسهم، وزجهم فى السجون، وصادر أموالهم(٣). وبذلك أمن على استمرار ملكه من بأس هؤلاء الإقطاعيين، فزادت هيبته، وخافه الناس.

الحياة السياسية فى بلاد الجبل فى عهد علاء الدولة محمد

واجه علاء الدولة محمد عدة عقبات فى بداية حكمه لبلاد الجبل، ومنها ثورة الأكراد الجوزقان. ومحاولتهم الاستقلال عن الأمير الكاكوى، وقد أرسل إليهم علاء الدولة محمد عدة حملات لإخضاعهم ولكنها فشلت، وظل الأكراد على ثورتهم، حتى عهد علاء الدولة إلى على بن عمران بتأديبهم، وإعادتهم إلى الطاعة والولاء، وقد أدى على بن عمران واجبه خير أداء، فأخضع الأكراد الجوزقان واستمالهم، والتفوا حوله، وارتضوا به حاكما عليهم من قبل علاء الدولة محمد(٤).

على أن تولية على بن عمران على الأكراد الجوزقان لم يؤد إلى استمرار ولاء هؤلاء القوم للأمير الكاكوى؛ ذلك أن على بن عمران شق عصا الطاعة على سيده، ولكى يؤمن نفسه استعان بأصبهبذ - صاحب طبرستان - وولكين بن وندرين - أحد قواد

(١) بروجرد: بلدة بين همذان وبين الكرج. وهى مدينة خصبة كثيرة الخيرات(ياقوت معجم البلدان جـ١ ص٤٠٢).

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١١هـ.

(٣) المصدر السابق حوادث سنة ٤١٤هـ.

ظل اسم سماء الدولة علي عملات مختلفة غرب بلاد الجبل لعدة أعوام بعد سقوطه

(Miles: The Coinge of the Kakzayids Dynasty. pp. 97 - 100).

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٨هـ.

الديلم ـ وحثهما على قصد بلاد الجبل، وأرسل منوجهر بن قابوس بن وشمكير، واستمده، وأوهم القائدين أن البلاد فى يده، لا رافع له عنها[1].

ومما يسر مهمة على بن عمران أن أصبهيذ كان معاديا لعلاء الدولة فسار إلى همذان، وملكها، واستولى على أعمال الجبل وطرد منها عمال علاء الدولة، وفى غضون ذلك، وصل عسكر منوجهر بن قابوس وعلى بن عمران، فازداد قوة على قوة، وسار الحلفاء ـ أعداء علاء الدولة ـ كلهم إلى أصفهان، فتحصن علاء الدولة بها ودار قتال مرير بين الفريقين. وفى أثناء القتال، أرسل علاء الدولة إلى جند العدو الأموال، وطلب منهم الانضمام إليه، وقد نالت هذه الدعوة موافقة الكثير من الجند، فلجأوا إلى علاء الدولة، تاركين جيوشهم، وقد أحسن علاء الدولة استقبالهم ومعاملتهم، وأغدق عليهم عن سعة، الأمر الذى أضعف من شأن أعداء علاء الدولة، وفت فى عضدهم، وزاد أمرهم سوءا حينما ضاقت عليهم الميرة، فانسحبوا من مواقعهم، ولاذوا بالفرار، لا يلوى أحد على أحد. فتتبعهم علاء الدولة واستمال الأكراد الجوزقان، فمال إليه بعضهم، وسار فى أثر أعدائه إلى نهاوند، والتقى بهم فى معركة رهيبة انتصر فيها علاء الدولة على أعدائه، وقتل ابنين لولكين بن وندرين فى المعركة، وأسر أصبهيذ ووزيره وبعض أقاربه، ومضى لولكين فى نفر يسير إلى جرجان، ولاذ على بن عمران بالفرار، وتحصن بقلعة كنكور[2]، ولكن علاء الدولة لم يتركه وشأنه، بل حاصره فى القلعة، وشدد عليه الحصار، أما لولكين بن وندرين، فقد لجأ ـ بعد المعركة ـ إلى منوجهر بن قابوس، وحرضه على المسير إلى الرى واستعادتها، وهوَّن عليه هذا الأمر، بسبب انشغال علاء الدولة بمحاصرة قلعة كنكور، كما أن علاء الدولة قد تعقدت الأحوال الداخلية فى دولته بعد أن انضم صاحب قم إلى أعدائه، ومهما يكن من أمر فقد سار منوجهر بن قابوس مع حلفائه إلى الرى، واشتبكوا مع صاحبها مجد الدولة بن بويه، ولكن الدائرة دارت على منوجهر وأعوانه، وزاد موقفهم حرجا، بعد أن صالح علاء الدولة، على بن عمران، ورفع عنه الحصار[3] وعاد مسرعا إلى الرى لإنقاذها من

(١) اسم يختص به ملوك طبرستان، وهو مثل كسرى للملوك الفرس وقيصر لملوك الروم (ياقوت معجم البلدان جـ١ ص ١٧٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٨هـ.

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر.

أعدائه، فخشى منوجهر بأس علاء الدولة وعقد معه صلحا، وانسحب عائدا إلى بلاده. وخرج علاء الدولة من هذه الاشتباكات ظافرا منتصرا، وزادت رقعة دولته، فقد ضم إليها قلعة كنكور وأقطع على بن عمران بدلا منها مدينة الدينور(١).

كما أثبتت هذه الحروب عدم مقدرة مجد الدولة التحرك خارج عاصمته الرى، وأظهرت أن علاء الدولة ـ وليس البويهيون القوة الأعظم فى بلاد الجبل فى ذلك الوقت، ولم يعد لمجد الدولة من السلطة إلا اسمها، أما الحكم الفعلى فكان فى أيدى علاء الدولة وليس البويهيون، بدليل وجود عملة(٢) لعلاء الدولة ضربت فى أصفهان وبروجرد وأسد أباد وهمذان وكرمان ودينور وسابور والكرج والرى وجو باذقان ويزد(٣).

وقبل أن يفقد علاء الدولة استقلاله بالبلاد السالفة الذكر على أيدى الغزنويين سنة ٤٢٠هـ-١٠٢٩م كان يذكر اسم الأمراء البويهيين على عملته، مثل مجد الدولة أو شمس الدولة أو سماء الدولة حتى السنة ٤١٨هـ- ١٠٢٧م ويضيف الى ذلك اسمه دون ألقاب، وهو محمد بن شمنزيار(٤)، ولكنه بعد ذلك حصل على لقب مهم، يتناسب مع ما عرف عن استقلاله بالبلاد التى سيطر عليها عن نفوذ البويهيين(٥) مباشرة من الخليفة القادر ـ ودون تدخل البويهيين ـ وقد ذكر صاحب كتاب مجمل التواريخ(٦) أن علاء الدولة كاكوية أرسل سنة ٤١٩هـ-١٠٢٨م رسالة إلى بغداد، يطلب من الخليفة منحه عددا من الألقاب التى كان يمنحها الخلفاء بكثرة إلى الأمراء فى تلك الأيام، فأرسل الخليفة إلى علاء الدولة تقليدا بضم البلاد التى يسيطر عليها فعلا وبعث إليه بالتاج والطوق والقلادة والخلع ولقبه عضد الدولة علاء الدولة، فخر الملة، وتاج الأمة، وحسام أمير المؤمنين. على أن اللقب الذى كان يعرف به عادة، علاء الدولة، ولم يكتف الأمير الكاكوى بذلك، بل عهد إلى ابنه الثانى أبى كاليجار، وولاه همذان، وحصل له على ألقاب: المؤيد، غياث الملة، فلك الدولة.

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤١٨هـ.

(2) Miles: The Coinge of Kakuyids Dynasty, P. 102.

(٣) يزد: مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان، معدودة من أعمال فارس ثم من كورة إصطخر (ياقوت : معجم البلدان جـ٥ ص ٤٣٥).

(4) Miles: A Hord of Kakuyids Dirhams. P. 171 - 173.

(5) Bosworth: Imperial policy of the Ghaznavids. P. 64

(٦) مجمل التواريخ ص ٤٠٢، ٤٠٣ لمؤرخ مجهول عاش فى أسد أباد، ويلم تبعا لذلك بإخبار غرب بلاد الجبل.

على أن ولاية مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه لم تستمر على الرى؛ لأنه كان مشغولا عن شئون الحكم باللهو والعبث، لذلك اضطربت الأمور فى دولته(١) واستنجد أهلها فى سنة ٤٢٠هـ-١٠٢٩م بالسلطان محمود الغزنوى لتخليصهم من حالة الفوضى التى حلت ببلادهم(٢)، فسار إلى الرى، واشتبك مع جندها وهزمهم وضم الرى وساوه ويافت وغيرها إلى حوزته(٣)، وقبض على مجد الدولة، وسيره إلى خراسان(٤)، وكان كثير من سكان تلك البلاد يعتنقون المذهب الإسماعيلى، فقبض محمود الغزنوى على الباطنية ونكل بهم، ونفى المعتزلة، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم، ونقل إلى غزنة ما سوى ذلك من الكتب(٥).

ولما انتهى السلطان محمود الغزنوى من الرى، سار إلى طبرستان وجرجان، وهزم صاحبها منوجهر بن قابوس وأعلن دخوله فى طاعة السلطان الغزنوى، وأقيمت الخطبة لمحمود فى أكثر بلاد الجبل إلى حدود أرمينية(٦) وامتلك ابنه مسعود زنجان وأبهر، وخطب له علاء الدولة كاكوية فى أصفهان، واستخلف محمود الغزنوى ابنه مسعود فى الرى وسار مسعود إلى همذان، وضمها إلى الدولة الغزنوية(٧).

وبذلك ظهر عامل جديد فى سياسة شمال إيران نتيجة لجهود السلطان محمود الغزنوى، وابنه مسعود، وأصبحت إيران الطريق المؤدى إلى الشرق الأدنى، وسقطت بقايا الإمارات البويهية. وهنا تنفس الخليفة العباسى السنى الصعداء من سيطرة البويهيين الشيعة، وفى نفس الوقت اطمأن إلى وجوه قوة سنية كبيرة وصاعدة - أقصد الأتراك الغزنويين - تقف إلى جانبه فى وجه أعدائه الفاطميين.

وفى خلال حكم علاء الدولة القصير للرى ضرب درهما، وباهى به - كما فعل مرارا بتشريف الخليفة القادر له -، وأظهره دون سواه على العملة(٨).

---

(١) براون: تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص ١٩٢.

(٢) خوندمير: حبيب السير جـ٢ ص ٢٥.

(3) Hitti: Hist. of the Arabs, p. 454.

(4) Camb. Med. Hist. Vol. Iv. p. 303.

(5) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. P. 12.

(6) IBID. p. 21.

(7) Habib. Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 39.

(8) Miles: The Numismatic Hist. of Rayy. pp. 178 - 188.

اضطربت الأمور فى شمال إيران، وحدث بها فراغ سياسى بعد سقوط حكومتها البويهية التى ظلت تحكم بلاد الرى والجبل قرنا من الزمان. وجاء القضاء على سلطان البويهيين على أيدى الغزنويين ثم السلاجقة، ورحب أهل الرى بالحكم الغزنوى ورأوا فيه إنقاذا لهم من حكم مجد الدولة الغاشم وجنوده الديالمة الظالمين الذين حولوا البلاد إلى مسرح للقلاقل والاضطرابات؛ على أنهم لم يهنأوا طويلا بالحكومة الغزنوية، فقد تعرضوا لغزو الأتراك السلاجقة، الذين زحفوا إلى شمال إيران من صحراء خراسان، والقرة قورم فى أذربيجان وحدود الدولة البيزنطية، وقد لاحظ علاء الدولة محمد هؤلاء البدو، الذين برزوا كقوة ثالثة فى هذا الصراع، استعملهم الأمير الكاكوى، لتأكيد استقلاله ضد الحكام المحليين الغزنويين(١).

على أن الغزنويين كثر عددهم فى بلاد الرى، وشكلوا خطرا على علاء الدولة، الذى سيطر عليها فى غفلة مسعود الغزنوى، بل ضعف أمره أمامهم، وفقد سيطرته الفعلية على البلاد، وفقدت البلاد استقلالها بسبب سيطرة الغز عليها، ففارق علاء الدولة محمود بلاد الرى فى جنح الليل وذهب إلى أصفهان، فاضطرب أهل البلد، وتبعوا سيدهم فى الهرب وبذلك صفت البلاد للغز، فنهبوها نهبا فاحشا، وسبوا النساء، «وتفرق الناس فى كل مذهب ومهرب» وكان السعيد من نجا بنفسه(٢).

لما ملك الغز الرى، حاصروا همذان، وكان يحكمها أبو كاليجار بن علاء الدولة محمد بعهد من أبيه، ورأى أن لا قدرة له بمقاومة الغز، وصدهم عن بلاده، فانسحب منها معه وجوه التجار وأعيان البلد، وتحصن بكنكور، فدخل الغز همذان سنة ٤٢٠هـ، ونهبوها نهبا منكرا، لم يفعلوه بغيرها من البلاد، وامتد نفوذهم إلى أسد أباد وقرى الدينور، واستباحوا تلك النواحى، فخرج إليهم أبوالفتح بن أبى الشوك - صاحب الدينور - فواقعهم واستظهر عليهم، وأسر جماعة منهم، فراسله أمراؤهم فى إطلاقهم فامتنع إلا على صلح وعهود، فأجابوه وصالحوه وأطلقهم(٣).

كما أن الغز بهمذان راسلوا أبا كالبجار بن علاء الدولة وصالحوه وطلبوا إليه العودة إلى بلده، ومباشرة مهامه بها كحاكم عليها، وتعهدوا بطاعته والولاء نحوه، فعاد إليهم ولكنهم لم يلتزموا بما تعهدوا به نحوه، فثاروا عليه، ونهبوا أمواله وأمتعته. ولما

---

(1) Camb. Med Hist. of Iran. Vol. 5, pp. 12 - 13.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٠هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث ٤٢٠هـ.

سمع عـلاء الدولة محمد بما حل بابنه من السـلب والمهانة، أكبر ذلك وأنكره، فـهاجم الغز المنتشرين فى بـلاد الجبل، وظفر بهم، وقتل منهم الكثيرين وأعـمل فيهم السيف، ومزقهم شر ممزق، ولم ينج إلا الشريد، ودخل أصفهان ظافرا[١] منصورا.

انسحب مسعود بن محمـود الغزنوى من بلاد الجبل بعد اضطراب الدولة الغزنوية على أثر وفاة أبيه محمود[٢]، فقد خلف محمد بن محمود أباه بعهد منه على الرغم من أن مسعود أكبر أبناء أبيه، وقد أساء محمد السيرة، وحكم البلاد حكما غاشما مضطربا، وكثرت القلاقل والفتن فى الإمبراطورية الغزنوية خلال حكمه القصير[٣]، فاستنجد كبار رجال الدولة الغـزنوية بمسعود وطلبوا منه أن يلى مملكـة أبيه، وتقدم مسعـود إلى غزنة فعـلا، وخلع أخاه مـحمـد، وبايعه رجـال الدولة، وحصل على تقلـيد من الخليـفة[٤] العبـاسى. وفى خلال تلك الفتـرة المضطربة، توسط الأمير البـويهى جلال الدولة لدى الخليفـة العباسى بخصـوص وضع علاء الدولة، وعقد اتفـاقا وافق علاء الدولة مـحمد بمقتضاه أن يلى بلاد الرى كنائب للسلطان مسعود الغزنوى ويؤدى له الجزية مقابل حكمه لأصفهان، وقدرت بعشرين ألف دينار، وعشرة آلاف ثوب، من صنع أصفهان، وهدايا المهرجان والنوروز، وعددا من الخيول العربية مهيأة بمعدات الركوب، وكل أنواع المعدات الحربية[٥]. على أن علاء الدولة لم يلبث بعد عودته إلى عاصـمته القديمة أن عمل على توسيع سلطانه من مركزه فى أصفهان وهـمذان حتى الجبل، وعُثر على درهم ضربه فى يزد فى سنة ٤٢١هـ-١٠٣٠م عليه اسم الخلُيفة القادر[٦]، وأصبحت يزد أبعد مدينة فى الشرق تابعة للخلافة والكاكوية. ويؤكد ابن الأثير[٧] أن يزد كانت تابعة لعلاء الدولة فى ذلك الوقت. ولا توضح العمـلة تبعية يـزد للدولة الغزنوية[٨]. ومن المحتـمل جدا أن ضرب العملة المذكورة تم خلال فترة سحب علاء الدولة طاعته للسلطان الغزنوى، فعلى العملة ـ كما ذكرنا ـ اسم الخليفة واسم علاء الدولة محمد فقط.

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٠هـ.

(٢) تاريخ البيهقى ص ٧١.

(٣) خوندمير : حبيب السير جـ٢ ص٢٦.

(٤) تاريخ البيهقى ص ٦.

(٥) خوندمير: حبيب السير جـ ٢ ص ٢٦، ٢٧.

(٦) تاريخ البيهقى ص ١٤ ـ ١٧.

(7) Miles: The Coinage of Kakwayid Dynasty, pp. 93 -100.

(٨) الكامل من التاريخ حوادث سنة ٤٢١هـ.

وواتت الفرصة علاء الدين محمد لتحقيق مطامعه وأهدافه، فقد اضطربت الدولة الغـزنوية فى عهـد السلطان مسـعود، على أن ازدياد قـوة السلاجـقة، وسـعيـهم إلى الاستقلال عن الدولة الغزنـوية، وانتزاع بعض أراضيها(١) شجعه على الاستقلال ببلاده فحـرض علاء الدولة محمـد أهل أصفهان على الـثورة ضد الحكومة الغـزنوية، وقتلوا الوالى الغزنوى(٢)، وفتكوا بجنده، ولما بلغ مسعود عصـيان أصفهان وتنكيلهم برجاله، أنكر ذلك، وعول القضـاء على التمرد والعصيان، فـقصد أصفهان وحـاصرها، وضيق عليها الحصـار، واستولى عليها عنوة، ونكل بالثوار، واستخلف علـيها واليا عادلا(٣)، على أن علاء الدولة لم يتغاض عما جرى لأصفهان، بل عول على استردادها والسيطرة عليها، فأعد جيشا كبـيرا سار على رأسه إلى أصفهان، وملكها، ولـم يكتف بذلك، بل استـولى على همذان وغـيرها من البلاد، وانتـزع الرى كذلك، وسـار إلى خوار الرى ودنباوند، واستولى عليـهما من حاكمها أنو شروان بن منوجهـر بن قابوس، غير أنه لم يهنأ باتسـاع سلطانه؛ ذلك أن السلطان مـسـعود الغـزنوى أرسل جـيشـا من خراسـان لاسترداد الأراضى التى استـولى عليها علاء الدولة، واستعـاد الغزنويون دنباوند وخوار الرى، وحاصر الجيش الغـزنوى الرى ـ بعد ذلك ـ وضيق عليها الحصـار حتى فرّ علاء الدولة من الرى، ودخلها الجـيش الغزنوى سنة ٤٢٣هـ. وضبط القائد الـغزنوى الأمور فيها، وعادت الرى إلى الدولة الغزنوية(٤).

ولكن علاء الدولة مـحمد لم يستـسلم للهزيمة بل اعـتزم استعـادة سيطرته على البلاد التى انتزعها منه الـغزنويون على الرغم من الهزائم المتكررة التى لحقت به(٥) فسير إليه السلطان مسعود جيشا لإحبـاط محاولاته الانفصالية عن الدولة الغزنوية بقيادة على ابن عمران وباغت الجيش الغزنوى أنصار علاء الدولة فى همذان، وهزمهم شر هزيمة، وأسر كثيرا منهم، واستولى على أسلحتهم وأموالهم. على أن هذه الهزيمة لم تفت فى عضد علاء الدولة(٦)، إذ عاد إلى الثورة من جـديد، منتهزا فرصة عـودة القائد الغزنوى

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١هـ.
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٣٧٩.
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١هـ.
(٤) تاريخ البيهقى ص ٤١٦.
(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٣هـ.
(٦) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٢٧٩.

على بن عـمران عن همـذان، وانقض عليهـا وملكها، ولما سـار على بن عمـران إلى أصفهان لإخضاع الثوار ـ أنصار عـلاء الدولة ـ واستعادة السيطرة الغزنوية عليها[١]. لم يمكنه أهلها من تحقيق هدفه، فعاد عنهـا والتقى بعلاء الدولة فى عدة معارك. وحروب ضارية، أدت إلى هزيمة الجند الغزنوى، وعاد عـلى بن عمران مع القوات الغزنوية إلى خراسـان، فسار تاش فراش ـ الوالى الغـزنوى على خراسان ـ مع على بن عـمران إلى أصفهان والتـقت القوات الغزنوية مع جند علاء الدولة[٢] بالقرب من أصبهان، وانتصر الغزنويون على علاء الدولة سنة ٤٢٣هـ، وهزموه شـر هزيمة، فمضى علاء الدولة إلى أصفهان، وتحصن فيها، وأعد العدة لمنع القوات الغزنوية من دخولها[٣].

رأى السلطان مـسعود الغـزنوى ضرورة التـخلص من علاء الدولة كـاكوية الذى سيطر على بعض بلدان الدولة الغزنوية، وتصدى لكل المحاولات التى بذلت لإخضاعه، وأرسل جيشا آخر إلى خراسان بقيـادة أبى سهل الحمدونى، والتقت القوات الغزنوية مع قوات علاء الدولة فى معركة حامية الوطيس سنة ٤٢٥هـ، دارت فيها الدائرة على علاء الدولة[٤] وتحصن فى جبل بالقرب من أصبهان، فأرسل أبوسهل الحمدونى، يعرض عليه الأمان، والكف عن التمـرد والعصيان ومنحه بعض البـلاد. وإصلاح حاله مع السلطان مسعود. لكن علاء الدولة لم يقبل الخضوع للدولة الغزنوية[٥] وظل يعمل على استعادة ملكه السليب، واستـقلاله، وتأكيـد سيادته على بلاده، فـسار أبوسهل الحـمدونى إلى أصبهان وملكهـا، وانهزم علاء الدولة من بين يديه، ولما استولى أبوسـهل على أصبهان نهب خزائن علاء الدولة وأمواله، وكان ابن سينا فى خدمة علاء الدولة. فأُخذت كتبه، وحُملت إلى غزنة، وضمت إلى مكتبة القصر الغزنوى[٦].

ومما يجدر ذكره أن علاء الدولة محـمد جذب العلماء والأدباء إلى بلاطه، وسار فى ذلك سيـرة البويهيـين والغزنويين، وأهم إنجازاته العلمـية التى أعطتـه شهرة كبـيرة

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٣هـ.

(٢) تاريخ البيهقى: ص ٤١٦ ـ ٤١٧.

(٣) تاريخ البيهقى: المصدر السابق ص ٥٣٠.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٢٥هـ.

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٣٨٠.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق نفس حوادث السنة.

تشجيعه العالم والفيلسوف الكبير ابن سينا على المقام فى بلده، والدخول فى خدمته، بعد أن كان يعمل عند شمس الدولة البويهى فى همذان، وكتب ابن سينا دائرة معارفه فى العلوم بالفارسية فى كتابه «دانشى نامه» للأمير الكاكوى. ومما أدى إلى تقوية أواصر الصلة بين الرجلين أن الأمير الكاكوى كان يحب الفلسفة، ولا يجد حرجا فى تشجيع علمائها، كما كان الحال بالنسبة لبعض أمراء المسلمين فى ذلك العصر، فشجعه على التأليف والتصنيف(١).

ظل علاء الدولة محمد يتحين الفرص للعودة إلى أصفهان، ففى سنة ٤٢٧هـ-١٠٣٥م باغت الجند الغزنوى بالقرب من أصفهان، وألحق بهم الهزيمة(٢) وجمع جمعا من الديلم وسار إلى أصفهان، واشتبك مع القوات الغزنوية فى معركة هُزم فيها مرة أخرى، ففارق أصفهان، وهو لا يلوى على شيء(٣).

رأى علاء الدولة ضرورة تقوية جيشه بعد ازدياد قوة السلاجقة فى خراسان منذ عهد السلطان محمود الغزنوى، وضم إلى جيشه فريقا من الديلم، وفريقا من التركمان، وعقد هدنة مع الغزنويين سنة ٤٢٧هـ- ١٠٣٦م(٤) وكانت الهدنة ضرورة بين الطرفين، بسبب المتغيرات السياسية، فالسلطان الغزنوى والأمير الكاكوى يواجهان عدوا مشتركا قوى البأس شديد المراس، وهو الترك السلاجقة، ولقد ضرب علاء الدولة محمد عملة فى أصفهان فى سنة ٤٢٧هـ-١٠٣٦م تظهر تبعيته للسلطان مسعود، إذ نقش عليها اسم مسعود ثم اسمه هو(٥) وتوسط فى عقد هذا الصلح الوزير أبو طاهر محمد بن أيوب - وزير الخليفة القائم - وعاد علاء الدولة محمد إلى أداء الجزية - التى قررت عليه من قبل إلى الغزنويين.

---

(١) العروضى السمرقندى: جبار مقاله ص ٨٢، ٨٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٧هـ.
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٣٨٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢٧هـ.
(٥) المصدر السابق.

دولة الكاكوية بعد علاء الدولة محمد:

على أن دولة الكاكوية تعرضت للتمزق والانقسام بعد وفاة صاحبها، علاء الدولة محمد سنة ٤٣٣هـ-١٠٤١م، فقد خلفه فى حكم أصفهان ابنه ظهير الدين أبو منصور فرامرز - وهو أكبر أولاده - وأطاعه الجند بها، على أن أخاه كاليجار كرشاسب سار إلى نهاوند، وأقام بها، وحفظها وضبط أعمال الجبل، وحكم هذه البلاد مستقلا بها عن أخيه فرامرز الذى أمسك عنه، ولم يتعرض له بسوء(١) وتركه وشأنه. كما أن مستحفظا بقلعة نطنز امتنع عن إرسال الأموال المقررة عليه إلى فرامرز، وأظهر التمرد والعصيان فعول فرامرز على سحق تمرده، فسار إليه مع أخيه الأصغر أبى حرب لينتزعا القلعة منه، فصعد أبو حرب إلى القلعة، واشتبك مع المستحفظ المتمرد، غير أن أبا حرب استقل بالقلعة عن أخيه فرامرز بعد أن سيطر عليها. واشتبك الأخوان فى عدة معارك، دارت فيها الدائرة على أبى حرب بالقرب من أصفهان، ولم يكتف فرامرز بذلك. بل تقدم إلى قلعة نطنز وحاصرها، وشدد عليها الحصار، فلما رأى أبو حرب أن لا طاقة له بجند أخيه، فر من القلعة متخفيا، وسار إلى الملك أبى كاليجار - صاحب فارس - فى شيراز، وكان بها أخوه الأمير فرامرز، وحاصر البلدة، وضيق عليها. وجرى بين الفريقين عدة وقائع، انتهت بعقد صلح بين الأخوين بمقتضاه يعود أبو حرب إلى قلعة نطنز، ويحكمها نيابة عن أخيه فرامرز(٢).

قوى أمر فرامرز بعد أن خضع له أخوه أبوحرب فسار إلى همذان وبروجرد، ليستولى عليها، ولما رأى أخوه الآخر كرشاسب أن لا طاقة له بالتعرض لأخيه، كف عن التعرض له، وصالحه، وأعلن ولاءه وطاعته له، وأقام الخطبة له فى همذان والبلاد الخاضعة له(٣)، وبذلك اجتمعت كلمة الأخوة الثلاثة أبناء علاء الدولة واتحدوا فى دولة واحدة، تخضع لحاكم واحد هو أبو منصور فرامرز.

على أن دولة الكاكوية لم تكد تفيق من الانقسامات التى حلت بها بسبب الصراع والنزاع بين الأخوة الثلاثة حتى واجهت خطرا أشد وأقسى من سابقه، وهذا الخطر يكمن فى ازدياد نفوذ الأتراك السلاجقة وتطلعهم إلى السيطرة على بلدان دولة الكاكوية(٤).

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٣هـ.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٣هـ.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٣هـ.

اتخذ طغرل ـ أول سلاطين آل سلجوق ـ سياسة أدت إلى تقوية شأن دولته، فقد عهد إلى أفراد من أبناء أسرته بحكم ولايات الدولة وأمرهم بالعمل على توطيد الحكم السلجوقى بها، وتوسيع رقعة هذه الولايات بالعمل على ضم الأراضى إليها(١).

زحف إبراهيم إلى الرى، واستولى عليها،ولما وطد أقدام السلاجقة بها، سار عنها، وملك البلاد المجاورة لها، ثم سار إلى بروجرد، وسيطر عليها، ثم قصد همذان، فغادرها أبو المهاجر كرشاسب بن علاء الدولة، واستولى إبراهيم ينال على همذان، وطلب أهلها منه عدم إعادة كرشاسب إليهم، لما قاسوه من ظلمه وجوره(٢) واتخذ طغرل مدينة الرى حاضرة لدولته. توجه إبراهيم ينال ـ بعد ذلك إلى سابور خواست، وكان كرشاسب قد فر إليها ـ فصعد إلى قلعة البلدة، وتحصن بها وقاتل القائد السلجوقى أهل البلدة، ودارت بين السلاجقة وبينهم معارك متعددة، استبسل فيها سكان سابور خواست وكان يحدوهم خوفهم من سيطرة الغز السلاجقة عليهم لشدة بطشهم، وظلمهم، وانتهت المعارك بهزيمة السلاجقة وانسحابهم إلى الرى(٣).

عاد كرشاسب إلى همذان بعد انسحاب السلاجقة منها، أما طغرلبك ـ سلطان السلاجقة ـ فقد تسلم الرى وبلاد الجبل من قادته السلاجقة، واستولى على قلعة طبرك، وكان يقيم بها مجد الدولة البويهى، وأمر بتعمير مدينة الرى، بعد أن لحقها الخراب والدمار من كثرة الحروب، ثم سار إلى همذان، واستعاد سيطرة السلاجقة عليها من كرشاسب، ثم عاد طغرل إلى الرى وأمر بأن يحكمها كرشاسب نيابة عنه.(٤) سنة ٤٣٥هـ وبذلك آلت بعض ممتلكات الكاكوية إلى السلاجقة.

ولم يكتف السلاجقة بذلك، بل تطلعوا إلى السيطرة على أصفهان، وانتزعوها من صاحبها أبى منصور فرامرز، ودارت معارك متعددة بين السلاجقة وقوات فرامرز، انتصر فيها السلاجقة، وعقد صلح بين طغرليك ـ سلطان السلاجقة ـ وفرامرز، بمقتضاه

(١) الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية ص ١١.

(2) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 61.

(٣) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٤٣٤هـ.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣هـ.

قبل فرامرز الخضوع للسلاجقة، وأداء جزية سنوية للسلطان وإقامة الخطبة لطغرلبك على منابر أصفهان، وبذلك خضعت دولة الكاكوية للسلاجقة سنة ٤٣٨هـ (١).

على أن أبا منصور فرامرز قد ساءه ضياع استقلال بلاده، وسيطرة السلاجقة عليها وانضواؤه تحت لواء السلاجقة، بعد أن كان يحكم بلدانه حكما مستقلا، لذلك كان غير ثابت على طريقة واحدة مع السلطان طغرلبك، كان يكثر التلون معه، تارة يطيعه وينحاز إليه، وتارة ينحرف عنه، ويخلع طاعته، وينحاز إلى الملك الرحيم البويهى، فأضمر له طغرلبك التخلص منه، فعاد إلى أصفهان لخلع فرامرز منها وتأكيد سيادته عليها، وشدد الحصار على أصفهان، وأعد فرامرز العدة لمقاومة السلطان السلجوقى، وظل طغرل يحاصر أصفهان حوالى سنة، ولما طال الحصار على أصفهان، وألحق السلاجقة الخراب والدمار بأعمالها، اشتد الضيق بالأهلين وارتفعت الأسعار، وقاسى الناس الويلات من هول الحصار، ونفد صبر صاحبها فرامرز، لذلك أرسل أهل أصفهان إلى السلطان السلجوقى يبذلون له الطاعة والولاء ويعرضون عليه المال، وكل ما يطلبه فى مقابل الكف عنهم، ورفع الحصار عن بلدهم، ولكنه رفض، ولم يقنع منهم إلا بتسليم البلد(٢). وظل محاصرا لأصفهان، وشدد عليها الحصار حتى نفدت منها الأقوات، وانقطعت عنها الإمدادات. ولما ضعفت مقاومة أهل أصفهان، أرسل طغرل إلى صاحبها فرامرز يدعوه إلى التسليم. ويحذره من العناد، ويعرض عليه بلدا عوضا عن أصفهان ويقول: مع أنك سليل أسرة حاكمة عريقة، إلا أنك لا تمتلك جيشا يستطيع التصدى لمحاربيك وعندى جيش أكبر من أن يحصى، وأنا أرغب فى الاستقرار فى أصفهان والمدينة تسليمها لى أصبح أمرا سهلا ميسورا، فسلم المدينة، وأنا أعطيك بدلا منها فى العراق أو أى بلد شئت. فأجاب المنصور فرامرز لدعوة طغرل بالتسليم، وطلب منه منحة مدينة يزد وابرقويه، ينتقل إليها ويقيم فيها. واصطلح الرجلان على هذه الشروط(٣) ودخل فرامرز يزد بفرقته الديلمية، وشيد بها قصرا منيعا له وعهد إلى قواده

---

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق حوادث سنة ٤٣٨هـ.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٨هـ.

(3) Boswort: Camb. Hist. of Iran. Vol. V.p. 129.

بإقامة سور حول البلدة له أربعة أبواب، كما شيد المسجد الجامع للمدينة، وشيد له مئذنة، وهذه أول مئذنة شهدتها يزد وأقام فرامرز القنوات فى المدينة لتيسير وصول المياه إلى بيوتها، وشيد المدارس، وسرعان ما انتشر العمران فى يزد، فأقيمت فيها القصور والدور، وانتقل الناس من القرى المجاورة إليها، وباشر قواد فرامرز حركة النشاط العمرانى فى البلدة. وقام فرامرز بتيسير سبل الرى فى القرى التابعة ليزد، فازدهرت بها الزراعة، وعمّ الرخاء. كذلك حرص خليفته وابنه على مواصلة سياسة أبيه العمرانية والإصلاحية فى بزد، فأعاد بناء المسجد الجامع، وأقام به مكتبة كبيرة، وأنشأ عدة مدارس. وبذلك أدى حكم الكاكوية يزد إلى بعثها من جديد، فقد كانت بلدا متخلفا لا تمتد إليها يد الإصلاح وبعيدة عن أعين الحكام والولاة، فلما حكمها الكاكوية ازدهرت عمرانيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وكثر عدد سكانها(١).

دخل طغرلبك أصفهان سنة ٤٤٢هـ ومنع جنده من التعرض لأهلها، وعفا عن أهلها، وخلع أبا منصور فرامرز من أصفهان ـ كما قلنا ـ وأسند إليه يزد وابرقويه(٢)، وقد أحب طغرل أصفهان، واستطابها ونقل إليها ما كان له بالرى من مال وذخائر وسلاح، وجعلها دار مقامه، وخرب أسوارها ودمرها وقال: إنما يحتاج إلى الأسوار من تضعف قوته. فأما من حصنه عساكره وسيفه، فلا حاجة به إليها (٣).

وتحدث مؤرخ فارسى عن وزير فارسى يسمى أبوالفتح الرازى، كان وزيرا لعلاء الدولة محمد ثم لابنه فرامرز، أرسله إلى طغرل فى بعثة دبلوماسية (٤)، وأعجب طغرل بحنكته ومقدرته، وأدخله فى خدمته، فغضب فرامرز لذلك، وصادر أموال هذا الوزير الذى اعتبره خائنا له، ودمر منزله في أصفهان، ولما استولى طغرل على أصفهان، عهد إلى الرازى بجمع مائة ألف دينار جزية مفروضة على أصفهان. على أن هذا الوزير لم يلبث أن تخلى عن خدمة السلاجقة، ودخل فى خدمة البويهيين (٥).

---

(1) IBID. p. 129.

(2) Camb. Hist. of Iran. Vol. 5. p. 43.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٤٢هـ (البرقوية: مدينة قريبة من يزد، حصينة، كثيرة الزحمة، ليس حولها شجر ولا بساتين، وهى خصبة «ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٧٠).

(4) Camb: Hist. of Iran. Vol. 5. p. 58.

(٥) هندوشاه بن سنجر: تجارب السلف ـ نشره عباس إقبال ص ٢٦٠، ٢٦١.

دولة الكاكوية الثانية:

ومعلومـاتنا عن الكاكوية ـ على أثر انتـقالهم إلى يزد ـ غـامضة كل الغـموض، مـضطربة غاية الاضطراب، وكل مـا نعـرفه عن فـرامرز في يزد تنحـصر فى إنجـازاته العمرانية فيها ـ كمـا قلنا ـ وإظهارها بأبهى معالم الزينة، وهذه المعلومات متناثرة فى ما رواه المؤرخون المحليـون عن يزد، وكان يلقب فى السنوات الأخيرة من يحكمـها بلقب شمس الملك(١).

وكانت الكاكوية فى الحقبة الثانيـة من تاريخهم يحكمون يزد وابرقويه ـ وكما قلنا فهذه الفترة التاريخية من حكمهم غـامضة على العكس من الفترة الأولى التى حكم فيها الكاكوية أصـفهان وهمذان، فـقد كتب ابن الأثيـر والبيهقى تفـصيلات كثـيرة عن هذه الحقبة. وأما الفتـرة الثانية فالمعلومات عنها مبعثرة فى كـتب التاريخ المحلية، وفى كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير. ومن الثابت أن الكاكـوية اللاحقين لم يمتلكوا الحق فى ضرب الذهب والفضة عملة (٢).

ولا نعرف على وجه التـحديد سنة وفاة فرامرز، إلا أنه مـن المؤكد أنه توفى بعد عام ٤٥٥هـ، ودليلنا على ذلك ما ذكره ابن الاثير(٣) : «إن السلطان السلجوقى طغرلبك زار الخليفة العباسى القائم فى بغداد سنة ٤٥٥هـ ومعه بعض الأمراء والقادة، ومن بينهم فرامرز».

لما توفى أبو منصـور فرامرز، خلفـه فى حكم يزد ابنه مؤيد الـدولة علاء الدولة عضد الدولة على، وقد حرص على تقوية أواصـر الصلة بالسلاجقة، وجدير بالذكر أن الكاكوية المتأخـرين كانوا يحظون بمحبة وتأييد السـلاجقة كورثة لأسرة حاكمـة عريقة، وتزاوجهم من السلاجقة.

---

(1) Notes on Early Suljuqid Viziers. pp. 105 - 110.

(٢) البندارى : تاريخ دول سلجوق ص ١٣٣.

(٣) الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٥٥هـ.

وفى سنة ٤٦٩هـ ـ ١١٧٧م تزوج علاء الدولة على من أرسـلان،خاتون ابنة داود أخي السلطان طغرل، وهذه السيـدة كانت زوجة للخليفة العـباسى القائم (١)، وبذلك استبدلت القرشى بالديلمى والإمام بالبربرى.

على أن انتقال الكاكوية إلى يزد، وتحالفهم مع السلاجقة هيأ لهم سلاما لم يحظ به آباؤهم الأولون، وهذا السلام أسهم فى إصلاح أحوال بلادهم.

أخذت الدولـة السلجوقيـة فى الضعف والانـهيار بعـد وفاة السلطان ملـكشاه، وتنافس الأمراء السلاجقة حول الوصول إلى عـرش السلطنة، الأمر الذى أحدث انقساما شديدا بين أبناء البـيت السلجوقى، وبدأت هذه الخلافات والمنازعات بـعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ بـين بركياروق ـ الابن الأكبـر لملكشاه ـ وأخيـه محمـود، وانتهى بانتصار بركياروق وتوليته السلطنة(٢).

على أن الأمور لم تستتب لبركياروق، فـقد طالب عمه تتش ـ صـاحب الشام ـ بالعرش، واسـتولى على بلاد الجزيرة، وسـار إلى أذربيجـان، ودارت الحرب بينه وبين بركياروق، وانضم علاء الدولة على ـ أمـير يزد ـ إلى جانب تتش، ودارت الحرب سنة ٤٨٨هـ- ١٠٩٥م بين بركياروق وتتش بالقرب من الرى، وانتهت بهزيمة تتش وقتل فى الواقعة، علاء الدولة على ـ أمير يزد، (٣) وخلفه ابنه أبو كاليجار كرشاسب علاء الدولة عضد الدين فى حكم يزد، (٤) وكان يحظى بعطف وتأييد السلطان محمد بن ملكشاه، وتزوج أخت سنجر ومـحمد سنة ٥٠١هـ-١١٠٨م (٥)، ولما توفى محمـد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ- ١١١٨م، قويت العلاقة بين ابنه محمود، وأبى كاليجار كرشاسب، وأبقاه السلطان السلجوقى فى بلاطه كمستشار له، وكواحد من أخوته(٦).

---

(١) ابن الأثيـر: الكامل فى التاريخ حـوادث سنة ٤٦٧هـ، البندارى: تاريخ دولة آل سلجـوق ص ٢٥ (كان علاء الدولة على تلميـذا مخلصا للشاعر السلجـوقى محمد بن عبـد الملك النيسابورى وكان هو أيضا شـغوفا بالشعر، ومقربا إلى ملكشاه وقدم الشاعر إلى السلطان السلجوقى، وأدى ذلك إلى شهرته، وقدم ثلاث قصائد للأمير الكاكوى مدحا فيه وفى أسرته).

(٢) الراوندى: راحة الصدور ص ١٤٢، ١٤٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٨٨هـ.

(٤) مجمل التواريخ ص ٤٠٩.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق حوادث سنة ١١هـ.

(6) Camb. Hist. of Iran. Vol V. p. 115.

على أن نفوذ أبى كاليجار فى البلاط لم يلبث أن انقضى، فقد سعى بعض رجال الدولة بأمير يزد وأفلحوا فى إساءة العلاقات بين السلطان السلجوقى وأمير يزد، بل أرسل السلطان السلجوقى حملة عسكرية إلى يزد، وتحصن أميرها أبوكاليجار فى إحدى القلاع المجاورة، غير أن القوات السلجوقية ألحقت به الهزيمة(١)، وعزله السلطان محمود السلجوقى عن يزد، وعهد بحكمها إلى قراجه الساقى ـ أتابك فارس ـ.

رأى أبو كاليجار كرشاسب أن يتحالف مع سنجر ضد أخيه محمود الذى عزله عن ولايته، وواتته الفرصة حين نشبت الحرب بين محمود بن محمد بن ملكشاه وبين عمه سنجر، وكان سببها أن السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه ـ أخا سنجر ـ لما توفى، خلفه ابنه محمود فى السلطنة، فاستنكر سنجر ذلك وعظم عليه، وعول على قصد بلاد الجبل والعراق، وانتزاعها من أخيه محمود وأعد جيشا لمحاربته، وانضم إليه علاء الدولة كرشاسب، وعرف سنجر الأحوال، والطريق إلى قصد البلاد، وما فعله الأمراء من أخذ الأموال، وما هم عليه من اختلاف الأهواء. والتقى سنجر مع ابن أخيه بالقرب من ساوة فى معركة انتهت بهزيمة محمود بن ملكشاه سنة ٥١٣هـ-١١١٩م، وعقد صلحا بين سنجر وابن أخيه، وكتب سنجر إلى سائر ولايات الدولة السلجوقية بأن تقام الخطبة له قبل محمود بن محمد بن ملكشاه وأعاد سنجر حليفه كرشاسب إلى يزد(٢) واستقبله أهلها أحسن استقبال(٣).

ظل كرشاسب بحكم يزد حتى مقتله سنة ٥٣٦هـ- ١١٤٨م وهو يحارب الخطأ إلى جانب سنجر(٤).

وهذا يشير بوضوح إلى حقيقة على بن فرامرز الذى توفى وهو يحارب تتش بن ألب أرسلان منذ أكثر من نصف قرن، وتضطرب بعض الروايات وتشير إلى أنه كرشاسب الذى نتحدث عنه، على كل حال حكم كرشاسب يزد حوالى ٥٠ عاما وزينت بالحدائق الغناء وأعاد بناء المسجد الجامع(٥).

---

(1) Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphsa.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥١٣هـ.

(٣) مجمل التواريخ ص ٤١٤.

(٤) البندارى: تاريخ دولة سلجوقى ص ١٣٣، ١٣٤ (ويذكر ابن الأثير أن سبب هذه الحرب أن سنجر قتل ابنا للسلطان الخوارزمى اتسز فحرض الخطأ ـ الذين يحكمون وراء النهر وقتئذ ـ على قصد مملكة السلطان سنجر، ودار قتال مرير بين سنجر والخطأ انتهى بهزيمة السلاجقة، وقتل من جند سنجر عدة آلاف) «الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٣٦هـ».

(٥) جعفر بن محمد: تاريخ يزد ص ٢١، ٢٢.

حكم يزد بعد وفاة كرشاسب ابنته بعهد من السلطان السلجوقى سنجر، وأقر خليفته أرسلان بن طغرل فى يزد ابنة كرشاسب، وعين لها أتابكا، وعليه مسئولية الأمن والطمأنينة فى الدولة، وهذا الأتابك من كبار قادة السلاجقة، ويسمى ركن الدين سام ابن وردان: وظل أتابكا فترة من الوقت، أدار خلالها البلاد فى حكمة وروية، وعين القواد أخاه عز الدين لشكر سنة ٥٩٠هـ أتابكا خلفا له وهو قائد شجاع، خاض عدة حروب بكفاءة قتالية. وبذلك انتهى حكم الكاكوية، وحكم يزد الأتابكة حتى نهاية القرن السابع الهجرى، حيث غزاهم المغول، واستولوا على يزد وخلعوا آخر أتابكتها طغان شاه(١).

ومن دراستنا لتاريخ الكاكوية فى يزد نواجه صعوبات كثيرة، ترجع إلى أن الكتاب المحليين الذين كتبوا عن يزد لم يعاصروا أمراء الكاكوية، بل إن أقربهم إلى هؤلاء الأمراء، هو جعفر بن محمد، يكتب بعد ثلاثة قرون أو أكثر من حكم هذه الأسرة، والذى كتب بعده عن يزد، أحمد بن حسين بن على الكاتب، ومحمد مفيد مستوفى، ونقل هذان المؤلفان عن جعفر، وكررا الأخطاء التى وقع فيها، والمعروف أن محمد مفيد مستوفى يكتب بعد جعفر بن محمد بحوالى قرنين ونصف، وبعد ست قرون من الأحداث المذكورة، ومشكلته أنه يستمد مادته من محمد بن حسين وليس مباشرة عن جعفر، لذلك فمن الملاحظ أن أخطاءه التاريخية أكثر خطورة من أخطاء جعفر (٢) وعلى ذلك فنحن - تجنبا للوقوع فى الخطأ، وحرصا على الوصول إلى الحقيقة نضطر إلى مطابقة ما أورده هؤلاء المؤرخون المحليون الذين ذكرناهم مع المصادر المعاصرة أو القريبة من المعاصرة مثل كتاب الكامل فى التاريخ لابن الاثير، أو كتاب مجمل التواريخ، فإذا وجدناها مطابقة أخذنا بها واعتمدنا عليها وإذا لم تطابق نرفضها، ونعتمد على الكتب التاريخية المعاصرة أو القريبة من المعاصرة؛ لأنها أقرب إلى الصواب من الكتب التاريخية المحلية. وعلى سبيل المثال لا الحصر يذكر أحمد بن حسين أن علاء الدولة محمد هو ابن مجد الدولة البويهى، والصحيح أنه محمد بن شمنزيار. ويذكر أن فرامرز تزوج أرسلان خاتون، والصحيح أن الذى تزوجها ابنه على. ونلاحظ أيضا الخلط بين على بن فرامرز الذى توفى سنة ٤٨٨هـ- ١٠٩٥م وكرشاسب الذى قُتل سنة ٥٣٦هـ- ١١٤٨م فى كتب هؤلاء المؤرخين المحليين.

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية جـ ٢ ص ٣٧٩.

(٢) كتب أحمد بن حسين، كتاب يزد الجديد، وكتب محمد مفيد كتاب الجامع المفيد.

الباب الثانى

الدول التركية
فى المشرق الإسلامى

١ - الترك: القره خانيون - الخطا

٢ - الدولة الغزنوية

٣ - الدولة السلجوقية

٤ - الدولة الخوارزمية

٥ - ظهور المغول وازدياد نفوذهم

٦ - الصراع بين الخوارزميين والمغول

٧ - دولة الإسماعيلية فى آلموت

٨ - سقوط بغداد وموت هولاكو

٩ - الدولة الإيلخانية

الترك

ينسب الأتراك الذين استمرت دولتهم من القرن السادس الميلادى إلى القرن الثامن، إلى الأتراك الغز، وينقسم هؤلاء الغز أو الترك إلى عدة قبائل، وأشهر قبائل الترك، الأويغور وقارلوق والقرغيز، وكان المسلمون يسمون هذه القبائل التى تتكلم لغات تركية، تركا وأطلقت كلمة ترك على السلاجقة ثم العثمانيين الذين ينحدرون من الغز، والترك بدو وحضر، والقرغيز يغلب عليهم البداوة، وكان يحكمهم خان، وانتعشت هذه البلاد اقتصاديا فى عهد المغول، ونشأت بها المدن.

وتدرج الترك من حكم الخاقان إلى الأويغور، وفقدوا وحدتهم السياسية بعد الفتح العربى.

والغز المقيمون غربا، انقسموا إلى عشر قبائل، ومن هذه القبائل، علا شأن قبيلة توركة، وخرج منها أتراك الغرب، على أن العرب مزقوا شملهم وأضعفوهم، وضموا بلادهم ـ بلاد ما وراء النهر إلى دولتهم. وشيد العرب الاستحكامات لحماية المدن من غارات البدو. وكانت كلمة توران تُطلق على الترك فى القرن السادس الميلادى.

حلت دولة الأويغور محل دولة الأتراك الغز فى منغوليا سنة ٧٤٥م، وكان المقر الرئيسى لخاقان الأويغور، يقع قريبا من مدينة قراقورم ـ حاضرة المغول فيما بعد ـ وانقرضت دولة الأويغور بعد مائة عام سنة ٨٤٠م على يد القرغيز الزاحفين من الغرب، وقد أضعف أهل منغوليا بعضهم بسبب الحروب المريرة التى نشبت بينهم، وهاجر بعضهم إلى تركستان الصينية وشيئا فشيئا، ألفوا حياة المدنية فى موطنهم الجديد، وأول من استوطن القسم الشرقى من تركستان الصينية، الأتراك الذين يسمون باسميل وأطلق عليهم الصينيون، اسم الاستبس، ولما تعرضوا لضغط بنى جنسهم الترك ـ المستوطنين فى الغرب ـ هاجروا إلى الشرق، فى الصين ووقفوا إلى جانب الإمبراطور فى صد حركات التمرد ضده، واستقروا فى الشمال الغربى من الصين فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى(١).

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٤٠ ومابعدها.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، هاجر قوم من الأويغور - بعد أن عجزوا عن مقاومة القرغيز المتوطنين فى منغوليا إلى أطراف بش باليق، واستوطنوها، وكونوا بها دولة صغيرة، استطاعت أن تعيش فى العصر المغولى فى القرن الرابع عشر الميلادى فلغتهم إحدى اللهجات التركية القديمة، وكان لهم أبجدية، أى لغتهم لغة كتابة ولهم أعداد تمكنهم من إجراء العمليات الحسابية.

ينقسم الترك إلى ثلاث شعب:

١ - الغز وينتشرون فى الأراضى الممتدة من بحر الخزر إلى أواسط جيحون.

٢ - القارلوق وينتشرون فى الأراضى التى تمتد إلى عدة أميال شرقى فرغانه.

٣ - التغزغز أوطوقوز أو غورز، ويسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق، وتمتد حتى الصين(١).

ويرجع هذا الوصف إلى عهد الأويغوريين شرق تركستان الصينية، وتحدث ابن خرداذبة عن الأتراك الذين يقطنون الطريق المؤدى إلى الصين، وكثرت هجرات الأتراك إلى الصين، وامتدت سيطرة السامانيين على الترك فى أطراف بلاد ما وراء النهر، وهجرت جماعة من الغز ونزلت بلاد ما وراء النهر ومنهم سلجوق الذى اعتنق الإسلام، ونزل وقومه بلاد ما وراء النهر، وأقام أبناؤه فيما بعد الدولة السلجوقية.

انتشر الإسلام بين الترك منذ القرون الأولى للإسلام، ورحبوا بالإسلام، الذى أوضح لهم حقيقة الوجود ووحدانية الله، وأبعدهم عن معتقداتهم الوثنية التى تتضاءل أمام الإسلام.

وأول خان للترك دخل فى الإسلام، هو سانوق بغراخان، عبد الملك، وهو ينتمى إلى الأسرة التى دخلت فى الإسلام فى بلاد ما وراء النهر فى نهاية القرن العاشر الميلادى - الرابع الهجرى، ويشير ابن الأثير إلى بغراخان أول خان تركى يتعامل مع المسلمين فى بلاد ما وراء النهر، حكم دولة تركية على حدود الدولة السامانية يبدو أن قبيلة ياغما التى ظهرت بين التغزغز، سكنت جزءا من المنطقة التى كان يسكنها الفارلوق، وهؤلاء الياغما كانوا يملكون كاشغر والبلاد الواقعة على نهر تارين(٢).

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٦٧.

(٢) الكرديزى المصدر السابق ص ٤٣٤.

اتخذت دولة القره خانيين كاشغر، عاصمة لها، أى أنهم ينتمون إلى الشعب الذى ينتمى إليه كاشغر، أى أنهم ينتمون إلى ياغما - وهى جزء من التغزغز. وفى القرن الحادى عشر، كان اسم جيكل، يطلق على عدة أقوام تركية وكانت كلمة جيكل تطلق على الأقوام المنتشرة من نهر جيحون إلى الصين، وكان للأتراك الجيكيل وضع سياسى مميز فى آسيا الوسطى والأتراك الغز، والقارلوق بدو، وكانوا كالغز، يسمون بالتركمان، وكانت بعض مدن تركستان الصينية تابعة للقارلوق وتذكر المصادر أن مدينة كاشغر، كانت على حدود بلاد القرغيز والقارلوق والتغز غز(١).

وذكر أن جيكيل وياغما، نقلوا مساكنهم نحو الشمال، ولم يفعل القارلوق ذلك. والجدير بالذكر أن سمات التركمان، تختلف عن سمات الترك، وتشابه سمات الإيرانيين، وقد تأثر القارلوق بالإيرانيين أكثر من تأثرهم بالغز، وكان لدخولهم فى الإسلام أثره فى تقدمهم الحضارى.

وفى القرن الثانى عشر الميلادى كان خان القرخانيين يسمى تركمن مما يدل على انتماء القره خطائيين إلى القارلوق، وكانت بلاسغون - حاضرة لدولتهم. واتخذت هذه المدينة الطابع الإسلامى منذ سنة ٩٤٠م. والمعروف أن الياغما دخلوا فى الإسلام بعد استيلائهم على بلاد القارلوق(٢).

وفى القرن العاشر الميلادى، أسلم قسم من الغز، وهو القسم المقيم عند مصب نهر جيحون، وبدأ خان الغز حكمه فى ظل الإسلام وقوبل دخول القره خطائيين فى الإسلام والغز، وهما قومان من الترك بالترحيب والفرح فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية. وعلى ذلك صار من المفترض أن الولايات التركية الإسلامية الواقعة على حدود دولة الإسلام فى الشمال والشرق حلفاء يناصرون المسلمين فى صراعهم مع غير المسلمين، ولكن الذى حدث غير ذلك، فقد دخلوا فى حروب مع المسلمين.

وأول إشارة إلى ازدياد نفوذ القره خانيين تقرأها حينما غزا إيلك خان - ملك الترك، بخارى - حاضرة السامانيين، ودخل بخارى فى عهد الأمير السامانى عبدالملك ابن نوح، وأزال الدولة السامانية(٣).

(١) الكرديزى المصدر السابق ص ٤٣٥.

(٢) الكرديزى : المصدر السابق ٤٣٦.

(٣) برتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٩٣.

على أن إسماعيل بن نوح السامانى استرد بخارى سنة ٣٩٠هـ، وطرد منها إيلك خان وجنده الترك، ومع ذلك سيطر الترك على مساحات كبيرة فى بلاد ما وراء النهر فى العصر الغزنوى، وفشلت كل محاولات الغره الخانيين فى السيطرة على بعض بلاد ما وراء النهر وخراسان، وتصدى لهم القادة الغزنويون بكل قوة(١). وساءت علاقة الترك السلاجقة ببغراخان - ملك تركستان - وطردهم من أراضيه، ولكى يأمن السلاجقة على أنفسهم وملكهم من السلطان محمود الغزنوى، تحالفوا مع على تكين - أحد كبار أمراء القره خانيين - وكان الأمراء القره خانيون فى نزاع مستمر مع بعضهم البعض وذلك عجل بانهيار دولتهم.

حكم خاقانات تركستان من القرن الرابع حتى القرن السابع الهجرى، وأولهم بغراخان الذى توفى سنة ٣٤٤هـ- ٩٥٥م، وهو أول من أسلم منهم، وكان هارون حفيد بغراخان هو الذى قام بفتح بلاد ما وراء النهر، وتذكر هذه الأسرة باسم خانات تركستان، ولقب « إيلك» من الألقاب التى أضيفت إلى أسماء ملوكهم، وقيل لنصر بن على، فاتح بلاد ما وراء النهر - إيلك خان -(٢).

* * *

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٨٩هـ.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٣هـ.

دولة الخطا

كان الخطا يقيمون دولة فى شمال الصين، وتحت تأثير الصراع القبلى، قد طردتها أسرة كين القوية، ولجأ الخطا الوثنيون إلى تركستان، واستوطنوا فى غزنة سنة ٥١٦هـ-١١٢٢م واستوطنوا أهم مدن الإقليم مثل كاشغر وخوتان، واتخذوا من بلاسغون - قرب كاشغر - حاضرة لدولتهم. ولُقِبَ ملكها كورخان أى ملك الملوك.

استطاعت قبائل الخطا الوثنية أن تقيم ملكا فى بلاد ما وراء النهر، واستولوا على مساحات شاسعة هناك، وأوقعوا الهزيمة بجيش محمود خان قرب خجند سنة ٥٣١هـ-١١٣٧م ولكن الخطا لم يجنوا ثمار انتصاراتهم بسبب انشغالهم فى الحروب مع الدولة الخوارزمية الفتية، وقوى شأن الخطا فى عهد ملكهم كورخان، وهزموا قوات السلطان سنجر الذى حاول طردهم من بلاد ما وراء النهر، وقتلوا الألوف من الجند السلجوقى، واتسع ملكهم عقب ذلك حتى شمل كل بلاد ما وراء النهر ٥٣٦هـ-١١٤١. وفر السلطان سنجر إلى سمرقند وتفرق جنده فى كل مكان[1] وعهد الخطا إلى رجل من قبلهم بحكم بخارى وإزاء قوة الخطا اضطر أتسز إلى أداء جزية سنوية قدرها ثلاثين ألف دينار للخطا بعد أن هددوا دولته الناشئة.

وكورخان هو خان الخانات، وصل هو وقومه وأهله إلى حدود قرغيز، ولكن أهلها صدوهم، فتقهقروا إلى بلدة إيحيل، وبنوا فيها مدينة، وتجمع حولهم جموع غفيرة من الأتراك حتى عمرت المدينة بالترك وكثر سكانها، وتطلعوا إلى توسيع رقعة بلدهم، فزحفوا إلى بلاسغون، وأسماها المغول غرباليق على أن جموع الترك لم تنعم بالاستقرار، وثاروا ضد أميرهم فاستنجد الناس بالأمير كورخان، وطالبوه بأن يحكم بلادهم، حتى يعيد الاستقرار إليها.

رحب كورخان بهذه الدعوة التى تتمشى مع طموحاته ورغبته فى توسيع ملكه، فاتجه كورخان إلى بلاسغون وحكمها، وسُمى إيلك الترك، أى ملك الترك، وتطلع إلى توسيع ملكه، فاتجه إلى كاشغر، واستولى عليها، ثم زحف إلى بلاد القرغيز لتأديب

(١) بارتولد : تركستان ص ٤٧٦.

أهلها المثيـرين للشغب، واستولى على كاشغـر، ومازال يوسع دائرة ملكه حتى دانت له بالولاء والطاعة كل بلاد ما وراء النهر(١).

لم تقف أطماع كـورخان عند هذا الحد، بل أرسل قائده أريور لتـهديد خوارزم، ونهب قراها، مما اضطر سلطانها الخوارزمي أتسز إلى دفع جزية قدرها ثلاثين ألف دينار إلى كورخان مقابل الكف عن بلاده، وتعهد كذلك بتقديم مجموعات من الخيل والماشية وأغذية سنويا إلى كورخان(٢).

لما توفى كـورخـان جلست زوجتـه كـويونك على العـرش ولكن حكمـها كـان مضطربا، فـثار عليهـا الناس وقتلوها، هى وحاشـيتها وأنصـارها، فاعتلى أحـد إخوة كورخان العرش، واستمر الخوارزميون فى أداء الجزية للخطا.

ولقد عادت العلاقات إلى التدهور بين الخطا والخوارزميين الذين وقفوا إلى جانب الغور فى محاربتهم للخـوارزميين، وتمكـن السلطان علاء الدين محمد من هزيمة جيش الغور، عند أندخود، وشعر السلطان الخوارزمى بقوته فماطل فى دفع الجزية للخطا.

شن السلطان علاء الدين محمد غزوة على بلاد القفجاق تمهيدا لفتحها، وعاد إلى خوارزم غانما، وشعر بقوته فاعتزم تحرير بلاد ما وراء النهرمن الترك الوثنيين، فسار على رأس جيشـه إلى بخارى، وحرض أمراء البـلاد على العصيان والانضـمام إليه بدلا من الخطا، وقدم لهم الوعود، فمالوا إلى جـانبه وثارت الأطراف على كورخان، حتى أفراد حاشـيته، بل أقـام السلطان عثمـان الخطبة للسطان عـلاء الدين محمـد، ونقش العملة باسمـه وسار السلطان إلى بلاد ماوراء النهر، وهـزم الخطا هزيمة ساحقـة سقطت على إثرها بلاد ماوراء النهر فى أيدى الخـوارزميين(٣) وفى انسحـاب جيش الخطا نهب جنده القرى وضربوا ودمروا البلاد التى مروا بها، حـتى بلغوا بلاسغون، فأغلق أهلها بوابات المدينة، وقاومـوا الخطا بكل ما أوتوا من قـوة، غير أن الخطا اقـتحمـوا البلدة ودمروها ونهبوهـا وقتلوا معظم سكانها، ولكن كـورخان لم يجن ثمار هذا النصر، فـقد توفى، وبوفاته زالت دولة الخـطا التى حكمت بلاد ما وراء النهر خـمس وتسعـون سنة، عانى فيـها سكان هذه البـلاد من ويلاتهم وبطشهم وسـوء إدارتهم وتدهورت بسبب أعـمال السلب والنهب الأحوال الاقتصادية، وتوقف الإنتاج الزراعى والصناعى، وتوقفت حركة التجارة، ولم تعد تمر القوافل التجارية، بسبب هذا الاضطراب السياسى.

---

(١) كان الخطا يسمون حاكمهم كورخان.

(٢-٣) عطا ملك جوينى: المصدر السابق ٣٣٥.

الدولة الغزنوية

٣٥١ - ٥٥٥هـ/ ٩٦٢ - ١١٦٠م

قيام الدولة الغزنوية

اعتمد السامانيون على الترك فى إدارة دولتهم، وكان قوام جيشهم منهم، وولوهم المناصب العسكرية والمدنية الرفيعة، فازداد نفوذهم، وعلا شأنهم فى دولة آل سامان، والمعروف أن الترك مصدر من مصادر القلاقل والاضطرابات فى الدول التى استعانت بهم، ومن بين هذه الدول، الدولة السامانية التى أضعفوها وسعوا إلى زوالها(١).

ومن أبرز هؤلاء الأتراك الذين ارتفع شأنهم فى الدولة السامانية، ألبتكين، كان جنديا فى الجيش السامانى ومازال يرتقى فى سلك الوظائف، حتى ولى منصب حاجب الحجاب، للأمير عبدالملك بن نوح [٣٤٣ - ٣٥٠هـ / ٩٥٤ - ٩٦١م] ومن ثم ارتفع شأنه، وازداد نفوذه فى الدولة السامانية حتى أن الوزير كان يأتمر بأمره ويلتزم بتنفيذ تعليماته(٢).

لم تصف الأمور لألبتكين، إذ خشى الأمير عبدالملك بأسه، وعوّل على إبعاده عن حاضرة دولته، فأسند إليه ولاية خراسان فى عام ٣٤٩هـ-٩٦١م، ولما توفى الأمير عبدالملك سنة ٣٥٠هـ، تشاور الأمراء فى الدولة السامانية مع ألبتكين - الذى كان أكبرهم - فيمن يراه مناسبا لتولية أمر الدولة السامانية، فوقع اختيار ألبتكين على عم الأمير المتوفى، ورفض اختيار منصور بن نوح خلفا لأخيه؛ لأنه شاب حدث لم تحنكه التجارب، على أن اقتراح ألبتكين لم يُعمل به؛ ذلك أن الأمراء ولوا منصورا دون أن ينتظروا وصول ألبتكين، لذلك نشأ العداء بين الأمير الجديد - منصور بين نوح - وبين ألبتكين، الذى رفض اختياره أميرا على البلاد ولم تجد محاولات ألبتكين التودد للأمير الجديد(٣).

---

(١) عصام الدين الفقى: الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق ص ٣٧.

(2) Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin. P12.

(٣) النرشخى : تاريخ بخارى ص ١٤٣ .

خشى الأمير منصورمن انتفاض ألبتكين وثورته عليه فى خراسان، فاستدعاه إلى بلاطه، فرفض ألبتكين دعوة الأمير لأنه خشى سوء العاقبة، فعزله منصور من ولاية خراسان فقصد ألبتكين بلخ، وأرسل إليه الأمير منصور جيشا لإخضاعه وهزم القائد الثائر، فتوجه إلى غزنة، وحاصرها واستولى عليها من حاكمها السامانى أبى بكر لويك، ولم يكتف بذلك بل غزا زابلستان، وأقام بها إمارة مستقلة عن سادته حاضرتها غزنة(١).

على أن الأمير السامانى، منصور بن نوح لم يقف مكتوف اليدين إزاء انتزاع ولاية زابلستان من دولته، فعمل على استردادها، ولكن محاولاته باءت كلها بالفشل(٢). وبذلك قوى شأن ألبتكين فى ولايته، ووطد نفوذه وسلطانه بها.

ولما توفى ألبتكين ٣٥٢هـ-٩٦٣م، خلفه فى حكم غزنة، ابنه أبو إسحاق إبراهيم - قائد جيوش خراسان السامانية - غير أنه لم يستطع السيطرة على مقاليد الأمور فى غزنة، إذ ثار عليه أهلها، وطردوه من بلدهم، فاستنجد بالأمير منصور بن نوح، فأمده بجيش مكنه من استرداد غزنة، وحكمها باسم السامانيين. وبذلك استرد السامانيون نفوذهم فى غزنة(٣).

على أن أبا إسحاق مالبث أن توفى، دون أن يترك وريثا يعقبه فى حكم غزنة. فحكمها بلكاتكين - أحد مماليكه - وضرب النقود باسمه سنة ٣٥٩هـ- ٩٦٩م، وخلف بيرى، بلكاتكين - وهو فيما يبدو من أهالى غزنة - غير أنه لم يستطع القيام بأعباء الحكم، فثار عليه الجند، وخلعوا طاعته. ونظروا فيمن يصلح لحكم غزنة، فلم يروا أفضل من سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه وكمال الخلال فيه وصرامته. ومما يجدر ذكره أن سبكتكين - أحد موالى ألبتكين كان حاجبا لابنه أبى إسحاق وعليه مدار أموره وبيده مناظم شئونه وولى سبكتكين إمارة غزنة ٣٦٦هـ- ٩٧٦م(٤).

كما أفضى الأمر لسبكتكين، استطاع بحسن سياسته وبعد همته، اكتساب محبة الرعية وأمراء البلاد المجاورة، ولم يلبث الخليفة العباسى أن اعترف بحكومته، فاصطبغ حكمه بهذا الاعتراف بالصبغة الشرعية، وتحققت له أمنية طالما اختلجت فى صدره، ولقبه الخليفة ناصر الدولة، وبعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدية. وأصبح سبكتكين

---

(١) النرشخى: المصدر السابق ص ١٤٣.

(٢) العروضى السمرقندى: جهار مقاله ص ٢٣.

(٣) العتبى : تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٥٦.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٧.

المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية. وعلى الرغم من استقلاله الفعلى فقد ظل يظهر الولاء للسامانيين(١).

لم يكتف سبكتكين بحكم غزنة، بل عمل على توسيع رقعة دولته، فبسط سيطرته على قصدار القريبة من غزنة، كما سيطر على خراسان، وشرع فى غزو أطراف الهند، وسيطر على كثير من المعاقل والحصون هناك «فاتسعت رقعة دولته، وعمرت خزانته، وهابه الناس، وتوفى سنة ٣٨٧هـ- ٩٩٧م. وإليه يرجع الفضل فى وضع أساس إمبراطورية الغزنويين، إذ امتد سلطانه إلى ناحية الهند، حيث أسس بها حكومة قاعدتها بشاور، كما اتسع نفوذه فى المشرق باستيلائه على خراسان وما جاوزها(٢).

على أن الدولة الغزنوية كانت لاتزال موالية للسامانيين يلتزمون بالوقوف إلى جانبهم ضد أى اعتداء يقع عليهم، ولما ازداد ضعف السامانيين، وطمع فيهم أمراء البلاد المجاورة، لم ير الغزنويون بدا من الاستيلاء على البقية الباقية من ملك السامانيين، وتوسيع رقعة دولتهم على حساب الدولة السامانية المتداعية(٣).

أغار الترك على بلاد ما وراء النهر، وتمرد أبو على - والى خراسان- من قبل السامانيين - على سادته، فاستنجد الأمير السامانى نوح بن منصور سنة ٣٨٤هـ- ٩٩٤م بالأمير سبكتكين ودرات حرب بين أبى على والقادة المتمردين على الأمير السامانى من ناحية، والأمير السامانى سبكتكين من ناحية أخرى انتهت بهزيمة القادة المتمردين، واسترد الأمير السامانى خراسان وعهد إلى محمود بن سبكتكين بحكم خراسان(٤).

واستطاع الأمير سبكتكين وابنه محمود من إحباط كل محاولة قام بها القادة المتمردون لاسترداد خراسان(٥)، وبذلك أمنت الدولة السامانية من محاولات القادة المنشقين بفضل جهود سبكتكين وابنه محمود.

وتوفى الأمير منصور، فخلفه أخوه عبدالملك فى ملك السامانيين، وكان لا يزال طفلا صغيرا، ولما ازدادت مطامع القادة السامانيين فى الدولة السامانية المتداعية، رأى محمود بن سبكتكين بذل كل جهد فى سبيل توسيع رقعة دولته على حساب الدولة

(١) خوندمير: حبيب السير فى أخبار أفراد البشر جـ ٢ ص ١٨١.
(٢) العتبى: المصدر السابق جـ ١ ص ٣١.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٦٢.
(٤) النرشخى: المصدر السابق ١٤٦
(٥) المصدر السابق ص ١٤٦.

السامانية المتداعيـة، فهزم القادة السامانيين وأكد سيطرته على خراسـان، وانتزعها نهائيا من الدولة السامانية(١).

لم يبق للدولة السامـانية بعد انفصـال خراسان عنها، سوى بـلاد ما وراء النهر، فهاجمـها القائد التركى إيلك خان، واستولى على بخـارى، وقبض على قادتها، وعلى أميرها عبدالملك بن نوح وبذلك سيطر على بخارى ـ حاضرة السامانيين(٢) ـ .

وعلى الرغم من انهيار الدولة السـامانية، فإن بعض أمرائها عـملوا على استرداد ملكهم السليب، ففى سنة ٣٩٠هـ-٩٩٩م، فر إسمـاعيل بن نوح السامانى من سجنه، واختفى فى أحد بيوت بخارى، ولما خشـى من اكتشاف أمره، فر إلى خوارزم، وتغلب عليها، ولقب بالمنتصر، والتف حوله قادة السـامانيين، وجمع غفير من الجند، وتطلعوا إلى عودة دولتهم البائدة وقوتهم الزائلة وأمجاد دولتـهم العريقة. وبذلك قوى أمر الأمير السامانى واشتد بأسه. وسعى الأمير وقادته وجنده إلى طرد المغتصبين لبلادهم(٣).

سار الأميـر إسماعيل السـامانى على رأس جيش إلى سمـرقند وهناك هزم قوات إيلك خان ـ ملك الترك ـ وغنم مغانم كثيرة، قوى بها بأسه، وعاد إلى بخارى، فرحب به أهلها وفرحوا واستبـشروا بعودة السامانيين إلى الحكم(٤)، ثم تطلع الأميـر السامانى إلى استرداد البلاد التى انتـزعها الترك، فسار إلى ترمذ واستـردها، ثم سار إلى نيسابور وكانت فى قبضة الغزنويين ـ واستولى عليها وانتزعها من الغزنويين.

لما علم السلطان مـحمـود الغزنـوى بمحاولة السـامانيـين استـرداد أملاكـهم من الغزنويين، خشى العاقبـة، وخشى من هذا الخطر الداهم الذى يهدد دولته، ورأى وقف خطر السامانيـين على بلادهم، وسار على رأس جيش كبـير إلى نيسابور، فلمـا اقترب منها، غادرها الأمير السامانى الذى خشى العـاقبة ولجأ إلى الأمير شمس المعالى قابوس ابن وشمكير صاحب طبرسـتان وجرجان ـ فأكرم وفادته، فقد كـان من أتباع السامانيين المخلصين(٥).

---

(١) العتبى: المصدر السابق جـ١ ص ١٩٥.
(٢) النرشخى: المصدر السابق ص ١٤٨.
(٣) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٨٩هـ.
(٤) النرشخى: المصدر السابق ص ١٤٨.
(٥) فامبرى: تاريخ بخارى ص ١٢٣.

أمد أمير طبرستان وجرجان، المنتصر الساماني بجيش للمسير إلى الرى والاستيلاء عليها من حكامها المتنازعين فيما بينهم. وفعلا كان من اليسير على الأمير الساماني امتلاك الرى، وشغل الفراغ السياسى بها، لكنه لم يستطع البقاء فى الرى طويلا، بسبب الفرقة التى حدثت بين أتباعه، إلا أن المنتصر السامانى لم يكف عن محاولة استرداد ملك آبائه وأجداده، على الرغم من الهزائم التى لحقت به، فاشتبك مع إيلك خان ـ ملك الترك ـ فى معركة دارت فيها الدائرة عليه فاتجه إلى مرو[1] ـ وكانت تتبع الغزنويين ـ فخشى السلطان الغزنوى على ملكه، لذلك سيّر إلى مرو جيشا لوقف محاولة الأمير السامانى فغير الأمير السامانى وجهته، وعاد إلى بلاد ما وراء النهر. ووجد فيها مقاومة منعته من تحقيق آماله، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وظل يضرب فى الأرض، ويتنقل من مكان لآخر، وجند السلطان محمود الغزنوى فى أثره، حتى اضطر إلى النزول ضيفا على قبيلة موالية للسلطان محمود[2]، فقبض رجالها عليه وقتلوه، وبموته زالت الدولة السامانية. وكانت محاولات الأمير السامانى المنتصر إسماعيل بن نوح، بمثابة صحوة الموت التى انتهت بالزوال والفناء. وعلى ذلك صفت البلاد للسلطان محمود الغزنوى.

أدى اتساع الدولة الغزنوية، وضمها شعوبا متباينة، حكمتها أسر قوية سنوات طويلة، وأثرت فيها، أدى كل ذلك إلى تطلع هذه الشعوب إلى العودة إلى الحكم القديم، فقامت هذه الشعوب بمحاولات انفصالية عن الحكم الغزنوى، ولكن الغزنوية تصدوا لمحاولات هذه الشعوب، وأخضعوها لسلطانهم، وأحبطوا محاولات الأسر القديمة إلى سابق عهدهم فى الحكم المستقل لبلادهم. فكان يحكم غرشتان -الشاه نصر- الذى تنازل عن حكم بلده لابنه الشاه، الذى حاول الاستقلال عن الحكم الغزنوى. غير أن السلطان محمود الغزنوى أحبط محاولته[3]، وعادت غرشتان إلى الحكم الغزنوى المباشر.

كذلك حاول خلف بن أحمد الاستقلال بولاية سجستان أكثر من مرة، واستولى على بعض بلدان الدولة الغزنوية، فسار إليه السلطان محمود، واسترد فى طريقه البلاد الغزنوية التى انتزعها، ثم حاصره فى قلعته التى تناطح النجوم علوًّا وارتفاعا[4] ـ كما يقول ابن الأثير ـ وهزمه، وأجبره على التنازل لابنه طاهر، واستعاد سيطرته على إقليم

(١) النرشخى: المصدر السابق ص ١٤٨.

(٢) النرشخى: المصدر السابق ص ١٧٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٩٠هـ.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق حوادث سنة ٣٨٩هـ.

سجستان على أن خلف بن أحمد خرج من حصنه وانقض على سجستان وقتل ابنه طاهر. واستقل بسجستان، غير أن جند سجستان أغضبهم مسلك الأب نحو ابنه طاهر ـ الذى كان حسن السيرة وفقدوا ثقتهم فى هذا الأب ـ خلف بن أحمد ـ لذلك انضموا إلى القوات الغزنوية التى وصلت لإحباط محاولة خلف بن أحمد الاستقلالية، ولم يستطع خلف التصدى للجند الغزنوى، فاستسلم، وعفا عنه السلطان محمود الغزنوى، ولجأ إلى أرض الجوزجان، وقضى بها ما تبقى من عمره(١). وبذلك عادت سجستان إلى الدولة الغزنوية.

كذلك خرجت خوارزم على الدولة الغزنوية، فلما ولى هارون بن التونتاش حكم خوارزم من قبل السلطان مسعود حاول الاستقلال بخوارزم، واستعان بالسلاجقة المناوئين للسلطان مسعود الغزنوى، وحذف اسم السلطان مسعود من الخطبة، وأمر بذكر اسمه فقط، وسمح للسلاجقة بالإقامة على حدود خوارزم لحمايته من السلطان مسعود، إذا ما هاجم بلاده، غير أن السلطان مسعود أرسل جيشا إلى خوارزم، شتت شمل السلاجقة والجند الخوارزمى، ولم يلبث أن قتل هارون وخلفه أخوه إسماعيل، الذى حاول الاستقلال بخوارزم، ولكن السلطان مسعود أحبط محاولته، وهزم أنصاره من السلاجقة، واسترد سيطرته على خوارزم، وعهد إلى شاه ملك ـ أمير جند ـ بحكم خوارزم. وبذلك فشلت محاولة خوارزم الاستقلالية.

وكان يحكم أقاليم الرى وهمذان وأصفهان، علاء الدولة كاكوية، قبل أن تنضم هذه البلاد إلى حوزة الغزنويين سنة ٤٢٠هـ-١٠٢٩م، وفى عهد السلطان مسعود الغزنوى، ثار أهل أصفهان بالوالى الغزنوى وقتلوه، وأعلنوا استقلالهم عن عزنة ـ بتحريض من علاء الدولة كاكوية، على أن السلطان مسعود عاد إلى أصفهان، ونكل بالثوار، واسترد سيطرته على هذه البلاد(٢).

على أن علاء الدولة كاكوية، عاد من جديد واستولى على الرى وهمذان وأصفهان، ولكن الجيش الغزنوى عاد إلى الرى واستردها ودارت عدة حروب بين علاء الدولة كاكوية والجيوش الغزنوية انتهت بهزيمته، وخروجه نهائيا من أصفهان، واسترد الغزنويون سيطرتهم الكاملة على همذان وأصفهان والرى بعد أن أقلقت الدولة الغزنوية سنين عددا(٣).

---

(١) العتبى: المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٩.

(٢-٣) تاريخ البيهقى : ٧٥١، ٧٥٦.

كـذلك عانت الرى من بعـض حكام البلاد المجـاورة مـثل شهـريوش بن ولكين صاحب سـاوة وقم ـ من أعمال الرى - فقـد استولى عليـها، واعترض طريق الحـجاج القادمين من خراسان، وسـامهم سوء العذاب، ونهب أموالهم وأمتـعتهم، على أن جند السلطان مسعود، هاجموه فى حصنـه الذى تحصن به، وقبضوا عليه وقتلوه(١). وبذلك عادت الرى والبلاد المجاورة إلى الولاء والطاعـة للدولة الغزنوية. وحاول بعض الأمراء البويهيين عبثا استرداد نفوذهم فى الرى.

كـذلك تطلع الزياريون إلى إعادة مـجدهـم الغابر، فـأعلن دارا بن منوجهـر بن قابوس ـ والى طبـرستـان وجرجان من قـبل الغزنويين ـ الاسـتقلال بـبلاده عن الحكم الغزنوى منتهزا فرصة انشغـال السلطان مسعود بغزواته فى الهند وخراسان سنة٤٢٦هـ- ١٠٣٤م، على أن السلطان مسعود أرسل جيـشا إلى طبرستان هزم الثوار(٢)، وعاد دارا إلى الولاء والطاعة لغزنة.

كذلك استرد الـغزنويون سيطرتهم على كرمان ونيسـابور وأخذ الرهائن من الثوار ضمانا للولاء والطاعة(٣) للحكم الغزنوى.

تصدى الغـزنويون لهذه المحاولات الاسـتقلاليـة بكل قوة وقضـوا عليها ـ كـما ذكرنا ـ وقـامت بعض ثورات فى الهنـد ضد الحـكم الغـزنوى، باءت كلهـا بالفـشل. وتعرض الغزنويون لهجمات الغور وتصدوا لها، وكان الأفغان يسكنون الجبال القريبة من غزنة، ويقطعون الطرق المؤدية لها، فعوّل السلطان محمود الغزنوى على إخضاعهم، إذ قصد سنة ٤٠٩هـ- ١٠١٨م بلادهم، وملك مضايقها، وفتح مغالقها، وخرب عامرها، وغنم أموالهم، وأكثر القتل فيهم والأسر(٤). لذلك عاد الأفغـان إلى الهدوء والطاعة. كذلـك تصدى السلطان مـحمـود وخلفاؤه لكل الفتن التى قـام بها الشـيعـة فى الدولة الغزنوية.

وبذلك نرى أن الدولة الغزنوية تعـرضت لفتن كثيرة سواء بـين الأمراء الغزنويين حول توليه السلطنة، أو من حكام الأقاليم المطالبين بالاستقلال عن غزنة، أو بين جماعة الغور والأفغان، أو بين الشيعة عموما والإسـماعيلية، أو من غارات السلاجقة الطامعين فى ممتلكات الغـزنويين، أو من غـارات التـرك المدمرة، وتصـدى الغـزنويون لكل هذه الحركات المناوئة لدولتهم، وإن كانت أنهكت قواها، وأدت إلى فنائها وزوالها.

(١، ٢) تاريخ البيهقى ص ٤٩١.

(٣) ابن الأثير المصدر السابق.

(٤) حوادث سنة ٤٢٥.

العلاقات السياسية للدولة الغزنوية

١ - مع الدولة العباسية:

تحسنت العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة الغزنوية بسبب أن السلاطين الغزنويين كانوا سنيين متمسكين [(١)] بمذهبهم فى وقت كان المذهب الشيعى ينتشر فى بلاد العراق وفارس، ففى سنة ٤٠٤هـ - ١٠١٣م أرسل الحاكم بأمر الله رسولا إلى السلطان محمود يدعوه إلى الدخول فى المذهب الإسماعيلى والولاء له[(٢)]، فاستنكر السلطان محمود ذلك، وأغلظ القول إلى الرسول، وأرسل إلى الخليفة العباسى يخبره بموقفه العدائى من الشيعة[(٣)].

كذلك أرسل الخليفة الفاطمى الظاهر إلى السلطان محمود الغزنوى كتابا يدعوه فيه إلى طاعته، وأرسل إليه الخلع، فمزق السلطان محمود كتاب الخليفة الفاطمى، وبعث بالخلع إلى الخليفة العباسى القادر ببغداد، فجمع القضاة والأشراف والجند، وأخرج الخلع التى أرسلها الظاهر الفاطمى إلى محمود بن سبكتكين، وضرب الذهب منها دنانير، تصدق بها على فقراء بنى هاشم[(٤)].

تجلى خضوع السلطان محمود الغزنوى لتعاليم الخلافة العباسية الدينية فى سنة ٤٠٨هـ - ١٠١٨م حين استتاب الخليفة القادر فقهاء المعتزلة، وأظهروا التبرؤ من الاعتزال، واستن السلطان محمود بسنته، فقبض على المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين[(٥)].

حرص السلاطين الغزنويون على صبغ حكمهم بالصبغة الشرعية، وكان ذلك لايتم إلا إذا أرسل الخليفة العباسى تقليدا للسلطان الجديد بالحكم، وهذا التقليد يكسب حكمهم هيبة فى نفوس رعاياهم، فأرسل الخليفة العباسى القادر إلى السلطان محمود خلعا لم يسمع بمثلها فور توليته الحكم، ولقبه فى كتابه يمين الدولة وأمين الملة[(٦)]، فتبوأ السلطان سرير الملك، وأذاع شعار الطاعة لأمير المؤمنين وخليفة رسول العالمين[(٧)]، على

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٤هـ.

(2) Cambridge History of Iran Vol. 5. p. 13.

(٣) العتبى: تاريخ اليمينى جـ٢ ص ٢٣٨ - ٢٥١.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٢٨٧.

(٥) ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٧ ص ٢٨٧.

(٦) الذهبى: تاريخ الإسلام جـ٣ ورقة ٢٧٩.

(7) Hitti: History of the Arabs. P. 464. Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin p. 36. K. Ali: A New History of Indo - Pakistan. p. 14.

أن الخليفة القادر استاء من السلطان محمود الغزنوى حينما طلب منه ألقابا كثيرة، ولما أبى الخليفة عليه ذلك كاد أن يسير إلى بغداد لإرغام الخليفة على تنفيذ رغباته، لكن الرسل سعت بينهما حتى عادت العلاقات بين الرجلين إلى ماكانت عليه من الود والولاء(١).

ولما توفى السلطان محمود سنة ٤٢١هـ - ١٠٣٠م وولى ابنه محمد وهو أصغر من أخيه مسعود سنا - عمد مسعود - كما قلنا سابقا - استعادة حكم الدولة الغزنوية من أخيه محمد فامتلك الرى والجبال بأصفهان، وفى تلك الأثناء وصله كتاب من الخليفة العباسى يعترف بسيادته فى تلك البلاد ويأمره بالمسير إلى خراسان حتى يشمل حكمه دولة أبيه، ولقد كان لهذا الخطاب أثر كبير فى تقوية شأن مسعود أمام خصمه، فأمر بأن تقرأ هذه الرسالة على الملأ، وتنسخ صور منها أرسلها إلى أصفهان ونواحى الجبل وجرجان وطبرستان ونيسابور وهراة حتى تأكد للناس أنه ولى عهد أبيه بإقرار أمير المؤمنين(٢).

ولما استوثق الأمر لمسعود، وغلب على أخيه محمد، أرسل إليه الخليفة العباسى اللواء والخلع، ويتضح مما ذكره البيهقى (٣) مدى مايتمتع به الخليفة العباسى من هيبة فى نفوس السلطان ورعاياه، فقد قدم رسول الخليفة إلى غزنة فى موكب كبير وألقى الناس على موكبه الدراهم والدنانير، فوقف الرجالة بأسلحتهم أمام الفرسان، واصطف أصحاب المراتب صفين وكان القادة والحجاب يلبسون الملابس ذات الركنين، وحملت الخلع فى الصناديق على البغال، وحمل أمام الرسول اللواء معقودا بيد فارس، وطوى المنشور والكتاب فى الديباج الأسود، وعهد به إلى فارس آخر ومن أمامهم الحجاب وأهل المراتب وارتفعت أصوات الأبواق والطبول وعلا صوت النفير، واستقبل مسعود رسل الخليفة بالحفاوة، وأبلغ مسعود سلام أمير المؤمنين، وألحقه بالدعاء الجميل، وقرأ عليه الرسول تقليد ولايته، وقال: إن ناصر دين الله وحافظ بلاد الله أبا سعيد مسعود هو أعظم أركاننا وأقواها، وعقد اللواء بيده، وسلمه الطوق والقلادة والتاج والمنطقة وأهداه بعمامة وبسيف ليقبض به على الزنادقة والقرامطة وليستولى به على مابيد أعدائه من البلاد، وأخرجت الخلع من الصناديق، فنزل السلطان مسعود من على السرير، وارتدى الخلعة، وصلى على السجادة ركعتين، وارتداء هذه الخلعة دليل على توريث الخليفة إياه ملك أبيه كاملا، وبلغ من تقدير السلطان مسعود لتقليد الخليفة أن كتب إلى كافة البلاد بألقابه: ناصر دين الله، حافظ عباد الله، المنتقم من أعداء الله.

---

(١) العتبى: تاريخ البيهقى جـ ٢ ص ١٧.
(٢) ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٤، ١٥.
(٣) تاريخ البيهقى ص ١٧.

وحرص السلاطين الغزنويون على إظهار مدى ماحققوه من نجاح وتوفيق ضد أعداء الإسلام، فكان محمود الغزنوى يرسل عقب كل غزوة يغزوها فى بلاد الهند خطابا إلى الخليفة العباسى يتحدث فيه عما أحرزه من نصر للإسلام، وكان الخليفة بدوره يرسل إليه التشجيع والتعضيد، ففى سنة ٤٠٤هـ-١٠١٣م فتح محمود بن سبكتكين ناردين، فأرسل إليه الخليفة العباسى القادر بالله يجدد له العهد ولقبه نظام الدين(١)، وفى سنة ٤١٠هـ -١٠١٩م بعث محمود إلى الخليفة القادر كتابا يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند جاء فيه: انتخب العبد ثلاثين ألف فارس وعشرة آلاف راجل، وانضم إليه جماهير المطوعة، وخرج العبد من غزنة فى العام التاسع ٤٠٩هـ-١٠١٨م بقلب منشرح لطلب الشهادة، ففتح قلاعا وحصونا، وأسلم زهاء عشرين ألفا من عباد الأوثان وسلموا قدر ألف ألف درهم، ووافى العبد مدينة لهم عاين فيها زهاء ألف قصر مشيد، وألف بيت من الأصنام الفضية زيادة على ألف صنم، ولهم صنم معظم يؤرخون به لعظم جهالتهم بثلاثمائة عام (٢).

كما حرص الخلفاء العباسيون بدورهم على اعتراف الغزنويين لهم بالسيادة على بلادهم، فلما توفى الخليفة القادر بالله أرسلت الخلافة رسولا إلى السلطان مسعود تخبره بوفاة الخليفة وتولية ولى عهده القائم، فجلس السلطان مسعود للعزاء ثلاثة أيام وأمر بإقامة الخطبة للخليفة الجديد(٣).

وفى الجمعة التى خطب فيها باسم الخليفة الجديد القائم بأمر الله جلس السلطان ومعه رسول الخليفة بعد الصلاة فجاء خزنة السلطان ووضعوا تحت المنبر عشرة آلاف دينار من السلطان للخليفة، ثم أخذت الأموال تتوالى بعد ذلك من الأمراء وأنجال السلطان والوزير، وكبير الحجاب وغيرهم، وكان الموكلون بجمع تلك الأموال يحملونها إلى رسول الخليفة. وهذا دليل على حرص السلاطين الغزنويين على صلات المجاملة بينهم وبين الخليفة العباسى، ومما يجدر ذكره أن السلطان مسعود كان يطلب من الخليفة تفويضا بحكم خراسان وخوارزم وغيرهما. كما طلب من الخليفة قطع صلته بأعدائه ـ خانات تركستان ـ لذلك سخا فى هدية الخليفة(٤).

(١) ابن الجوزى: المنتظم فى أخبار الملوك والأمم جـ٢ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٢) ابن الجوزى: المنتظم فى أخبار الملوك والأمم جـ ٧ ص ٢٩٢ ـ ٣٩٣.
(٣) تاريخ البيهقى ص ٣١٥.
(٤) تاريخ البيهقى ص ٢٠.

وكان السلاطين العزنويون لايترددون فى الاستجابة لشفاعة الخلافة العباسية لأعدائهم، فحينما أرسل الخليفة العباسى كتابا لتعاد أصبهان إلى علاء الدولة كاكوية، وأن يكون نائب الغزنويين فيها ويقدم كل مايوضع عليه من مال الضمان، استجاب له، وبعد مفاوضات استمرت ثلاثة أيام، استقر الرأى على أن يكون علاء الدولة كاكوية نائبا للسلطان مسعود فى أصفهان[1] كذلك يتضح مدى تأثير الخلافة العباسية فى نفوس بيت سبكتكين حينما راح السلطان مسعود ضحية مؤامرة دبرها بعض أبناء أخيه محمد، فأرسل مودود بن مسعود إلى عمه السلطان محمد يستنكر هذه المؤامرة، ويذكره بمدى ما كان يتمتع به والده من تأييد وتقدير الخليفة العباسى، فقال: لقد ركب ابنكم أحمد أمرا عظيما، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدى، والذى لقبه أمير المؤمنين، سيد الملوك والسلاطين[2].

نستطيع أن نقول فى نهاية هذا الفصل أن علاقة البيت الغزنوى بالخلافة العباسية كانت على خير مايرام، يسودها الود والاحترام المتبادل، وكان كل منهما يعترف للآخر بالسيادة والنفوذ.

(١) تاريخ البيهقى ص ٣١٥.
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢.

٢ ـ مع البلاد الإسلامية المجاورة

لما ولى السلطان ناصر الدولة سبكتكين الحكم ٣٦٦هـ- ٩٧٦م تطلع إلى ضم بعض البلاد المجاورة إلى حوزته، فقوى من شأن جيشه وواتته الفرصة لتحقيق سياسته حين طلب منه طغان ـ أمير بست ـ أن يعيده إلى بلده، ويخلصه من المتغلبين عليها فى مقابل الدخول فى طاعته، فرحب سبكتكين بطلب أمير بست؛ لأنه رأى فى ذلك فرصة لتحقيق مطامعه. لذلك سار إلى بست، وشتت شمل غزاتها[(١)]، وأعاد طغان إليها، لكن طغان نكث بالعهد الذى قطعه على نفسه لسبكتكين، لذلك حاربه سبكتكين، واستولى على بست، وضمها إلى دولته، وواصل الأمير الغزنوى سياسته الرامية إلى توسيع رقعة دولته، وسار إلى قصدار، ولما رأى واليها عدم استطاعته، أعلن ولاءه له، فأقره سبكتكين على قصدار، وألزمه بأداء مبلغ من المال كل سنة. وبذلك ضم سبكتكين إلى دولته بست وقصدار.

ظل سبكتكين يعمل على توسيع رقعة دولته حتى وفاته سنة٣٨٧هـ- ٩٩٨م، فاشتملت دولته على زابلستان بأسرها، وأهم مدنها كابل وغزنة وبلاد نيم روز[(٢)] وجبال الغور الحصينة والسغد والملتان.

حرص محمود الغزنوى على منع أى محاولة لانتزاع خراسان من دولته، فأحبط محاولة بكتوزون للسيطرة على خراسان، والاستقلال بها عن الدولة الغزنوية، واسترد محمود الغزنوى سيطرته على خراسان ٣٨٨هـ-٩٩٨م، وأطاعه أهل خراسان، وعهد إلى أخيه نصر بحكمها، واتخذ من نيسابور قاعدة لولايته الغزنوية[(٣)]، وأحبط السلطان محمود الغزنوى محاولة الشاه ـ صاحب غرشتان ـ الاستقلال عن الدولة الغزنوية سنة ٣٨٩هـ- ٩٩٨م.

انتهز خلف بن أحمد ـ والى سجستان ـ فرصة انشغال السلطان محمود الغزنوى بحروبه فى الهند وخراسان، وحاول الاستقلال بسجستان، وأرسل ابنه طاهر إلى قهستان، وانتزعها من الغزنويين، ثم سار إلى بوشنج ـ من أعمال خراسان ـ واستولى

(١) بست من بلاد الأفغان بين هراة وغزنة.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٦٢.

(٣) العتبى: المصدر السابق جـ ١ ص ٣٧، ٣٨.

عليها. على أن السلطان محمود الغزنوى بعد أن فرغ من حروبه، واعتزم استرداد البلاد التى انتزعهـا، خلف بن أحمد، وأرسل جيشا، هزم طاهر بن خلف بـن أحمد، وسار السلطان محمـود الغزنوى بنفسه إلى سجسـتان فتحصن خلف فى قلعـة حصينة، لكن السلطان محمود ضيق عليه الخناق حـتى أعلن ولاءه لغزنة، وافتدى نفسه بمبلغ من المال سنة ٣٩٠هـ-٩٩٩م. غـير أن خلف بن أحـمد عـاد إلى مـحاولة الاسـتقـلال بالدولة الغزنوية، لكن السـلطان محمود الـغزنوى هزمه، كـما ثار عليه جنده بعـد أن قتل ابنه طاهر، وتنازل عن حكم سجستان، واعـتكف فى إحدى القلاع، يقرأ ويؤلف. وبذلك تأكد النفوذ الغزنوى على سجستان سنة ٣٩٣هـ- ١٠٠٢.

كان لسيطرة السلطان محـمود الغزنوى على أقاليم خراسان وسجسـتان وزابلستان أثره فى ازدياد قوة الغزنويين، وعلى أثر ذلك تطلع الغـزنويون إلى السيطرة على بلاد ما وراء النهر، ودارت حـروب عديدة بين السلطان محـمود الغزنوى وبين التـرك وهزمهم عدة هزائم، حتى طلبوا الصلح، وكان لا يثق فيهم، وقال: إن الترك أعداء لنا، يتقربون منا بحكم الضـرورة، وأنهم كلما أوتوا القـوة لايبقون علينـا ولا يجاملون(١). وحاول الترك الاسـتيـلاء على خراسـان، ولكن الجيش الغزنـوى تصدى لهم بكل قـوة وانتهى الصراع بين الترك والغزنويين بسيطرة الغزنويين على بلاد ما وراء النهر، ووقف هجمات الترك على ما وراء النهر وخراسان.

عظم شأن الدولة الغـزنوية فى عهد السلطان محـمود، وقوى شأنهـا، بسبب ما أسبغه هذا السلطان عليها من قوة ظاهرة وباطنة، فقد أسس لها هذا السلطان جيشا قويا لا يزود عنها فحـسب، بل يبسط نفوذها على البلاد المجاورة، ورغب الأمـراء الضعاف الانضواء تحت لوائه، حتى يكفلوا لحكمهم وبلدانهم الأمن والاستقرار فلما ولى منوجهر بن قابوس بن وشمكير، حكم جرجـان وطبرستان وبلاد الجبل سنة ٤٠٣هـ- ١٠١٢م، ولم يستطـع المحافظة على دولته الزيـارية التى ورثها عن آبائه وأجـداده دخل فى طاعة السلطان محـمود، وخطب له على منابر بلاده وبذلك قـوى شأنه أمام الـعناصر المناوئة لسلطانه، والتـزم بأداء خمسـين ألـف دينار سنويا لحكومة غـزنة(٢). وبذلك انضـمت طبرستان وجرجان وبلاد الديلم ـ التى كانت تشكل الدولة الزيارية ـ انضمت إلى الدولة الغزنوية.

---

(١) ناحية قبلة فارس.

(٢) العتبى: المصدر السابق جـ ١ ص ٣٧، ٣٨.

وفى سنة ٤٢٠هـ- ١٠٢٩م، سار السلطان محمود الغزنوى إلى الرى لامتلاكها من صاحبها مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه - الذى كان متشاغلا عن شئون الحكم باللهو والعبث - لذلك اضطربت البلاد، واختل الأمن فاستنجد أهلها بالسلطان محمود الغزنوى، لتخليصهم من حالة الفوضى التى حلت ببلادهم، فسار السلطان محمود الغزنوى إلى الرى، واشتبك مع جندها وهزمهم وضم الرى إلى حوزته، وقبض على مجد الدولة وملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوة ويافت وغيرهما وكان الكثير من سكان هذه البلاد يعتنق المذهب الإسماعيلى، فقبض السلطان(١) محمود الغزنوى على زعماء الباطنية، ونكل بهم، ونفى المعتزلة، وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجوم، ونقل إلى غزنه، ما سوى ذلك من الكتب(٢).

وعلى الرغم من أن منوجهر بن قابوس - والى طبرستان وجرجان - أعلن دخوله فى طاعة السلطان محمود، إلا أنه تراجع عن طاعته، وعز عليه ضياع استقلال دولته، وساند مجد الدولة البويهى فى حروبه مع السلطان محمود الغزنوى. لذلك اعتزم هذا السلطان حمله على طاعته، فلما انتهى من حربه مع مجد الدولة، تحصن منوجهر بن قابوس فى جبال حصينة وعرة المسالك، لكن السلطان محمود باغته فى حصنه الحصين، فهرب منوجهر إلى غياض منيعة، وعرض أموالا كثيرة على السلطان فى مقابل العفو عنه، فأجابه السلطان الغزنوى إلى ذلك، ولم يلبث منوجهر أن توفى وولى بعده ابن أنوشروان(٣)، فأقره محمود على ولايته، وأقيمت الخطبة لمحمود فى أكثر بلاد الجبل إلى مدينة أرمينية، وامتلك ابنه مسعود زنجان وأبهر، وخطب له علاء الدولة كاكوية فى أصفهان، وضم السلطان محمود بعد امتلاكه الرى، همذان، وبذلك اتسعت الدولة الغزنوية فشملت ممتلكاتها فى المشرق الإسلامى طبرستان وجرجان وقزوين وبلاد الجبل، وامتدت إلى أرمينية وضمت هذه الدولة كذلك الرى وأصفهان وهمذان(٤).

كذلك انضمت خوارزم إلى الدولة الغزنوية، فى عهد السلطان محمود، فقد كانت خوارزم إمارة مستقلة، يحكمها آل مأمون، ولما توفى مأمون بن محمد - صاحب

---

(١) تاريخ البيهقى ص ٧٥٣.

(٢) العتبى: المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٢١هـ. Camb. Hist. of IRAN. Vol 5.p. 12.

(٤) العتبى: المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥١ - ٢٥٣. Camb. Hist. of IRAN. Vol. 5. p. 13. Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin.

خوارزم ـ ٣٨٧هـ- ٩٩٧م بايع أهلهـا ابنه على حاكمـا على بلادهم، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته، فخلفه أخوه أبو العباس مـأمون بن مأمون، وكانت علاقته بالسلطان محمود ودية، غير أن السلطان محمود سار على سياسته التوسعية، واعتزم ضم خوارزم إلى حوزته، فأرسل إلى أميرها يطلب منه الاعـتراف بسيادة الدولة الغزنوية على بلاده، وذلك بإقامـة الخطبة له على منابر خوارزم، وإرسـال مبالغ معـينة من المال إلى حكومة غزنة، إلى غير ذلك من مظاهر الولاء والطاعة، فجمع أبوالعباس مأمون أعيان خوارزم، واستشـارهم فى الأمر، فأظهروا نفـورا من ذلك وعدم استجابة، وقـالوا: نحن أتباعك وأولياؤك ماسلم لك الملك مـن الاشتراك[١]، فأما إذا وضـعت خـدك للطاعة، وضعنـا السيـوف على العوائـق خلعا لك، وجـهادا فيك. فـاضطر صاحب خـوارزم إلى إبلاغ السلطان محمود الغزنوى بوجهـة نظر أهل خوارزم المناهضة لانضمام بلادهم إلى الدولة الغزنوية[٢].

وكان لخوارزم جيش قوى، يرأسه كبير الحجاب ألبتكين البخارى، فلما علم الجند بنوايا محمود الغزنوى نحو بلادهم، ورغبة أميرهم فى طاعته، صاحوا بأن ليس لمحمود سلطان علينا، وتحركوا بخـيولهم، وتخلصوا من الأمير وأنصاره وأشـعلوا النار فى قصر الإمارة سنة ٤٠٧هـ- ١٠١٧م ونادوا بابن أخيـه محمد بن على بن مأمـون، أميرا على خوارزم ولم يكن لدى هذا الأمير خبرة ودراية بشـئون الحكم، فصار الأمر والنهى لقائد الجيش ـ البـتكين وأعوانه ـ وصـاروا يفعلون فى البـلاد ما يريدون من القـتل والسلب، ونهب البيـوت حتى نفر الناس من هذا الأمـير الضعيـف، وحكموا البلاد أربعة أشـهر وساموا أهلها خلالها سوء العذاب[٣].

استاء السلطان محمود الغزنوى من موقف جند خوارزم المناهض لتبعية البلاد له، فسـار إلى خوارزم على رأس جـيش كبـير، واشـتبك مع جندهم فى مـعركة هـزمهم فيها، ونكل بقتله حليفه أبى العباس، وقـبض على مثيرى الاضطرابات وأمرهم، فسيقوا إلى بلاد الهند[٤]، وضم السلطان محمود خوارزم إلى دولته.

وخلع أميرها الصغير، واستناب بها حاجـبه أبا سعود التونتاش، فضبط أمورها، وأعاد الأمن إلى نصابه فى هذه البـلاد النائية القابعة على حدود الدولة الغـزنوية، ولقبه السلطان محمود، خوارزمشاه، فاستطاع هذا الوالى الكفء، حماية خوارزم من غارات

(١) العتبى: المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠٧.

(3) Camb. Hist. of IRAN. Vol. S. p. 8.

(٤) العتبى: المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥٥.

الترك، وقبض على جميع أفراد الأسرة المأمونية[١]. وبذلك انضمت خوارزم إلى الدولة الغزنوية.

على أن أمر خوارزم لم يصف للدولة الغزنوية بعد هذا الانتصار الرائع الذى أحرزه السلطان محمود على ثوارها، فقد جمع أحد أنصار الأسرة المأمونية جيشا كبيرا، وانقض فجأة على خوارزم، واستولى عليها، ودارت حرب طاحنة بين جند الدولة الغزنوية وبين أنصار الأسرة المأمونية، وانتهت بسحق أنصار العهد السابق، بعدها عادت هذه البلاد إلى الهدوء والسكينة، وأمن أهلها فى ظل الحكم الغزنوى وانتهت إلى الأبد حكم آل مأمون لخوارزم[٢]، ظل التونتاش بحكم خوارزم بحزم حتى وفاته سنة ٤٢٣هـ - ١٠٣١م فعهد السلطان مسعود إلى ابنه هارون بحكم خوارزم، غير أن هارون خالف أباه فى ولاته للدولة الغزنوية، واتخذ سياسة مناهضة للسلطان مسعود، ووقف إلى جانب السلاجقة فى حروبهم ضد الدولة الغزنوية، بل أعد العدة للمسير إلى خراسان وانتزاعها لنفسه، لكنه قُتل سنة ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م فخلفه أخوه إسماعيل الذى أعلن الاستقلال عن الدولة الغزنوية، فعهد السلطان الغزنوى بولاية خوارزم إلى شاه ملك - أمير جند - وطلب منه أن يتخلص من إسماعيل بن التونتاش وأنصاره، ويعيد خوارزم إلى الولاء والطاعة[٣].

سار شاه ملك إلى خوارزم، وطلب من إسماعيل وأعوانه إخلاءها، ولكن إسماعيل أرسل إليه يقول: إنه لا يتخلى عن خوارزم إلا بالسيف، فكان لابد من الحرب بين الفريقين واشتبك شاه ملك مع إسماعيل بن التونتاش فى حرب انتصر عليه فيها، وعادت هذه البلاد إلى الحكم الغزنوى وولى شاه ملك حكم خوارزم من قبل الغزنويين[٤].

وكان السلطان مسعود لا يألو جهدا فى سبيل توسيع رقعة دولته، متخذا سياسة أبيه، فسار إلى التيز وملكها، واتجه إلى كرمان وامتلكها كذلك.

والخلاصة أن الدولة الغزنوية كونت إمبراطورية كبيرة فى المشرق، ضمت زابلستان وسجستان وخراسان وبلاد ما وراء النهر وفارس وطبرستان وجرجان وبلاد بحر قزوين وكرمان وضمت هذه الإمبراطورية مدنا مزدهرة اقتصاديا وثقافيا مثل عزنه وكابل وبخارى وسمرقند وأصفهان وهمذان والرى ونيسابور وغير ذلك من المدن.

(١، ٢) تاريخ البيهقى: ص ٧٤٥.

(3) Sultan Mahmud of Ghaznin. P. 36.

(٤) تاريخ البيهقى: ص ٧٥٦، ٧٥٧.

العلاقات مع السلاجقة

سنعرف فى دراستنا للدولة السلجوقية، أن هؤلاء الرعاة كونوا دولة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر على حساب الدولة الغزنوية، وواصلوا انتزاع أراضيهم. وفى سنة ٤٣٤هـ- ١٠٤٢م هاجم السلاجقة خوارزم بقيادة طغرلبك واستولوا عليها، وغادرها واليها الغزنوى شاه ملك وعلى ذلك دخلت خوارزم فى حوزة السلاجقة، بعد أن كانت تابعة للدولة الغزنوية.

على أن بعض بلدان خراسان لم تؤيد الحكم السلجوقى لها، بل تطلعت إلى العودة إلى الدولة الغزنوية، ومن بين هذه المدن هراة، فقد وقفت موقفا عدائيا من السلاجقة، وأعلنت العصيان، ونادوا بشعار مودود بن مسعود واشتبك أهل هراة فى معارك مع السلاجقة، تمكنوا من إخلالها إحراز بعض الانتصارات على السلاجقة، ولكنهم لم يستطيعوا المحافظة على بلدهم من خطر السلاجقة، فما لبث أن استعاد السلاجقة سيطرتهم على هراة(١).

واصل السلاجقة سياستهم التوسيعية على حساب الدولة الغزنوية، فاستولى إبراهيم ينال على الرى، ثم سار عنها، واستولى على البلاد المجاورة لها، ثم انتقل إلى بروجرد وامتلكها ثم قصد همذان واستولى عليها سنة ٤٣٤هـ - ١٠٤٢م(٢).

لما ولى مودود حكم الدولة الغزنوية حاول بكل ما يستطيع استعادة البلدان التى انتزعها السلاجقة من دولته، فسير جندا سنة ٤٣٥-٤٣-١٠م إلى نواحى خراسان، وأرسل داود ألب أرسلان لصده، فالتقى الجيشان الغزنوى والسلجوقى فى معركة، انتصر فيها السلاجقة، وعاد الغزنويون أدراجهم خاسرين، غير أن خطر السلاجقة على الغزنويين لم يقف عند حد، بل تجاوز خراسان، واقترب من غزنة، فبلغت إغاراتهم فى نفس السنة، بست، فسيَّر مودود إليهم جيشا، هزم السلاجقة، وقتل منهم كثيرين، وأبعدهم عن بلاده. وبذلك أمن السلطان مودود على حدود دولته من ناحية الجنوب الغربى(٣).

وعلى الرغم من الانتصارات المتكررة التى أحرزها السلاجقة على الغزنويين، فقد ظلت بعض البلدان على ولائها لبيت سبكتكين، ومن بينها أعمال بادغليس، وظلوا يؤدون الأموال المقررة عليهم إلى حكومة غزنة، فسار إليهم ألب أرسلان، وحمل على

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٤هـ.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٤.

(3) Camb. Hist. of HRAN . vol. 5. P. 42.

٣ـ مع بلاد الهند

يرجع اهتمام المسلمين ببلاد الهند إلى عهد الخلفاء الراشدين، فقد شنوا عدة حملات على أطراف هذه البلاد، على أن أول حملة نظامية على بلاد الهند بدأت فى عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك، إذ أذن للحجاج بن يوسف الثقفى ـ عامله على بلاد العراق ـ بإنفاذ حملة إلى الهند، فأرسل عدة حملات لم تصل كلها إلى نتيجة حاسمة(١)، فأعد جيشا أسند قيادته إلى ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى سنة ٩٢هـ-٧١١م، وعنى الحجاج بتزويد هذا الجيش بما يحتاج إليه من المؤن والمعدات حتى الخيوط والقطن المحلوج المنقوع فى الخل(٢).

احتشدت القوات الإسلامية فى شيراز، وزحفت إلى ثغر مكران ومنه اتجهت جنوبا إلى ديبل، وانضم إلى المسلمين جموع كثيرة من الميد والجات وتسميهم المراجع العربية الزط، وهما قبيلتان عربيتان هجرت ديارها فرارا من بطش وجور الحكومة البرهمية التى كانت تعتبرهم في عداد المنبوذين، وتحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء الملابس الراقية، ولا يمارسون إلا أحط المهن(٣).

قوى شأن المسلمين بالميد والجات، واتجهوا إلى ديبل، واشتبك الجيش العربى مع داهر ـ ملك السند ـ فى معركة عنيفة، واستخدم المسلمون أسلحة قوية من بينها منجنيقا يسمى العروس يديره خمسمائة جندى، وانتهت ـ المعركة بهزيمة داهر، واستولى المسلمون على ديبل وأقام بها محمد بن القاسم مسجدا، وترك بها حامية تتكون من أربعة آلاف جندى(٤). وأصبحت ديبل أول مدينة عربية فى السند.

غير أن داهر لم يستسلم للهزيمة، بل عول على مقاومة الزحف الإسلامى، فاتجه إلى الداخل. وأعد العدة لاستئناف القتال فى موضع يقع شرق مصب السند ظنا منه أن النهر يعرقل عبور المسلمين له، لكن محمد بن القاسم تمكن هو وجنده من عبور النهر على عدد من الزوارق. ولما شعر داهر باقتراب القوات الإسلامية منه لجأ إلى

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٢٥٢.

(2) Lane Poole: IBID. P. 8.

(3) Chand: Influence of Islam in India P. 32.

(4) Lane Poole: Medieval Indiap. 8.

حصن الرور، فباغته المسلمون، وعلى الرغم من استخدام الهنود الفيلة والنبال والنفط فإنهم هزموا شر هزيمة(١)، واستولى المسلمون على الرور، وتقدم محمد بن القاسم صوب الشمال، وتمكنت قواته من الاستيلاء على برهماناباد(٢). وواصل العرب تقدمهم صوب الشمال يستولون على البلدان التي فى طريقهم حتى بلغوا الملتان، واستولوا عليها عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة(٣).

كان لاستيلاء العرب على الملتان أهمية كبيرة، نظرا لأهميتها الكبيرة عند الهنود من الناحية الدينية، إذ يوجد بها المعابد الكبيرة يحج إليها الهنود من كل حدب وصوب، ويهدون الأموال إلى الصنم المقام هناك. وينذرون له النذور، ويطوفون به، ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده، وبسقوط الملتان فى أيدى العرب أصبح وادى السند بأكمله في حوزتهم، ورحب الهنود بحكم المسلمين لهم لأنهم قاسوا كثيرا من ظلم وجور الهندوس، وتجلى ذلك فى إقبالهم على محمد بن القاسم يدقون الأجراس، ويقرعون الطبول، ويرقصون رقصاتهم الشعبية(٤).

عوّل محمد بن القاسم بعد أن أقر الأمور فى البلاد التي فتحها على غزو مملكة قنوج، أعظم إمارات الهند ـ لكن مشروعه لم يقدرله أن يتحقق؛ ذلك أن الحجاج توفى سنة ٩٥هـ. وبعد ذلك بقليل توفى الخليفة الوليد بن عبدالملك، وخلفه أخوه سليمان ابن عبدالملك، الذى كان يعترض على سياسة سلفه، فعهد بحكم العراق إلى صالح بن عبدالرحمن، وعزل محمد بن القاسم عن السند، وولى بدلا منه يزيد بن أبى كبشة، وأمره بالقبض على محمد بن القاسم، وإرساله إليه وسيق فاتح السند مقيدا بالسلاسل إلى واسط حيث أودع فى السجن ولقى حتفه(٥) بعد ذلك بقليل.

ومما لاشك فيه أن عزل محمد بن القاسم عن السند كان خسارة كبرى أصابت مركز المسلمين فى هذه البلاد؛ ذلك أن البلاد التي دخلت فى حوزة المسلمين، انتقضت على الحكم الإسلامى، وانشغل الولاة الأمويون في المحافظة على ممتلكات المسلمين فى السند، بدلا من أن ينطلقوا فى الفتح، على أن الحكم بن عوانة كان من خيرة ولاة

(1) Lane Poole: Medieval India. P. 9.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٤٤٤.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٤٤٤.

(4) Lane Poole: Medieval India P. 10.

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٤٤٦.

السند بنى مـدينتى المحفوظة والمنصـورة على شاطئ السند، وصـارت الأخيرة حـاضرة للمسلمين فيما بعد، وقد سار فى الناس سيرة حسنة، وأطلق للهنادكة حرية العبادة(١).

ولما سقطت الدولة الأموية، وقـامت الدولة العباسية، حـافظ خلفاؤها على بلاد الهند الإسلامية. وعملوا على توسيع رقعتها، ففى عهد الخليفة المنصور، دخلت كشمير فى حوزة العـباسـيين، وأكد العـباسيـون سيطرتهم علـى الملتان(٢)، وتتابـعت غزوات المسلمين فى بلاد الهند، فـفى عهد الخليفـة المهدى سنة ١٥٩هـ استـولى المسلمون على مدينة باربد، وأحرقـوا تمثال باربد، ومازالت فتوحـات المسلمين تتابع فى بلاد الهند فى عهـد المأمون والمعتـصم حتى سـيطر المسلمون على البلاد الـواقعة بين كـابل وكشمـير والملتان(٣).

ولما ضعفت الدولة العباسية، عجزت الحكومة المركزية عن السيطرة على أطرافها، لذلك استقل حكام الأقـاليم عن بغداد، وقامت فى السند إمارتان مستـقلتان، إحداهما فى الجنوب وعاصـمتهـا المنصورة، وإمارة فى الشـمال وعاصـمتهـا الملتان، واستـقرت أمورهمـا نتيجة لتـحسن أحوالهـما الاقتصـادية، والنشاط التجـارى بين السند والشرق والغرب وازدهرت فيها العلوم والحضارة، وآوى إليهما الفارون من بطش الخلافة(٤).

أهمل الخلفاء العـباسيون فى العصـر العباسى الثانى شـأن إقليم السند، حتى أن الخليفة الضعـيف المعتمد أقطعها ليعقـوب بن الليث الصفار مع بعض البلدان المجاورة، حتى لايتطلع إلى السيطرة على العراق(٥).

وترتب على إهمال الخلفاء لبلاد السند نشاط الإسماعيليين بها. فقامت فى الملتان حكومة إسماعيليـة فى القرن الرابع الهجرى، إذ كانت أرضا خصبـة راجت فيها المبادئ الإسماعيلية، ووجـد فيها الدعاة الإسماعيليون استـجابة قوية، والتف حولهم القرامطة الذين قـدموا إلى السند من البـحرين وبلاد فـارس ومكنوا القائد الإسـماعـيلـى جلـم ابن شيبان من السيطرة على مقاليد الأمور فى الملتان(٦). أما إمارة المنصورة فقد تعرضت لكثير من الاضطرابات نتيجة لضعف حكامها واختلافها على أنفسهم.

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٤٩.
(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٤٩.
(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٥٠.
(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٢٥٦.
(٥) الساداتى: تاريخ المسلمين في الهند جـ ١ ص ٢٥.
(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ٧٥.

ظل الهنود في مأمن من الغـزو الإسلامى حتى النصف الأخيـر من القرن الرابع الهجرى، إذ قوى شأن الأتراك الغزنويين فى أفغانسـتان، وكلما قويت أفغانستان زحفت قبـائلها تغزو فـى بلاد الهند، وإذا ضعف شأنهـا وتدهورت، أمن الهنود [١]، أما وقد عظم شأن سـبكتكين وابنه محمـود فى أفغانسـتان وصار لهـما جيش قوى، فـقد ازداد النشاط الإسلامى فى بلاد الهند، وكان الشمال الـغربى فى بلاد الهند منقسما بين أمراء كثيرين من الراجـبوتيين يعترفون لراجا دلهى بالغلبة والتـفوق، أما راجا قنوج فكان فى حوزته إمارة أوده وإمارة وادى الكنج[٢].

وقـبل أن نتحـدث عن الفـتوحـات الغـزنوية فى بلاد الهند يجـدر بنا أن نناقش الأسباب التى حملت الغزنويين على شن حملاتهم المتتابعة على هذه البلاد.

لما قوى أمـر سبكتكين في غزنة، وضم إلى ملكه بعض البلدان المجـاورة، وأنشأ جيـشا قويا من الأفـغان والترك، رأى ضرورة الانـطلاق بتلك القوة الهائلة إلى مـيدان فسيح، ولم يكن فى استطاعته الاتجاه نـحو بلاد العراق؛ لأن البويهيين كانوا قد وطدوا نفوذهـم فيها، كما أن بلاد ما وراء النهـر كان القره خانيون يعملون على بسط سيطرتهم عليهـا، وانتزاعها من السـامانيين، لذلك انطلق الغزنويون إلى بلاد الهند من منطقـتهم الوعرة كما سنرى[٣].

ومما لاشك فيه أن الرغبة فى الجهـاد ورفع راية الإسلام فى غير بلاد الإسلام من أقوى الأسبـاب التي دفعت الغزنويين إلى القـيام بفتوحـاتهم، فمن الثابت أن مـحمود الغزنوى كان مسلما قوى العقيدة، تواقا إلى نشر الإسلام[٤].

سار سـبكتكين سنة ٣٧٧هـ-٩٧٦م على رأس جـيش كبـير إلى بلاد الهنـادكة، ويحكمهـا جيبـال - راجا البراهمة - وتقـع مملكته فى شمال غـرب الهند من الكنج إلى الأفغان، ومن كشمير إلى الملتان[٥] وفتح قلاعا حصـينة على شواهق الجبال، ومن بينها مدينة كابل، وعاد إلى بلاده سالما ظافرا [٦]، ولقد كان لاستيلاء سبكتكين على كابل أثر

---

(1) Panikar A survey of India. P. 122 - 123.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٢١٧ ، ٢١٨.

(٣) حسن أحمد محمود: الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٢٣٩.

(٤) جوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٣١٨.

(٥) الساداتي: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جـ ١ ص ٨٤.

(٦) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ١ ص ٨٤.

كبير فى إضعـاف شأن مملكة جيبال(١)؛ ذلك أن كـابل تسيطر على المسـالك المؤدية إلى السهل الهندى الخصيب(٢)، ومما هو جدير بـالذكر أن يعقـوب بن الليث الصفـار لما مد فتوحه إلى كابل سنة ٢٥٩هـ (٨٧١م) وجد أهل هذه البلاد لايزالون على الوثنية، فنشر الإسلام بينهم (٣) وتوطد في عهـد سبكتكين وابنه مـحمـود كما انتـشر فى كـافة بلاد الأفغان(٤).

غيـر أن جيـبال عظم عليـه استـيلاء المسلمين على أطراف مملكـته ورأى أن ذلك يشكل خطرا كبيرا على ملكـه، إن هو تغاضى عن ذلك، فحشد جيشا كـبيرا سار على رأسه إلى حدود الدولة الغزنوية (٥)، فسار سبكتكين من غزنة إليه ومعه جمع غفير من الجند والمتطوعـة ونشب قتـال بين الفريقين انـتهى بانتـصار المسلمين على أعـدائهم(٦)، وأرسل ملك الهند إلى سـبكتكين يعـرض عليـه الصلح على مال يـؤديه وبلاد يسلمهـا وخمسين فيلا يحملها إليـه، لكن محمود بن سبكتكين أقنع أباه برفض الصلح، إذ أبى ألا يكون فيصل الحرب عنوة وقهرا حتى يتم النـصر للمسلمين، على أن جيبال عاد إلى طلب الصلح، وهدد بأن الهنادكة لايهابون الموت إذا طرقهم طارق، فـهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار. ويخربون بيوتهم بأيديهم، ثم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم، فيزهقون أرواحهم بأيديهم، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا تلالا خربة(٧) عندئذ عدل سـبكتكين وابنه محمـود عن موقفهـما، وتم الصلح بين الفريقين(٨) على ألف ألف درهم وخـمسين رأس من الفيلة يؤديهـا جيبـال إلى السلطان الغزنوى، وتنازل له عن عدد من البلدان والقلاع، وسير معه سكبتكين من تسلمها.

غيـر أن جيـبال نقض الصلح، وقـبض على المسلمين الذين وفـدوا عليه لتنفـيذ شروط الصلح، وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه الموجودين عند سبكتكين، فلما نمى إلى علم السلطان الغـزنوى لم يقف مكتوف اليـدين، بل عول على النفـاذ إلى أرض العدو وإعادة إخضاع جيبال، فسار إلى مملكته، وعاث جـنده فيها فسادا وتخريبا، وقصد لمغان

---

(1) Lane Poole: Medieval India. P. 17.

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٨.

(3) Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin. P. 14.

(٤) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٧٥ - ٧٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٣٦٦هـ.

(٦) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ٦ ص ٧٩ - ٨٤.

(7) Munshi: The Struggle for Empire. p. 3.

(8) Lane Poole: Medieval India, p. 17.

- وهى من أحسن قلاعهم - فاستولي عليها وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعائر الإسلام، وسار عنها يفتح البلاد، وينكل بمن يعترض طريقه من الهنود. وعاد إلى غزنة[١] فاستعان جيبال على خصمه بأمراء أجمير ودلهى وكلنجر، وأعدوا جندا جاوز المائة ألف مقاتل، ولكن سبكتكين باغتهم. وشتت شملهم فاضطر الأمراء المتحالفون إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيلة وعشرة آلاف من رءوس الخيل.

أسفرت غزوات سبكتكين لبلاد الهند عن امتلاكه بعض البلدان والقلاع فى الشمال الغربى من شبه القارة الهندية وتقع على وجه التحديد بين لمغان وبشاور، مهدت لخلفائه سبيل فتح المزيد من البلدان الهندية، كما أدت انتصارات سبكتكين على أعدائه إلى ازدياد قوته وهيبته، فأطاعه الأفغانية والخلج وأصبحوا مصدرا هاما يمده بالجند الضرورى لتحقيق سياسته[٣].

سار محمود الغزنوى على سياسة أبيه التى تنطوى على بسط سيطرة الدولة [٤] الغزنوية على بلاد الهند، وساعد على ذلك قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية، ووقوعها على قمة الهضبة التى تشرف على سهولها ورأى فى بلاد الهند ميدان الجهاد الأكبر فغزاها سبع عشرة غزوة فى مدى سبعة وعشرين عاما فيما بين عامى (٣٩١ - ٤١٧/ ١٠٠٠ - ١٠٢٦) حتى خضع له شمال القارة الهندية[٥] فأتم فتح إقليم كابلستان، وفتح ملتان وكشمير، وسعى إلى نشر الإسلام وإحلاله محل البرهمية فى كل مكان[٦]، وأخضع البنجاب حيث استطاع خلفاؤه من بعده أن يثبتوا سلطانهم على عاصمتهم لاهور طوال مائة وخمسين سنة واندفع فى فتوحاته إلى ما وراء نهر الكنج فتوحه فى الهند باحتلال كجرات[٧].

ولتفصيل ذلك نقول: إن السلطان محمود الغزنوى لما فرغ من إقرار الأمور فى خراسان وسجستان رأى أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين،

---

(١) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٧٩ - ٨٤.

(2) Morel: A Short Hist. of India. P. 143.

(٣) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٨٤ - ٨٨.

(4) Munshi: The Struggle for Empire. p. 4.

(5) Hitti: History of the Arabs. P. 376.

(6) Lane Poole: Medieval India under Mohammedan

(7) Browne' A Literary Histary of Persia Vol. I. p. 376.

فسار على رأس جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل [1] وعند مدينة بشاور التقى بجيش جيبال الذى يتكون من اثنى عشر ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيلة، ونشب القتال بين الفريقين، وهزم الهنود وقتل منهم كثيرون، وأسر جيبال ومعه جماعة من البلدان الهندية، ولما وضعت هذه الحرب أوزارها وحطت من الظهور أثقالها وافق السلطان محمود على إطلاق سراح جيبال [2] بعد أن افتدى نفسه بمال كثير وعدد كبير من فيلة الحرب، ولم يستطع الأمير الهندوكى بعد أن أطلق سراحه أن يبقى على قيد الحياة بعد أن لحقه الذل والعار، فألقى بنفسه فى النار فاحترق فى شوال سنة ٣٩٢هـ - ١٠٠١م[3].

ثم سار السلطان محمود نحو الهند وانتصر على أهلها ثم قصد إقليم الملتان وهو مركز مشهور للحجاج الهنود، وقد وصف الإصطخرى[4] صنم البراهمة فى الملتان فقال: إن أهل الهند يعظمون هذا الصنم ويحجون إليه من أقاصى بلدان الهند، ويتقربون إلى الصنم فى كل سنة بمال عظيم ينفق على بلد الصنم والمتعلقين به، وصورته على خلقة الإنسان متربع على كرسى من جص وآجر، والصنم قد أُلبس جميع بدنه جلدا، لايتبين من جثته إلا عيناه، فمنهم من يزعم أن جسده خشب، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب، إلا أنه لايترك بدنه ينكشف، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، متربع على ذلك الكرسى، قد جعل ذراعيه على ركبتيه، وقد قبض أصابع يديه كأنما يحسب أربعة[5].

لما قصد السلطان محمود الملتان، غزا بهاطية - جنوب بلاد البنجاب - وصاحبها يسمى بحيرا - وهى مدينة حصينة عالية السور، ويحيط بها خندق عظيم فامتنع صاحبها بها، ولما شدد المسلمون عليه الحصار، وأدرك ضعفه ووهنه أمام القوات الغزنوية أخذ جماعة من ثقاته واعتصم بالجبال المجاورة، فسير إليه السلطان الغزنوى فرقة من جيشه باغتته على غرة وأنزلت به الهزيمة، ودخلت بهاطيه فى حوزة محمود بن سبكتكين، وأقام

---

(1) Munshi: The struggle for Empire p. 6.

(2) Lane Poole: Medieval India. p. 14.

(٣) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٣٦١ ، ٣٦٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٣٩٢هـ.

(٥) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٦٦ ، ٧٠.

بها حتى أصلح أمورها ورتب قواعدها، ودعا أهلها إلى الإسلام واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها تعاليم الدين الحنيف(١).

وفى العام التالى قصد السلطان محمود مدينة الملتان وانتصر وهو فى طريقه إليها على أندبال بن جيبال الذى رفض مرور القوات الإسلامية من بلاده ووصلت القوات الغزنوية الملتان واستولت عليها ولاذ صاحبها بالفرار.

اتجه السلطان محمود بعد ذلك إلى قلعة كواكير فاستولى عليها، وأحرق أصنامها، واعتصم وتحصن صاحبها فى قلعة منيعة فحاصره السلطان الغزنوى وضيق عليه الحصار وما لبث أن صالحه وعاد إلى خراسان لإنقاذها من غارات الترك (٢) وعهد إلى نواسة شاه حفيد جيبال - الذى اعتنق الإسلام ودخل فى طاعة السلطان الغزنوى- بأن ينوب عنه في حكم بلاد الهند الغزنوية، لكن نواسه شاه لم يكن مخلصا لغزنة، فانتهز فرصة ابتعاد محمود بن سبكتكين عن بلاد الهند، وارتد عن الإسلام، ومالأ أهل الكفر والطغيان(٣)، فلما علم محمود بذلك أسرع إلى بلاد الهند ففر نواسه من بين يديه، واستعاد السلطان محمود تلك الولاية، وأعادها إلى حكم الإسلام، واستخلف عليها رجلا من ثقاته(٤).

لما رأى أمراء الهند انتصارات السلطان محمود الغزنوى فى بلادهم وتهديده لاستقلالهم عقدوا العزم على الاتحاد والوقوف يدا واحدة أمام الخطر الغزنوى الزاحف على بلادهم، لذلك حشدوا جيوشهم بأرض البنجاب فى حماس بالغ، واشتبكوا مع القوات الغزنوية بقيادة السلطان محمود الذى حمل عليهم حملة لم يستطيعوا الصمود إزاءها، ففر أمراؤهم، ولم يستطع جنودهم الصمود أمام ضربات الغزنويين القوية فلاذ من نجا منهم بالفرار، واستولى السلطان محمود على عتاد وذخائر وكنوز الجيوش الهندية(٥)، ولم يكتف بذلك، بل أرسل بعض قواته فى أثر فلول العدو المهزومة فلحقت بإبرهمن بال بن أندبال(٦) فى قلعة بهيم نغر - وهى على جبل عال - وكان

(١) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٦٦- ٧٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٣٩٥هـ.
(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٣٩٦هـ.
(٤) نفس المصدر، حوادث سنة ٣٩٧هـ.
(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٣١٦.
(6) Munshi: The Stuggle for Empire. p. 8.

الهنود قد جعلوها مخزنا لصنمهم الأعظم، فينقلون إليها أنواع الذخائر، ونفيس الجواهر منذ سنين طوال. تقربا إلى هذا الصنم، فحاصر القلعة الجند الغزنوى، وضيقوا على من بها الحصار حتى وهنوا واستسلموا وفتحوا باب الحصن، وملك المسلمون القلعة (١) وحصلوا منها من نفيس الجواهر ما لا يحد، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم، ومن الأوانى الذهبية والفضية الشيء الكثير، وكان ذلك سنة ٣٩٨هـ(٢) سنة ١٠٠٧م.

وفى سنة ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ قام السلطان محمود بغزوة أخرى إلى بلاد الهند فهاجم تارين، واستولى عليها، وحطم أصنامها، ولما رأى صاحب تارين عدم استطاعته الوقوف فى وجه السلطان محمود عرض عليه الدخول فى طاعته وأرسل عددا من فيلة ومال عظيم وألف رجل من عسكره إليه كل عام، فأجابه السلطان محمود إلى طلبه، وتتابعت القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند فى ضمان الأمان وجوار الحيطة والإحسان(٣).

بلغت فتوحات السلطان محمود فى بلاد الهند حدا لم تبلغه رايات الإسلام المنصورة قبلا، ودخل فى دين الله أفواج عديدة من أهل الهند ومع ذلك لم يتوقف السلطان محمود الغزنوى عن سياسته فى مواصلة ضم المزيد من البلاد الهندية إلى دولته، فسار فى سنة ٤٠٤هـ - ١٠١٣م على رأس جيش كبير إلى ناردين، فسقط فى يد صاحبها. لذلك آوى هو وجنده إلى جبل عال صعب المرتقى ضيق المسلك، لعله يعصمهم من يأس الجند الغزنوى(٤) وكتب إلى قومه يدعوهم إلى الوقوف إلى جانبه، فكثر جمعه، وعظمت قوته ودخل مع المسلمين فى معركة دارت فيها الدائرة عليه، وقُتل من جنده كثيرون، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم، وفتح المسلمون ناردين فتحا طرزوا به شعائر الإسلام، ووجدوا فى بيت كبير صنما قيل: إنه بُنى منذ أربعين ألف سنة دمره السلطان محمود(٥).

---

(1) Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin. p. 29.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٣٩٨هـ.

(٣) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ٢ ص ٩٤ - ٩٩.

(4) Munshi: The Struggle for Empire p. 9.

(٥) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ٢ ص ١٤٨ - ١٥٢.

حرص السلطان محمود على الوقوف فى وجه أمراء البلدان الهندية الذين يحاولون النيل من سلطانه فيها، ففى سنة ٤٠٥هـ - ١٠١٤م سار السلطان محمود إلى ثانيشر لإخضاع صاحبها الذى تمادى فى الكفر والطغيان والعناد للمسلمين(١) فلقى فى طريقه أودية وعرة المسالك وقفارا فسيحة قليلة الماء، قاسى جنده فى قطعها مشقة(٢) بالغة، وحمل الجند الغزنوى على أهل ثانيشر حملة أدت إلى هزيمتهم، وغنم المسلمون ما معهم من أموال وفيلة، وعادوا إلى غزنة ظافرين، وترتب على هذا الانتصار أن دان للمسلمين إقليم البنجاب وأصبح الطريق إلى سهول الهند ممهدا أمامهم(٣).

كان من أثر الانتصارات الرائعة التى أحرزها السلطان محمود فى بلاد الهند والغنائم الكثيرة التي حصل عليها جيشه المظفر، أن كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أوانى الفضة لثقلها اكتفاء بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر. والمعروف أن أوانى المعابد الهندية وأكثر الآنية التي تزخر بها دور الأغنياء لم تكن فى الغالب إلا من الذهب الخالص، لذلك قدم على السلطان محمود من المتطوعة عشرون ألف مقاتل من بلاد ما وراء النهر وغيرها من البلاد، فقوى بهم، واعتزم غزو كشمير المجاورة لممتلكاته الهندية(٤) ولما بلغ بقواته خشى أمراؤها بأسه، فأرسلوا رسولا إليه يبذلون الطاعة والولاء له، ولما بلغ مشارف كشمير أتاه صاحبها وأسلم على يديه، وواصل الغزنوى زحفه، وفى طريقه استولى على الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب فاستسلم صاحبه للسلطان محمود، ودخل هو وقومه فى الإسلام. وسار عنه السلطان الغزنوى إلى قلعة كلجند(٥)، والطريق إليها غياض ملتفة لايمكن اجتيازها إلا بشق الأنفس، وكان صاحبها كما يقول العتبى(٦) من أعيان الهند وشياطينهم، فسير جيشه إلى أطراف تلك الغياض كى يمنع المسلمين من اجتيازها، لكن الجيش الغزنوى أحبط محاولة الذين يحاولون النيل من سلطانه فيها، ففى سنة ٤٠٥هـ-١٠١٤م سار منه، وقد ألحق

(1) Munshi: The Struggle for Empire. p. 12.

(٢) العتبى : تاريخ اليمينى جـ ٢ ص ١٤٩ - ١٥٢.

(٣) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جـ ١ ص ٩٢.

(4) Munshi: The Struggle for Empire. p. 12.

(5)Defremery: Hist. des Ismaeliens. p. 30.

(6) K Ali : A New Hstory of Ghaznin. p. 37.

بالعدو خسارة فادحة(١)، وعمد كليجند إلى زوجته فقتلها، ثم قتل نفسه بعدها، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه(٢) وسار محمود إلى بيت الأصنام المشهور بهذه البلاد، به خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر، فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألف وثلاثمائة مثقال فأخذ السلطان الغزنوى كل ذلك وأحرق الباقى(٣).

لم يكتف السلطان محمود بما حققه من انتصارات، إنما واصل سيره إلى قنوج، فغادرها راجيبال - صاحبها - فاستولى عليها محمود وعلى قلاعها وأعمالها، ثم سار إلى قلعة البراهمة، ودار قتال بين الغزنويين وبين أهلها، دارت فيه الدائرة على الهنود، ولم ينج منهم إلا الشريد(٤) ثم اتجه إلى قلعة آسى، ولما لم يستطع جند بال مواجهة القوات الغزنوية، لاذ بالفرار. وعلى ذلك امتلك محمود الغزنوى حصنه، ثم سار إلى قلعة شروة، ولم يستطع صاحبها أيضا الثبات أمام القوات الغزنوية، وقتل أكثر جنده، وغنم المسلمون ما معه من أموال(٥) وخيل، وعاد محمود بن سبكتكين إلى غزنة ظافرا، وأنفق ماحصل عليه من هذه الغزوة من مال وفير فى تشييد مسجد كبير فى غزنة(٦).

على أن ملوك الهند لم يستسلموا لما لحقهم من هزيمة، وسقوط بلادهم البلدة تلو الأخرى فى أيدى الغزنويين، بل عولوا علي التخلص من نفوذ وسيطرة غزنة، وقد تزعم هذه الحركة الاستقلالية بيدا - ملك كجوراهه والتف حوله ملوك الهند، غير أن راجيبال فاجأ حلفاءه وخرج عليهم، وعاد إلى الولاء إلى الدولة الغزنوية فباغته كجوراهه وقتله، فازدادت قوته ورأى فيه ملوك الهند خير من يقودهم فى معركة تحرير بلادهم من سيطرة الغزنويين، لكن السلطان محمود بن سبكتكين لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا الخطر الداهم الذى يهدد دولته فى الهند، بل سار سنة ٤٠٩هـ-١٠١٨م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهند، وعبر نهر الكنج والتقى بالقوات المتحالفة. ولقد كان لظهور السلطان محمود فى الميدان أثر كبير على أعدائه، فأخذهم الهلع والفزع، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئا، إذ انقضت عليهم القوات الغزنوية وألحقوا بهم الهزيمة،

(١) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ص ٩٣.
(٢) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ٢ ص ٢٦٧ - ٢٧٦.

(3) Munsni: The Struggle for Empire. p. 15.
(4) Munshi: The Stuggle for Empire. p. 15.

(٥) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٩.

(6) Lane Poole: Medieval India p. 25.

ولما رأى ملوك الهند عدم جدوى التصدى للسلطان الغزنوى، أرسلوا رسلا إليه، يبذلون الطاعة والإتاوة، فقبل منهم محمود الصلح[١] وسار فى أثر بيدا، والتقى به فى موقعة كبيرة نصر الله فيها المسلمين على أعدائهم، وغنموا أموالهم وسلاحهم واقتفوا فلول المهزومين، وباغتوهم فى الغياض والآجام، وأكثروا فيهم القتل والأسر[٢].

تتابعت غزوات وانتصارات السلطان محمود فى بلاد الهند، واتسعت أملاك الدولة الغزنوية فى هذه البلاد، وعظمت هيبته فى نفوس أهلها، وتوقفوا عن مقاومة النفوذ الغزنوى، على أن أعظم غزوات السلطان محمود حدثت سنة ٤١٦هـ- ١٠٢٥م، إذ فتح عدة حصون ومدن واستولى على الصنم المعروف بسومنات. وهو أعظم أصنامهم، يحجون إليه كل ليلة خسوف، ويعتقد الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأحياء. اجتمعت فيه، فينشئها فيمن يشاء، وكانوا يحملون إليه نفائس الجواهر، ويعطون سدنته المال الوفير، وله وقف يزيد على عشرة آلاف قرية. يفد إليه البراهمة لعبادته، وإقامة الحفلات الدينية على بابه، ويعتقد الهنود أن السلطان محمود فى غزواته كلما حطم صنما، يعتقدون أن سومنات غير راض عنه ولو أنه راض عنه لأهلك من قصده بسوء[٣] ويعتقدون أن هذا الصنم يحيى ويميت، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل، ومن لم يصادف من أهل الهند انتعاشا احتج بالذنب[٤] وقال: إنه لم يخلص له الطاعة، ولم يستحق منه الإجابة، ولا يوجد فى بلاد الهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا قدم لهذا الصنم ما عز عليه من أموال وذخائر[٥].

---

(١) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ٢ ص ٣٠١ ـ ٣٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٤٠٩.

(٣) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ٢ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٧.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٩٧٣.

Morel: A Short History of India. P. 148.

(٥) سومنات: مدينة ساحلية واسعة بها علماء الهنود وعبادهم والصنم المعروف بها يسمى البد، يجلس على كرسى من ذهب وهو مضمخ بالمسك فى رأسه إلى الكرسى ومقلد بعقود الياقوت والجوهر وأمامه أطباق ذهب مملوءة من الأحجار الشريفة الثمينة. والكرسى على مقعد مستدير يسع عشرة رجال، وبيت الصنم مظلم، والضوء الذى عنده من قناديل الجوهر الفائق، وعندها سلسلة ذهب فيها كرسى كلما مضى وقت من الليل، حركت السلسلة فيدق الجرس، فتقوم طائفة من البرهميين إلى عبادتهم، وعنده خزانة خاصة فيها عدد من الأصنام الذهبية والفضية.

لم يهاجم محمود الغزنوى سومنات لتدمير صنم أو الاستيلاء على مافيه من أموال كما يدعى بعض المؤرخين، ولكن لأن سومنات كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى في وجه الزحف الإسلامى، ومهما يكن من أمر سار السلطان محمود على رأس جيش كبير سنة ٤١٦هـ - ١٠٢٥م فاقتحم صحراء جرداء قاحلة مترامية الأطراف هى صحراء الثأر - أكبر صحراوات الهند - فلما اجتاز هذه الصحراء، رأى فى طرفها حصونا مشحونة بالرجال ففتحها ودمر أصنامها، وحصل منها على الماء والميرة اللازمتين لرجاله وسار إلى أنهلواره، ففر صاحبها منها، واحتمى بحصن له، فاستولى محمود على المدينة وسار إلى سومنات[١] ودمر فى طريقه عددا من الحصون فيها كثير من الأوثان فيما يبدو - حجابا ونقباء لسومنات - حسب اعتقاد الهنود[٢] - فقاتل من بها، وفتحها، وحطم أصنامها وسار إلى سومنات[٣]، وقضى على كل مقاومة اعترضت طريق الوصول إليه، ولما بلغ حصن سومنات، قاتل من به، وأسرعوا إلى صنمهم سومنات ليقاتلوا عنه، وفعلا قاتلوا على بابه بعنف وضراوة [٤] وتضرع الهنود إلى صنمهم لعله ينصرهم، وحمل الجند الغزنوى عليهم حملة أفنت الكثير منهم، وحطم السلطان محمود الصنم سومنات وأحرق بعضه، وأخذ بعضه معه إلى غزنة، وجعله عتبة مسجد غزنة الجامع[٥].

غير أن بعض ملوك الهند قد أغضبهم ما حاق بمعبودهم الأكبر فأعدوا العدة لمقاومة السلطان محمود، فخرج صاحب أنهلوارة وقصد قلعة كنزهة - قرب سومنات - ولما نمى إلى علمه أن السلطان محمود قصده، فر إلى بلاده[٦]، كما قصد السلطان الغزنوى المنصورة[٧]، وكان صاحبها قد ارتد عن الإسلام، وأعد العدة لمحاربة السلطان محمود - فسار السلطان الغزنوى إلى المنصورة واشتبك مع صاحبها وهزمه وأخضعه لنفوذه، ثم سار إلى بهاطية، فأطاعه أهلها ودانوا له بالولاء، وعاد إلى غزنة سنة ٤١٨هـ - ١٠٢٧م [٨].

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٤١٦هـ.
(٢) العتبى: تاريخ اليمينى جـ ٢ ص ٣٠٤ - ٣٠٧.
(٣) أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر جـ ٢ ص ١٦٣ .

(4) Hitti: History of the Arabs p. 464.
(5) Habib : Sultan Mahud of Ghaznin. p. 51 - 53.
(6) Lane Poole: Medieval India under Mohammedan Rule. p. 26 - 77.
(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٤١٧هـ.
(8) Munshi : The Struggle for Empire p. 4.

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوجرات، وارتاح إلى مناخه، حتى أنه فكر فى الإقامة فيه، واستخلاف ابنه مسعود على غزنة لولا اعتراض قادته، ومهما يكن من أمر فإنه يمكن اعتبار محمود الغزنوى سلطانا هنديا خالصا، فتح إقليم البنجاب، ونشر الإسلام فى ربوع الهند، وفتح طريقا سلكه بعده كثيرون(١)، وقنع خلفاؤه بعد أن فقدوا أملاكهم فى فارس وأفغانستان بالاستقرار فى إقليم البنجاب(٢) ولم تكن غاية محمود من غزواته فى بلاد الهند جمع الأموال - كما يدعى بعض المؤرخين - حقيقة أن محمود الغزنوى غنم الكثير من غزواته، لكن هدفه كان أولا وقبل كل شيء نشر الإسلام، وتحطيم الأصنام، بدليل أنه رفض ما عرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم السومنات بالأموال الطائلة، وقال أنه يؤثر بأن يصفه من يأتى بعده بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع أوثان(٣). وعلى ذلك يمكن القول بكل ثقة بأن محمود الغزنوى كان غازيا مجاهدا، أخذ على عاتقه نشر الإسلام فى بلاد الهند، والقضاء على الوثنية فيها، والحق أن محمود الغزنوى كان من خيرة قادة وزعماء الإسلام وبلغ فى فتوحه «إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية، ولم تنل به قط سورة ولا آية، فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع، وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الإسلام، ومن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والإيمان» (٤).

واصل مسعود بن محمود الغزنوى سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى بلاد الهند، وضم المزيد من الأراضى الهندية إلى الدولة الغزنوية، فأقر أحمد بن ينالتكين على بلاد الهند الغزنوية، وقد قام هذا الوالى بالاستيلاء على منارس من ولاية الكنج التى لم تبلغها جيوش الإسلام قبلا (٥).

قوى شأن أحمد بن ينالتكين فى بلاد الهند، وحدثته نفسه بالخروج على الدولة الغزنوية، لكن السلطان مسعود تصدى له وتخلص منه(٦).

وعلى الرغم من أن السلاجقة كانوا يشكلون خطرا جسيما على الدولة الغزنوية فى عهد السلطان مسعود إلا أن هذا السلطان لم يتقاعس عن مواصلة الفتوح(٧) فى بلاد

---

(1) Cambridge History of India Vol. II. p. 26 - 27.

(2) Prasad: Medieval India p. 71 - 72.

(٣) الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جـ ١ ص ٩٨.

(4) Advanced History of India. p. 103 - 104.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٦٥.

(٦) تاريخ البيهقى ص ٤٢٦ ، ٤٢٧.

(٧) تاريخ البيهقى ص ٣١٥.

الهند، ولم يستمع إلى تحذير رجال دولته بالبقاء فى غزنة حتى يكون قريبا من السلاجقة، فسار إلى بلاد الهند سنة ٤٢٩هـ -١٠٣٧م لتحقيق حلمه القديم وهو الاستيلاء على قلعة هانسى وكانت تسمى بالقلعة العذراء؛ لأن أحدا لم يستطع فتحها من قبل. واستولى على هذا الحصن الهندوكى الكبير ثم زحف إلى سنيات عند الشمال الغربى من دلهى، ففر أهلها إلى الغابات المجاورة مما يسر للسلطان أمر الاستيلاء على هذه البلدة (١).

على أن جهود السلطان مسعود فى بلاد الهند يسرت للسلاجقة تحقيق أطماعهم فى إقليم خراسان(٢) واستولوا على بعض بلدان خراسان وتطور الأمر فى الدولة الغزنوية إلى أسوأ من ذلك، فقد هزم السلاجقة السلطان مسعود فى داندانقان سنة ٤٢٢هـ- ١٠٣٠م.

ولما رأى السلطان الغزنوى ضعف قوته، قرر الرحيل إلى الهند حتى يجمع الجموع ويعود إلى غزو السلاجقة، واسترداد خراسان، لكنه قُتل فى الطريق إلى الهند، فخلفه ابنه مودود، وسار على سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى الهند، فتصدى لأخيه مجدود الذى ولى إقليم البنجاب منذ عهد أبيه، وكان من أثر ثورة مجدود أن تشجع بعض أمراء الهنادكة وتحالفوا، وأعلنوا الاستقلال عن الدولة الغزنوية، وزحفوا إلى لاهور، لكن الجند الغزنوى ردوهم على أعقابهم، وعادت إلى المسلمين هيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية(٣).

ولما ولى السلطان إبراهيم بن مسعود الحكم أعاد إلى الدولة الغزنوية هيبتها، ونظم أمورها، وأقر الأمور فى هندوستان(٤)، ولما توفى امتد النفوذ السلجوقى إلى الدولة الغزنوية، فواتت الفرصة الأمراء الهنود لمحاولة الانفصال عن الدولة الغزنوية، لكن السلطان بهرام شاه أدحض محاولتهم، وقضى على الفتن التي حدثت فى البنجاب

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جوادث سنة ٤٢١هـ.

(2) Lane Poole : Medieval India p. 41.

(٣) تاريخ البيهقى ص ٥٨٠.

(4)Lane Poole : Medieval India p. 43.

والملتان، ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور وكانت الآمال قد بعثت فى نفوسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم، وهكذا استطاع بهرام شاه أن يحافظ على النفوذ الغزنوي فى بلاد الهند، ويثبت أقدام الدولة الغزنوية فيها(١).

ولما ضعفت الدولة الغزنوية لجأ سلاطينها إلى ولايتهم فى بلاد الهند للاعتصام بها أو الاستعانة بأهلها لرد الغزاة الطامعين فى غزنة - حاضرة ملكهم - فلما ولى السلطان خسرو شاه لجأ إلى الهند على أثر اقتحام قبائل التركمان لحاضرة دولته، كما انتهز الغور فرصة الفوضى التى عمت الدولة الغزنوية المتداعية، فانقضوا على غزنة وأعملوا فيها الخراب والدمار(٢)، وقضى آخر ملوك الدولة الغزنوية أيامه الباقية فى لاهور، وتفاقم خطر الغور، واشتد ساعدهم فاستعاد زعيمهم غزنة من التركمان، وظلوا يطاردون السلطان الغزنوى فى بلاد الهند حتى قبضوا عليه، وبذلك انتهت الدولة الغزنوية التى يرجع إليها الفضل فى توطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند، ونشر الإسلام فى تلك الديار.

والواقع أن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم يعتبر بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد؛ ذلك أن ملوك الغور الذين ورثوا الدولة الغزنوية تولوا سلطنة دلهى(٣)، ونشروا نفوذ المسلمين فى أرجاء بلاد الهند الشمالية قاطبة(٤).

نتائج الفتوحات الغزنوية فى بلاد الهند

لاشك أن الإسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بنى سبكتكين. ودخل الهنود فى الإسلام عن طوع واختيار حقيقة، ساهم التجار المسلمون بدور كبير قبل أن يعمل الغزنويون فى بلاد الهند على نشر الإسلام، وبنوا مساجد فى بعض مدن الهند، كما أن حكومة الملتان الإسلامية كان لها السيادة فى بلاد السند منذ الفتح العربى فى عهد بنى أمية، وكا لها نصيب فى نشر الإسلام فى هذه البلاد. ولكن ينبغى أن نؤكد أن السلاطين الغزنويين، وخصوصا محمود بن سبكتكين كان لهم تأثير كبير على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة أقبلوا على اعتناق الإسلام.

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٣٨٦.

(2) Lane Poole : Medieval India under Mohammedan Rule p. 46.

(3) Lane Poole : The Mohammedan Dynasties p. 284.

(4) Prassad: Medieval India p. 48.

انتشـر الاسلام فى بلاد الهند نتيـجة لانتصـارات راياته فيهـا، ففى سنة ٤١٠هـ أحرز السلطان محمود انتصـارا رائعا على هرداتا ـ أحد ملوك الهند ـ فوافق على اعتناق الإسـلام، وتقدم إلى السلطان الغـزنوى مع عـشرة آلاف رجل، وأعلنوا رغـبتـهم فى التحول إلى الإسلام، ونبذ عبادة الأصنام [١] ومما لاشك فيه أن بعض الهنود تركوا عبادة الأوثان واعتنقوا الإسلام تقربا لحكامهم الجدد.

ولقى الإسلام ترحـيبـا كبيـرا من الطوائف الفقـيرة الذين كان حـكامهم الآريون ينبذونهم ويحتـقرونهم وينقصون من شأنهم، فأعلى الإسـلام - دين المساواة ـ منزلتهم ورفع شأنهم[٢].

كذلك انتشـر الإسلام بين الهنود عن طريق الفقهاء والوعـاظ ودروسهم والعلماء والمتصوفـة ورحلاتهم، ومن أبرز وأشهر هؤلاء الـشيخ إسماعيل وكـان من أهل بخارى وعرف بثقافته الدينية والدنيوية، قدم إلى لاهور سنة ٣٩٦هـ - ١٠٠٥م وظل بها يدعو الناس إلى الإسلام ويعلمهم شـرائعه، وقد وفد عليه كثير مـن أهل الهند للاستماع إلى مواعظه ، وسرعان ما هدى الله الكثير من الناس إلى الإسلام على يديه[٣].

ولما كـان الغزنويون سنيين مـتشـددين، فقـد اعتنق الهنود الإسـلام على المذهب السنى، وحذوا حـذو غزاتهم في تعصـبهم وتزمتـهم، كذلك عرف أهـل الهنـد اللغة الفارسيـة عن الغزنويين، والمعروف أن هذه اللغـة نمت وازدهرت فى بلاط سبكتكين فى غزنة، كذلك وجد المتـصوفون من الفرس والترك فى بلاد الهند خير مـوئل يلجئون إليه من بلادهم المضطربة، ولـقيت الصـوفـيـة ترحيبـا من أهل الهند الذين يميلون إلـيهـا بطبيعتهم[٤]، كذلـك أخذ التـرك في الهنود، والهنود فى الترك، وأخـذ كل منهمـا عن الآخر، إذ نقل الترك إلى الهند الثقافة الفارسية ومظاهر الحـياة التركية والفارسية، وبهذا انتشرت في المجتـمع الإسلامى بالهند اللغة الفارسية ـ لغة الثقـافة فى ذلك العصر[٥] ـ واللغة الأوردية التى هى خليط من الهندية والعربية والفارسية والتركية، ولم تنتشر اللغة العربية، وبالتالى لم تزدهر الثقافة العـربية بالهند ازدهارها فى الأقاليم والدول الإسلامية الأخرى، وساعد على هذا أن بعض الشيـوخ والعلماء الذين وفدوا على الهند كانوا من

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٤٠٩هـ.
(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣١٤.
(٣) نفس المصدر ص ٣١٥.
(٤) حسن أحمد محمود: الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٢٦٩.
(٥) جوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٤١٧ ، ٤١٨.

علماء ما وراء النهر، وهؤلاء كانوا أتباع مذهب أبى حنيفة يعتمدون على كتب فقهاء هذا المذهب، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة والثقافة الفارسية، وبهذا اصطبغت الثقافة الإسلامية بالهند بهذه الصفات الثلاث، ولم تقم على أسس قوية من الثقافة العربية(١)، ونشأ فريق من المولدين يمثل حضارة إسلامية، مزيج من الحضارات التركية والفارسية والهندية، وينعم بالتسامح الإسلامى، وينبذ التفرقة التي كانت من أبرز خصائص المجتمع الهندى من قبل، وظهر مفكرون يهاجمون الديانة البرهمية(٢)، واحترم الهنادكة عقائد المسلمين، كما أن المسلمين استفادوا من فلسفة الهند، وتقدم علمائهم فى علم الفلك.

ولقد تأثرت الحياة الاجتماعية بالترك، وتجلى ذلك فى انتشار الحجاب بين النساء، وتخلص المنبوذون من قيود النظام الطبقى وساهموا بحرية فى ميادين الحياة المختلفة من سياسية واقتصادية واقتبس الهنود عن المسلمين أنظمتهم الإدارية والمالية والقضائية، وشهد الأدب الفارسى ازدهارا، زاد منه رحيل أدباء فارس إلى الهند، وأصبحت الفارسية لغة التأليف والكتابة للمسلمين، وغير المسلمين، واستفاد المسلمون من السنسكريتية، وترجموا عنها إلى الفارسية كما ترجموا إليها، وفى ميدان الفن استفاد المسلمون من الهنود، والهنود من المسلمين، وتجلى ذلك فى المساجد والمعابد.

* * *

(١) جمال الشال: تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية فى الهند ص ١٧.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٤١٧، ٤١٨.

ضعف الدولة الغزنوية وانهيارها

تجمعت عدة عوامل أدت إلى ضعف الدولة الغزنوية وانهيارها، ومن أبرز هذه العوامل، المحاولات المتكررة التى بذلها ولاة الأقاليم فى الدولة الغزنوية للاستقلال بالولايات التى يحكمونها، ولقد بذل السلاطين الغزنويون جهودا مضنية للقضاء على هذه المحاولات الانفصالية، وإن كان الغزنويون قد أحبطوا هذه المحاولات، إلا أنها أنهكت قوى هذه الدولة.

ومن عوامل ضعف هذه الدولة، عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد، فأسند السلاطين الغزنويون، أحيانا ولاية العهد إلى الابن الصغير وتخطوا الابن الأكبر، كما رأينا عندما أسند السلطان سبكتكين ولاية عهده إلى ابنه إسماعيل بدلا من محمود، وحدث نفس الشىء، حينما أسند السلطان محمود ولاية عهده لابنه محمد بدلا من مسعود. كل هذه المحاولات أدت إلى وقوع حروب بين أمراء البيت الحاكم، وانقسام شديد بين أمراء آل سبكتكين، وهذا أدى إلى ضعف الدولة الغزنوية؛ لأن ضعف القلب يؤدى إلى ضعف الأطراف.

ومن أكبر عوامل ضعف الدولة الغزنوية، ظهور الأترك السلاجقة، وارتفاع شأنهم، وازدياد قوتهم،وسعيهم إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب الدولة الغزنوية، وانتزعوا إقليم خراسان من الدولة الغزنوية عقب انتصارهم الرائع على الغزنويين فى معركة واندانقان، وبلغ من ازدياد نفوذ السلاجقة فى الدولة الغزنوية، أن تدخلوا فى تولية وعزل السلاطين الغزنويين، بل أقيمت الخطبة لبعض سلاطين السلاجقة فى غزنة.

ومن أهم عوامل ضعف وانهيار الدولة الغزنوية، ازدياد نفوذ الغور، وتكوين دولة لهم على أنقاض الدولة العزنوية واستولى الغور على غزنة - كما رأينا - واستولى غياث الدين الغورى على بقية ملك الغزنويين فى المشرق، وأرسل أخاه شهاب الدين لامتلاك البقية الباقية من ملك الغزنويين فى الهند، فسار إلى لاهور - آخر معاقل الغزنويين- واستولى عليها، وطلب خسروشاه - آخر ملوك الغور - الأمان فأجابه شهاب الدين إلى طلبه، وأرسل شهاب الدين، خسروشاه - آخر سلاطين الغزنويين - إلى أخيه غياث الدين - ملك الغور - ومعه ابنه ملكشاه، حيث أودعهما ملك الغور فى بعض القلاع(1) وبذلك انتهت وزالت الدولة الغزنوية.

---

(1) Lane Poole: IBID-P.149.

وهكذا زالت الدولة الغـزنوية سنة ٥٥٥هـ-١١٦٠م بعد أن ظلت تحكم أكـثر من قرنين، على أيدى الغور الذين اتسعت مملكتهم،وكثر جندهم، واتخذ غياث الدين لنفسه لقب سلطان واعترف الخليفة العباسى به، وأرسل إليه الخلع والهدايا، وأمر بإقامة الخطبة له بالسلطنة، وتلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام، قسيم أمير المؤمنين.

وصفوة القول أن الـدولة الغزنوية ـ التى قامت على أنقاض السامانيـين ـ كان لها نشاط سياسى كبير فى المشرق الإسلامى واستطاع سلاطينها حكم دولة متعددة الأجناس والشعـوب بقوة وحزم، وحـافظوا على وحدة هذه الدولة رغم المحـاولات الانفصـالية العديدة، حتى أمن الناس فى ظل الحكومة الغـزنوية المستنيرة على أموالهم وممتلكاتهم. ولا يفوتنا أن نذكـر أن السلطان محـمود الغزنوى ـ أقـوى سلاطين هذه الدولة ـ يعتـبر بحق بطلا من أبطال الإسـلام، وسـوط عذاب على الكفـار الملحـدين، حطم الأصنام والتماثيل، ودمـر الخرافات والأباطيل، فكان شديد البـأس قاسيا على الملحـدين وكفار الهنود، فضلا عن أنه كان غازيا لايقهر.

على أن عوامل الضعف والانحـلال، عرفت طريقها إلى الدولة الغـزنوية، فقوى شأن جيـرانها السلاجقة والغور، وقـاموا بتوسيع ممتلكاتهم ونفـوذهم على حساب هذه الدولة وكان ذلك فرصة للأقاليم والحكام المناوئين لهذه الدولة للاستقلال عنها. فأخذت الدولة تفقد ممتلكاتها رويدا رويدا، حـتى قضى الغور فى نهاية الأمر على البقيـة الباقية من ممتلكاتها.

عاصرت الـدولة الغزنوية الدولة السلجوقيـة، فى المشرق، كما عـاصرت الدولة الفاطمية فى مصر والشام، كما عاصرت السنوات الأولى من حكم بنى زيرى للمغرب، وعاصـرت دولة الأدارسة فى المغرب الأقـصى، وعاصرت الدولـة الأموية فى الأندلس والدولة العباسية الأم، والدولة البيزنطية ـ حامية المسيحية فى الشرق.

✲ ✲ ✲

الدولة السلجوقية

٤٤٧هـ - ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥ - ١١٩٣م

يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين يقيمون فى الصحراء الشاسعة التى تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، عرفوا باسم الغز، وكانت هذه القبائل تسمى الأوغوز، ثم خففت الكلمة إلى الغز، وكثرت هجراتهم إلى شواطئ جيحون، بعد ضعف الدولة السامانية، بحثا عن المراعى الوفيرة، أو بسبب القهر وعدم استطاعتهم الصمود فى وجه أعدائهم، وتمت هذه الهجرات فى القرون الثانى والثالث والرابع من الهجرة من أقصى تركستان.

يكتنف أصل السلاجقة الغموض، ويبدو أن سلجوق - جد هؤلاء القوم - ابن قائد جيش، يدعى دقاق ليوغو - ملك الخزر - جنوب روسيا - ولقد حدثت خلافات بين يوغو ودقاق اضطر على أثرها سلجوق بن بوغو وأسرته، إلى هجر ديارهم سنة ٣٧٥هـ، والهجرة إلى نواحى جند - بالقرب من نهر سيحون فى بلاد ما وراء النهر - ومعه ألف فارس وألف بعير وخمسون رأسا من الماشية، وكان أفراد القبيلة وثنيين، وهداهم الله إلى الإسلام، بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين أهالى جند.

أظهر السلاجقة نشاطا ملحوظا فى الجهات التى هاجروا إليها، وقاموا بالدفاع عنها، وصد غارات كفار الترك الطامعين فيها.

اشترك السلاجقة فى الصراع المرير بين السامانيين - حكام بلاد ما وراء النهر - وقبائل الترك القره خانيين، ومن خلال هذا الصراع، استطاع سلجوق تأسيس إمارة واسعة فى بلاد ما وراء النهر(١).

والسلاجقة ثلاث شعب، الأولى حكمت إيران، وعدد أفرادها أربعة عشر فردا، حكمت من سنة ٤٢٩هـ حتى سنة ٥٤٠هـ(٢).

والشعبة الثانية، حكمت كرمان، وعدد أفرادها، أحد عشر شخصا من سنة ٤٣١هـ إلى سنة ٥٨٣هـ.

(١، ٢) عبدالله مستوفى قزوينى: تاريخ كزيدة ص٤٢٤.

والشعبة الثالثة، حكمت آسيا الصغرى من (٤٨٠ - ٧٠٠هـ).

ارتفع شأن السلاجقة فى بلاد ما وراء النهر، وكانت منازلهم فى الشتاء فى نور بخارى، وفى الصيف فى سمرقند، وكان لسلجوق أولاد، هم إسرائيل وميكائيل وموسى، وتوفى بعد أن تجاوز العام العاشر بعد المائة.

عاش السلاجقة فى بلاد ما وراء النهر فى أنضر عيشة وهم فى المراعى يكلأون الكلأ، لايذعرهم ذاعر، ولا يردعهم رادع، وكان أرسلان أقوى هؤلاء الأخوه، ورفع من شأن قبيلته، وتوفى أخوه ميكائيل وله من الأبناء طغرل بك محمد وجعفر بك وبيغو موسى(١).

تدخل السلاجقة فى الصراع الحربى بين القره خانيين والسامانيين، وأدى ذلك إلى ازدياد نفوذهم، وإلى ازدياد قوتهم ومقدرتهم العسكرية.

كانت خراسان وبلاد ما وراء النهر ضمن ممتلكات السلطان محمود الغزنوى - أقوى حكام المشرق الإسلامى فى ذلك العصر - واطلع عن قرب على قوة السلاجقة، وجمع عنهم المعلومات عن شجاعة جندهم، وكثرة عددهم، فأيقن أنه لا يستطيع أن يأمن جانبهم، إذا نهض فى وقت من الأوقات لمواصلة فتوحاته فى بلاد الهند، فقد يحدثوا فى مملكته الواسعة فسادا طلبا للسيطرة على بعض البلدان، فعوّل على التخلص منهم وأرسل إليهم رسولا، يعرض عليهم صداقته، ويبدى لهم حسن نواياه نحوهم، ويطلب منهم إيفاد أحد زعمائهم لعقد اتفاقية صداقة معهم(٢).

أرسل السلاجقة مندوبا للسلطان محمود الغزنوى، وهو إسرائيل وسلك معه السلطان طريق المودة، وسأله فى أثناء الحديث قائلا: إذا دعت الحاجة إلى طلب المدد، ما العلامة التى ترسلها؟ وما عدد الجند؟ فأعطاه إسرائيل سهما؟ فقال له: عندما ترسل هذا السهم، يأتيك مائة ألف فارس. فقال السلطان: وإذا لزم أكثر من ذلك، فأعطاه إسرائيل سهما آخر، وقال عندما ترسل هذا السهم إلى جبل بلخان (فى خراسان) يأتيك خمسون ألف فارس، فقال السلطان: وإذا لزم أكثر من ذلك. قال إسرائيل: ترسل هذا السهم إلى توران، يأتيك كل ما تريد من الجند. لذلك خشى السلطان محمود الغزنوى بأس السلاجقة، وألقى القبض على إسرائيل، وأودعه السجن فى الملتان بالهند سبع سنين حيث توفى فيه.

اتخذ السلاجقة مروجا فى إقليم خراسان، زادوا فى توسعتها وانتهزوا كل الفرص لتوسيع ممتلكاتهم، وانتزاع ما يمكن من أراضى الدولة الغزنوية، وعجز (والى) خراسان

(١) المصدر السابق ص ٩٠ تحقيق محمود محروس قشطة.

(٢) الراوندى: راحة الصدور وآية السرور ص١٤٥، لكل واحد من أمراء السلاجقة اسم قبلى واسم إسلامى، فطغرل اسمه الإسلامى محمد، وجعفر بك (داود)، وبيغو، (موسى).

من وقف توسعاتهم فى خراسان، لذلك استنجد بالسلطان محمود الغزنوى، الذى اشتبك معهم فى عدة معارك، وشتت شملهم.

توقفت هجمات السلاجقة على أراضى الدولة الغزنوية بعد الهزائم التى لحقت بهم، وانتشروا فى بلاد العراق وأذربيجان وإيران وأمر السلطان مسعود بن محمود، شاه ملك ـ والى جند ـ بطرد السلاجقة من خوارزم، ففرقهم فى صحارى نسا وقصدار ومرو وأرسلوا إلى السلطان مسعود يتوسلون إليه بالتوقف عن مهاجمتهم ويعرضون عليه الصلح، وقالوا: نحن عبيد مطيعون، ولو يقبلنا الأمير الآن، ويعين لنا مرعانا، فسوف نترك دوابنا ودخائرنا، ونشغل أنفسنا بخدمة السلطان، فطلب منهم السلطان مسعود كتابة وثيقة يتعهدون فيها بالولاء والطاعة للسلطان، ويكفوا عن الفساد، ويقبلوا المرعى الذى يحدده لهم السلطان. ولا يتجاوزونه. وتعهد السلاجقة على كل ما طلبه السلطان، وعقدوا المواثيق، وأقسموا عليها. وقد شهد على هذا قادة التركمان(١).

ولكن السلاجقة نقضوا العهد بسرعة، وهاجم بعض أفرادهم جيش السلطان مسعود، ونهبوا أمتعة الجيش وقتلوا الكثير من الجند. غير أن السلطان مسعود قبض على هؤلاء المعتدين وقتلهم، وأرسل بيغو ـ زعيم السلاجقة يعتذر عما بدر من هؤلاء المعتدين ويتعهد بالاستمرار فى الطاعة والولاء.

وشن السلطان مسعود عدة حروب ضد أعداء دولته الراغبين فى الاستقلال مثل طبرستان وجرجان وهراة، وتوجه إلى نيسابور لمحاربة السلاجقة الذين نقضوا عهودهم، وتوسعوا فى إقليم خراسان، وانتزعوا بعض أراضى الدولة الغزنوية، ولم يستطع والى خراسان الغزنوى صد هجماتهم، واستنجد بالسلطان مسعود.

توجه السلطان مسعود إلى نيسابور للتخلص من خطر السلاجقة لكن جيشه قد أحس بوهن شديد، كما أن الأسلحة قد علاها الصدأ بسبب كثرة الحروب فى ظروف جوية صعبة، وضعفت الدواب لأنها لم تأكل علف الربيع، واشتبك الجيش الغزنوى مع جيوش السلاجقة فى معركة دارت فيها الدائرة على جند السلطان مسعود الغزنوى.

أرسل مسعود إلى السلاجقة يرغبهم فى الصلح، ويعرض الإقطاعات على زعمائهم والأراضى. ولكن السلاجقة خشوا بأس السلطان، ورفضوا الصلح، وقالوا للرسل: لو علمنا أن السلطان يبقى علينا إذا قدر لأطعناه، ولكننا نعلم أنه متى ظفر بنا لأهلكنا لما عملناه وأسلفناه، فنحن لا نطيعه ولانثق فيه(٢).

ظل السلاجقة مصدر خطر داهم فى إقليم خراسان، وفشل عمال الغزنويين فى الدفاع عن هذه البلاد، فأرسلوا إلى السلطان مسعود يستغيثونه ويشكون إليه ما فعله السلاجقة ببلادهم.

(١) البندارى: تاريخ دولة سلجوق ص٥.

(2) Camb. Med. Hist. Vol.Iv.P.303.

ظل السلاجقة مصدر خطر داهم على الدولة الغزنوية، وهددوا مدن خراسان، ولم يستطع والى خراسان درء خطرهم؛ لذلك أعد السلطان مسعود الغزنوى جيشا كبيرا ٤٢٩هـ- ١٠٣٧م بقيادة سباشى تكين، ولكن السلاجقة هزموا الجيش الغزنوى فى عدة معارك، ولما طال مقام سباشى وجنده فى خراسان، «والبلاد منهوبة والدماء مسفوكة» وقلت الميرة والأقوات بالنسبة للجند الغزنوى، بينما السلاجقة لا يبالون بذلك؛ لأنهم يقنعون بالقليل. لذلك غادر سباشى خراسان فبسط السلاجقة سيطرتهم عليها، ورأى السلاجقة أن الوقت قد حان للسيطرة الكاملة على خراسان، وإقامة دولة لهم فى المشرق الإسلامى حتى يجنوا ثمار انتصاراتهم وكفاحهم عبر السنين وأسندوا قيادتهم إلى طغرلبك(١).

لم يقف السلطان مسعود مكتوف اليدين إزاء الهزائم التى لحقت بجنده، وفقدانه لمساحات شاسعة من دولته، بل عوَّل على استردادها، وأعد جيشا كبيرا لاسترداد إقليم خراسان وفرق فيهم الأموال الكثيرة،وسار من غزنة فى «جيوش يضيق بها الفضاء» ولما بلغ السلطان خراسان، كان طغرلبك فى طوس، منفصلا عن أخيه، فاعتزم السلطان مسعود مباغتته والحيلولة بينه وبين الاتصال بأخيه، فلما أرخى الليل سدوله ركب فيلة سريعة العدو، سريعة إلى طوس مع فريق من فرسانه، فأخذته سنة من النوم، وهو على ظهر الفيلة، ولم يستطع أحد من أعوانه أن يوقظه، أو أن يقود الفيلة فى سرعة. واستطاع السلاجقة الاستيلاء على الصحارى والجبال وسدوا الطرق على الجيش الغزنوى.

دارت معركة داندانقان فى الصحراء الواقعة بين سرخس ومرو سنة ٤٣١هـ، حيث الماء القليل والمطر الشديد، وحدثت منازعات بين عسكر مسعود حول الماء، وأدرك السلاجقة اضطراب الجند الغزنوى، وهاجموهم وهزموهم فولى الجند الغزنوى الأدبار، لا يلوى أول على آخر، وقُتل منهم كثيرون، وغنم السلاجقة من الغزنويين مغانم كثيرة وقسمها قائدهم داود على جنده وفضلهم على نفسه، ونزل فى سرادق السلطان مسعود(٢)، وقعد على كرسيه، ونظر مسعود حوله، فلاحظ أن جنده هربوا، وأنه وحيد فى الميدان، فولى الأدبار على ظهر الفيلة، تاركا خزائنه وأمتعته، وسائر ما يملك قانعا بالنجاة، وكان ذلك سنة ٤٣١هـ-١٠٣٩م(٣).

كان من نتيجة معركة داندانقان، ازدياد نفوذ السلاجقة، وإقامة دولة لهم فى خراسان التى سيطروا عليها، فقد جلس طغرلبك على عرش السلطان مسعود فى

---

(١) البندارى: تاريخ دولة آل سلجوق ص٨،٧.

(٢) الكرديزى: زين الأخبار ص ٣٣١.

(٣) الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية ص١١.

نيسابور، وأعلن قيام دولة السلاجقة وأمر بإقامة الخطبة باسمه، وفرق النواب فى النواحى، وأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة، وأرسل إلى الخليفة العباسى يخبره بما أحرزه من انتصارات على السلطان مسعود ويقول: إنه لما وجدوا ابن يمين الدولة مائلا عن الخير والسمو غار للمسلمين وللبلاد(١). فاعترف به الخليفة العباسى، وأقره الخليفة العباسى على ما تحت يده من البلاد سنة٤٣٢هـ- ١٠٤٠م.

وبذلك قامت دولة قوية فى خراسان، وازدادت قوتها، وتطلعت إليها الإمارات الإسلامية المحيطة بها، وناشدت ودها، وانضم إلى جيشها الكثير من الجند المسرحين من جيوش بعض الأمراء، واتسعت هذه الدولة حتى أصبحت أكبر وأقوى دولة إسلامية فى آسيا، ومهدت لقيام الدولة العثمانية فى آسيا وأوربا.

* * *

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٣٢.

التطور السياسى للدولة السلجوقية

بعد أن أقام السلاجقة دولتهم على أنقاض الدولة الغزنوية وبعد استيلائهم على إقليم خراسان، اتخذوا الاستعدادات لإقامة دولتهم على أسس قوية ودعائم سليمة، فجمعوا شملهم، ووحدوا صفوفهم، وتناسوا ما بينهم من خلافات، واتفقوا على أن يوحدوا جهودهم لتقوية أمر دولتهم، ودرء الأخطار التى تواجهها وتوسيع رقعتها، والتفوا حول طغرلبك - سلطانهم الأول - وكان قوى البأس عالى الهمة.

اتخذ طغرلبك سياسة تكفل الاستقرار لدولته، فعهد إلى أفراد أسرته بحكم الولايات، فأمرهم بضبط الأمور فى ولاياتهم والعمل على ضم المزيد من الأراضى، واتخذ السلطان السلجوقى مدينة الرى حاضرة لدولته.

وجريا على سياسة السلاجقة التوسعية، استولوا على طبرستان وجرجان، وفى سنة ٤٣٧هـ - ١٠٤٥م استولوا على إقليم خوارزم. وفى سنة ٤٤٢هـ - ١٠٥٠م استولى السلاجقة على أصفهان، وأرسل السلاجقة جيشا إلى أذربيجان، واستولوا عليها. وبذلك أكمل السلاجقة الاستيلاء على إقليم إيران والبلاد المجاورة له(١).

امتداد نفوذ السلاجقة إلى العراق

تطلع السلاجقة بعد سيطرتهم على إيران والبلاد المجاورة لها، إلى مد نفوذهم إلى بلاد العراق، والسيطرة بذلك على الخلافة العباسية، وكانت تعانى من الفتن والاضطرابات بسبب القلاقل والاضطرابات والفتن والدسائس من جراء ازدياد نفوذ الترك، وأصبح الخليفة العباسى فيها لاحول له ولاطول، كما ضعف أمر الملك الرحيم البويهى، ولم يعد له من السلطة فى بغداد إلا الاسم فقط.

شجعت عوامل الضعف فى الخلافة العباسية، طغرل على التوجه إلى بغداد لبسط نفوذ السلاجقة عليها، ولمد نفوذ السلاجقة على العراق - تبعا لذلك - وفى أوائل سنة ٤٤٧هـ - ١٠٥٥م أظهر طغرل أنه يريد الحج، وإصلاح طريق مكة، والمسير إلى الشام ومصر والقضاء على الدولة العلوية الإسماعيلية المسماة بالفاطمية فى هذه البلاد والتخلص من خليفتها المستنصر، فأذن له الخليفة العباسى بدخول بغداد، وأقام له الخطبة فيها، ولقبه ركن الدولة أبا طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل، يمين أمير المؤمنين(٢).

(١) عصام الدين الفقى: الدول الإسلامية المستقلة فى المشرق ص ١٥٨.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٤٨.

ومما لا شك فيه أن الخليفة العباسى، رأى أن طغرلبك وجنده السلاجقة الأقوياء، خير من يخلصه من بقايا البويهيين الشيعة ويتصدى للدعوة الفاطمية التى انتشرت فى العراق، والجند الترك الذين أشاعوا الفتن والاضطرابات فى بغداد، والخليفة العباسى يطمئن إلى السلاجقة الموالين له فى المذهب السنى.

على أن الجند السلاجقة، لما استقر بهم المقام فى بغداد، أثاروا القلاقل فيها، وأساءوا إلى أهلها، فاتهم طغرلبك، الملك الرحيم البويهى بأنه دبر هذه المؤامرة، لكى يتخلص الخليفة العباسى من السلاجقة، فأمر بالقبض على الملك الرحيم، وسيق إلى قلعة من قلاع الرى، وبذلك زالت سيطرة البويهيين على بغداد التى استمرت أكثر من مائة عام، وزال الكابوس الذى أزعج الخلافة العباسية، والذى زاده الخلاف المذهبى بين الخلافة السنية والبويهيين الشيعة الذين أساءوا إلى الخلافة العباسية، وحولوا العراق وإيران إلى مسرح للحروب والفتن والاضطرابات.

ولما طال مقام السلاجقة فى بغداد، ولحق بأهلها منهم الضر والأذى، أرسل الخليفة العباسى إلى طغرل يأمره بالرحيل من بغداد حتى يعود الأمن والسلام إلى أهلها الذين عانوا الكثير من جنده الغلاظ، فغادرها طغرل بعد أن أمضى فيها ثلاثة عشر شهرا(١).

وتلاحقت الأحداث فى بغداد، فاستبد البساسيرى - رئيس الترك فى بغداد - بالسلطة والنفوذ، حتى ضعف نفوذ الخليفة، واعتنق المذهب الشيعى الإسماعيلى، وانحاز إلى الفاطميين، وأمده الخليفة المستنصر الفاطمى بالمال والسلاح والخيل، وسيطر على بغداد، وأقام الخطبة فيها للخليفة الفاطمى، وعزل الخليفة العباسى، وأخذ يشن الغارات على بلاد العراق، وينشر فيها النفوذ الفاطمى. وبذلك أحدث البساسيرى انقلابا فى بلاد العراق، وزالت الخلافة السنية العباسية، وحلت محلها الخلافة الفاطمية الشيعية، وأصبحت بغداد والعراق تابعة من الناحية النظرية للقاهرة - حاضرة الفاطميين.

استنجد الخليفة العباسى ورجال دولته بطغرلبك، للقضاء على حركة البساسيرى الشيعية، وأسند إليه حكم الموصل والجزيرة فسار طغرل للمرة الثانية إلى بغداد، وسيطر عليها، وأكرم الخليفة العباسى وفادته، وخلع عليه، ولقبه ملك المشرق والمغرب سنة ٤٤٩هـ-١٠٥٧م، وعهد إليه بحكم جميع ما ولاه الله(٢). وبذلك ازداد نفوذ وسلطان طغرلبك، فأصبح يحكم بتفويض من الخليفة العباسى كل البلاد التى يمتد إليها نفوذه وسلطانه.

---

(١) الراوندى: راحة الصدور ص ١٠٦.

(٢) ابن الأثير: حوادث سنة ٤٤٩هـ.

على أن طغرلبك اضطر إلى مغـادرة بغداد، لإخماد ثورة أخـيه إبراهيم إينال فى همذان، وأخـمد ثورته، غيز أن البـساسيـرى انتهز فرصـة خروج طغرلبك من بغداد، واستـولى على الموصل، وسـار إلى بغداد، وطرد السـلاجقـة منها، وغـادرها الخليـفة العباسى.. وعادت بغداد والموصل وغيرهما من بلاد العراق إلى النفوذ الفاطمى، وأقيمت الدعوة فى بغداد للخليـفة الفاطمى المستنصر. ولم يكتف البسـاسيرى بذلك، بل أرسل فرقا من جنده لإتمام السيطرة على بلاد العراق.

ولما علم طغرلبك بما بلغه البـساسيرى من نفـوذ، أعد العدة للمسيـر إلى بغداد، والتخلص من البساسيرى، فأنفذ إلى خراسـان وبلاد ما وراء النهر «يستنفر الناس خفافا وثقالا حتى حشد من الحـشود الجم الغفير والعدد الكثير» وتقدم بجـيشه الضخم صوب بغداد، ولما اقتـرب منها، أدرك البساسـيرى أنه لاقبل له بطغرل وجنده، وخـصوصا أن مصر ضعـفت فى عهد المستنصر، بسبب النكبات والمجـاعات التى حلت بها، ولـم تعد مـصر قـادرة على إمداده - أى البـساسـيرى - بالجند والمعـدات والأموال. لذلك غـادر البساسيرى بغداد، واتجه إلى الكوفة، حيث تعقـبه السلاجقة وألحقوا به الهزيمة، والتقى طغرلبك بالخليفة العباسى القائم عند النهروان، وقبل الأرض بين يديه، وهنأه بالسلامة، واعتذر عن تأخره بسـبب خروج أخيه عليه، ووعده بتعقب البـساسيرى، والزحف إلى مصـر والشام والتـخلص من الخليفـة الفاطمى، الذى يناهض ويحـارب السنة، ويدعم ويؤيد حركة البساسيرى الشيعية التى تعمل على القضاء على الخلافة العباسية(1).

عاد الخليفة العباسى إلى بغداد، وسبقه إليها طغرل الذى استقبله فيها، وإن كانت بغداد قد هجرها الكثير من سكانها ولكن الخلافة العباسية عادت إلى وضعها السابق فى بغداد، وزال عنهـا النفوذ الفاطمى. وبذلك ازداد نفوذ السـلاجقة فى الدولة العبـاسية، وسيطروا عليها، وانضمت العراق إلى الدولة السلجوقية.

ولما استـقر طغرل فى بغداد رأى ضـرورة التخلص نهائيـا من البساسيـرى، تجنبا لخطره، ودرءا لشره، وحرصا على اسـتتباب الأمور فى دولته، فأرسل فرقـة من جيشه إلى الكوفة، ألحـقت الهزيمـة بالبسـاسيرى وجنده، وقـتل البساسـيرى، وكـان فى أسر البساسيرى جماعة من نساء البيت العباسى، حملهن طغرلبك إلى بغداد، واسترد طغرل الأموال التى نهبها البـساسيرى من أهل بغداد(2). وبذلك تخلصت الخلافة العباسية من البساسيرى الذى أشاع الخراب والدمار فى بغداد وبعض مدن العراق، وحاول بسط النفوذ الفاطمى الشيـعى فى بغداد بدلا من الخلافة العـباسية السنيـة. وعاد الأمن والسلام إلى ربوع العراق، وأقيمت الخطبة للخليفة العباسى. كل ذلك أدى إلى ازدياد نفوذ السلاجقة

---

(1) البندارى: تاريخ دولة سلجوق ص ١٥، ١٦.

(2) القزوينى: تاريخ كزيدة ص٩٤.

فى ديار الإسلام، وطغى نفوذهم على نفوذ الخليفة العباسى.

ازدادت الصلة بين طغرل والخليفة العباسى بعد إنقاذ الخلافة من محنتها، بل تزوج طغرل من سيدة خاتون ابنة الخليفة العباسى، وأقيمت حفلات الزواج فى قصر فى ضاحية من ضواحى الرى، ولكن الزواج لم يستمر طويلا، فمات طغرل سنة ٤٥٥-١٠٦٣م، وعادت ابنة الخليفة إلى بغداد وكانت مدة حكم طغرلبك ستا وعشرون عاما، قضاها فى جهود متصلة، وفى حروب مستمرة لاتنقطع فى سبيل تكوين دولة قوية مترامية الأطراف.

كان السلطان طغرلبك يعتقد فى الأولياء وكراماتهم، وفى بعض رحلاته الحربية مر على ثلاثة من الأولياء على جبل فى همذان، ولما رآهم السلطان، ترجل عن جواده، وقبل أيديهم، وطلب منهم الموعظة، فأمره أحدهم أن يعمل بما أمر الله به وهو العدل والإحسان، فبكى السلطان، وتعهد بالعمل بما أمر الله به. وكان يمسك إبريقا مكسورا فى يده، ويتوضأ منه، فأمسك ولى آخر الإبريق وضم إصبعه إلى إصبع طغرل وطلب منه أن يحكم الناس بالعدل، ويعمل بشريعة الله. فكان طغرل فى كل معاركه يمسك بهذا الإبريق حتى يتذكر العهد، ولما توفى طغرلبك خلفه فى السلطنة، سليمان بن جغرى بك تنفيذا لوصيته، ولكن قتلمش بن إسرائيل - ابن عم طغرلبك - رأى أن سليمان غير صالح للحكم، واعترض على حكمه، وثار عليه: على أن ألب أرسلان رفض موقف قتلمش العدائى، وهاجمه على رأس جيش كبير، وقُتل قتلمش، وآلت السلطنة إلى ألب أرسلان، ولقبه الخليفة العباسى القائم بأمر الله، بالسلطان عضد الدين ألب أرسلان(١).

ولما ولى ألب أرسلان السلطنة، دخل الرى مع وزيره نظام الملك، واستقبله الكندرى - وزير طغرل - أحسن استقبال وقدم له الهدايا، وهنأه بالسلطنة، ولكن نظام الملك خشى أن تكون الوزارة من نصيب الكندرى - وكان يتطلع إليها - وساءه أيضا التفاف الجند والناس حول الكندرى فحرض ألب أرسلان على غريمه الكندرى، لذا دبر مؤامرة للتخلص منه، فأوجس ألب أرسلان خيفة من الكندرى، وأمر بالقبض عليه، وقُتل قتلة شنيعة. وقبل أن يُقتل الكندرى، أرسل رسالتين إلى نظام الملك، الأولى للسلطان جاء فيها: لقد خدمتنى خدمة جليلة، فقد أعطانى عمك ملك الدنيا، أتصرف فيها، فلما أمرت بقتلى، أعطيتنى ملك العالم الآخر، جزاء لاستشهادى. وبذلك تم لى على يديكما، امتلاك الدارين الباقية والفانية. وفى الرسالة التى بعثها إلى نظام الملك، حذره من العواقب الوخيمة التى ستعود على الدولة من جراء قتل الوزراء، وأصحاب

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٥٥.

الديوان وأول من سيشرب من نفس الكأس، هو نظام الملك بعد الكندرى، قال الكندرى لنظام الملك، بئسما عودت الترك قتل الوزراء، وأصحاب الديوان، ومن حفر لأخيه المسلم حفرة وقع فيها. ولقد تجاوز هذا الوزير السيئ الطالع الأربعين من عمره، وكان عالما بالدين، نظم القصائد الشعرية الرائعة، وهو شافعى متشدد، حارب الرافضة والأشاعرة، وأمر بلعنهم فى المساجد(١).

بعد مقتل الكندرى، عهد ألب أرسلان إلى نظام الملك بالوزارة. على أن نظام الملك - رغم كفاءته الإدارية ومقدرته العلمية، لم يستفد كثيرا من المؤامرة التى دبرها للوصول إلى الوزارة، فاستمر بضع سنين فى الوزارة، وقُتل أيضا سنة ٤٨٥هـ-١٠٩٣م.

حرص ألب أرسلان على إحباط كل محاولة انفصالية عن دولته، فقضى على حركات التمرد والعصيان فى ختلان وصغانيان، وحافظ على ممتلكات الدولة السلجوقية الواسعة، وازداد نفوذه بعد أن اعترف به الخليفة العباسى، وقلده حكم دولته(٢).

واجه ألب أرسلان مصاعب من أفراد أسرته، فقد تطلع شهاب الدين قتلمش إلى انتزاع السلطنة من ألب أرسلان، وسار إلى الرى، ونهب جنده قرى الرى، وعاثوا فيها فسادا وتخريبا. على أن أرسلان اشتبك مع قتلمش فى معركة هزمه فيها شر هزيمة وقتله(٣). وبذلك قضى جنده على الحركة التى استهدفت النيل من سلطانه.

كذلك قضى السلطان ألب أرسلان على محاولة عمه بيغو، الاستقلال فى خراسان، وحاربه فى هراة وهزمه، وسيطر على إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر، وأعاد إليها الهدوء والسكينة.

بعد أن قضى ألب أرسلان على حركات التمرد التى قامت ضده، ودانت له الدولة بالولاء والطاعة، واصل سياسة السلاجقة التوسعية، فى البلاد المسيحية المجاورة لدولته، ثم بلاد مصر والشام التابعة للدولة الفاطمية.

اتجه ألب أرسلان إلى جورجيا وأرمينية، بقصد السيطرة عليهما، وكانت هذه البلاد مصدر قلق لأذربيجان التابعة لدولته فزحف بجيشه إلى أرمينية وجورجيا، واستولى عليهما. وبذلك اقترب من حدود الدولة البيزنطية، مما أقلق الإمبراطور البيزنطى رومانوس، فأغار على بعض البلاد الإسلامية، حتى يشغل ألب أرسلان عن

(١) الراوندى: راحة الصدور ص ١١٧، ١١٨.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٥٦.
(٣) المصدر السابق. حوادث سنة ٤٥٧.

غزو بلاده، فأغار على منبج فى بلاد الشام، وهزم صاحبها، محمود بن صالح بن مرداس، وضرب البلدة وهزم العرب. صاحب - حلب.

ولما رأى محمود بن صالح بن مرداس قوة الدولة السلجوقية، اعتزم الدخول فى حوزتها، حتى يضمن الحماية لإمارته، وأمر بإقامة الخطبة فى إمارته للخليفة العباسى القائم والسلطان ألب أرسلان[1]. وبذلك دخلت حلب فى حوزة الدولة السلجوقية، بعد أن كانت تابعة للدولة الفاطمية.

رأى الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع أن الدولة السلجوقية تهدد أمن بلاده، فعول على إضعافها، ووقف توسعها على حساب أراضى دولته، فخرج من القسطنطينية على رأس جيش كبير يتكون من مائة ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والكرج والصرب والقوقاز وغيرهم من شعوب دولته، وجاءوا «فى تجمل كثير وزى عظيم» وسار الإمبراطور رومانوس إلى ملازكرد - من أعمال خلاط - وسار ألب أرسلان على رأس جيش قوى إلى ميدان القتال، وقال: إنى أحارب محتسبا إلى الله فإن سلمت فهى نعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فابنى ملكشاه ولى عهدى، على أن السلطان أرسلان هاله كثرة جند الروم وقوة سلاحهم، فطلب من الإمبراطور البيزنطى الهدنة، حتى يستعيد قوته. ولكن الإمبراطور رفض وقال: لا هدنة إلا فى الرى. وبذلك لم يعد هناك مناص من الحرب والقتال، فأثار السلطان حماس جنده، وطالبهم بالنصر أو الشهادة. ودارت معركة ملازكرد ٤٦٣هـ - ١٠٧٠م[2]، وكانت معركة حامية الوطيس، ودارت بين قوتين فى الشرق، القوى الإسلامية، والقوى المسيحية، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين على أعدائهم، ومزق المسلمون أعداءهم كل ممزق، ووقع الإمبراطور البيزنطى أسيرا فى أيدى المسلمين، وسيق إلى السلطان ألب أرسلان، وسأله السلطان ماذا عساه أن يفعل به إن سقط هو - أى ألب أرسلان - أسيرا فى أيدى الإمبراطور فقال الإمبراطور: أفعل القبيح. فسأله السلطان عما يظن أنه سيفعل به. قال: إما أن تقتلنى، وإما أن تشهر بى فى بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة، وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائبا عنك. قال السلطان: السلجوقى: ما عزمت غير هذا. وعفا عنه[3].

كان لواقعة ملازكرد أثر كبير فى التاريخ الإسلامى بصفة خاصة، وفى تاريخ العالم بصفة عامة، فقد نجم عن هذه الواقعة تأسيس ولاية إسلامية فى أرض الروم، فى

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٦٣هـ.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٦٣هـ.
(٣) عبد النعيم حسنين: سلاجقة العراق وإيران ص٥٩.

آسيا الصغرى، وقد أدى فقدان الدولة البيزنطية لهذه البلاد إلى اقتراب المسلمين من حاضرتها، وبالتالى ضعفها وتدهورها حتى سقطت القسطنطينية فى أيدى السلطان العثمانى محمد الفاتح. كما كان لهذه الواقعة آثار بالغة الأهمية؛ ذلك أن الثقافة المسيحية التى غلبت على سكان آسيا الصغرى، وامتدت منها إلى أذربيجان والبلاد المجاورة، حلت محلها الثقافة الإسلامية التى ازدهرت فى هذه البلاد، بعد حكم السلاجقة لها، وانتشار الإسلام فيها، وانتشرت اللغة العربية ـ لغة الإسلام ـ والفارسية ـ لغة الفاتحين فى آسيا الصغرى، واندمجت مع اللهجات المحلية، مكونة اللغة التركية الحديثة(١).

ومن نتائج هذه الواقعة ضعف الدولة البيزنطية، ولم تعد قادرة على حماية المسيحية فى الشرق، لقوة المسلمين، وعجزت عن حماية الباب الشرقى لأوربا من غارات الأسيويين. وبذلك لم تعد أوربا تعتمد على الدولة البيزنطية فى صد هجمات المسلمين، واعتمد الأوربيون على أنفسهم فى هذا المجال. وبذلك مهدت معركة ملازكرد إلى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى. وعلى ذلك أدت هذه الموقعة إلى تطورات سياسية وثقافية فى الشرق. وهذا العصر الذى نتكلم عنه عصر قوة بالنسبة للإسلام، فبعد ١٦سنة من ملازكرد انتصر المسلمون على النصارى فى الأندلس وفى موقعة الزلاقة سنة٤٧٩هـ ومهما يكن من أمر، فقد أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطى رومانوس، بعد أن تعهد بدفع دية كبيرة قدرها ألف ألف دينار، وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عسكر الروم فى أى وقت يطلبه، وأن يطلق كل أسير مسلم فى أرض الروم. وعقدت معاهدة مدتها خمسون عاما بين الفريقين، وأفرج عن رومانوس، وعاد إلى بلاده مذموما مدحورا(٢). وعاد رومانوس الرابع إلى بلاده آمنا، وخلع عليه ألب أرسلان خلعة نفيسة، وخصص له سرادقا كبيرا، وأعطاه قدرا كبيرا من المال، لينفق منه فى سفره، ثم أفرج عن عدد من ضباطه، ليقوموا بخدمته، وأمر عددا من رجاله ليقوموا بصحبته إلى عاصمة ملكه. ولم تكد تصل هزيمة الإمبراطور إلى القسطنطينية حتى أزال رعاياه اسمه من سجلات الملك وقالوا: لقد سقط من عداد الملوك، وغضب عليه المسيح وأُعلن ميخائيل السابع ـ إمبراطورا، وأُلقى القبض على رومانوس سُملت عيناه(٣).

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص٨٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٦٣هـ.

(3) Vasilev: Hist. of the Byzantin Empire. p.365.

على أن السلطان ألب أرسلان لم يجن ثمرة نصره، فبدلا من مواصلة الزحف إلى آسيا الصغرى للاستيلاء على القسطنطينية، اكتفى بإدخال أرمينية والرها وأنطاكية فى حوزته. وسار لإخماد فتنة فى بلاد ما وراء النهر، وقبض على الثائر يوسف الخوارزمى بعد أن أنهى حركة تمرده، وأصر السلطان على قتله بنفسه لكثرة حركاته المعادية لدولته، ورماه بسهم فأخطاه، ولم يكن يخطئ سهمه. وأخرج يوسف سهما أخفاه فى ملابسه، وقتل السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ - ١٠٧٢م.

وبذلك انتهى حكم هذا السلطان الشجاع القوى بعد أن استمر تسع سنين. وقد حكم مملكة تمتد من نهر جيحون إلى نهر دجلة. ويعتبر عصره من أزهى عصور السلاجقة، استتب فيها الأمن فى ربوع دولته، وحسنت إدارة الدولة، واتسعت رقعتها، وقهر أعداء الدولة، حتى كانت قوية مرهوبة الجانب، وقد طبق الشريعة الإسلامية فى الضرائب المفروضة على الناس واهتم بدراسة تاريخ الملوك الماضية، عبرة وعظة له.

عهد ألب أرسلان إلى ابنه ملكشاه بالحكم من بعده وأمر جنده بأن يقسموا يمين الولاء والطاعة له، وأرسل إلى الخليفة العباسى فى بغداد يطلب منه إقامة الخطبة له فى بغداد على منابرها، والاعتراف به سلطانا بعد أبيه ألب أرسلان، وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر إلى الرى، واتخذ نظام الملك وزيرا له، ودفع مرتبات الأجناد، وأرسل إلى حكام الولايات يعلن لهم توليه السلطنة، ويطالبهم بالولاء والطاعة له.

واجه ملكشاه صعابا داخلية كثيرة فى بداية حكمه، فحاولت بعض الولايات الانفصال عن الدولة السلجوقية، ولكن ملكشاه، أحبط هذه المحاولات. ولم تكد تستقر الأمور فى الدولة حتى ثار عمه قاروت بك بكرمان مطالبا بالسلطنة فلم يتغاض ملكشاه عن ثورته، فتوجه ملكشاه ووزيره نظام الملك إلى همذان والتقى ملكشاه وجنده مع قاروت وجيشه الذى يضم العرب والأكراد، ودارت معركة رهيبة هُزم فيها قاروت بك وقُتل وشتت السلطان شمل جنده وبذلك فشلت حركة قاروت بك، وأقطع أولاده، كرمان وكونوا ما يُعرف بدولة كرمان السلجوقية وعفا عن العرب والأكراد، وأقطعهم الإقطاعات التى تيسر لهم سبل المعيشة(١).

ولما كان جند الدولة خليطا من عناصر مختلفة وأجناس متعددة، فقد انعدم الولاء للدولة، وطالبوا بزيادة رواتبهم وعاشوا فى البلاد نهبا وفسادا وتخريبا، ففوض السلطان ملكشاه إدارة شئون الدولة إلى مؤدبه ومعلمه ووزيره نظام الملك، ولقبه أتابك الأمير الوالد، وقال له: قد رددت الأمور كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد. وزاد فى

---

(١) البندارى: تاريخ آل سلجوق ص٤٨.

إقطاعه، وكان نظام الملك جديرا بهذه الثقة، فأعاد إلى البلاد الأمن والطمأنينة والسلام(١).

كانت بلاد ما وراء النهر كثيرة الفتن والاضطرابات فى عهد ألب أرسلان ـ كما رأينا ـ فلما قُتل وولى ملكشاه، أعلن الخاقان ألبتكين ـ صاحب سمرقند ـ الثورة، وأغار على ترمذ، وضمها إلى دولته، فسار ملكشاه، واسترد ترمذ ثم سار إلى سمرقند، واستولى عليها، وفر صاحبها خوفا من السلاجقة.

ومن عوامل تقدير المسلمين للدولة السلجوقية، حسن العلاقة بين السلاجقة والخلفاء العباسيين، فجمع مذهب السنة الفريقين على المحبة والود، وكان السلاطين السلاجقة يظهرون الولاء والطاعة للخليفة العباسى، لذلك انتعشت الخلافة العباسية، وقوى مركز الخلافة، بعد أن عانى العباسيون من تسلط بنى بويه الشيعة المخالفين لهم فى المذهب. وعزز العلاقات بين السلاجقة والعباسيين، صلة المصاهرة بين الفريقين فطغرل تزوج ابنة الخليفة العباسى، وتزوج المقتدى ابنة ملكشاه وكثرت المصاهرات بين الفريقين. وعلى الرغم من ذلك فإن السلاطين السلاجقة حرصوا على عدم السماح للخليفة العباسى بالسيطرة على بعض ممتلكات السلاجقة. وازداد نفوذ الخلافة العباسية فى العصر السلجوقى الثانى حينما انقسم السلاجقة على أنفسهم، وتطلع كل مرشح للسلطنة إلى الخليفة العباسى، لمنحه تقليدا بالسلطنة. وانتهز العباسيون الفرصة فوسعوا نفوذهم على حساب الدولة السلجوقية المتداعية، بل زادوا من هذه الانقسامات، حتى يستردوا سلطانهم، وأبقاه ملكشاه فى سمرقند.

واصل ملكشاه سياسة أبيه فى القضاء على الدولة الفاطمية والاستيلاء على مصر والشام تبعا لذلك، فأرسل جيشا إلى بلاد الشام، استولى على معظمها، وضمها إلى الدولة السلجوقية، غير أن السلاجقة فشلوا فى الاستيلاء على مصر، وطارد الفاطميون جيوش السلاجقة حتى أخرجوهم نهائيا عن مصر. وبذلك استولى السلاجقة على الشام سنة٤٦٨هـ- ١٠٧٥م بينما لم يتمكنوا من السيطرة على مصر.

عهد السلطان ملكشاه إلى أخيه تاج الدولة تتش بحكم بلاد الشام، وما يفتحه من تلك النواحى، وذلك لتأكيد السيطرة السلجوقية على هذه البلاد، فتقدم تتش إلى حلب وحاصرها واستولى عليها، وأحبط محاولة الفاطميين السيطرة على دمشق، وانتزاعها من السلاجقة سنة ٤٧٠هـ - ١٠٧٧م(٣).

(١) الراوندى: راحة الصدور ١٢٦، ١٢٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٦٨هـ.
(٣) المصدر السابق حوادث سنة ٤٧٠هـ.

ولما غادر تتش حلب، حدث بها فراغ سياسى، وخشى أهلها أن تكون مطمع الطامعين والمتغلبين، فاستنجدوا بشرف الدولة مسلم العقيلى - أمير الموصل - فتوجه إلى حلب سنة ٤٧٣هـ، وسيطر عليها بعد أن أخضع المعارضين لحكمه، وأرسل إلى السلطان السلجوقى ملكشاه يطلب إقراره على حلب فأقره ملكشاه عليها، وأقطعها له، واتخذ تتش دمشق قاعدة لسلاجقة الشام(١).

واصل ملكشاه سياسة أبيه الرامية إلى تثبيت الحكم السلجوقى فى آسيا الصغرى، واتخاذها قاعدة للقضاء نهائيا على الدولة البيزنطية، جهادا فى سبيل الله، ولتحقيق هذه الغاية أسند إلى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل حكم هذه البلاد. ويعتبر بحق المؤسس الحقيقى لدولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى التى ظلت تحكم هذه البلاد، حتى سنة ٧٠٠هـ-١٣٠٠م.

لم يكتف قتلمش بحكم آسيا الصغرى، بل تطلع إلى توسيع رقعة ولايته، واتجه إلى أنطاكية - وكانت تتبع الدولة البيزنطية - وساعده على ذلك استياء أهلها من الحكم البيزنطى، وراسلوا قتلمش سرا مطالبين المسير إلى بلدهم وانتزاعها من البيزنطيين فاستجاب قتلمش لدعوتهم، ورأى فيها تحقيقا لسياسة السلاجقة التوسعية، والسيطرة على هذه المدينة ذات الموقع الإستراتيجى الهام، ونشر الإسلام بين أهلها، والتقرب إلى الله بالجهاد فى سبيله. ومهما يكن من أمر فقد أوغل جند قتلمش فى جبال وعرة ومضايق غلقة، وشدد هجماته عليها حتى فتحها، وغنم مغانم كثيرة، واستولى على أنطاكية، وأحسن إلى الرعية، ونشر العدل بين الناس. وأعاد تعمير أنطاكية. وبفتح قتلمش لأنطاكية أطل السلاجقة على البحر المتوسط(٢) سنة ٤٧٧هـ-١٠٨٤م وحدثت موقعة الزلافة بالأندلس بعد عامين انتصر المرابطون على النصارى، وأعادوا إلى الأندلس الإسلامى وحدته.

أدت مجاورة سلاجقة الروم للولاية السلجوقية فى الشام، إلى ظهور الاحتكاك بين الدولتين، فشن قتلمش - أمير سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى - حملة على مدينة حلب، واشتبك مع حاكمها - شرف الدولة مسلم العقيلى - وقتله واستولى على حلب. فغضب تتش - الأمير السلجوقى على بلاد الشام - من تدخل قتلمش وأطماعه فى ولايته، فشن حملة على قتلمش، وهزمه وقتله، سنة ٤٧٩هـ- ١٠٨٦ واسترد حلب، وطرد جند سلاجقة الروم من حلب. وبذلك استطاع تتش تأكيد سيطرته على بلاد

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٧٢هـ.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٧٧هـ.

الشام(١) وفى خضم هـذا الصراع، استـرد المرابطون فى الأندلس معظم هـذه البلاد من النصارى، وأعادوا إلى الإسلام عزته وكرامته.

اعتزم السلطان ملكشـاه المسير إلى سورية، لإقرار الأمـور فيها، ولتأكـيد سيطرة السلاجقة عليها، ولتـعزيز سيطرة أميرها تـتش عليها، فسـار إلى سورية، وفى طريقه إليها انتزع الرها من البـيزنطيين، واستولى على قلعة جعبـر، وأخضع أهلها الذين كانوا يقطعون طرق الـقوافل والجيـوش والعابرين ببلادهم ثم عـبر الفرات إلـى مدينة حلب، وأقطعها لقسـيم الدولة أفنسنقر، فعمرها، وأحسن السـيرة فى أهلها. ورأى حكام مدن سـوريه وبلاد الشـام عمـومـا، أن أمن بلادهم لا يتـحقق إلا إذا انضـمـوا إلى الدولة السلجوقـية القوية، فدخل حكام شـيزر وفاميـه وكفر طاب واللاذقيـة فى طاعة الدولة السلجوقية، وأرسلوا إلى ملكشاه يعرضـون عليه الولاء والطاعة، فأقرهم السلطان على ما بيدهم من البلاد، وأقر تـتش على حكم بلاد الشام، وعاد إلى بغداد، بعد أن أخضع لسلطانه بلاد الشام والجزيرة، وخلع عليه الخليفـة العباسى الخلع السلطانية، وفوض إليه أمر البلاد والعباد وقضى ملكشاه فى بغداد بعض الوقت، وتزوج من تركان خاتون بنت الخليفة العباسى.(٢) ٤٨٠هـ- ١٠٨٧م.

عادت سمـرقند إلى الانتقاض من جديد، فقد اسـتبد أحمد خان بن خـضرخان بأهل سمرقند، فاسـتغاثوا بالسلطان ملكشاه، وطالبوه بالمسير إلى بلادهم لتـأكيد سيطرة السلاجقـة على بلدهم، ورفع الظلم والجور عنهم، فرأى ملكشـاه فى تحقيق نداء أهالى سمرقند فرصـة لبسط نفوذ السلاجقة فـى سمرقند وبلاد ما وراء النهر عمـوما، وتحقيق سياسة الـسلاجقة التوسعـية شرقا وغربا، والسيطرة على طرق التـجارة فى بلاد ما وراء النهر، والاقـتراب من الصين، والاستـفادة من الثروات الهائلة فى بلاد مـا وراء النهر. فسـار إلى بخارى، وامـتلكها، وامـتلك البلاد الـتى مر بها فـى اتجاه سمـرقند، وهزم صاحبها، وطرده منها، وعهد إلى أحـد قواده بحكم سمرقند، وسار إلى كاشغر ودخل ملكها فى طاعته، وأقره ملكشاه على كاشغر(٣) من قبله سنة ٤٨٢هـ- ١٠٨٩م.

(١) عصام الدين الفقى: الدول الإسلامية المستقلة ١٦٩.

(٢) البندارى: تاريخ دولة سلجوق ص١٦٣.

(٣) البندارى: تاريخ دول سلجوق ص١٦٢.

وبذلك اتسعت الدولة السلجوقية شرقا وغربا، وامتد نفوذها من الهند شرقا وإلى البحر المتوسط غربا. وانضوى تحت لواء هذه الدولة بلاد ما وراء النهر وفارس وخراسان وآسيا الصغرى والعراق والشام.

بلغت الدولة السلجوقية أقصى اتساعها وعظمتها فى عهد السلطان ملكشاه، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الوزير نظام الملك الذى عرف عنه الحكم والرشاد، وبلغ نظام الملك من الهمة وبعد الصيت ما بلغه البرامكة. وقد أدار الدولة السلجوقية المترامية الأطراف فى عهدى ألب أرسلان وملكشاه، وأسفرت جهوده على جعل الدولة السلجوقية، أكثر قوة فى الشرق، ترهبها الأمم المجاورة، وتخشى بأسها(١)، وبينما المشرق فى قوة وازدهار كانت بلاد الشام فى ضعف وانحلال، فهاجمها الصليبيون، واستولوا على بيت المقدس، واستولوا على مدن الشام ٤٩٠هـ- ١٠٩٦م.

لم تستمر العلاقات الودية بين ملكشاه ووزيره نظام الملك فدوام الحال من المحال، فقد ساءت هذه العلاقات لأسباب منها ما يتعلق بولاية العهد، فقد رأى نظام الملك أن بركيا روق ـ الابن الأكبر لملكشاه ـ أحق بولاية العهد من أخيه محمود ـ الابن الاصغر لملكشاه من زوجته تركان خاتون ـ وعمره أربع سنوات، فأثار هذا العمل غضب تركان خاتون من نظام الملك، وأصرت على تولية ابنها محمود ولاية العهد، ولما كانت تركان خاتون قوية التأثير على زوجها ملكشاه، لذلك أفلحت فى الإيقاع بين نظام الملك وبين السلطان ملكشاه.

بدأ ملكشاه يتلمس الأخطار التى وقع فيها نظام الملك، ومنها أنه كان يولى أبناءه وأحفاده وأقاربه حكم المدن والولايات والمناصب الرفيعة، وكان بعضهم ظالما غاشما مستبدا، ومنهم حاكم مرو الذى رفع الناس تظلماتهم منه إلى السلطان، فأرسل السلطان يؤنب وزيره على إسناد حكم الولايات إلى هؤلاء الحكام الظلمة الذين تنقصهم الخبرة.

استاء نظام الملك الذى بلغ الثمانين من عمره ـ من تأنيب السلطان له، إذ هو مدين له بما بلغته الدولة من قوة وعبر عن غضبه برسالة إلى السلطان جاء فيها: إن الذى وضع التاج على رأسك، وضع القلنسوة على رأسى(٢)، أى أنه توج السلطان بيده، بأن

---

(١) الراوندى: راحة الصدور ١٣٤.

(٢) عصام الدين الفقى: الدول الإسلامية المستقلة ص١٧٣.

وضع التاج على رأسه، كما وضع بيده قلنسوته على رأسه. وازدادت العلاقات سوءا حتى عزله ملكشاه من الوزارة.

على أن نظام الملك لم يلبث أن قُتل سنة ٤٨٥هـ- ١٠٩٣م بالقرب من نهاوند بيد شاب ديلمى من طائفة الإسماعيلية التى ناصبها نظام الملك العداء، ونكل بأفرادها، وقُتل وهو داخل مخيمه، حين أرخى الليل سدوله. ولم يلبث ملكشاه أن توفى بعد مقتل وزيره بشهر واحد(١).

ولما وصل السلطان ملكشاه بغداد، خرج إلى الصيد، فأصيب بضربة شمس، مات بسببها فى نفس السنة ٤٨٥هـ فتحقق كلام نظام الملك، لقد ارتبطت عمامتى وتاجك مع بعضهما البعض. وقال الشاعر الفارسى: ذهب الوزير الشيخ إلى الفردوس الأعلى، وفى الشهر الحالى التالى تبعه الملك الشاب فتأمل قدرة الله، وتمعن عجز السلطان.

توفى السلطان ملكشاه عن عمر يناهز ثمانية وثلاثين سنة، وحكم لمدة عشرين عاما، ولقبه من دار الخلافة السلطان جلال الدولة معز الدولة ملكشاه، يمين أمير المؤمنين(٢) اتخذ أصفهان حاضرة لدولته.

بوفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ-١٠٩٣م ينتهى العصر السلجوقى الأول، أو عصر السلاجقة العظام. وهو عصر قوة اتسعت خلاله الدولة السلجوقية شرقا وغربا، ولم يتمكن أعداؤها من النيل منها، أو التوسع على حسابها، أو الاستقلال ببعض ممتلكاتها. ويبدأ بوفاة ملكشاه، العصر السلجوقى الثانى، حيث انقسم السلاجقة على أنفسهم، وضعف السلاطين تبعا لذلك وكانت هذه فرصة لاستقلال بعض الأقاليم عن الدولة حتى زالت الدولة السلجوقية سنة ٥٩٠هـ- ١١٩٣م.

وبينما المشرق الإسلامى، يشهد صراعا على السلطة والحكم، كان السلطان المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب يعمل على استرداد البلاد التى استولى عليها الصليبيون، فهزم الصليبيين فى موقعة حطين، واسترد بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ- ١١٨٧م، واسترد بعض مدن الشام من الصليبيين.

---

(١) الراوندى: راحة الصدور ص١٤٢، ١٤٣.

(٢) تاريخ كزيده ١٠٨.

العصر السلجوقى الثانى

أخذت الدولة السلجوقية فى الضعف والانهيار بعد وفاة ملكشاه، بسبب تنافس الأمراء السلاجقة حول الوصول إلى الحكم، الأمر الذى أحدث انقساما شديدا بين أمراء البيت السلجوقى، وبدأت هذه الخلافات حول من يتولى السلطنة بعد ملكشاه، بين بركياروق ـ الابن الأكبر ـ ومحمود الطفل الصغير، وأيد بركياروق نظام الملك وأولاده من بعده وأتباعه، وأساتذة وطلاب المدرسة النظامية، على حين وقفت إلى جانب محمود، أمه تركان خاتون، والوزير تاج الملك الشيرازى ـ الذى خلف نظام الملك فى الوزارة(١).

استطاعت تركان خاتون بسبب وجودها فى بغداد، وصلتها بالبيت العباسى، أن تحصل على تقليد من الخليفة العباسى بتولى ابنها محمود السلطنة، وأودع بركياروق فى سجن أصفهان.

غير أن أساتذة وطلاب المدرسة النظامية، أخرجوا بركياروق من سجنه، ونادوا به سلطانا، وقتلوا الوزير تاج الملك لاتهامه بتدبير قتل نظام الملك(٢).

غير أن بركياروق واجه صعابا فى بداية حكمه، فقد ثار عليه عمه تتش ـ صاحب الشام ـ وطالب بالعرش، وسار إلى بلاد الجزيرة، واستولى عليها. وقوى مركز بركياروق فى دولته، بعد أن اعترف به الخليفة العباسى سلطانا. وزاد مركز بركياروق قوة، واستقر فى حكمه بعد وفاة أخيه محمود الذى نافسه فى السلطنة، ودخل فى حرب مع عمه تتش ـ الطامع فى السلطنة ـ وانتصر عليه سنة ٤٨٨هـ ـ ١٠٩٥م بالقرب من الرى،(٣) وبذلك تخلص بركياروق من منافسيه، واستقر فى حكمه.

على أن الأمور لم تستقر لبركياروق، فقد ثار عليه أخوه محمد ـ حاكم آران وكنجه ـ وسار إلى همذان، وانتصر على بركياروق، وقوى بأسه بعد أن اعترف به الخليفة العباسى سلطانا. وبذلك أصبح للدولة السلجوقية سلطانان متنازعان، الأمر الذى أضعفها، وفتت وحدتها(٤).

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) الراوندى: راحة الصدور ص١٤٢، ١٤٣.

(٣، ٤) ابن الأثير: فى الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٩٧هـ.

وظهر فى ميدان الصراع حول السلطنة، الابن الآخر سنجر فقد تطلع هو الآخر للسلطنة، وحدث نزاع شديد بين الأخوة الثلاث حول السلطنة، وكان الخليفة العباسى، يقف موقف المتفرج، ويعطى التفويض بالسلطنة لمن دخل بغداد ظافرا منتصرا. وهو يهمه فى هذه الحالة ازدياد الانقسام بين الأمراء السلاجقة حتى يضعفوا ويتخلص منهم.

ازداد ضعف السلاجقة، بسبب الانقسام الشديد بين الأمراء السلاجقة. وفى سنة ٤٩٧هـ-١١٠٣م اتفق الأخوة المتنازعون بركياروق ومحمد وسنجر على تقسيم المملكة بينهم، وعلى أن هذا النزاع قل بسبب وفاة بركياروق سنة ٤٩٨هـ -١١٠٤م بعد أن ترك الدولة، وقد فرقتها الانقسامات وتغلب كل أمير على ما تحت يده من البلاد(١).

ولم يستطع السلطان محمد ـ الذى انفرد بالسلطنة ـ بعد وفاة أخيه بركياروق، أن يعيد إلى البلاد وحدتها وتعرضت لأخطار كثيرة، من الإسماعيلية الذين ازدادت قوتهم، وكثرت أعمالهم التخريبية، كما أن الحروب الصليبية قد بدأت، وعرضت الشرق لأخطار جسيمة وكوارث مروعة. على أن محمد توفى سنة ٥١١هـ-١١١٧م، وخلف محمود آباه، ولم يعترف به عمه سنجر - صاحب خراسان وبلاد ما وراء النهر - بل أعلن نفسه سلطانا. وبذلك أصبح للدولة السلجوقية، كما كان الحال من قبل سلطانان(٢).

على أن أمر سنجر لم يستقر ويستمر فى خراسان وبلاد ما وراء النهر؛ ذلك أن الخوارزميين، قوى أمرهم، وقاموا بتوسيع دولتهم على حساب مملكة سنجر. ومن ناحية أخرى ازداد النزاع بين الأمراء السلاجقة، وتطلع كل أمير إلى السلطنة، وكثرت الحروب بينهم. وهكذا أصبحت الدولة السلجوقية مسرحا للحروب بين أمرائها، فى الوقت الذى تطلع فيه جيرانها إلى انتزاع أراضيها.

ازداد نفوذ الخوارزميين فى عهد الأمير تكش وقربه الخليفة العباسى الناصر لدين الله، وعهد إليه بتخليصه من كابوس السلاجقة، الذى قاسى منه العباسيون سنين طوال، ووجد الخوارزميون فى ذلك فرصة لتوسيع رقعة دولتهم على حساب الدولة السلجوقية المتداعية.

والسلطان طغرل آخر سلاطين السلاجقة، حدثت انقسامات شديدة فى دولته، وثار عليه بعض الأمراء، واعتزم تكش خان ـ السلطان الخوارزمى ـ التخلص منه،

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٨٩هـ.

(٢) عصام الفقى: الدول الإسلامية المستقلة ص١٧٤.

واشتبك معه فى حرب سنة ٥٩٠هـ- ١١٩٤م هزمه فيها فى إقليم الرى، واشتد اليأس بطغرل وفى ذلك يقول: من نكون نحن فى هذه الدنيا، لماذا نأتى إليها ونتبختر فيها ونأكل ونشرب ولا نتذكر أحزاننا وأفراحنا.

ولم يعد معنا مال ولا لنا مأوى أو متاع، وحيث إن العمر لم يدم فقل لى لا تعش مطلقا.

واقترب جيش السلطان الخوارزمى من مدينة الرى وكاتبه كبار رجال الدولة، يعلنون ولاءهم له، ودارت الحرب بين السلطان السلجوقى طغرل والسلطان الخوارزمى تكش خان، هُزم فيها آخر السلاطين السلاجقة وقتل. ودخل الخوارزميون الرى، وبمقتل طغرل سقطت الدولة السلجوقية التى بدأت بطغرل وانتهت بطغرل. سنة ٥٩٠هـ- ١١٩٤م(١). وأقام الخوارزميون دولة مترامية الأطراف على أنقاض الدولة السلجوقية.

وجدير بالذكر أن الدولة السلجوقية بدأت سنة ٤٢٩هـ، وانتهت سنة ٥٩٠هـ أى استمرت مائة وواحد وسبعين عاما سيطرت على مساحات شاسعة من قارة آسيا، ونشرت الإسلام فى بلاد لم يصلها الدين الحنيف مثل آسيا الصغرى، وساهمت بدور كبير فى ازدهار الحضارة الإسلامية، وتقدم الفكر الإسلامى.

وقامت الدولة السلجوقية فى المشرق بعد قيام الدولة الفاطمية فى مصر والشام واليمن والحجاز بأكثر من سبعين عاما، وعاصرت الدولة الأموية فى الأندلس.

وزالت الدولة السلجوقية بعد زوال الدولة الفاطمية بثلاثة وعشرين عاما.

والدولة السلجوقية معاصرة للدولة الفاطمية فى مصر والشام واليمن والحجاز، وعاصرت السنوات الأولى من حكم الدولة الأيوبية فى نفس ولايات الدولة الفاطمية، وعاصرت دولة المرابطين فى المغرب والأندلس، ودولة الموحدين فى المغرب والأندلس، كما عاصرت عصر ملوك الطوائف قبل زحف المرابطين إلى الأندلس، وعاصرت كذلك الدولة العباسية الأم، والدولة البيزنطية، كما عاصرت أباطرة الدولة الرومانية المقدسة فى أوربا.

---

(١) تاريخ كزيده ١٥٤-١٥٦.

الدولة الخوارزمية

[٥٩٠هـ/١١٩٣م-٦٢٨هـ/١٢٣١م]

يقع إقليم خوارزم فى شرق الدولة الإسلامية، وحدوده من الغرب، بلاد الترك الغربية، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضا، وكان هذا الإقليم من ولايات الاتحاد السوفيتى، وهذا الإقليم الآن موزع بين الجمهوريتين الإسلاميتين أوزبكستان وتركستان.

كان إقليم خوارزم ضمن الدولة الإسلامية الكبرى، وحكمهم المسلمون فى عصرهم الأول، وفى العصر العباسى الثانى، عصر الدول المستقلة، حكمه الطاهريون والصفاريون والسامانيون والغزنويون والسلاجقة.

ولما ضعفت الدولة السلجوقية، برز فى الحياة السياسية القادة الترك، ومن بينهم أنوشتكين - أحد عبيد السلطان السلجوقى ملكشاه، وكان يشغل وظيفة الساقى، ومازال يترقى فى سلك الوظائف بسبب مهارته وأمانته، وقد أدب ابنه محمد وأحسن تأديبه، وأعده لتولية المناصب الرفيعة فى الدولة السلجوقية المتداعية، ووقع اختيار أحد قادة السلطان السلجوقى بركياروق عليه، ليكون حاكما على إقليم خوارزم، ولقبه خوارزمشاه، أى ملك خوارزم سنة ٤٩٠هـ وكان حاكما عادلا، أصلح أمور إقليم خوارزم، وقرَّب أهل العلم والدين، فازداد ذكره حسنا ومحله علوا، ولما ولى السلطان السلجوقى سنجر - خراسان - أقر محمد خوارزمشاه على إقليم خوارزم وأعمالها، فظهرت شجاعته ومكانته وكفايته، لذلك نال تقدير السلطان سنجر.

لما قوى محمد بن أنوشتكين، ولى ابنه أتسز، فعم ظلال الأمن فى البلاد، ونشر العدل بين الناس، وقربه إلى السلطان سنجر، واستصحبه فى حروبه وأسفاره، فظهرت منه الكفاية والشهامة، ولكنه طمع فى الاستقلال بإقليم خوارزم - الذى كان يحكمه باسم السلطان سنجر - وأعلن استقلاله عن الدولة السلجوقية. على أن سنجر سار إلى خوارزم، وعهد إلى أخيه - أى أخ أتسز - بحكم خوارزم - وعاد إلى خراسان(١).

---

(١) تاريخ كزيده ص ١٧٨.

سعى أتسز إلى الاستقلال من جديد، وأعد العدة لذلك وقوى من شأن جيشه. ولما قوى بأسه، وشعر بقوته، استقل بإقليم خوارزم سنة ٥٣٥هـ- ١١٤١م. لذلك اعتزم سنجر إحباط محاولته الاستقلالية عن دولته، وخرج فعلا على رأس جيشه من خراسان متوجها إلى خوارزم، فخشى أتسز بأس السلطان وعرض عليه الصلح، وتوسل إليه بالكف عنه.

أرسل السلطان سنجر إلى أتسز يتوعده ويقول: إنك تطلب الصلح فى حالة العجز، وتنقض العهد فى وقت الأمن وليس ذلك صفة ملك أوسيرة سلطان. ودبر أتسز مؤامرة لاغتيال السلطان سنجر، فعلم بها السلطان، وتوجه إلى خوارزم للانتقام من أتسز(١).

على أن شيوخ وفقهاء وعلماء خوارزم، توجهوا إلى السلطان سنجر، وطلبوا منه العفو والصفح، فاستجاب لهم السلطان، وعفا عن أتسز، ودخل أتسز فى خدمة السلطان، وأقره فى ملكه. على أن أتسز لم يلبث أن قوى شأنه، ووسع أملاكه، وضم إليها جند وغيرها من البلاد.

تطورت الأحداث السياسية فى المشرق الإسلامى لحساب أتسز؛ ذلك أن السلطان سنجر وقع فى أسر الغز فاستنجد أهل خراسان بأتسز. وبذلك أتيحت له الفرصة لتوسيع رقعة دولته، وتحقيق أمنيته فى الاستقلال، وتكوين دولة قوية على حساب الدولة السلجوقية المتداعية، على أن القدر حال بين أتسز وبين تحقيق غايته، فقد توفى سنة ٥٥١هـ- ١١٥٦م.

وأنشد رشيد الوطواط - شاعر القصر أثناء تشييع جنازة أتسز يقول:

كان الفلك يرتعد من شدة قهرك ... وينقاد لك على طواعية وخضوع

فأين صاحب النظر حتى ينظر، وهل كان هذا الملك جميعه يساوى هذا(٢).

بعد وفاة أتسز، تنافس بعض الأمراء وبعض القادة حول تولية حكم خوارزم، فاضطر إيل أرسلان الذى خلف أباه، إلى التخلص من منافسيه، ووضع عمه سليمان فى السجن وفى عهده مات السلطان سنجر، وتمكن إيل أرسلان من السيطرة على بعض بلاد خراسان وما وراء النهر. وبذلك اتسعت الدولة الخوارزمية، وأدى اقترابه من الخطا - حكام بلاد ما وراء النهر إلى حروب بينه وبينهم، هُزم فيها، وتوفى على أثر ذلك سنة ٥٥٨هـ- ١١٦٣م(٣).

---

(١) المصدر السابق ص١٨٤.

(٢) المصدر السابق ص١٨٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٥٨هـ.

تولى سلطان شاه، الحكم بعد أبيه، وكان طفلا، فحكمت أمه، ملكه خاتون البلاد نيابة عنه، ونافسه فى الحكم أخوه تكش، وأرسل يطلب منه نصيبه من أبيه فى السلطنة، وواصل تكش المطالبة بحقه من أبيه، حتى دارت الحرب بين الأخويين، استمرت عشر سنين، انتهت بانتصار تكش، واستولى على خوارزم، وبقى سلطان شاه يحكم بعض بلاد خراسان، واصطلح الأخوان وتوفى سلطان شاه سنة ٥٨٩هـ-١١٩٢م وصارت المملكة كلها تحت سيطرة تكش.

لما ولى تكش، اعتزم توسيع دائرة ملكه على حساب الدولة السلجوقية المتداعية، فاشتبك مع السلطان السلجوقى طغرل فى الرى وهزمه وقتله سنة ٥٩٠هـ، وتقدم إلى العراق، فهزم جيش الخليفة العباسى، واستولى على كرمان وبلاد الديلم. وبذلك اتسعت الدولة الخوارزمية فى عهد تكش، حتى شملت فارس وبعض بلاد العراق وخراسان وبلاد ما وراء النهر وبلاد الديلم وتوفى تكش سنة ٥٩٦هـ- ١٢٠٠م[(١)].

✲ ✲ ✲

(١) المصدر السابق حوادث سنة ٥٨٩هـ.

السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه

[٥٩٦ - ٦١٧هـ/ ١٢٠٠م - ١٢٢١م]

لما ولى علاء الدين محمد خوارزمشاه حكم الدولة الخوارزمية واجه صعوبات كثيرة فى تأكيد استقرار دولته وحمايتها من الاعتداءات الخارجية، فضلا عن رغبته فى توسيع رقعة دولته، وواجه خصمين عنيدين هما الغور والخطا.

تكلمنا عن قيام دولة الغور على أنقاض الدولة الغزنوية المتداعية، ونتكلم الآن عن تطور العلاقات الخوارزمية الغورية.

بعد تولية السلطان علاء الدين محمد الحكم، أغار الغور على مرو وطوس بجيش قوى يضم ستين فيلا. وبذلك هددوا إقليم خراسان، ولكن السلطان الخوارزمى لم يتغاض عن غارات الغور على إقليم خراسان التابع له، بل سار بجيش قوى إلى خراسان، وهزم الغور، واسترد البلاد التى انتزعوها، وما زال يطاردهم ويتعقبهم حتى طلبوا الأمان والعفو والصفح، فصالحهم، وغادروا إقليم خراسان وبذلك عادت خراسان كلها إلى حوزة الخوارزميين، وأنهى غارات الغور على مرو وسرخس وسائر إقليم خراسان، وطهر هراة ومرو وطوس من بقايا الغوريين، وشتت شملهم وطلب والى هراة الغورى الدخول فى طاعة السلطان الخوارزمى فأبقاه فى هراة، وفرض عليه غرامة مالية، فتعسف مع الناس فى جباية الأموال، ولما علم السلطان بذلك تنازل عن الأموال التى قررها فى الصلح مقابل التخفيف عن الناس(١).

وبعد أن استولى علاء الدين خوارزمشاه على هراة اتجه إلى بادغيس - من أعمال أفغانستان، واستولى عليها، ثم أقر الأمور فى مرو.

على أن شهاب الدين الغورى، اعتزم استرداد خراسان من الخوارزميين، فسار إلى خوارزم بجيش كبير، يضم عددا من الفيلة. هنا أدرك السلطان الخوارزمى الخطر الذى حاق بدولته، والتهديد الذى تعرضت له فى عقر دارها، فأعلن الجهاد، ونادى الشيوخ والفقهاء فى المساجد بالجهاد، والذود عن الوطن ضد العدو، فتجمع عدد غفير من الشباب، وقبلوا نداء الجهاد، وتجمع لدى السلطان الخوارزمى جيش قوى.

---

(١) عطا ملك جوينى فى تاريخ جهانكشاى جـ٤ ص٣٩٧.

هاجم السلطان الخوارزمى جند الغور، وأوقعوا بهم الهزيمة، وفر الغور لا يلوون على شيء، فتعقبهم جيش الخطا، ومازالوا يقتلون فى جند الغور حتى طلب شهاب الدين الغورى - سلطان الغور - الصلح، وعرض أموالا وأسلحة، حتى يكف عنه الغور(١).

لذلك صالح شهاب الدين الغورى - بعد ضعفه، السلطان علاء الدين الخوارزمى، ولكنه كان يضمر هدنة يعد فيها العدة لاسترداد خراسان، وفعلا شدد بعض هجماته على مرو وأبيورد وبلخ - من إقليم خراسان (٢).

ضعفت دولة الغور بعد وفاة شهاب الدين الغورى وانقسمت إلى دويلات، يحكم كل منها أمير، وتنافس الأمراء وضعفت البلاد، واختل الأمن والنظام، وساءت الأحوال الاقتصادية، فتطلع الناس إلى حاكم قوى، يعيد إلى البلاد أمنها وسلامتها، فراسلوا السلطان علاء الدين محمد، وطلبوا منه ضم بلادهم إلى دولته، فوجد السلطان علاء الدين محمد الفرصة مواتية لتحقيق رغباته التوسعية، فسار إلى غزنة، ومنها إلى فيروز كوه - عاصمة الغور وهراة وباقى إقليم خراسان، وضم كل هذه البلاد الواسعة إلى دولته، واستسلمت بلخ، وقدم حماة قلعتها مفاتيحها إليه، واستسلمت بامبان ومروهراة وفيروز كوه، ورحب الناس بمقدم السلطان الخوارزمى، وأقاموا الزينات فرحا بمقدمه، وقدموا له فروض الولاء والطاعة، واستسلمت سجستان وكرمان سنة ٦٠٣هـ-١٢٠٦م(٣). وبذلك اتسعت الدولة الخوارزمية، فشملت كل إقليم خراسان وكرمان وسجستان، وأقيمت الخطبة باسم السلطان فى هذه البلاد، ونُقشت العملة باسمه، وأنهى السلطان الخوارزمى كل حركات العصيان فى هذه البلاد، ومنها حركة ابن خرميل الذى عهد إليه السلطان الخوارزمى بحكم منطقة هراة، وقضى كذلك على كل حركة مضادة لنظام حكمه. وبذلك عاد الهدوء والسلام إلى إقليم خراسان فى ظل الحكم الخوارزمى بعد أن عانى أهلها كثيرا من الاضطرابات، وتحسنت أحوالهم المعيشية.

وفى سنة ٦٠٤هـ- ١٢٠٧م استولى خوارزمشاه على الطالقان ونيسابور سنة ٦٠٤هـ-١٢٠٧م. على أن كزلى الذى ولى هراة بعد ابن خرميل، حاول الاستقلال عن الدولة الخوارزمية ولكن السلطان الخوارزمى أحبط محاولته، وفشلت محاولات مازندران وكرمان الاستقلالية فى نفس السنة.

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٣٠٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٠٣هـ.

(٣) الجوينى: المصدر السابق جـ٢ ص٣١٤.

الخوارزميون وبلاد ما وراء النهر

قدمت قبائل الخطا الوثنية من الصين، وسيطروا على كاشغر وباقى بلاد ما وراء النهر، بل سيطر عبد منهم يسمى سنجر على بخارى، فاستنجد أهل بلاد ما وراء النهر المسلمين بالخوارزميين لتخليصهم من الخطا الوثنيين.

ازدادت قوة الخطا فى بلاد ما وراء النهر، وأصبحوا مصدر تهديد للبلاد المجاورة، حتى أن الخوارزميين قبل عهد علاء الدين محمد كانوا يؤدون الجزية للخطا مقابل الكف عنهم؛ ذلك لأن الخوارزميين كانوا يعانون من الانقسامات الداخلية، ومن الأعداء المتربصين بهم كالسلاجقة والغور، ولما ولى علاء الدين محمد رفض أداء الجزية للخطا، بل قبل أداء الجزية لملك الخطا سنة ٦٠٦هـ(١)، ولم يكتف علاء الدين محمد خوارزمشاه بذلك، بل زحف بجيشه إلى بخارى، وتخلص من غلامها سنجر، وتوجه بعدها إلى سمرقند، ورحب به أهل سمرقند؛ لأنهم ضاقوا ذرعا بهذا الغلام الوثنى وأقيمت الخطبة فى سمرقند باسم السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ونُقشت العملة باسمه، وبانضمام بخارى وسمرقند إلى الدولة الخوارزمية تعقد الموقف بين الدولتين الخطا والخوارزمية.

أرسل كورخان ـ ملك الخطا ـ جيشا كبيرا إلى البلاد التى انتزعها علاء الدين محمد خوارزمشاه، فأعلن السلطان الخوارزمى الجهاد ضد القوم الكافرين، ودعا خطباء المساجد ـ سكان بلاد ما وراء النهر إلى الجهاد، ودمر أعداء الإسلام، فاجتمع لدى السلطان الخوارزمى جيش كبير متحمس للجهاد فى سبيل الله وقهر عبدة الأوثان، والتقى الجند الخوارزمى بجند الخطا وألحق المسلمون بالكافرين هزيمة فادحة سنة ٦٠٦هـ- ١٢٠٩(٢).

أثار انتصار الخوارزميين على الخطا الوثنيين، الفرحة بين سكان بلاد ما وراء النهر، وأقبل الناس بعضهم على بعض يتبادلون التهانى، وأقيمت الزينات فى البلاد، وشُغل الزهاد بتقديم الشكر إلى الله، وأحيا الناس الأفراح بالمزامير والمعازف، وعبَّر الشبان عن أفراحهم فى البساتين، وتوافدت على السلطان بعد هذا الانتصار الرائع،

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٠٧هـ.

(٢) عطا ملك جوينى: المصدر السابق جـ٢ ٣١٨-٣٢٠.

رسل ملوك الأطراف يقدمون له الهدايا، وفروض الولاء والطاعة[1]. وبذلك انضمت بلاد ما وراء النهر إلى الدولة الخوارزمية.

واجه السلطان الخوارزمى بعض حركات التمرد فى بلاد ما وراء النهر ولكنه قمعها فى حينها، فثارت جَنْد، وأجبرها السلطان على الولاء له، وقمع بعض ثورات القادة الموالين للخطا. على أن كورخان ـ ملك الخطا ـ انتهز فرصة غياب السلطان الخوارزمى فى خوارزم، وهاجم سمرقند، وحاصرها وشدد عليها الحصار فغادر السلطان علاء الدين محمد، خوارزم لرفع الحصار عن سمرقند، ولما طال الحصار، زحف السلطان إلى دولة الغور المتداعية واستولى على هراة مرة أخرى، وأبقى محمود بن محمد شهاب الدين الغورى فى فيروز كوه ـ تابعا له، ولما قُتل عهد السلطان الخوارزمى إلى عليشاه بحكم فيروز كوه، وأرسل إليه الخلع والتشريفات، ومات تاج الدين أيلدكز ـ حاكم غزنة، فحدث فراغ فى غزنة وأعمالها، فاستولى عليها السلطان، وعثر فى خزائن غزنة على منشورات من دار الخلافة إلى الغوريين، فيها تحريض من الخليفة العباسى إلى الغوريين بمحاربة الخوارزميين، والتخلص منهم، وبذلك ساءت علاقات الخوارزميين بالخلافة العباسية، واستولى السلطان الخوارزمى على البقية الباقية من ملك الغور، أى فيروزكوه وهراة وغزنة وغرشتان وسجستان حتى حدود الهند ـ وفى سنة ٦١١هـ-١٢١٤م استولى السلطان الخوارزمى على كرمان ومكران[2].

نعود إلى سمرقند فقد قلنا: إن كورخان حاصر سمرقند وهاجمها وخرّبها، وقتل معظم أهلها. وعلى أثر انتصار كورخان على الجيش الخوارزمى، استرد بعض بلاد ما وراء النهر. ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان، فقد توفى كورخان وبوفاته زالت دولة الخطا التى سيطرت على بلاد ما وراء النهر خمسا وتسعون سنة، وأتيحت الفرصة أمام السلطان الخوارزمى لاسترداد سمرقند، وكل بلاد ما وراء النهر.

واصل علاء الدين محمد خوارزمشاه سياسته التوسعية فضم إلى دولته سنة ٦١٣هـ - ١٢١٦م بلاد الجبل وأبهر وزنجان وقزوين وهمذان وساوه، وملك أصفهان وقاشان، وقدم له أوزبك بن البهلوان ـ صاحب أذربيجان فروض الولاء والطاعة، ووطد دعائم ملكه فى خراسان، وسيطر على مدنها ـ ترمذ وسرخس وبلخ ونيسابور وغيرها.

---

(١) المصدر السابق ص٣٢٢.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق حوادث سنة ٦١١هـ.

على أنه وجد صعوبة فى إقليم فارس، فاكتفى بالسيطرة على بعض المدن الفارسية[١]. وبذلك اتسعت الدولة الخوارزمية اتساعا كبيرا، حتى شملت خوارزم وبلاد ما وراء النهر وخراسان وأذربيجان وسجستان وغزنة وفيروز كوه وكرمان ومكران وبلاد الجبل ومنطقة بحر قزوين.

تطلع السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه إلى السيطرة على بغداد بعد أن اتسع ملكه على حساب الخطا فى الشرق، والغوريين فى الجنوب، واعتزم المطالبة بإقامة الخطبة له فى بغداد، كما كان الحال أيام السلاجقة، ولكن الخليفة العباسى الناصر، أرسل إلى السلطان الخوارزمى رسولا من قبله، يحذره من مغبة غزو بغداد[٢]. كما ازدادت العلاقات سوءا بعد أن اكتشف السلطان الخوارزمى فى خزائن غزنة، التى استولى عليها - كتبا من الخليفة الناصر، يحرض فيها الغوريين على قتال الخوارزميين وإضعافهم سنة ٦٠٣هـ - ١٢٠٧م ونُسب إلى الخليفة الناصر تحريض المغول على الخوارزميين.

حرض الخليفة الناصر الغوريين والخطا الوثنيين على غزو الخوارزميين وحرض الإسماعيلية كذلك على مواصلة حركاتهم الإرهابية ضد الخوارزميين. وبذلك لعبت السياسة دورها على حساب الدين، على أن الخوارزميين أضعفوا الخطا، وقضوا على دولتهم، وأضعفوا الإسماعيلية كذلك بهجماتهم العنيفة على قلاعهم[٣].

وزاد من عداء الخوارزميين للخلافة العباسية، أن السلطان علاء الدين خوارزمشاه اعتنق المذهب الشيعى، ومعنى ذلك أنه لم يعد يعترف بالخلافة العباسية، ورحب بهذا التحول الشيعة فى خراسان وفارس. وعقد مجمعا من رجال الدين، أقروا خلع الخليفة العباسى، الذى يتحالف مع الوثنيين والإسماعيلية الملاحدة، وبايعوا رجلا شيعيا اسمه علاء الملك بالخلافة، وحذفوا اسم الخليفة الناصر من الخطبة ومن العملة، وأقيمت الخطبة لعلاء الملك، ونقش اسمه على العملة الخوارزمية.

ولم ينس علاء الدين خوارزمشاه موقف الخليفة الناصر من أبيه، حين حرض الإسماعيلية على قتل عبده وربيبه إغلمش فى العراق، وواصل الخليفة الناصر تدبير المؤامرات ضد الخوارزميين ولا يمكن قبول الرواية التى تقول بأن الخليفة العباسى حرض المغول على غزو الدولة الخوارزمية، ومن الطبيعى أن تكثر الشائعات فى هذا العصر المضطرب، وكان علاء الدين محمد يتهم الخليفة العباسى بذلك، دون أن يملك دليلا

---

(١) المصدر السابق حوادث سنتى ٦١٣، ٦١٤.

(٢، ٣) عطا ملك جوينى فى تاريخ جهانكشاى جـ٢ ص٣٠.

لهذا الاتهـام. والخليفة العباسى يعلم يقينا أن غزو المغول للدولة الخوارزميـة، يفتح الطريق للمغول لغزو العراق، والزحف إلى بغداد، والاستيلاء عليها(١).

خضع عثمان ـ سلطان السلاطين ـ للخطا، بعد غزوهم بلاد ما وراء النهر، وكان كورخـان ـ سلطان الخطا ـ يغدق عليه الأمـوال ـ ويكرمه، ولكنه رفض أن يزوجـه ابنته الحسناء الرائعة الجمال، فتزوج ابنة السلطان عـلاء الدين محمد وعاد إلى سمرقند، ونقل ولاءه من جديد إلى الخطا، وتمرد على السلطان علاء الدين محمـد، وتحققت أمنيته فى التزوج من ابنة ملك الخطا. فسـار السلطان علاء الدين محمد إلى سمـرقند، واستولى عليهـا سنة ٦٠٩هـ- ١٢١٢م، وامتـد نفوذه إلى فـرغانة وتركـستان، وقـبض السلطان الخوارزمى على السلطان عـثمان وقتله لتـحالفه مع الخطا وقتل رجـاله والتنكيل بابنته. وسـيطر السلطان الخوارزمى بذلك عـلى بلاد ما وراء النهـر، واتخذ مـدينة سمـرقند، حاضرة لدولته(٢)، وأقام بها مسجدا جامعا تم فـيه إحياء شعائر الإسلام بعد أن أهملت فى عهـد الخطا الوثنيين واتسعـت بذلك الدولة الخوارزميـة بانضمام بلاد مـا وراء النهر إليها.

* * *

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ١٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٠٩هـ.

الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبرتى

كان جلال الدين منكبرتى ملازما لأبيه، قائدا شجاعا قديرا على الحرب والقتال، أما إخوته فقد انغمسوا فى الترف والملذات ولم يشتركوا فى الحروب الطاحنة التى خاضها والدهم علاء الدين محمد وخصوصا مع المغول. وكان جلال الدين يقول لوالده: لو أجهدك الحرب والقتال، فاترك لى قيادة الجيش الجرار، وسيرى منى ما يرهبه، وسأجعل من العدو عبرة للخلائق، وأغرقه فى مستنقع الدم، وأتدارك خطوب الدهر العابثة.

وفى هذه الظروف المضطربة ـ التى سنشير إليها ـ حيث المغول يشنون حربا ضارية ضد الخوارزميين، بايع علاء الدين محمد تحت تأثير أمه تركان خاتون، ابنه الطفل أزلاق، بدلا من جلال الدين، وبايع كثير من رجال الدولة هذا الطفل، غير مبالين بمصلحة البلاد، وكل ما يهمهم أن يحققوا آمالهم فى ظل هذا الطفل، بدلا من جلال الدين القوى(١).

المغول والعالم الإسلامى

نشأ المغول فى صحراء جوبى القاحلة ـ وهم شعب يشبه الترك فى اللغة والمظهر العام، وعاش هؤلاء القوم فى بلادهم فى شظف من العيش، ويحد بلادهم شرقا، ولاية الخطا، وغربا ولاية الأويغور، وشمالا القرغيز وسلنكاى، وجنوبا قبائل التنكت والتبت، كل قبيلة أو أكثر لها رئيس، وكانت هذه القبائل فى نزاع مع بعضها البعض، وكانوا يعيشون على الصيد، ومن عاداتهم السرقة والعنف والفجور، يدينون بالولاء لملك الخطا، يقدمون له ما يأمرهم به، لباسهم جلود الكلاب والجرذان، وطعامهم لحوم الحيوانات بما فيها الكلاب، وشرابهم ألبان البهائم، ويأكلون من ثمار الأشجار التى تنمو فى بلادهم. وجو بلادهم، برد قارس، وعلى ذلك فهم يعيشون فى شظف من العيش، وأتقنوا ركوب الخيل وأساليب الفروسية(٢).

ظلت هذه القبائل المغولية، تعيش فى حروب ومنازعات حتى ظهر منهم شاب فى ريعان شبابه الغض هو تيموجين ـ، ومعناها الحديد، كان أبوه خانا لبعض قبائل المغول وانفضت القبائل من حول أسرته، وكان على تيموجين أن يلتمس الرزق لأسرته، فقام بالعمل الشاق لأهل الاستبس، وهو الصيد، وكان يقطع مئات الأميال على ظهر فرس الاستبس الصغير من الفجر حتى المساء دون توقف إلا لفترات قليلة للرعى،

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٠٩هـ.

(٢) الجوينى: المصدر السابق جـ ص٦٠.

وكانت أفراس الاستبس عندها المقدرة علــى أن تحفر بحوافرها تحت الجليد فى الأرض، بحثا عن الطحالب والنباتات، التى تنمو فى الأرض تحت الجليد، وكان تيموجين يتغلب على العطش بقطع وريد منه أو من فرسه، وشرب الدم الناتج عن ذلك، وكان تيموجين يمارس الصيد، وسـباق الخيل. ومن عادة المغول أكل لحوم الصيد بالقــدر الذى يشبعهم تماما، ويحفظ أجسامهم أيام الجوع الطويلة التى تصادفهم[1].

تطلع تيموجــين إلى استعاده ملك أبيــه، والسيادة على قبائــل المغول ولكنه واجه أعمالا عدوانية على أسرته وقبيلته من التتار المتوحشين ومن الطوبغوريين، واستولوا على مراعى المغــول ومراعى أســرة تيمــوجين الذى هرب من وجــه هؤلاء المعتــدين، وقاسم تيموجين وأسرته أهوال الجوع والحرمان. ولما انســحب الأعداء كان تيموجين فى السابعة عشرة من عمره، فتطلع إلى اســترداد أملاك أبيه وتوحيدها تحت قيادته، وتزوج بورتاى التى اختارها أبوه له قبل وفاته.

نال تيموجين تقــدير المغول بسبب مهارته فى مطاردة بقايا التــتار والطوبغوريين، وانتشر النبأ بين المغــول بأن تيموجين تؤيده قوة السماء، وكلــما شعر بالخطر، تطلع إلى السماء لإنقاذه ويطلب من الأرض أعوانا مخلصين.

ولما شعر بتــقدير القبائل المغــولية، دعا زعماء القــبائل فى مجلس لاختــيار خان لهم، فوقع اختيارهم عليه، وبذلك ألقى على عاتقه توحيد القبائل المغولية تحت زعامته، وشن غارات متعــددة على الأراضى الشاسعة المجاورة حتى وصل فــرسانه إلى الأويغور ووجد فيهم علماء ومفكرين، وتطلع هؤلاء البــرابرة إلى الاستفادة من خبراتهم فى بناء دولتــهم، وجذب خــبراء الأويغــور إليه، فــأعدوا ســجلات ودفــاتر الدولة، ووضعــوا الدواوين الإدارية والمالية، فضلا عن وضع دستور وقوانين الدولة، المسماه بالياسا.

اعتمد تيموجين كذلك على ضباط كبار فى إدارة شئون دولته أعطاهم الامتيازات الكثيرة والرواتب الضخمة، وسموا طرخانات وأقطعهم الأراضى الشاسعة.

وواصل تيمــوجين سيطرته عــلى قبائل المغــول، حتى ضم إليه كل بدو صــحراء جوبى، واتخذ من حــصن قراقورم مقــرا له، ونظم أمور دولته، ووضع لقومــه دستورا يسمى اليــاســا، يتضمن مبادئ وشرائع تــنظم أحوال مجتمعــه، الذى هو فى حاجة إلى قوانين تنظم حياة الأفراد الذين يعيشــون على البداوة، وتبعدهم عن حياة الفوضى التى يعيشون فيها.

---

(١) لامب جنكيزخان ص٤٦.

ولم يكن للمغول خط يكتبون به، فأمر جنكيزخان بتعليم أطفال المغول القراءة والكتابة بالخط الأويغورى، ودون قوانينه بهذا الخط الذى وضعه فى طوامير، وسُميت الياسا أو القواعد الكبيرة، وأودع هذا الدستور فى خزائن الأمراء(١)، حتى إذا ولى الأمير، حكم بلد من البلاد، رجع إلى هذه القوانين، حتى يهتدى بها فى بناء البلدة التى يحكمها، أو فى التعامل مع أعداء المغول، وتتضمن الياسا مبدأ المساواة بين السلطان والعامة، والناس جميعهم متساوون، ولا يتخذ من يلى ولاية ألقابا، ويكفى تلقيبه بالخان أو الخاقان. والوالى أو الأمير إذا كتب منشورا عليه بعدم الاستطراد، وإنما يكتب ما هو مطلوب منه فقط(٢).

والصيد واجب على كل فرد من المغول، وعلى الجند التدريب على أعمال الفروسية، وتحمل المشقات. وموعد الصيد فى أول الشتاء، ولا يخرج فى رحلة صيد إلا عشرة جنود فقط، حتى لايخلو الميدان من المقاتلين(٣). على الجند المكلفين بالحرب القيام بواجبهم القتالى، لا فرق بين أمير وضعيف، فهم جميعا ضاربو سيوف ورماة نبال وطاعنون بالرماح، يستقبلون العدو بأى سلاح وقع فى أيديهم دون كلل أو سأم، المصلحة الحربية فوق كل اعتبار، وينفذون ما يأمرون به فى ساحة القتال، ومن خالف الأوامر والتعليمات، عوقب بكل عنف.

والرجال والنساء الذين لايشتركون فى القتال، عليهم إعداد طعام وملابس الجند. والياسا فى مضمونها تتضمن طاعة السلطان طاعة عمياء، وبذلك سمى تيموجين، جنكيزخان، أى سيد سلاطين الأرض(٤).

وتنظم شئون الجيش تنظيما دقيقا، بحيث يمكن حصر الجند ومعرفة مواقعهم، وذلك بتسجيل أسمائهم وأسماء قادتهم فى دفاتر منظمة. والقادة مقسمون إلى أمير الألف، وأمير المائة وأمير العشرة، حسب عدد الخيول التى يستعملها الجند التابعين للقائد. والأمير سواء عشرة أو مائة أو ألف عليه أن يحكم جنده حكما مطلقا، ويحكم على المخالف بالإعدام. وأمير العشرة، عليه طاعة أمير المائة وهو بدوره يطيع أمير الألف وهكذا. وغنائم الحرب من النساء، ترسل إلى الخانات، فيختار الخان ما يروقه وما لا

(١، ٢) الجوينى: المصدر السابق جـ٢ ص٦٣.

(٣) المصدر السابق جـ٢ ص٦٣.

(٤) الجوينى: المصدر السابق جـ١ ص٦٨.

يروقه يودع فى القصر، ولكل فرقة من الجيش، كشافة تقوم بنقل الأخبار والأموال، ولها أسلحة محددة، وأموال ونفقات وتدريب، وإذا نفدت أموال الكشافة - وهم يؤدون مهامهم - عليهم أن يجمعوا من الأموال ما يكفيهم من الأهالى وطرق سيرهم محددة ومعلومة، وتوضع تحت الرقابة(١).

تطلع جنكيزخان، بعد أن وحد القبائل المغولية تحت سيطرته إلى توسيع رقعة دولته، وكان المجال الحيوى له - بلاد الصين - التى تقع جنوب مملكته، حيث الخصب والرخاء والازدهار، فشن عدة حملات على إمبراطورية كين، واستولى على مساحات شاسعة من بلاد الصين سنة ٦٠٨هـ - ٦١١هـ/ ١٢١١م - ١٢١٤م. وسيطر على بكين سنة ٦١٢هـ- ١٢١٥م، وقضى جنكيزخان على مملكة الأويغور، والبقية الباقية من مملكة الخطا على حدود الصين.

أصبحت إمبراطورية المغول القوية، تجاور دولة الخوارزميين القوية - دولة الإسلام القوية البأس - ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين العظميين.

فى أواخر عهد جنكيزخان، عمَّ الأمن، وشمل الرخاء مملكة جنكيزخان، وأمنت الطرق، وخمدت الفتن، وعاد التجار يجوبون أطراف المملكة بتجاراتهم، واتجهوا شرقا ببضائعهم التى تشمل أقمشة حريرية وقطنية. ووفد بعض التجار على جنكيزخان، وقدموا له الهدايا من نفائس مبيعاتهم، فازدادت ثقة جنكيزخان بهؤلاء التجار المسلمين، وأمر بجمع أربعة وخمسين تاجرا من المسلمين، وأمرهم بأن يحملوا بضائعهم إلى السلطان الخوارزمى، علاء الدين محمد فوفدوا على أترار - التابعة للدولة الخوارزمية - وأميرها إينال جُق - أحد أقرباء تركان خاتون - أم السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه - فقبض عليهم، أمير أترار، بتهمة التجسس وأرسل بخبرهم إلى السلطان، وأمر بمصادرة أموالهم وقتلهم، وكان هذا الموقف بمثابة الشرارة التى أشعلت الحرب بين الدولتين المتجاورتين، على أن علاء الدين محمد خوارزمشاه، شعر بالخطر على دولته، فأرسل جواسيس إلى دولة المغول يطلعون على نوايا المغول، وحجم قوتهم، فعادوا إليه، وأخبروه بكثرة عددهم، وأنهم من أصبر الناس على القتال، وأنهم يصنعون أسلحتهم بأيديهم، كما أن جنكيزخان أرسل رسلا إلى السلطان الخوارزمى، يطلب منه تسليم إينال خان - حاكم أترار -، وجاء فى رسالته: إن كنت تزعم أن الذى ارتكبه إينال

---

(1) Douglas: The Stoty of China. P.387.

خان - حاكم أترار- من غير أمر صدر منك، فأرسل إلينا، إينال خان، لنرى أمرنا فيه ونجازيه على ما فعل، حقنا للدماء(١).

على أن السلطان الخوارزمى لم يكترث بتهديدات جنكيزخان، ورأى أنه لو وافق على دعوة جنكيزخان، لزاد طمع جنكيزخان، وتماسك وتجلد، بل أمر بقتل رسل جنكيزخان سنة ٦١٥هـ- ١٢١٨م. ويقول الجوينى(٢): إن دمهم أُهرق، ولكن كل قطرة منه، قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء، وإن رءوسهم قد سقطت، ولكن كل شعرة منهم، قد سقط بسببها ألوف المسلمين. ويقول النسوى(٣): كل نقطة دم أهدرت، سال بسببها أنهار من دماء المسلمين، على أن المغول كانوا سيشنون حملاتهم الوحشية على بلدان الدولة الخوارزمية، سواء حدثت مذبحة أترار أو لم تحدث ولكن قتل التجار عجل بغزو المغول للدولة الخوارزمية؛ لأن سياسة المغول قامت على أساس الفتح والتوسع فى الأراضى الخصبة المحيطة بها، وامتدت ثرواتها ولم يعلم أحد أن دماءهم ستحول الدنيا إلى خراب، وتدع الناس بلا مأوى، وأن الثأر من كل شعرة من رءوسهم، تعادل مئات الألوف من الرءوس وعوضا عن كل دينار، أخذوه، سيخسرون القناطير المقنطرة.

غضب جنكيزخان كل الغضب، لما لحق برعاياه من التجار المسلمين، من قتل ومصادرة، وعوّل على الانتقام، ووجد الفرصة سانحة، لتحقيق سياسته الرامية إلى التوسع غربا، بعد أن اتسعت دولته شرقا. وهذا التوسع، يعنى مهاجمة أراضى الدولة الخوارزمية، والاستيلاء عليها، والانتفاع بمواردها الاقتصادية الهائلة من زراعة وصناعة وتجارة، فضلا عن فتح الباب الشرقى لدولة الإسلام الكبرى، سيتيح الفرصة للمغول، لفتح المزيد من الممتلكات الإسلامية، وإسقاط الخليفة العباسى، ولكنه لم يتعجل الحرب، بل فكر كثيرا فى اتخاذ القرار، فخرج جنكيزخان إلى إحدى التلال وحيدا، عارى الرأس، واستمر على هذا التل ثلاثة أيام بلياليها، يفكر فى عواقب الحرب مع الخوارزميين التى قد تسبب الكثير من سفك الدماء، وأخيرا، هداه تفكيره إلى إرسال تهديد إلى السلطان الخوارزمى، وإنذاره بالحرب، وجاء فى رسالته: إن تماديت فى

(١) تاريخ جهانكشاى جـ١ ص٤٢.

(٢) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٨٨.

(٣) الجوينى: المصدر السابق جـ١ ص٩٩.

العناد، نلت جزاءك، فعين الزمان، ليست نائمة، وما يفعله المرء يحصده. وعلى السلطان أن ينتظر الحرب[١].

لم يقبل السلطان الخوارزمى تهديدات المغول بالحرب، لذلك أعلن جنكيزخان الحرب فعلا على الدولة الخوارزمية، وبدأ الغزو المغولى المدمر لبلاد الإسلام، واتسم الغزو المغولى لبلاد الإسلام بالهمجية والوحشية، وتدمير المدن والقرى. ويقول ابن الأثير[٢]: لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، (أى الغزو المغولى استعظاما لها، كارها ذكرها.. هؤلاء أى المغول لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والأطفال وقتلوا الأجنة ـ ويقول السيوطى[٣]: هو حديث يأكل الأحاديث وخبر يطوى الأخبار، وتاريخ ينسى التواريخ، ونازلة تصغر كل نازله، وفادحة تطبق الأرض، وتملأها ما بين الطول والعرض.

كان مظهر المغول يدعو إلى الفزع والجزع، ويلقى الرعب فى النفوس، كانوا قساة مع أعدائهم، ولم يبقوا على أحد من قاهريهم، وأشاعوا الخراب والدمار فى كل بلد ملكوه، حتى تحولت القرى العامرة والمزارع الخصبة إلى صحارى قاحلة وكانوا يستزلون أسراهم، بحيث يجعلونهم فى طليعة جيوشهم وإذا بدأت المعركة يقذفون بهم فى المقدمة، ويتخذونهم دروعا بشرية لهم، وقد يقذفونهم فى الفجوات التى يحدثونها فى أطراف المدن، ويملئون الخنادق بأجسام أسراهم، وإذا سلم أحد من أسراهم، يتخلصون منه بالقتل، حتى يفسحوا المجال لأسرى جدد. على كل حال اكتسح هذا الزلزال المدمر، وتلك القوى الجامحة، بلاد الإسلام، وأتوا على الأخضر واليابس، وأهلكوا الحرث والنسل[٤].

أعد جنكيزخان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية، والتى تاخمت حدودها، حدود دولته، وأعد أربعة جيوش، الأول مهمته فتح مدينة أترار، بقيادة ابنيه أوكتاى وجغتاى، والثانى بقيادة ابنه جوجى، ومهمته فتح البلاد التى تقع على ساحل نهر

---

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٢٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧هـ.

(٣) تاريخ الخلفاء ٢٨٦.

(4) Sykes : A Hist.. of Persia. P.56.

سيحون، الثالث مهمته فتح مدينة خجند وبناكت ـ على نهر سيحون ـ أما الجيش الرابع ـ وهو أكبر وأقوى هذه الجيوش ـ ومهمته فتح البلاد التى تقع وسط بلاد ما وراء النهر، ويقوده جنكيزخان وابنه تولوى(١).

وبذلك وضع جنكيزخان خطة محكمة لفتح بلاد ما وراء النهر ـ التى يسكنها خليط من العرب والفرس والترك. وأعد جنكيزخان خطة حربية هجومية، أتقن إعدادها وأحسن دراستها(٢).

بدأت حملات المغول الهجومية على بلاد ما وراء النهر سنة ٦٠٨هـ- ١٢١١م.

سارع المغول إلى مدينة أترار، وشددوا هجماتهم عليها وقد اعتصم إينال خان ـ حاكم أترار ـ بالقلعة، ودافع بكل ما أوتى من قوة عن البلدة والقلعة، بل أنهك المغول شهرا كاملا، وأجهدهم بضرباته الدفاعية القوية حتى فقد معظم رجاله، ونفدت المؤن والأقوات، وشدد المغول هجماتهم على القلعة، حتى ألقى بنفسه على سقوف أحد المنازل، وظل يقاتل المغول حتى خارت قواه فتمكن المغول منه، وقبضوا عليه، وسيق إلى جنكيزخان(٣)، فانتقم منه شر انتقام بصهر الفضة، وصبها فى أذنيه وعينيه، وقُتِلَ تعذيبا. وبذلك انتقم جنكيزخان من قاتل التجار. وسقطت مدينة أترار فى أيدى المغول سنة ٦١٦هـ- ١٢١٩م وهى مفتاح بلاد ما وراء النهر، وقتل المغول أهل أترار، وغنموا كل ما وقع فى أيديهم فى المدينة المنكوبة، وأحدثوا فى المدينة مذبحة مروعة وأخذوا معهم أرباب الحرف والصناعات. وبذلك حقق الجيش الأول مهمته بالاستيلاء على أترار، وقتل حاكمها ومعاقبة أهلها(٤).

ولما بلغ جيش المغول جَنْد، رأى حاكمها أنه لا قبل له بالمغول، فغادر المدينة، تاركا أهلها يدافعون عنها وانقسم أهلها إلى قسمين، قسم أصر على الدفاع عن بلدهم وفريق رأى الاستسلام. على كل حال هاجم المغول مدينة جند، وهدموا أسوارها، ورموها بالمنجنيقات حتى اقتحموها وبذلك سقطت جند فى أيدى المغول(٥).

(١، ٢) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٩١.

(٣) الجوينى: المصدر السابق جـ٢ ص١٠٣.

(٤، ٥) النسوى: المصدر السابق ص٩٩.

اتجه الجيش الثالث إلى فرغانة والوادى الأعلى من نهر سيحون، ومن أهم المدن، خُجند وبناكت، وحاصر جيش المغول بناكت، ولم يجد المغول مقاومة من سكان هذه المدينة واستولوا عليها بسهولة ويسر، وقتلوا الكثير من سكانها، وأبقوا على الشباب القوى الذى يفيدهم فى أعمالهم العسكرية ثم واصل المغول زحفهم، وساروا إلى خُجند - وهى مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها الغناء وبساتينها الجميلة، وموقعها التجارى الهام، وقد قاوم حاكمها الشجاع - تيمور ملك - الغزو المغولى بكل بسالة وشجاعة، حتى وهنت قوته، فامتطى جواده، ولجأ إلى خوارزم، حيث كان يرابط السلطان جلال الدين منكبرتى. وبذلك سقطت خُجند فى أيدى المغول.

أسند جنكيزخان حكم البلاد التى استولى عليها إلى أقاربه وأولاده وأحفاده(١).

اتجه الجيش الرابع - أقوى هذه الجيوش - إلى بخارى وسمرقند، ويقود هذا الجيش - كما قلنا - جنكيزخان وابنه تولوى، ويضم هذا الجيش فريقا من الجند الترك الأقوياء. وحاصر المغول بخارى، وهى مدينة تشتهر بعلمائها وفقهائها الأجلاء كما تزدهر بها التجارة والصناعة.

ومهما يكن من أمر، فقد أغلق البخاريون أبواب مدينتهم، ودافعوا عنها بكل ما أمكنهم، ثم تردد الأهالى بين المقاومة أو الاستسلام. ولما رأى علماء المدينة وأعيانها أنهم لا يستطيعون مقاومة المغول القوية طلبوا الأمان من جنكيزخان، فى مقابل تسليم المدينة دون قتال وفُتحت أبواب بخارى، ودخلها جنكيزخان وابنه تولوى ودخل جنكيزخان وجنده المسجد الجامع، بعد أن استولوا على مخازن الغلال والعلف والسلاح. وقال لجنده فى المسجد: إن الخيل لم تأكل علف الربيع، وهذه إشارة لجنده بالاستيلاء على كل ما فى البلدة من ثروات، وقتل أهلها، وأقاموا فى المسجد حفلا غنائيا كبيرا، وشربوا الخمور(٢). هنا وقف أحد فقهاء بخارى فى المسجد، ينصح الناس بالمقاومة، ويدعوهم إلى الجهاد، بعد أن شاهدوا بطش وتعسف وظلم المغول، فخرج الأهالى يقاومون المغول، ولكن المغول هزموهم وقتلوا ما يقدر بثلاثين ألفا من سكان بخارى، وأحرقوا القلعة والدور، ونهبوا ما تبقى من ثروات المدينة، فذهب ما تبقى من أهل

---

(١) تاريخ كزيدة. ص١٧٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٤..

بخارى إلى جنكيزخان، يطلبون الأمان فأمنهم، واشترط عليهم أن يخرج معه ما تبقى من شباب بخارى لمساعدته فى فتح سمرقند. وبذلك تم فتح بخارى سنة ٦١٧هـ-١٢٢٠م(١). ودخل المغول بخارى، وقتلوا كل من صار فيه من أهلها،وكان يوما حزينا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، ولاذ بالفرار من تمكن تاركا أهله وولده وداره.

واصل المغول زحفهم إلى سمرقند، ومعهم الأسرى حفاة عراة فى أقبح صورة، ومن عجز عن المشى قتلوه أو تركوه لمصيره، وبئس المصير، ووفد رجل من أهل بخارى إلى إقليم خراسان، فسأله الناس عما جرى فى بلاده، فرد ردا بليغا موجزا، يوضح تماما ما حدث، قال: جاؤوا وقتلوا وأحرقوا ونهبوا وذهبوا(٢)، أى أنه فسَّر ما حدث فى بضع كلمات(٣).

سار جيش المغول إلى سمرقند ـ حاضرة الدولة الخوارزمية ـ واستدعى جنكيزخان أمراء دولته الواسعة، فجاؤوا بجيوشهم فكثر جمعه، وأعد جيشه للهجوم إعدادا جيدا، واستولى على القرى والمدن التى مر بها فى طريقه إلى سمرقند، وحاصر سمرقند، وقاوم الجند الخوارزمى المغول، كرًّا وفرًّا وقتلوا الكثير من المغول، وهاجم الخوارزميون المغول بالفيلة، ولكن المغول صدوا الفيلة، وعاد الخوارزميون أدراجهم، بعد أن ألحقوا خسائر كثيرة بجند المغول.

أحكم المغول حصارهم بسمرقند، واستمرت هجماتهم ثلاثين يوما، خربوا البلدة، حتى لم يبق فيها حجر على حجر، واقتحم المغول سمرقند، وخرج رجالها ونساؤها إلى سور المدينة، ثم نادى المنادى من المغول، الناس بعد الاختباء، لذلك هاجم المغول البيوت، وقتلوا كل من اختبأ فى المغارات والمخابئ والمجارى، ونهبوا كل ما فى البلدة من أمتعة وثروات ودار قتال مرير بين جند السلطان الخوارزمى وجند المغول فى شوارع سمرقند وخارجها، واعتصم بعض الناس فى المسجد، وقاوموا المغول، فأحرقوا المسجد بما ومن فيه وأحدثوا مذبحة مروعة فى أهل سمرقند وجندها، وسقط أهلها بين غريق وقتيل وجريح، وأخذ المغول منهم الشباب ليستفيدوا منهم فى حروبهم،ومن بقى

---

(١) المصدر السابق ص١٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧.

(٣) المصدر السابق: حوادث سنة ٦١٧.

على قيد الحياة فرض عليه المغول غرامة مالية جماعية قدرها مائتى ألف دينار مقابل الإبقاء على حياتهم(١)، وبذلك سقطت سمرقند ـ حاضرة الدولة الخوارزمية سنة ٦١٧هـ-١٢٢٠م «لاتحزن أيها القلب فالحياة مجاز، ولا تحزنى ياروح، فمنزلك هذا مؤقت». ويقول ابن الأثير(٢): دخلوا البلدة ونهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع، وتركوا باقى البلد على حاله، واغتصبوا الأبكار، وعذبوا الناس بمختلف أنواع العذاب وقتلوا من لايصلح للسبى، وأرسل السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، فرقا من جيشه لمهاجمة المغول، ولكنها عادت أدراجها(٣).

وبسقوط بخارى وسمرقند فى أيدى المغول ـ وهما المدينتان الرئيسيتان فى بلاد ما وراء النهر، تكون بلاد ما وراء النهر قد انضمت إلى دولة المغول، ولكن الخراب والدمار الذى ألحقه المغول فى هذه البلاد، جعلها عديمة الجدوى، فقد أخذ المغول الصناع والحرفيين معهم لخدمتهم، كما هجر العلماء والفقهاء هذه البلاد بحثا عن بلاد آمنة، ودُمرت المدارس والمكتبات والمساجد والبيوت، واصطحب المغول معهم الشباب لخدمتهم ومات الألوف من سكان هذه البلاد، وتوقفت الزراعة، وتحولت الأراضى الزراعية إلى أرض بور، وكسدت التجارة، وتوقفت الصناعة، أى توقفت الحياة الاقتصادية وأصبحت مدن ما وراء النهر لا تصلح للسكن وللإقامة، والقلة التى عاشت فى بلادهم، عاشوا فى ذل وشظف من العيش يبكون خراب دورهم، ومقتل أهلهم وذويهم.

وقد فطن جنكيزخان إلى عدم أهمية بلاد ما وراء النهر، بعد ما حاق بها من الخراب والدمار؛ لذلك شرع فى تعمير مدن بلاد ما وراء النهر، وخصوصا بخارى وسمرقند، فعهد إلى أحد قادته بتعمير المدن التى خربتها الحروب وشجع المغول، السكان الهاربين بالعودة إلى ديارهم وتنشيط الحياة الاقتصادية وحركة المجتمع، ونشر المغول العدل بين الناس، حتى يطمئنوا إلى العهد الجديد فتحسنت الأوضاع الاقتصادية، وانتعشت الحياة الاجتماعية، ولكن الازدهار الثقافى لم يعد إلى ما كان عليه، بسبب هجرة العلماء، وحرق الكتب.

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧.

(٢) عطا ملك جوينى: تاريخ جهالكشاى جـ٤ ص٢٩٧.

(٣) المصدر السابق جـ٢ ص٣٠٠.

وعلى الرغم من انتصارات المغول، وتدميرهم بلاد الدولة الخوارزمية، إلا أن السلطان الخوارزمى، لم يتوقف عن مقاومة المغول، وظل يحارب بجيشه جموع المغول، أينما وجدوا. لذلك اعتزم جنكيزخان، التخلص نهائيا من السلطان الخوارزمى، حتى يضمن السيطرة الكاملة على بلاد الدولة الخوارزمية(١).

أعد جنكيزخان جيشا يتكون من ثلاثين ألف مقاتل وأمره بالقبض على خوارزمشاه «ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه» وتعقبت جموع المغول خوارزمشاه، الذى أخذ يضرب فى الأرض، وينتقل من بلد إلى بلد، وجند المغول تطارده وانتهى به المطاف إلى الاستنداد ـ وهى من أمنع النواحى فى إقليم مازندران ـ ولما علم السلطان الخوارزمى باقتراب المغول منه، لجأ إلى إحدى جزر قزوين وقد يئس من الحياة، وتمنى أن يكون الموت راحة له من شرور الدنيا وآثام المغول، ومرض، وكان يقول: «لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين، تُحفر فنُقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، ولا ركوننا إليها سوى انخداع واغترار وأقام بالجزيرة فى عزلة تامة يتعجل الموت، ويعانى المرض واليأس والإحباط، وكان أهل مازندران يخدمونه، ويقدمون له كل ما يشتهى. وظل كذلك حتى توفى سنة ٦١٧هـ- ١٢٢٠م.

أوصى السلطان قبل وفاته لابنه أزلاغ الطفل بتأثير تركان خاتون، ولكن الأحداث فرضت نفسها عليه، وعدل عن وصيته، وعهد لابنه جلال الدين منكبرتى؛ لأنه خير من يواجه الأحداث الجسيمة التى تمر بالدولة المنهارة.

ولى جلال الدين منكبرتى السلطنة، بعد أن سقطت معظم أراضيها فى أيدى المغول، وفقدت أهم مدنها، وأخصب أراضيها وممتلكاتها وخصوصا بلاد ما وراء النهر وإقليم مازندران، ومزق الجيش الخوارزمى، وساح الجند فى الأرض وتفرقوا فى البلاد، وفقدت الدولة ميزانيتها وثرواتها الهائلة، وأُحرقت سجلات الدولة وأوراقها الرسمية. ومع ذلك بذل جلال الدين منكبرتى كل ما فى استطاعته لاسترداد ملكه السليب(٢).

زحف المغول إلى الرى، وفى الطريق التقوا بالملكة تركان خاتون ـ أم السلطان علاء الدين محمد ـ غادرت خوارزم على أثر تهديدات المغول، واستصحبت من يمكن

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧هـ.

(٢) الجوينى. ص٣١٤.

من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه، على أن المغول قبضوا عليها، واستولوا على خزائنها. وهكذا قضت هذه الملكة أيامها الأخيرة فى أسر المغول. وجدير بالذكر أن تركان خاتون، كانت ذا مهابة ورأى تنظر فى المظالم، وتحكم فيها بالعدل، ولها إصلاحات كثيرة، وكان لها سبعة من مشاهير الكتاب يعملون فى ديوان الإنشاء[١] التابع لها.

باغت المغول الرى على حين غفلة من أهلها، ونهبوها وملكوها، وسبوا نساءهم، وقتلوا أطفالهم، ثم غادروها فى طلب السلطان الخوارزمى الجديد، وعاثوا فى البلاد التى مروا بها نهبا وفسادا، واقتربوا من همذان، فقدم أهلها للمغول الأموال والهدايا، حتى كفوا عن ظلمهم، وسيطر المغول على هذه البلدة، ثم زحفوا إلى قزوين وبذلك سيطر المغول على العراق العجمى.

أثار المغول الرعب فى بلاد الدولة الخوارزمية، حتى أن اقترابهم من أى بلدة، يثير الرعب والفزع فى النفوس فيهجرون ديارهم، أو يقدمون فروض الطاعة والولاء للمغول كارهين. وقد يسر ذلك للمغول السيطرة على بلاد المسلمين[٢].

ظل المغول يواصلون زحفهم، حتى بلغوا تبريز - عاصمة أذربيجان، ويحكمها أوزبك بن البهلوان، وهو شيخ بلغ من العمر أرذله، يقضى وقته فى الشراب، ولا يكاد يفيق، ولما اقترب المغول من بلاده، أرسل إليهم المال والهدايا والثياب والدواب، وصالحهم، فأعطوه الأمان، وأبقوه فى ملكه، ثم سار المغول إلى ساحل البحر، حيث المراعى الوفيرة اللازمة لدوابهم، وواصل المغول مسيرتهم إلى موقان ودخلوا فى معارك مريرة مع أهل الكرج، وهزموهم، وامتلكوا مراغه سنة ٦١٧هـ- ١٢٢٠م. وبذلك سيطر المغول على أذربيجان وبلاد الكرج[٣].

شرع جنكيزخان، بعد أن امتلك بلاد ما وراء النهر وأذربيجان والكرج والعراق العجمى فى السيطرة على خراسان وخوارزم، حتى يتم له السيطرة الكاملة على كل بلاد الدولة الخوارزمية، فأعد جيشين، الأول عبر جيحون، وقصة مدينة بلخ، وطلب أهلها

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧.

(٢) عطا ملك جوينى. ص ٣١٨ - ٣٢٠.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٢٢.

الأمـان، وأمنهم المغول، ولم يتعـرضوا لهم بالقـتل والنهب، ودخلت بلخ فى حـوزة المغول سنة ٦١٧هـ-١٢٢٠م. وعلى أثر ذلك سقطت البلاد الخراسانية فى أيدى المغول، البلدة تلو الأخرى، ثم حاصر المغول مرو، حـتى استسلمت، ثم أمعنوا فى قتل أهلها، ونهبـوا البلدة، وضمـوا إليهم، أرباب الحـرف والصناعات من سكان مـرو، ثم أحدثوا مذبـحة فى أهل البلدة، حـتى بلغ عدد القـتلى سبـعمـائة قتـيل، ثم سار المغـول إلى نيـسابور، وامـتلكوها بعـد حصـار دام سبـعة أيام، وارتكبـوا مع أهلهـا من الفظائع، ما ارتكبوه مع غيرهم(١)، وأقامـوا فى البلدة خمسـة عشر يـوما، ينهبـون ويخربون، وواصلوا زحفهم حتى استولوا على طوس، ثم امتلكوا هراة، وساروا إلى غزنة، والتقى المغول مـع السلطان جلال الدين منكبـرتى فى معـركة حـاميـة، انتصر فـيهـا السلطان الخوارزمى على أعدائه(٢).

أما الجيش المغـولى الذى وصل إلى خوارزم، فقد لقى مقـاومة باسلة من أهلها، ودرات بين الفـريقين معـارك ضارية، وصـمد أهل خـوارزم لحصار المـغول، الذى دام خـمسـة أشهـر، وقـتل من الفريقـين خلق كـثيـر، وضعـف المغول حـتى أرسلوا إلى جنكيزخان، يطلبون منه مـددا فأمدهم بجيش كبير، مكنهم من الاسـتيلاء على خوارزم بعد لأى وعناء. وبعـد أن امتلك المغول خـوارزم - بعد هذا الجهـد الشاق والتضحـيات الهائلة، انتقم المغول من أهالى خوارزم، فقتلوهم ونهبوا البلدة، ولم يكتفوا بذلك، بل فتحوا ماء جيحون على خوارزم فغرقت، وهُدِمتْ البيوت والدور، ولم يسلم من البلدة أحد فمن اخـتفى من النار، أغرقتـه المياه، ومن سلم من ماء قتله الهـدم، وأصبح البلد خرابا يبابا، كأن لم تغن بالأمس(٣).

على الرغم من أن الدولة الخوارزمية فقدت معظم ممتلكاتها ومزق جيشها، وشُتت شمله، ونُهبت خزانة الدولة، إلا أن السلطان الشجاع جلال الدين منكبرتى، لم تضعف عزيمته، ولكنه اعتزم استرداد ملكه السليب، مهما كانت التضحيات، ونظم جيشا قوامه ستين ألف جندى، وقـد أزعج ذلك جنكيزخان، ورأى ضرورة التخلص من خـصمه، فأرسل جنكيزخان جيشا إلى غزنة، جيشا اشتبك مع الجيش الخوارزمى بقيادة جنكيرخان

(١) ابن الأثير. حوادث سنة ٦١٧هـ.

(٢) المصدر السابق حوادث سنة ٦١٧هـ.

(٣) عطا ملك جوينى: المصدر السابق، ص ٣٠.

في معـركة حامـية الوطيس نصر الله فـيها المسلمـين، وهزم المغول شر هزيمـة، وقتل المسلمون من المغول كثيرين، وكان لهذا النصر أثر كبير فى رفع الروح المعنوية للمسلمين الذين عانـوا من هزائـم المغول، وعـاشوا فى يأس وقنوط وانتـعش المسلمون، وعـمهم الفرح والسرور، وثاروا على المغول، وقـتل أهل هراة واليهم المغولى[1]، وتطلع الناس إلى جلال الدين منكبرتى لتخليـصهم مما يعانونه من بؤس وذل وهوان فى ظل حكامهم المغول.

تأهب جلال الدين منكبرتى لمحاربة جنكيـزخان، وأرسل جنكيزخان إلى السلطان الخوارزمى يتوعده ويقول: فى أى موضع تريد، يكون الحرب.

لم يكتـرث جلال الدين منكبـرتى بهذا التـهديد، بل رأى ضرورة التـخلص من المغول، واسترداد البلاد التى نهبها المغول، والتقى الخـوارزميون والمغول فى معركة حامية الوطيس، انتصـر فيها جـلال الدين منكبرتى على المغول بـقيادة جنكيزخـان، وقُتِلَ من المغول كـثيرين، وحـصل الخوارزمـيون على مغـانم كثيـرة، واستـردوا أسراهم، ولكن المسلمـين انشغلوا بـجمع الغنائم، مما أدى إلى حـدوث نزاع شـديد بين أفراد الجـيش، فضعفوا أمام عدوهـم، وحاول السلطان الخـوارزمى عبثا إنهاء هذا النزاع، بل غادر فريق من جيشه الميدان بقيادة بغراق مـتجها إلى الهند. وحاول جلال الدين أن يثنى هذا القائد عن عزمه، ويبقيه فى موقعه وأوضح له خطورة هذا العمل على الإسلام والمسلمين، بل بكى بين يديه. وبذلك ضعف جـيش جلال الدين منكبرتى، بعـد أن غادر جيشـه عدد كبير من الجـند، بينما قوى المغول بعد ضعف الجـيش الخوارزمى. على كل حال دارت معركة كبيـرة بين الخوارزميين والمغول، أبلى فيها الخوارزمـيون بلاءً حسنا، لكن المعركة انتهت بانتـصار المغول انتصـارا كبيرا، وقُتل الكثـير من الخوارزميـين ولاذ الجند بالفرار، وكان الرجل يأتى نهـر السند، فيلقى بنفـسه فى تياره، وهو يـعلم أنه لابد غريق، وأن ليس له إلى الخلاص طريق، وحـدثت مآسى كثـيرة بعد هذه المعـركة[2]، منهـا أن ولد جلال الدين، كان غـرا فى الثامنة من عمره، قُتل بين يدى جنكيـزخان. ولما بلغ جلال الدين حافة السند، رأى والدته وأم ولده، وجماعة من حرمه، يصحن بأعلى أصواتهن:

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص١٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. حوادث سنة ٦٠٩هـ.

بالله عليك اقتلنا، وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب.

عبر جلال الدين منكبرتي نهر السند مع أربعة آلاف من رجاله متجهين إلى الهند، حفاة عراة، كأنهم أهل النشور، حُشِرُوا فبعثوا من القبور(١).

عادت إلى المغول هيبتهم بعد هزيمتهم للخوارزميين، واستردوا قوتهم، وامتلكوا غزنة، التى خلت من الجند، وقتلوا أهلها، الذين قاوموا المغول(٢).

اعتزم جلال الدين منكبرتي - بعد أن استقر فى بلاد الهند - استرداد قوته، واستعادة ملكه السليب، واستعان بالسلطان ألتمش - سلطان دهلى، لكن هذا السلطان توجس خيفة من جلال الدين، وحاول إقناعه بالرحيل عن بلاده، ودارت بالفعل عدة معارك بين سلطان دهلى والسلطان الخوارزمى، وخشى قباجه - حاكم السند - من مغبة استقرار المغول فى بلاده؛ لأنها قد تؤدى إلى تتبع المغول للخوارزميين فى الهند، مما يجلب على بلاده خطرا جسيما، وشرا مستطيرا، على أن جلال الدين منكبرتي أوقع الهزيمة بسلطان الهند، وحاكم السند، وسار بجنده إلى دهلى وطلب من السلطان الهندى، أن يعطيه وقومه حق الإقامة فى بلاده. لكن السلطان الهندى اعتذر لجلال الدين بحجة حرارة الجو التى تعرقل إقامة الجند الخوارزمى فى بلاده؛ ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم جنده الترك إلى الجيش الخوارزمى، فضلا عن تخوفه من قوة الجند الخوارزمى وسلطانهم وكفاءتهم القتالية وحسن تدريبهم، وأرسل سلطان الهند إلى السلطان الخوارزمى يراوغه ويوادعه ويقول: ليس يخشى ما وراءك من عدو الدين، وأنت اليوم سلطان المسلمين، وابن سلطانهم، ولست أستحل أن أكون عونا عليك للزمان، ولا يليق بمثلى، أن يجرد السيف فى وجه مثلك، إلا إذا اضطره إليه دفاع. وعرض عليه الزواج من ابنته.

رأى جلال الدين منكبرتي أن سلطان الهند وأمراءها، يتآمرون على طرده من الهند، واشتبك مع سلطان دهلى فى معركة بالقرب منها، ثم انسحب جلال الدين منكبرتي إلى لاهور، وكثر جمعه بسبب ما انضم إليه من الكهكرية الناقمين على سلطان

---

(١) الجوينى: المصدر السابق جـ٢ ص٣٥.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٦٠.

الهند، ووفد عليه الكثير من جند أخيه غياث الدين ـ حاكم العراق العجمى ـ وبذلك ازدادت قوة جيش السلطان واستطاع بجيشه القوى، أن يستولى على بعض بلدان السند.

لم يكن جلال الدين يبغى من لجوئه إلى الهند للإقامة فيها، وإنما كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول، حتى يستعيد قوته، ويتخذ من الهند قاعدة، يعيد فيها تنظيم صفوف جنده، ويعود إلى بلاده. وقد واتته الفرصة للانتقام من المغول، واستعادة ملكه السليب حيث توفى جنكيزخان ـ قاهر الخوارزميين سنة ٦٢٤هـ- ١٢٢٧م، وأعقب وفاته، انسحاب القوات[١] المغولية الرئيسية، التى تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية، وعاد القادة إلى قراقورم.

غادر جلال الدين وجيشه بلاد الهند، ورحب سكان البلاد الخوارزمية ـ التى سقطت فى حوزة المغول، بعودة السلطان الخوارزمى، وأعلنوا ولاءهم للسلطان المسلم، ولجأ إليه حكام المدن والولايات، يعلنون ولاءهم له، فأقر بعضهم وعزل بعضهم، وحارب أخاه غياث الدين الذى حكم العراق العجمى وإقليم مازندران وفارس فى غيبة أخيه جلال الدين وانتهت الحرب بعقد صلح بين الأخوين، واستقر جلال الدين فى ملكه الجديد، خراسان ومازندران وكرمان، غير أن بلاد ما وراء النهر لم يتمكن من السيطرة عليها، ومن عوامل استقراره فى ملكه انسحاب القوات المغولية إلى قراقورم، بعد موت جنكيزخان، وانشغل المغول بالصين، أكثر من البلاد الإسلامية وقوى أمر جلال الدين، وأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب، وأطفأت من نيران الناس ما التهب، وتفرقت العمال والوزراء فى الأطراف بتواقيع السلطان، وضبطوها[٢].

وبذلك استرد السلطان جلال الدين منكبرتى، ملكه وسلطانه فى أقاليم غزنة وخوارزم وكرمان وفارس وخراسان ومازندران. على أن بلاد ما وراء النهر بقيت فى أيدى المغول.

اعتزم جلال الدين منكبرتى، ضم العراق العربى إلى دولته التابعة للخلافة العباسية ـ وبالتالى السيطرة على بغداد، ورأينا أن الخلافة العباسية منذ عهد الخليفة

---

(١) لامب: جنكيز خان ص٢٤.

(٢) المصدر السابق ص٦٥.

الناصر، لم تمكن الخوارزميين من السيطرة على بغداد، والجدير بالذكر أن الخليفة الناصر، رفض الموافقة لأبيه وجده من بسط سيطرتهما على بغداد ودارت اشتباكات بين الخليفة العباسى، وجلال الدين منكبرتى، ولم تأت بنتيجة، وتبودلت الرسل بين الرجلين، انتهت بعقد صلح بين جلال الدين منكبرتى والخليفة العباسى الظاهر ثم المستنصر وأرسل الخليفة الخلع والعقد إلى جلال الدين، الذى أقام الخطبة فى بلاده إلى الخليفة العباسى، بدلا من خليفته الشيعى. وبذلك عاد السلام والوئام بين الدولتين.

زحف السلطان جلال الدين منكبرتى إلى أذربيجان، فغادرها حاكمها أوزبك بن البهلوان، فدخل السلطان الخوارزمى عاصمة أذربيجان ـ تبريز ـ، وأعطى أهلها الأمان(١)، وبسط السلطان سيطرته على إقليم أذربيجان، ثم هاجم بلاد الكرج عدة مرات وانتقم من أهلها الذين كثيرا ما شنوا الغارات على المسلمين، وخرب جلال الدين بلادهم واستولى على تفليس وخلاط.

لما شاهدت امرأة أوزبك، جلال الدين منكبرتى، أعجبت بشجاعته ورجولته، وتطلعت إلى الزواج منه، كما أنه بادلها الإعجاب والتقدير لجاذبيتها وجمالها، فأحضرت المرأة القاضى، وشهدت على نفسها بأن زوجها حنث فى يمين طلاق، ومضى على ذلك شهورا تزيد على فترة العدة، ولم تختلط به طوال تلك الفترة، فأقر القاضى بالطلاق، وتزوجت من جلال الدين، ولكن الليالى الملاح وأيام السعادة فى هذا العصر محدودة جدا، فلم يسعد العشيقان إلا فترة محدودة، بسبب انشغال جلال الدين بالحروب التى لاتنقطع يوما. وحينما طلب منه رجال دولة أذربيجان قضاء بعض الوقت فى بستانه الرائع بين الأشجار المتعانقة، والزروع المثمرة والطيور التى تغرد عليها بسعادة غير مدركة لنكد الزمان وتعاسة الحياة فى تلك الأيام العابثة، لم يبق جلال الدين إلا وقتا محدودا، وقال: ليس لدينا من الوقت الذى نخلد فيه إلى الراحة والطمأنينة.

ولما ثارت تفليس ـ حاضرة الكرج ـ أخضعها، ونكل بأهلها ولم يبق إلا على من اعتنق الإسلام، وأدب هؤلاء الناس الذين أذاقوا المسلمين الويلات أثناء غيابه.

ثم وجه جهوده إلى خلاط، وانتزعها من صاحبها ـ الملك الأشرف ـ ابن الملك العادل، وثار أهل خلاط ضد السلطان الخوارزمى؛ لأنهم لا يرغبون فى حكم الخوارزميين لكن السلطان الخوارزمى، نكل بأهل خلاط، وسبى النساء والأطفال،

(١) المصدر السابق ص١٤٤.

وتزوج زوجة الأشرف. وعقد الملك الأشرف، وعلاء الدين كيقباد ـ سلطان سلاجقة الروم وأمراء بنى أيوب، حلفا ضد منكبرتى ودارت حرب بين الملوك المتحالفين من ناحية، وجلال الدين منكبرتى من ناحية أخرى انتهت بعقد صلح بين ملوك المسلمين، يتضمن أن يبقى كل أمير، على ما بيده من البلاد، وشجع على هذا الصلح، عودة المغول إلى مهاجمة ديار الإسلام(١).

امتلك جلال الدين منكبرتى فارس والرى وهمذان، وسيطر على عاصمتها ـ شيراز ـ وسلمه أتابك فارس ـ سعد الدين ـ معظم بلاد فارس وشن عدة غارات على قلاع الإسماعيلية ودمرها، واستولى على بلاد القفجاق.

وفى سنة ٦٢٤هـ، حدث حادث جلل، اهتزت له أرجاء الأرض، وهو انسحاب جنكيزخان من بلاد الإسلام إلى قراقورم، ومرضه وموته، وقبل موته استدعى ابنه تولوى، وقال: اتضح لى الآن أن أترك لك كل شيء، وأوصى تولوى بغزو الصين، حتى آخر مدنها، ومطاردة الملوك الهاربين، والمحافظة على حدود المملكة وعلى تقاليد المغول، وتقسيم جيوشه التى لا تُهزم بين أبنائه، ولما مات فى مخيمه، ضرب سهم أمام المخيم، ومُنع الأفراد العاديون من الاقتراب من المخيم، ولم يصدق الناس موته، فقد كان كالنسر الطائر(٢) ازدادت ثروة المغول حتى أن الجند كانت ثيابهم من الحرير وموشاه بالذهب، وكانت تقدم لجنكيزخان هدايا قيمة من التجار والقادة، منها الجياد، وأحمال الفراء، والعربات المحملة بالذهب والفضة، والمصنوعات الزجاجية، وعروشا من الفيروذج والياقوت، وحينما غادر جنكيزخان بلاد الإسلام، عهد إلى حكام مسلمين بحكم البلاد وأمرهم بالعدل، ورعاية شئون البلاد فى أثناء غيابه، وكان يشعر بأنه لن يعود، وإنما سيعود أولاده وأحفاده فقط.

كان من عادة المغول ورسومهم أن يتعهد الابن الأصغر بالإشراف على قصور الوالد، ولكن جنكيزخان لم يلتزم بتلك القاعدة، وأسندها إلى أوكتاى الذى هو أكثر خبرة وحنكة، وعهد جنكيزخان فى مرضه الأخير إلى ابنه أوكتاى بولاية العهد، وخصص لكل واحد من أبنائه مهمة تتناسب مع مقدرته، جغتاى مرجع دولته فى القوانين والآداب وشئون الحكم. والفتوة والسخاء والنعمة والجاه من شئون أوكتاى.

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦١٧هـ.

(٢) المصدر السابق.

والشجاعة والفروسية والخطط العسكرية الناجحة من شئون تولوى[1] وقسم حكم الإمبراطورية بين أبنائه.

اشتهر أوكتاى بالعقل والكفاءة وسداد الرأى والوقار والعدل، ولكنه كان ميالا إلى اللهو وشرب الخمر، وكان أبوه يؤنبه على ذلك، فقد ظل العرش شاغرا لمدة سنتين، وانعقد القروليتاى (مجلس الحكم) وحضره الأمراء من جميع النواحى وأقروا تعيين أوكتاى خلفا لأبيه سنة ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م.

كان جنكيزخان يقدر رجال الدين من المسلمين والمسيحيين واليهود والسحرة الذين كان لهم نفوذ فى دولته.

جمع جنكيزخان فى عاصمة قراقورم كل ما يشتهيه، فقطعانه تغطى السهول، وخيام قبائله تمتد إلى مرمى البصر، وكانت برتاى ونساؤه الأخريات يجلسن راكعات تحت قدميه مرتديات ملابس من القطيفة المطرزة بخيوط من الذهب أو الفضة.

وفى داخل سرادق الخان ظهرت علامات الأبهة، فكان الضيوف يُطفئون ظمأهم بمشروب العسل المخمر وأنبذة شيراز، بدلا من لبن الخيل وكانت رياش الطاووس تتمايل فوق الستائر المصنوعة من العاج والذهب على حسن غناء الجميلات من الصين الأسيرات بأعذب الألحان.

ولم يعد جنود جنكيزخان يلبسون جلودا وفراء أغنام من صنع جوبى، بل كانوا يلبسون الملابس الحريرية المطرزة بخيوط من ذهب. السعادة عند جنكيزخان أن يرى الرجال تركع تحت قدميه، وبقتل من يريد منهم ويستولى على خيولهم ومعداتهم، ويسمع نحيب النساء، وصرخات الأطفال وكان من الصعب على جنده وقادته أن يصدقوا بموت الرجل الجبار، ودفنوه فى قبر يحيط به الأشجار، وأخفوا عن الرعايا مكان دفنه[2].

وما بقى من ذكرى جنكيزخان، هو الرعب الذى بثه فى نفوس الناس، وذكريات التخريب والتدمير التى ألحقهما بالمدن والقرى. وقرر أول يوم من جلوسه على العرش، العفو عن المذنبين، والتزم العمل بقوانين ومراسم جنكيزخان، وكان عادلا حكيما جوادا

(١) المصدر السابق حوادث سنة ٦٢٦.

(٢) المصدر السابق حوادث سنة ٦٢٦هـ.

كريما، وكان يرفض كنز الأموال ويقول: إن هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ليس لهم أدنى نصيب من العقل؛ لأنه ليس هناك فرق بين المال المدفون والتراب؛ لأن كليهما فى المنفعة سواء ولا تفيد الكنوز وقت حلول الأجل، ولا يمكن العودة من العالم الآخر، فإننا سوف نودع كنوزنا فى زوايا قلوبنا، وأعطى المرءوسين وأرباب الحاجات كل ما هو موجود، حتى يدخر الذكرى الطيبة(١) وهذا يدل على أن الابن لم يكن فى عنف وجبروت أبيه فقد نشأ فى ترف ونعيم بعكس أبيه الذى خاض غمار حياة صعبة وشاقة. وتوفى أوكتاى سنة ٦٣٨هـ- ١٢٤١م.

كان أوكتاى يحب التعمير فأقام المدن والقصور، وأمر الأمراء والقادة بالالتزام بقوانين جنكيزخان، وأمر بالعدل والإحسان إلى الرعية، وطلب من جباة الضرائب التخفيف عن الفقراء والمساكين، وقضى سنوات حكمه متنقلا بين المشاتى والمصايف، وكان يقضى وقته مع النساء الحسان والمعشوقات الجميلات، فى الملذات، وأقام قصرا جميلا فى قراقورم، وزينه بفنون النقش والتصاوير، ثم أمر الأمراء ببناء قصور لهم حول قصره، وتشابكت القصور وتجلت فيها الزخارف والنقوش والصور الجميلة،وكان يأتى من الولايات إلى قراقورم كميات كبيرة من الأغذية، لتوزيعها على الناس، ولثقل الأحمال أمر بنقلها على عربات تجرها الثيران، وكان يكثر من الخروج إلى الصيد، ويقيم حلبات الصيد والسباق والمصارعة فى مباريات يشمل كل من يفوز بها بجوائز كبيرة وكان يوزع حيوانات الصيد على الناس، ومات من فرط إدمانه للشراب سنة ٦٣٨هـ- ١٢٤١م(٢)، وتولت زوجته توراكينا الحكم حتى يعقد القورليتلاى، ثم ولى العرش ابنه وابن زوجته المذكورة - كيوك - حتى وفاته سنة ١٢٤٦م، وخلفه منكوقا الذى توفى سنة ١٢٥١هـ الذى سنشير إليه فيما بعد.

* * *

(١) عطا ملك جوينى: تاريخ جهانكشاى. جـ٢ ص٣٠.

(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص١٦٠.

نهاية جلال الدين خوارزمشاه

خلف أجتاى، جنكيزخان، وعوَّل على استرداد البلاد التى آلت إلى جلال الدين، وسيَّر جيشا كبيرا إلى الرى، فانتزعها واستولى على همذان ٦٢٨هـ- ١٢٣١م، وطارد المغول السلطان جلال الدين، وتعقبوه فى موقان وتبريز وفى أذربيجان، واتجه إلى آمد، فهزمه المغول، وشردوا رجاله، وقاتل المغول كل من تتبعه فى ضراوة، وظل السلطان يتنقل من بلد إلى بلد، والمغول تلاحقه أينما سار واتجه، حتى وصل إلى جبال كردستان، وقد شك فيه بعض الأكراد، وأخذوه وسلبوا ملابسه كعادتهم بسائر من يظفروا به، فحين هموا بقتله، قال لكبيرهم سرا: إنى أنا السلطان، فلا تستعجل فى أمرى، ولك الخيار فى إحضارى عند الملك المظفر شهاب الدين، أو إيصالى إلى بعض بلادى فتصير ملكا. فرغب الرجل فى إيصاله إلى بلاده،وتركه عند امرأته ومضى بنفسه إلى الجبل لإحضار خيله، ولكن رجلا من الأكراد هاجم المنزل الذى به السلطان،وقتله بعد أن تعرف عليه ثأرا لمقتل أخ له على يديه سنة ٦٢٨- ١٢٣١م.

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع. وبوفاته زالت الدولة الخوارزمية.

وفى تقييمنا لجلال الدين منكبرتى، نرى أن هذا السلطان، أوتى من الشجاعة والقوة والصبر والإصرار والمثابرة وخفة الحركة وقوة العزيمة والذكاء مالا يتوفر إلا فى القليل من الناس، فحارب مع أبيه، وبعد أن تولى السلطنة، وظل طوال حياته يتنقل من بلد إلى بلد يحارب ويقاوم الغزو المغولى المدمر، ويقاوم المسلمين الذين ناصبوه العداء. الكل يتآمر ضده: المغول والمسلمون وغير المسلمين، القادة يتخلون عنه فى ميادين القتال، الجند ينسحبون من جيشه، البلاد مدمرة والحصون مهدمة، والمحاصيل تالفة، والفلاحون تركوا الزراعة وهربوا من الحقول فى هذا العصر المضطرب والحيوانات تموت جوعا، والجثث تنتشر فى الطرقات، والأوبئة والمجاعات تفتك بالناس، والخيول ـ التى هى عماد الحرب ـ لا تجد ما تأكله، والأراضى يغطيها الجليد، والثلج يتساقط فوق رءوس الجند، والسلطان القوى يتحمل كل هذه الأهوال ويحارب ولا يتقاعس، ولا يعطى لنفسه قدرا من الراحة، وإذا كان السلطان عنيفا مع خصومه، فهذه طبيعة العصر، العنف والقسوة وأعجب بشجاعته أقوى خصومه، جنكيزخان، وقال: هكذا يكون الرجال الشجعان، وحين كان يقاومه شعب من الشعوب، يقاومه بكل عنف وضراوة، وكانت حركاته السريعة فى أنحاء العالم الإسلامى موضع إعجاب وتقدير خصومه وأعدائه على السواء، حتى كان يوم موته يوما تأثر به كل مسلم، ونسجوا الأساطير

حول موته سنين عددا، ولم يصدق بعض الناس موته، وادعى البعض أنه حى يرزق فى بلدة كـذا أو كذا[1]. وهذا حـدث بالنسـبـة للعظمـاء الأبطال أو الذين تركـوا أثرا فى شعوبهم أمثال جلال الدين. فلم يصدق المصريون بموت الحاكم بأمر الله، فقالوا بظهوره فى صـعيـد مصـر. وحدث أيضـا بالنسـبة لهـتلر الذى زعم بعض الناس بظهـوره فى الأرجنتين، وغيرها من البلاد.

لم يصدق الناس مـوت جلال الدين، وتحدثوا عن وجوده هنا وهناك، ولاسـيما فى العراق، فترددت الأخبار عدة مرات بظهور جلال الدين فى بلدة كذا.

وظهر رجل فى إحدى مدن فارس سنة ٦٣٣هـ، وزعـم أنه السلطان وشاع صيته فى البلاد، ولما عرف المغول كذبه قتلوه.

وفى سنة ٦٥٢هـ ظهر رجل فى سفينة ببـلاد ما وراء النهر وزعم أنه جلال الدين منكبرتى، وأصر على ادعائه، ولما ثبت كذبه قتلوه.

وجدير بالذكر أن جنكيـزخان، كان يعجب بشجاعة وقـوة بأس خصمه اللدود، جلال الديـن منكبرتى، وقـال لرجال دولتـه: ما أسعـد الأب الذى ينجب رجـلا قويا شجاعا كهذا، أى جلال الدين؛ لأن الرجل الشجاع يقدر الشجاع ولوكان ألد خصومه.

توفى جنكيزخان قبل جلال الدين بأربع سنوات وبوفاة الرجلين تنتهى قصة صراع مرير بين رجلين حددا مصير المشرق الإسلامى.

وجدير بالذكر أن الدولة الخوارزمية معـاصرة تماما للدولة الأيوبية فى مصر والشام واليمن والحجـاز وشمال العراق، وعاصرت دولـة بنى حفص فى المغرب، ودول ملوك الطوائف فى الأندلس.

***

(١) المصدر السابق ص١٦٠.

دولة الإسماعيلية فى إيران

[٤٨٣هـ-٦٥٣هـ/ ١٠٩٠م-١٢٥٥]

نشأة طائفة الإسماعيلية

نشأ حزب الشيعة بعد مقتل عثمان بن عفان، والتفوا حول على بن أبى طالب وناصروه، وازداد نفوذهم بعد تولية على بن أبى طالب الخلافة، واتخاذه الكوفة حاضرة للدولة العربية الإسلامية. ولم ينته هذا الحزب بوفاة على بن أبى طالب، بل ظل قائما ينادى بأن الإمامة، أى حكم الدولة، يجب أن تنحصر فى آل بيت رسول الله، ولقد استاءوا كثيرا من الصلح الذى عقد بين الحسن بن على، ومعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١هـ، وبمقتضاه، تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان، واتخذ الشيعة مبادئ تتضمن طاعة الإمام من آل بيت رسول الله ﷺ، والانتظار حتى يقودهم الإمام - الذى اتخذ المدينة دار إقامة - للمطالبة باستعادة حقهم المسلوب فى حكم الأمة الإسلامية.

استند الشيعة فى دعواهم بالأحقية بالحكم فى عدة أسانيد شرعية، فقالوا: إن رسول الله ﷺ فى عودته من حجة الوداع نزل عند غدير خم بين مكة والمدينة فى شهر ذى الحجة، وأخذ بيد على بن أبى طالب، وقال للناس: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم والى من والاه وعادى من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار»(١). واستند الشيعة إلى قول رسول الله ﷺ هذا، بأحقية على بن أبى طالب فى الخلافة. وتعرض العلويون للاضطهاد فى العهد الأموى والعصر العباسى الأول، غير أن النزاع اشتد بين أبناء الحسن وأبناء الحسين فى العصر العباسى، وانتهى بتولية جعفر الصادق إمامة البيت العلوى، وهو للإمام السادس عند الشيعة. ومن مبادئ الإمامية - أنصار جعفر الصادق - أن الإمامة تنتقل فى الأعقاب، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين.

على أن جعفر الصادق لم يلتزم بهذا، فتعهد بالإمامة من بعده إلى ابنه موسى - وهو أصغر من ابنه الأكبر إسماعيل - وله يعترف المتمسكون بمبادئ الإمامية بما فعله

---

(١) المقريزى: الخطط جـ١ ص٢٨٣.

جعفر الصادق، والتفوا حول إسماعيل، بينما التف فريق آخر حول موسى. وبذلك نشأت طائفتان هما: الإسماعيلية والموسوية.

لجأ الأئمة الإسماعيلية إلى الستر، حتى لا يتعرضوا لبطش بنى العباس، وكانوا يرسلون دعاتهم سرا إلى البلاد الإسلامية ونجحت الدعوة الإسماعيلية، وظهر المهدى المنتظر فى إفريقية وهو عبيد الله المهدى، وأسس الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦هـ، وانتقل رابع هؤلاء الأئمة إلى مصر سنة ٣٦٢ - وهو المعز لدين الله الفاطمى، ونقل حاضرة دولته إلى المدينة الجديدة، القاهرة. وبذلك دخل تاريخ الإسماعيلية فى دور جديد، وهو دور الظهور والجهر بالأفكار والآراء التى يتضمنها المذهب الإسماعيلى.

حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الإسماعيلية فى أرجاء الدولة الإسلامية، ولقيت دعوتهم نجاحا فى فارس والعراق، رغم اضطهاد العباسيين والسلاجقة لأفراد تلك الطائفة، وازداد نفوذ الإسماعيلية فى عصر السلطان السلجوقى ملكشاه، حتى استولوا على أصبهان، ونشروا فيها دعوتهم فى عهد زعيمهم أحمد بن عبدالملك بن عطاش، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح، والحسن بن الصباح من أصل يمنى، نزح أبوه إلى الكوفة، ثم إلى قم، ومن قم إلى الرى، حيث ولد الحسن، وعرف أصول الدعوة من عبدالملك بن عطاش - داعية المذهب فى العراق- وفى سنة ٤٧١هـ وصل إلى مصر، بعد رحلة مليئة بالأخطار، وهدفه مقابلة المستنصر - الإمام الفاطمى - وبقى فى مصر أكثر من سنة، لم يحظ خلالها بمقابلة الإمام، وغادر مصر فى سفينة مع جماعة من الفرنجة، وأدى هياج البحر إلى اتجاه السفينة إلى حلب، ومنها عاد إلى أصفهان ومنها إلى آلموت. وطارده نظام الملك، ولكنه صمد وقاوم نظام الملك، وتمكن أنصاره من السيطرة على آلموت أى عش العقاب، واستولى على القلعة سنة ٤٨٣هـ، ولُقّب دهخدا، أى مختار القلعة واشترى القلعة من أميرها العلوى بثلاثة آلاف دينار(١).

لما استقر الحسن الصباح فى آلموت، أرسل الدعاة إلى الأطراف.

كان الحسن الصباح يدعو إلى نزار ابن الخليفة المستنصر؛ لأن المستنصر قد خلع ابنه الأكبر نزار من ولاية العهد، وأسندها إلى ابنه المستعلى، ورفض الحسن الصباح، خلع الابن الأكبر نزار؛ لأن ذلك يتنافى مع عقائد المذهب الإسماعيلى، الذى يعطى ولاية العهد للابن الأكبر، وكان الحسن الصباح فى مصر أثناء خلع المستنصر للابن

(١) الجوينى: تاريخ جهانكشاى ص٣٠٥.

الأكبر نزار، ولما رفض هذا الإجراء، سُجن فى مصر، ثم غادرها، ودعا إلى نزار فى البلاد التى سيطر عليها(1).

دعم الحسن بن الصباح مكتبات قلاع الإسماعيلية بالرسائل التى تؤكد أحقية نزار بالإمامة.

عمل الحسن بن الصباح على توسيع رقعة دولته بعد وفاة السلطان ملكشاه الذى بذل كل جهد ممكن فى سبيل إضعاف دولة الإسماعيلية والقضاء عليها.

استطاع الحسن بن الصباح تكوين دولة إسماعيلية قوية، بعد ضعف الدولة السلجوقية.

اعتكف الحسن بن الصباح فى منزله، وانصرف إلى قراءة الكتب، وكتابة الرسائل الإسماعيلية النزارية، وتسليمها إلى دعاته دون أن يقابلوه، وكان الدعاة يطوفون بالبلاد لنشر هذه الرسائل، ودعوة الناس إلى النزارية الإسماعيلية. وعرف عن الحسن القسوة والغلظة مع دعاته وأنصاره وجمع طائفة من أبناء الرعاة، ودربهم تدريبا عسكريا قاسيا، وأنشأهم على الطاعة العمياء له ولدعوته، واستطاع الحسن بن الصباح بهذه الطائفة التى أحسن تدريبها على العمل الفدائى، والقيام بعمليات إرهابية فى بلاد الإسلام قتل فيها الكثير من خصومه، مثل الوزير السلجوقى نظام الملك الذى شن عدة حملات على قلاع الإسماعيلية(2)، وتوالت الأعمال الإرهابية ضد رجال الدولة السلجوقية، لذلك شنت الدولة السلجوقية حملات لإضعاف الإسماعيلية على مدى ثلاثين سنة. لكن الحسن بن الصباح قوى شأنه بهؤلاء الفدائيين الذين أرهبوا القادة والزعماء المسلمين. ويقول العماد الأصفهانى الذى كان معاصرا للحسن بن الصباح موضحا الرعب الذى ساد بين المسلمين من هذه الطائفة «فقامت النوائب وظهرت العجائب، وفارق الجمهور منا جماعة نشأوا على طباعنا، وكانوا معنا فى المكتب، وأخذوا حظا وافرا من الفقه والأدب، وكان من بينهم رجل من أهل الرى ساح فى العالم، وكانت صناعته الكتابة، فخفى أمره حتى ظهر وقام، وأقام من الفتنة كل قيامة، واستولى فى مدة قريبة على قلاع وحصون منيعة، وبدأ بالقتل والفتك بأمور شنيعة، وأخافوا السبل، وأجالوا على الأكابر الأجل، وكان الواحد منهم يهجم على كبير، فيقتله غيلة، ويعلم أنه يُقتل، ولم يجد أحد الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة(3).

(1) ابن ميسر: تاريخ مصر ص٢٦ وما بعدها.

(2) المقريزى: الخطط جـ١ ص٤٤٠.

(3) العماد الأصفهانى ص١١٢.

وصف الرحالة البندقى ماركو بولو جنة الحسن بن الصباح التى أمر بزراعتها على سفح الجبل الذى فيه قلعته، ويقول: إنها من أجمل ما رأته الأعين، ووقعت عليه الأبصار، فيها مختلف الفواكه وأطيب الثمار، وأقام بها القصور والجواسق مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وقد طلى أسوارها بالذهب ونقش عليها نقوشا جميلة، وبها أنهار من عسل ولبن وخمر وبها مغنيات يغنين على أجمل الألحان وبأعذب الأصوات ويرقصن أجمل الرقصات، ولا يُسمح لأحد بدخول هذه الروضة الغناء إلا لشبابه الذين أعدهم للعمل الفدائى، ويقدم أتباعه الحشيش لهؤلاء الشباب، فينامون نوما عميقا، فإذا استيقظوا من سكرهم، أوضح لهم رجال الشيخ أنهم فى جنة الخلد التى أعدها الشيخ لرجاله المتقين، ثم يقبل فتيات دُربن على أساليب الغزل والإغراء والدلال، ويرتدين أفخم أنواع الثياب، وكان الشيخ يختار هؤلاء الشباب من سن العاشرة إلى سن العشرين، تتجلى فيهم صفات الشجاعة والفداء، وأدخلهم فردوسه الذى وعد الله عباده، وبه الحور العين، والدخول لهذا الفردوس من باب سرى عادة، وكان يتحدث إليهم يوميا عن الجنة التى بشر الله ورسوله عباد الله المطيعين ويتحدث لهم عن قدرته فى إدخال هؤلاء الشباب الجنة. نعود إلى الشباب الذى استيقظ من نومه العميق، وفاق من المخدرات التى تعاطاها. يستيقظ على منظر قسم آخر من جنة الشيخ، ويرى الفتيات الجميلات وقد أظهرن مفاتنهن لهؤلاء الشباب، ويقتربن من الشباب، ويثرن هؤلاء الشباب بملامستهن دون الاتصال بهم، أى بالشباب، ويعود الشباب المخدر إلى النوم سعيدا بهول ما رأى من فتنة ومتعة وما حوله من أنهار، فإذا انقضت أربعة أو خمسة أيام والنوم غالب عليهم، حُملوا إلى خارج البستان. فإذا استيقظ الشباب وجدوا أنفسهم فى حضرة الشيخ. ويقول لهم الشيخ. لقد وعدنا الرسول بأن الجنة يرثها عبادى الصالحون. وإذا أظهرتم إخلاصا وطاعة لى، فإن هذه الجنة مصيركم. عندئذ يتفانى الشباب الذين تأثروا بجنة الشيخ وأقواله - يتفانون فى خدمة الشيخ؛ لأن مصيرهم الفردوس التى هى أفضل من حياتهم الدنيا. وهؤلاء هم الفدائيون الذين يضحون بأنفسهم فى خدمة الشيخ. واشتدت حركاتهم الإرهابية والانتقامية فى جميع البلاد المجاورة، وأغاروا على القوافل ونهبوا القرى والبلاد، فضلا عن قتل الأمراء والخلفاء والقواد والوزراء(١).

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص٩١.

ولا يمكن قبول رواية جنة الشيخ، ومـا بها من فتيات جميلات، ، ومـا فيها من مخدرات تُعطى للشباب؛ لأن تعاطى المخدرات قـد يفسد الشباب، ويضعف فيه الروح القتاليـة، كما أن مواقف الفتيات الـلائى أكرهن على البغاء يتنافى مع التقالـيد المرعية. والمعقول أن قوة تأثير الشـيخ فى الشباب وقوة حجته فيـما يدعو إليه، كل ذلك كان له تأثير واضح على هؤلاء الشباب الفـدائيين. وشهد التاريخ بل والعصر الحـالى جماعات اتخذت شـبابا فدائيا مـتحمـسا كهؤلاء - دون مـخدرات أو فتـيات يعرضن أجسـامهن للشباب.

تعددت الأعمال التخريبية لهؤلاء الفدائيين، حتى أشاعوا الذعر والرعب فى بلاد الإسلام، وكان الفدائى يقبل على جـريمته، وهو يعلم أنه لا محالة هالك، ولكنه يطيع شيخ الجبل طاعـة عمياء، طمعـا فى جنته التى بشر بها أنصاره. لذلك اشـتدت غارات السلاجقـة على قلاع الإسماعيليـة لتدميرها وتخليص بلاد الإسـلام من شرها. وشدد السلطان السلجوقى هجـماته على الإسماعـيلية، ولكنهم هزموه، فهـادنهم وسعى إلى مصـالحتهم، وأرسل وفـدا لعقد صلح مع شـيخ الجبل. واسـتقبل الشـيخ هذا الوفد، واستعرض قوته وطاعة قومه أمام هذا الوفـد، ، فأمر أحد الفدائيين بطعن نفسه بخنجر، فقُتل الشـاب ومات. كما أمر أحـد الفدائيين بأن يلقى نفسـه من فوق الحصن الذى هو فيه، ففعل الشـاب ممتثلا لأمر سيده. كما أن السلطان سنجر استـيقظ من نومه، فوجد خنجرا على وسادته مكتوب حوله ورقة بها، إن الذى وضع الخنجر على وسادتك، قادر على أن يضعه فى صدرك.

كذلك شن السلطان السلجـوقى بركياروق، حـملات على قلاعهم فـأرسل عدة فرق من جيشه وأمرهم بتتبع الإسماعيلية وتدمير قلاعهم وقتل رجالهم، وسبى نسائهم، وتدمير قراهم ونـهب ثرواتهم وإحراق بيوتهم، فتمكنت هذه الحمـلات من تدمير بعض قرى وقـلاع الإسمـاعيلية فـدمر السـلاجقة قـرية بيهق، وقـرية طرينيث سنة ٥٢٠هـ - ١١٢٦م(١).

واستمـرت حملات السـلاجقة على الإسمـاعيلية، بعد أن اشـتد خطرهم، ولم يسلم منهم الخليفة الـعباسى المسترشد فـقتلوه فى مراغة سنة ٥٢٩هـ، إذ هاجم مخـيمه أربعة وعشرون رجلا إسماعيليا فقتلوه(٢).

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٢٠هـ.

(٢) المصدر السابق، حوادث سنة ٥٢٩هـ.

وفى سنة ٥٤٩هـ- ١١٥٤م تجمع سبعة آلاف رجل من الإسماعيلية وهاجموا إقليم خراسان، وكان جنده مشغولين بالدفاع عن بلادهم من غارات الغز، وهاجم الإسماعيلية خراسان، ولكن جند وأهل خراسان تصدوا للإسماعيلية، وهزموهم وقتلوهم، ولم ينج من الإسماعيلية إلا الشريد، وخلت قلاع الإسماعيلية من حام ومانع(١)، ولولا انشغال أهل خراسان بالغز لأمكنهم تدمير قلاع الإسماعيلية. والاستيلاء عليها دون جهد.

تحين أمراء البلاد الإسلامية الفرص للتنكيل بالإسماعيلية بعد أن خربوا من بلادهم ما عُمِّر فى سنوات طوال.

هاجم أيتغمش صاحب مراغة - قلاع الإسماعيلية - سنة ٦٢٩هـ - المجاورة لقزوين ودمر بعض قلاعهم، واستولى على بعضها، ولولا الفتن الداخلية فى بلاده وفى بلاد الإسلام عموما لواصل هجماته القوية على الإسماعيلية(٢).

وعلى الرغم من كل هذه الحملات، واصل الإسماعيلية شن الحملات الإرهابية على البلاد الإسلامية، فهاجموا أراضى الدولة الخوارزمية، وقتلوا أحد قادتها الكبار، فعظم ذلك على جلال الدين منكبرتى، وشن حملاته القوية على قلاع الإسماعيلية، ودمرها تدميرا، وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، وسلب أموالهم وأمتعتهم وذخائرهم.

توفى الحسن بن الصباح سنة ٥١٨هـ، بعد أن قتل أحد ابنيه المخالف له فى المذهب، وقتل إحدى زوجاته وخلفه بزرك أميد، وحكم أربعة عشر عاما وتوفى سنة ٥٣٢هـ، وعهد بزرك إلى ابنه أحمد بالحكم من بعده، وتوفى سنة ٥٥٧هـ ثم خلفه محمد الذى كان يسعى إلى إقامة شعائر الإسلام والالتزام بالشريعة الإسلامية، وأضاف ابنه الحسن إلى رسائل الحسن بن الصباح، أقوالا صوفية رائعة متصفة بالمواعظ والإرشادات الروحية، وأعجب بها الناس، وكان يخدع الناس بمعسول الكلام، وأعده أبوه من ذمرة العلماء، وتهيأ لأبيه أنه الإمام الذى وعد به الحسن بن الصباح، وسارع الناس إلى التعلق به والسير على خطاه، فانزعج الأب من ارتفاع مكانة ابنه، ودعا الناس إلى الالتزام برسائل وأقوال الحسن بن الصباح، والتشدد بأمر الإمامة، وأمعن فى توبيخ ابنه وردعه، وجمع الناس وقال: إن حسنا ابنى وأنا لست إماما، إنما أنا داع للإمام، فمن استمع إلى أقوال ابنى وصدقها، كان كافرا ومارقا، وأمر بمعاقبة كل من اعتقد فى

(١، ٢) المصدر السابق، حوادث سنة ٥٤٩هـ.

إمامة ابنه، وحكم بالإعدام على ٢٥٠ رجلا فى الموت وطرد مثل هذا العدد من القلعة، فارتدع الناس عن فكرتهم وتبرأ الحسن من إمامته، وأظهر طاعة أبيه، وشرب الخمر، وتبعه أنصاره واعتبرت الإمامة علامة من علامات ظهور الإمام الموعود. والجدير بالذكر أن الإمام المنتظر الآن هو نزار بن الخليفة المستنصر الذى خلعه أبوه من ولاية العهد على الرغم من أنه الابن الأكبر(١).

لما ولى الحسن بن محمد بن بزرك الحكم، أبطل الشريعة، وأجاز تبديل قواعدها، وسموا يوم ردتهم يوم القيامة، وهو يوم ١٧رمضان، وفيه يشربون الخمر، ويتصلون بالنساء اتصالا غير شرعى ويقضون اليوم فى لهو وعبث وفجور.

وقالو: من لم يطع ويتعبد فى مرحلة الشريعة، وسار على حكم القيامة أى أتبع الطاعة العمياء والعبادة، نُكل به ورُجم، أما من كان فى مرحلة القيامة، وسار على حكم الشريعة وواظب على العبادات والمظاهر الجسمانية، فإن النكال به والقتل والتعذيب أكثر وجوبا(٢).

وفى سنة ٥٦١هـ طعن أحد الغيورين على دينه الحسن انتقاما من أفكاره الضالة، وخلفه ابنه محمد الذى أظهر بدعة أبيه، وأضاف إليها بعض أقوال الفلاسفة، ومات سنة ٦٠٧هـ، فخلفه ابنه جلال الدين، ودعا إلى العودة إلى عقيدة الإسلام الصحيحة؛ لأن الحق لابد أن يعلو وأن يزهق الباطل، والنور لابد وأن يبدد الظلام، ودعا إلى التوقف عن الخوض فى أفكار وآراء الباطنية، و سمى بالمسلم الجديد، وسمى قومه بالمسلمين الجدد، وكتب بذلك إلى الخليفة العباسى وملوك المسلمين، ففرحوا واستبشروا بعودة هؤلاء الملاحدة وأميرهم إلى الإسلام، وأسرفوا فى منح جلال الدين الألقاب، وأرسلوا إليه الهدايا والأموال ولم يصدق أهل قزوين عودة أهل قلاع الإسماعيلية إلى الإسلام وبعد عدة حروب معهم عقدوا معهم صلحا، ووفد فقهاء وقضاه ووعاظ قزوين إلى قلاع الإسماعيلية، وأعلن جلال الدين وقومه أمام هؤلاء الشيوخ البراءة من الإلحاد، والعودة إلى الدين الحنيف. وخرجت أمه للحج مع قافلة من أهل آلموت، نعموا برضا وكرم المسلمين، وتوفى سنة ٦١٨هـ فخلفه ابنه علاء الدين، وكان طفلا فى التاسعة من عمره، ووقع هذا الطفل تحت تأثير الحاشية، ورُمى بالجنون، وعهد إلى ابنه خورشاه، ثم عاد ونقم عليه، وقُتل سنة ٦٥٣هـ؛ فى مؤامرة دبرها وزيره الحسن المازندرانى وحرضه ابنه خورشاه، وكان الوزير ينقم على علاء الدين عشقه لزوجته الجميلة الحسناء،

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٣٣٢.

(٢) نفسه.

ومحاولته أكثر من مرة، الاتصال بها، وقد تم له ذلك فعلا. ومهما يكن من أمر فقد قُتل علاء الدين بمؤامرة دبرها ابنه خورشاه مع وزيره سنة ٦٥٣هـ. وعلى الرغم من ذلك فإن خورشاه بعد أن ساهم الوزير فى قتل أبيه بدس السم له، نقم على وزيره، ولم يعد يطمئن له، فمزقه وقتل أبناءه وزوجته وصادر أملاكه(١).

أصدر السلطان المغولى [خان الخانات] منكوقان أوامره بالخلاص من الإسماعيلية وداعيتهم، وأمرهم بإراقة دماء تلك الطائفة، وإحراق البنين والبنات، والإخوة والأخوات ثأرا لأخيه جغتاى الذى قتله أحد الفدائيين، وهاجم المغول قلاع الإسماعيلية، وقتلوا عدة ألوف من أهل قهستان ومن قلاع الإسماعيلية، ولم يبق من هذه الطائفة إلا الشريد.

وقد سعد المسلمون فى أنحاء العالم بتخليص المغول لهم عن هؤلاء الملاحدة، واعتبروا الخلاص منهم يوم عيد وفرح وسرور، بسبب ما ألحقوه بالمسلمين من الضر والأذى، وبما ألحقوه بالإسلام من عقائد إلحادية فاسدة.

وقام هولاكو بالهجوم على الإسماعيلية. وعبر بجيشه نهر جيحون سنة ٦٥٣هـ، لأن التخلص من المغول يؤمن الجيش المغولى من الخلف، حين يتوجه إلى بغداد، وانضم إلى المغول - أرغون حاكم المغول فى فارس - وشدد المغول هجماتهم على قلاع الإسماعيلية فاستسلمت بعد لأى وعناء، ما عدا قلعتى ميمون وآلموت التى استمر حصارهما عدة أشهر، قاوم أهلها المغول مقاومة عنيفة، وأخيرا، استلم خورشاه آخر حكام الإسماعيلية بعد أن وهنت عزيمته، واستسلمت آلموت، فاستولى المغول على كنوز وثروات الإسماعيلية، وقد أذن هولاكو للمؤرخ عطا ملك جوينى بالاطلاع على المكتبة القيمة للحس الصباح، والتى تتضمن نوادر الكتب، وأحرق الجوينى كتب المذهب الإسماعيلى، وأبقى ما سوى ذلك من كتب قيمة وآلات الرصد وكتب النجوم والسحر. ومن أهم هذه الكتب، كتاب سر كزشب سيدنا، الذى تضمن شرح أقوال الحسن بن الصباح وأسرار دعوته وأقوال خلفائه من بعده(٢).

يقوم مذهب الحس بن الصباح على تأويل آيات الله، ولاسيما الآيات المتشابهة، ولكل تنزيل تأويل، ولكل ظاهر باطن، وشغل الحسن بن الصباح كل وقته فى التعليم

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٣٥٧.

(٢) الجوينى: المصدر السابق جـ٢ ص٣٠٧.

والتعلـم، ومن أقواله: إن معـرفة الله لا تتم إلا عن طريق الإمـام؛ لأن العقل مـوجود لدى أكثر الناس، ولديهم نظر فى أمور الدين، ولو كان النظر العـقلى كافيا لمعرفة الله، لما اعترضت طائفة من الناس على أقوال طائفة أخـرى. ولتساوى الناس فى معرفة الدين عن طريق العقل، ونـتيجـة لهذه الاعتـراضات، العقل وحـده ليس كافيـا، وبأن الإمام ضرورى فى كل عصر، حتى يتسنى للناس التعلم والتدين عن طريق الإمام.

ووضع الحسن الـصباح - شـيخ الجبل - عـدة صيغ أسـماها إلزامات، والتـعليم ضرورى للتضافر مع العقل.

لابد من مـعلم صادق، وإذا لم يوجـد معلم، فـالمعلم هو الرفيق، والرفـيق ثم الطريق، والتوحيد، هو التـوحيد والنبوة معا والإمامـة، وقد منع العوام من الخوض فى المعلوم، وكذلك الخواص عن مطالعـة الكتب المتقدمة إلا من عرف كيـفية الحال فى كل كتاب ودرجة الرجال فى كل علم.

ونخلص من دراستنا للوضـع الـسياسى فى المشرق الإسلامى، منذ بـداية العصر العباسى الثانى إلى الغزو المغولى، بأن هذا العصـر شهد دولا قوية ذات موارد اقتصادية ضخمـة، ومجتمعاتهـا قوية فى بنائها وتطورها، وقامت هذه الدول بحـماية الإسلام، ونشـره بين الأمم، الزيدية نشـروا الإسـلام فى طبـرسـتـان وجـرجـان وبلاد الديلم، والغزنويون نشروا الإسلام فى الهند، والسلاجقة أضافوا إلى الإسلام أراضى شاسعة فى آسيا الصغرى. والخوارزميون دافعوا عن الإسلام ضد أعدائه من الملاحدة والمغول. وفى سبيل ذلك خاضت هذه الشعوب الكثير من الحروب المريرة.

هولاكو وسقوط بغداد

قبل أن نتكلم عن سقوط بغداد، يجب أن نشـير إلى غازيها هولاكو، وهو الابن الرابع لتولوى بن جنـكيزخان، وكان له نـساء وسرارى كثـيرات، فوضـه الخان الأعظم بالمسير إلى غـرب إيران وقلاع الإسماعيلية والشام ومـصر وبلاد الروم والأرمن، وأمده بحرس خاص من جند جنكيزخان الأقوياء، وضم إليـه فى رحلته جيشا قويا، وسار فى صحـبتـه نساؤه وعبـيده وأولاده - وأمـده الخان بالجند الأقـوياء من الخطا المدربين على استـعمال الأسلحـة، وفى توديع منكوقا آن - الخـان الأعظم له - حرضـه على الالتزام بقوانين جنكـيزخان وأوصاه بالحـسنى لمن استـسلم له دون قتال، وسـفك دماء كل من يتعرض لك ولجيشك وتجعل فى جـميع الأمور رائدك، العقل الحكيم، والرأى السديد، وتخفف عن رعاياك المؤن والتكاليف، وترفه عنهم، وعليك بتـعمير الولايات الخربة فى

الحال، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتى عديدة، وشاور زوجتك الرشيدة دقوز خاتون فى كل الأمور والشئون[1].

التزم هولاكو بوصايا الخاقان ـ كما ذكرنا ـ ثم اتجه إلى بغداد.

بعد أن استولى المغول بزعامة هولاكو على بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس، اعتزموا تنفيذ سياستهم الرامية إلى بسط سيطرتهم على باقى بلاد المشرق أى العراق والاستيلاء على بغداد، والزحف منها إلى الشام ومصر.

تولى هولاكو عملية الزحف إلى بغداد، وكان لابد أن يدمر فى طريقه قلاع الإسماعيلية، حتى يطمئن على قادته وجنده من أعمال الإسماعيلية التخريبية، وفعلا دمر قلاع الإسماعيلية.

زحف هولاكو إلى همذان، وأكد سيطرة المغول عليها، وبعدها توجه إلى بغداد، وكانت مضطربة كل الاضطراب، الخلافات شديدة بين وزراء وحجاب وولى العهد، أهل بغداد مختلفون مع بعضهم البعض، الكل يتطلع إلى عصر جديد وإلى الخلاص من هذا الحكم الفاسد الذى أساء إلى حياتهم المعيشية وأوضاعهم الاجتماعية. والمغول فى طريقهم إلى بغداد، والعالم الإسلامى فى تمزق وانحلال بسبب سيطرة المغول على أقطار إسلامية واسعة، وتخريبهم البلاد التى حلوا بها ـ كما رأينا.

لما اعتزم هولاكو قصد بغداد، أرسل خطابا إلى الخليفة العباسى يهدده ويتوعده ويطالبه بتسليم بغداد: «ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولى منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم، والذى حاق بأسر الخوارزمية والسلاجقة وملوك الديالمة والأتابكة، وغيرهم ممن كانوا ذوى عظمة وشوكة بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقا فى وجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم، فكيف يغلق فى وجهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان، فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه.. فإذا قدت الجيش مندفعا إلى بغداد بصورة الغضب، فإنك لو كنت مختفيا فى السماء أو فى الأرض فسوف أنزلك من الفلك الدوار، وسأنزلك من عليائك إلى أسفل ولن أدع حيا فى مملكتك، وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار».

(١) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، المجلد الثانى، الجزء الأول.

رفض الخليفة الإذعان إلى تهديد هولاكو، وأرسل سفارة تحمل رفض التهديد، وتشير إلى عزة المسلم وقوته، وعدم خشيته من أحد لأنه يثق بنصر الله، ومما جاء فى هذه الرسالة «ليعلم الملك أنه من الشرق إلى الغرب ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لى، وإنى قادر على جمع شتات الجند من سائر ديار الإسلام، وإذا كنت مثلى تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتى وحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان».

غضب هولاكو من هذه الرسالة، وأرسل تهديدا آخر إلى الخليفة يقول: إن الله الأزلى رفع جنكيزخان، ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل من سار معنا، وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه، نبقى له أمواله ونساءه وأبناءه، ومن يفكر فى الخلاف والشقاق لا يتمتع بذلك. وخاطب الخليفة قائلا: لقد فتنك حب المال والجاه والعجب والغرور بالدولة الفانية - وعليك أن تكون مستعدا للحرب والقتال فإنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، وتلك هى مشيئة الله العظيم.

لم يأبه الخليفة ورجاله بتهديد هولاكو، وأعدوا العدة لمقاومة جيش المغول، غير أن الخيانة لعبت دورا هاما خطيرا فى بلاط الخليفة؛ ذلك أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمى كان يراسل هولاكو، ويعده بتسليم بغداد دون قتال[1].

بدأ هولاكو حملته على بغداد بإرسال فريق من جنده بقصد الاستيلاء على القلاع المحيطة ببغداد، والتى قد يتخذها الخليفة مركزا للمقاومة، وسيطر جند المغول على هذه القلاع. وبذلك مهدوا لجيش المغول الزحف إلى بغداد دون عقبات.

استشار هولاكو قبل زحفه إلى بغداد كبير منجمية فى أمر غزو بغداد، فرفض المنجم وقال: إن كل ملك حتى زماننا هذا حاول قصد بغداد والعباسيين، لا يستمتع بالملك والعمر، وسيؤدى ذلك حتما إلى موت الخيول وعدم طلوع الشمس وعدم سقوط الأمطار، وتهب رياح صرصر عاتية، ولا ينبت الزرع، وبالجملة يعم الخراب والدمار وسائر البلاد، ولكن هولاكو استشار نصير الدين الطوسى، فطمأنه إلى صحة وجدوى مشروعه.

وفى أوائل المحرم ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧ - ١٢٥٨م، استدعى هولاكو جنده المعسكرين فى أطراف دولته، وسار بجيشه الكبير إلى بغداد، ولما اقترب منها أرسل رسالة مرة

(١) المصدر السابق ص٢٧٩.

أخرى إلى الخليفة، ولكن الخليفة رفض تهديدات هولاكو، واعتزم المقاومة، وقال هولاكو: إن اعتمادى على الله، فإذا كان الله الأزلى مساعدا لى، فماذا أخشاه من الخليفة وجيشه «تتساوى فى نظرى النملة والبعوضة والفيل، كما يتساوى الينبوع والنهر والبحر والنيل، ولو كان أمر الله على خلاف ذلك فمن يدرى سواه كيف يكون ذلك الكلام.

عسكر المغول أمام أسوار بغداد، ودارت حرب استمرت ستة أيام، وأرسل هولاكو أوراقا إلى أهل بغداد تفيد بأن القضاة والشيوخ والفقهاء وكل من لايحاربنا لهم منا الأمان، وهدم المغول أسوار بغداد، وعجز جند بغداد عن المقاومة، لذلك قال الخليفة سأسلم وسأطيع، وأرسل رسولا إلى هولاكو محملا بالتحف والهدايا النفيسة، فلم يقبلها هولاكو، وساد الذعر فى بغداد حتى لاذ بالفرار من استطاع، واختبأ بعضهم فى القبور والأنفاق ومواقد الحمامات، واقتحم المغول بغداد، وقتلوا الألوف من أهلها. وقتل المغول أفراد حاشية الخليفة الذى اجتمع بالوزير وشاوره، فأنشد الوزير قائلا:

يظنون أن الأمر سهل وإنما هو السيف حدث للقاء مضاربة

وخرج الخليفة مع الأئمة والقضاة والأعيان للقاء هولاكو بعد أن يئس من المقاومة، وأيقن بهلاك بلده وأهله، فأعد هولاكو مخيما لإقامتهم وأكرمهم، وطلب من الخليفة أن يرسل نداء إلى جند وأهل بغداد بالكف عن المقاومة وإلقاء أسلحتهم ودخل المغول على الفور، وأحدثوا مذبحة مروعة فى بغداد، قتلوا كل من فيها، ثم دخل هولاكو بغداد، ودخل قصر الخليفة، وأمر الخليفة بمنحه كل ما يمتلك، فمنحه الخليفة الخائف كل ما فى خزائن قصره من تحف وأموال، وأرشده إلى حوض مملوء بالذهب فى ساحة القصر، فحفروا الأرض حتى وجدوه مليئا بالذهب الأحمر وسبائك الذهب التى تزن الواحدة مائة مثقال.

أمر هولاكو بإحصاء حريم الخليفة، فكانوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة، فأخذ هولاكو من نسائه ما شاء، واستولى على أموال الخلفاء التى تركوها خلال خمسة قرون، وضع المغول الأموال بعضها على بعض فكانت كجبل على جبل، واحترق جامع الخليفة وبعض المشاهد وقبور الخلفاء[1].

---

(١) المصدر السابق ص٢٩٣.

وبعد أن اطمأن هولاكو إلى امتلاكـه بغداد، أرسل الأمان إلى أهلها، وأمر جنده بالكف عن القتال والحرب والتخريب؛ ولأن بغداد أصبحت ملكا لنا، فليستقر الأهالى، ولينصرف كل شخص إلى عمله. وبذلك وجد الأمان أولئك الذين نجوا من السيف.

ولم يلبث أن رحل هولاكو عن معسكره خارج بغداد، بسبب عفونة الهواء الناتج عن كثرة القتلى فى بغداد، وأدرك الخليفة أن نهايته قد حلت فأنشد قائلا:

وأصبحنـا لـنـا دار كجنـات وفردوس

وأمسينا بلا دار كأن لم تغن بالأمس(١)

ولكن هولاكو قبل مغادرة بغداد أمر بقتل الخليفة وأفراد حاشيته وأبنائه وخدمه.

وأرسل فريقا من جنده للمحـافظة على الأمن والنظام فى بغداد وعهد إلى الوزير مؤيد الدين بـن العلقمى بحكم بغـداد، وعين قاضـيا للقضـاة، وعهـد إلى رجال من الموالين له بشغل الوظائف الإدارية، ثم بادر كل شخص بدفن قتلاه، وطهرت الطرق من جثث الحيوانات وعمرت الأسواق.

وبذلك سقطت بغداد ـ حاضرة الإسلام الكبرى ـ بعد أن ظلت حاضرة للعباسيين منذ سنة ١٣٢هـ - ٦٥٦هـ إلى أكثر من خمسـة قرون، وشهدت هذه المدينة خلال هذه الفترة نشاطا سياسيا كبيرا، وسادت بلادا شاسعة فى دار الإسلام، كما ساهمت بنصيب كبير فى ازدهار الحضارة الإسلامية وقدمت للعالم كله فكرا وعلما أدى دوره فى الحضارة الإنسانية. والتراث الذى تركته بغداد ساهم بتقدم الفكر الإسلامى والعلوم والفنون.

بسقوط بغداد لم يبق فى العالم الإسـلامى دولة قوية، إلا دولة المماليك فى مصر والشام،والتى ألقت على عاتقها مسئوليـة التصدى للمغول، ومزق الأندلس، وطمع فيه النصارى، واسـتردوا مـعظم بلاد المسلمين فى الأندلـس، وبقيت دولة بنى الأحـمر فى غرناطـة تدافع عما تبـقى للمسـلمين من مـعاقل، وهى معـاصرة لدولة بنى مـرين فى المغرب.

(١) المصدر السابق ص٢٩٤.

وفاة هولاكو

وزع هولاكو قبل وفاته حكم الولايات على أمراء المغول إلى قادة ورجال يثق فى قدراتهم، وباغته المرض وتوفى سنة ٦٦٣هـ- ١٢٦٥م فى مراغه، عن عمر يناهز الثمانية والأربعين. يقول نصير الدين الطوسى - كبير منجميه فى رثائه.

عندما دخل سيد العالم مراغة شتاء   جعل تقدير الأزل آخر نوبة من عمره

وكانت ٦٦٣ وفى ليلة الأحد التى كانت ليلة التاسعة عشرة من ربيع الأول مات هولاكو بعد أن ارتكب من المذابح فى بلاد الإسلام وغير بلاد الإسلام الشىء الكثير، فدمر مدينة بغداد، وقتل أهلها، وارتكب المذابح مع أهل إيران والعراق وأهل الشام. ولكن ينسب له رشيد الدين فضل الله الهمذانى تعمير المدن التى ضربها، وإقامة القصور، وكان يحب كتب الحكمه وكتب الأوائل، ويدرس الكيمياء وغيرها من العلوم.

* * *

والخلاصة أن الدول التى قامت فى المشرق منذ بداية العصر العباسى حتى الغزو المغولى، قامت فى خراسان وبلاد ما وراء النهر. وخراسان الآن هى أفغانستان ما عدا مساحات صغيرة تقع الآن فى إيران وجمهورية أوزبكستان.

أما بلاد ما وراء النهر فقد تعرضت لمحن قاسية منذ الغزو المغولى المدمر وبعد المغول حكمها التيموريون، ثم الشيبانيون، ثم روسيا القيصرية، ثم الاتحاد السوفيتى روسيا القيصرية، ثم الاتحاد السوفيتى البغيض فأغلق السوفيت المساجد فى بلاد ما وراء النهر، وطمسوا معالم الإسلام فى هذه البلاد، ومنعوا تدريس الإسلام فى المساجد، وقضوا على تراث الإسلام وأحرقوا كتب الإسلام، واضطهدوا رجال الدين، وحرموا المسلم المتدين من شغل وظيفة عامة، بل تدخلوا فى التركيب السكانى فى هذه البلاد، فنقلوا بعض الروس إلى بلاد ما وراء النهر، ونقلوا بعض سكان بلاد ما وراء النهر فى بلاد الاتحاد السوفيتى، ونشأ جيل جديد من سكان هذه البلاد لا يعرف شيئا عن الإسلام أو تاريخ بلاده العريق فى الإسلام وحضارة الإسلام، وبدأ تاريخهم منذ احتلال السوفيت لبلادهم وعظماء بلادهم، هم عظماء السوفيت.

واستقلت هذه البلاد بانهيار الاتحاد السوفيتى، وعادت بلاد ما وراء النهر إلى تاريخها الإسلامى العريق، وشكلت بلاد ما وراء النهر عدة جمهوريات إسلامية، وهى قرغيزستان وطزجستان وتركمانستان وأوزبكستان وقزخستان، وتقع هذه الجمهوريات شرق بحر قزوين والجمهورية السادسة غرب بحر قزوين، وهى أذربيجان، وتضم قوميات متعددة، أهمها الأوزبك والتتار والتركمان والترك والقرغيز والفرس. وتنتج

موادا خاما رئيسية، مثل النفط والفوسفات والقطن واليورانيوم والصوف والحرير والمواد الغذائية.

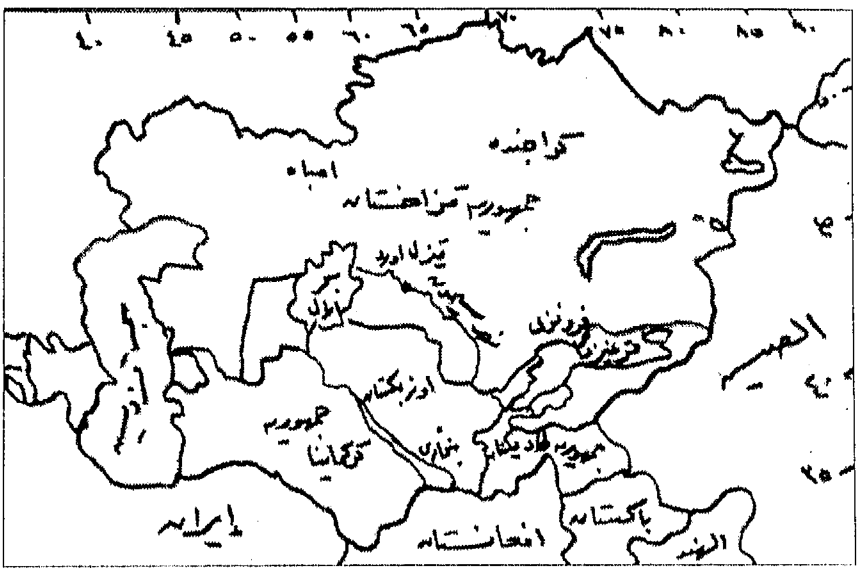
ولما عادت هذه البلاد إلى الإسلام، عاد تدريس الدين فى المدارس، وعاد أهل هذه البلاد ـ بلاد ما وراء النهر سابقا ـ إلى إحياء التراث الإسلامى، والكتب الإسلامية، وتعمل الجامعات الآن على إحياء فكر علماء الإسلام من سكان بلاد ما وراء النهر الآن. وتقوم الدولة الإسلامية – ومنها مصر – بدعم هذه الجمهوريات الإسلامية، وإمدادها بكتب الإسلام ووراساته.

وكانت وفاة هولاكو فى أوائل ٦٦٣هـ قبل أن يتم بناء مرصد مراغة الذى أمر ببنائه، وعلى عادة المغول شيدت له مقبرة ألقوا فيها الكثير من الجواهر وأرقدوا إلى جواره عدة فتيات جميلات مزينات بالملابس الفاخرة والمرصعة لاعتقادهم بأن وجود تلك الفتيات معه فى القبر يحفظه ويخفف عنه الوحشة وظلمة القبر ورهبته وثقل الوحدة وضيق المكان ونيران العذاب، ويقول خواجة نصير الدين الطوسى:

عندما مضى هولاكو من مراغة إلى مشتاه

وضع تقدير الأجل نهاية لعمره

ذلك فى ليلة الأحد عام ٦٦٣، والتى كانت ليلة التاسع عشر من ربيع الآخر وبعد انتهاء فترة العزاء أذعن أبناء هولاكو الاثنا عشر لطاعة أباقاخان وانتخبوه من بينهم.



دولة المغول الإيلخانية بفارس والعراق

[٦٥٤هـ - ٧٤٤هـ / ١٢٥٦م - ١٣٤٤م]

كان هولاكـو بعد انتصاراته الكبـيرة فى المشرق يضم إلى ملكه الشـاسع العريض إيران والعراق، وكـانت الدولة المغولية فى إيران تضم الأراضى المـمتدة بين نهر جيـحون إلى المحيط الهندى، ومن السند إلى الفـرات وبعض أراضى آسيا الصغـرى، وقد حكم أباقا إيران بعد وفاة والده سنة ٦٦٣هـ، وكـان حكام إيران يحملون لقب إيلخان للدلالة على تبعـيتهم للخاقـان الأعظم فى الصين، وتعاقب على حكم إيران الإيلخـانات حتى سنة ٧٥٦هـ- ١٣٥٥م حيث زالت دولتهم.

وكانت كلمـة إيلخان تطلق على خان القبـيلة، وعلى خان الأياله وتدل على أن حاملها داخل فـى الولاء والطاعة للقانات ومدين لهم بالطاعـة، وأطلق على كل حاكم مغـولى فى إيران وإيلخان. وكان هولاكو ومن خـلفه حتى غازان خـان يحكمون باسم القانـات من بكين، وسمى هولاكـو بالخاقـان الكبير، وحـكمت أسرة هولاكو حـكما مستقلا فى إيران زهاء قرن من الزمان(١)، وتأثر خلفاء هولاكو بالحضارة الفارسية والنظم والثقافة، وظهر ذلك جليا فى أساليب حكمهم، فازدهرت الحركة الفكرية فى عهدهم.

لما توفى هولاكـو، انتخب الأمراء، أبـاقا خان، وصـدر فرمـان بتوليـه من قبل قوبيلاى قاآن. وعمل أباقا خان منذ توليته على تأمين حدود دولته، فحصن حدود دولته مع دولة سلاجـقة الروم وغيرها، وعـهد إلى أخيه تـبسين بحكم خراسـان، وإلى بهاء الدين محمد بحكم العـراق العجمى وأصفهان، وساس الـناس بالعدل، وبرز فى عهده علماء أجـلاء مثل: نصـير الدين الطوسى، وشمس الدين الجـوينى، واعتنق أباقـا خان البوذية، ونعم المسـيحيون فـى عهده بالحرية الدينيـة، وتزوج ابنة الإمبراطور البـيزنطى ميخائيل ٦٥٩- ١٢٦٠.

حرصت الدولة الإيلخانية على تحسين علاقتها مع الدول الأوربية خاصة، وفرنسا التى ساءت علاقتها مع المماليك فى مصر بسبب حملاتها الصليبية عليهم(٢).

ولما توفى أباقـاخان سنة ٦٨٠هـ، خـلفه أحـمد تكودار، وقـد اعتنق الإسـلام، وعمل على تبـديل إلياسا الجنكيـزى بالقرآن الكريم والسنة النبـوية، ولقد كان لأحـمد

---

(١) احمد سعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ص١٨٠.

(2) Howorth: Hist. of the Mongols. Vol. III P. 279.

تكودار علاقـات طيبة مع السلطان المملوكى قـلاوون. ولكن هذا الخان واجه صـراعات داخلية، ومنازعات من الأمراء، وخاصة الأمير أرغون، وأدت إلى وقوع الحرب بينهما. وانضم كـيخـاتو حاكم بلاد الروم السـلاجقـة إلى أرغون، وانضم بعض أمـراء الدولة الأقوياء إلى الأمير أرغون، وقتلوا أحمد تكودار سنة ٦٨٣هـ وولى أرغون العرش.

وفى عهد أرغون تم التخلص من شمس الدين الجـوينى، واستوزر أرغون، سعد الدولة بن صـفى الدين، وكان يـهوديا، ويمـتاز بكفـاءته من الناحـية الإدارية، وكـان يتعصب لأبناء ملته، ويفضلهم على من سواهم، وحدثته نفسه بتحويل الكعبة إلى معبد للأصنام، وهذا يدل على تعصـبه الأعمى ضد الإسلام والمسلمـين، وكان أرغون يتطلع إلى النيل من المسلمين بأن يقف إلى جانب الصليبيين فى هجومهم المرتقب على الشرق، ويساعدهم فى محـاولة استرداد بيت المقدس من المسلمين(١)، وأرسل سفارات فى هذا الصدد إلى البـابا وملوك أوربا، واضطربت البلاد فى أواخـر عهده وتصـدى له الأمراء وتآمروا عليه، وتوفى سنة ٦٩٠هـ.

ولى كيخاتوخان العرش بعد وفاة أرغون، وانقسم الأمراء فى عهده إلى أحزاب، فريق أيد كيخاتو، وفريق أيد بايدو وعـهد إلى الزنجانى بالوزارة، ووضع الزنجانى عملة الجاو، وهـى عملة ورقـية على نمط العـملة المتداولة فى الصـين، وسبـب اختيـار هذه العملة، حاجـة الدولة للأموال لدفع رواتب الجند، على أن الناس رفضوا التـعامل بها، وأصروا على التعامل بالنقود الذهبية، ولم تطل مـدة كيخاتو، فقد ثار عليه بايدو وقتله ٦٩٩هـ. وحكم بايدو ستة شهور، ولم تصف له الأمـور، فقد طالب غازان بالثأر لمقتل كيخاتو، وتحـالف معه بعض الأمراء، وحاربوا أبيدوخان وهزموه، وكـان بايدو مشغولا عن الحكم باللهو والمجون، الأمر الذى مكن أعداءه منه.

ومن أبرز خـانات المغـول فى إيران، غازان خـان (٦٩٤ ـ ٧٠٢هـ) فـقد اعـتنق الإسلام، وأحدث بذلك تغـييرا كبيـرا فى علاقة المغول بالشعب الإيـرانى، فقد تسللت البوذية مع المغـول إلى إيران، وشيـد كهنة البوذيين المعـابد فى إيران، وسعـوا بأساليب مختلفـة إلى نشر الديانة البوذية فى إيران، وتحويل الناس إلى عـبادة بوذا، وما إن دخل غازان فى دين الله حـتى عمل على إدخال قـومه من المغـول فى الإسلام، وأسلم على يديه حوالى مائة ألف مغـولى، وحول معابد بوذا والكنائس إلى مساجد يذكـر فيها اسم الله، وكان يتكلم باللغة الفارسية، وعرف عن طريقـها كلمات عربية كثيرة، لذلك تمكن من دراسة الدين الإسلامى دراسة وافية، وبلغ من حماسه للدين الإسلامى أن كان يقف

(١) خواندمير: دستور الوزراء ص٣٠٢.

من المغول موقف الواعظ ويرشدهم إلى الدين الحنيف، ويشرح لهم أسسه وخصائصه، وسمى نفسه معز الدين محمود غازان خان، وأعاد بناء أضرحة المشايخ التى هدمها المغول وكذلك المساجد، وهدم بيوت النيران الزرادشتية وتشدد فى تحويل رعاياه غير المسلمين إلى الإسلام، وقطع صلته بالخاقان الأعظم فى الصين، وحكم إيران مستقلا تماما، وانفرد بنقش اسمه على السكة، وبذكر اسمه فى الخطبة، وعزل اليهود والمسيحيين من الوظائف العامة، وقصرها على المسلمين فقط، الأمر الذى أوجد حالة من السخط ضده، لذلك لجأ إلى العنف فى القضاء على خصومه، وقتل الكثير منهم، وقضى على أسرة صدر جهان الوزير الأديب العالم السياسى الماهر والإدارى الحازم، وخلفه فى منصب الوزارة، خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى الطبيب والمؤرخ، صاحب كتاب «جامع التواريخ»(١).

ومن الأحداث السياسية الهامة فى عهد غازان، دخوله فى حرب مع دولة المماليك فى مصر والشام، وكان سلطان المماليك حينئذ، الناصر محمد بن قلاوون، وقد استاء غازان من المماليك لأنهم آووا الفارين منه، كما شن المماليك عدة حملات حربية على بلاد الأرمن، وتربطة بملكها علاقة ود وصداقة، واعتقد غازان أن الخلاف بين أمراء المماليك يسر له مهمة مهاجمة الشام، والسيطرة عليها ثم الزحف منها إلى مصر.

لما اعتدى بلبان الطباخى - نائب حلب - على ماردين واستباحها لجنده اتخذ غازان من هذه الحادثة ذريعة لمهاجمة بلاد الشام، وفى سنة ٧٩٦هـ هاجم غازان بلاد الشام بقوات مغولية تزيد على تسعين ألف مقاتل، وخرج الناصر محمد بجيشه الكبير الى بلاد الشام، والتقى بالجيش المغولى فى الخازندار فى معركة حامية الوطيس، إنتهت بهزيمة المماليك وانتصار المغول، وزحف المغول إلى حمص ونهبوا ما فيها ثم واصلوا مسيرتهم إلى دمشق، فعمّ أهلها الفزع والهلع، ولاذ الكثير منهم بالفرارمن مدينتهم ومغادرتها، وخشى كبار رجال المدينة وعلمائها من تدمير المغول لبلدهم، فخرج وفد منهم لمقابلة غازان وطلب الأمان منه، وعلى رأسهم قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، وشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية وبعض الفقهاء والقراء والأعيان، وأرسل غازان أمانا إلى أهل دمشق قرئ فى المسجد الأموى، يتضمن تأمين الناس على أموالهم وأرواحهم ونسائهم وإيجاد حكومة تحكم بالعدل، وتدفع عن الناس الظلم والجور.

---

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص١٩٧.

لكن غازان نكث بالعهد، بعد أن تسلم دمشق، وأطلق جنده فى المدينة يعبثون فيها نهبا وفسادا وتخريبا، بل امتدت أيديهم إلى بيت المقدس وسائر بلدان الشام، ورفض أرجواش المنصورى تسليم قلعة دمشق، ودافع عنها ببسالة، ومع ذلك مَدَّ المغول نفوذهم على بلاد الشام، وأقيمت الخطبة لغازان على منابرهم وعاد الناصر محمد إلى مصر، بينما واصل المغول زحفهم فى بلاد الشام فغزوا الصالحية، ومزق أهلها كل ممزق، أما أهل دمشق فقد أرهقهم المغول بالضرائب الباهظة، وارتفعت الأسعار، وعمَّ البؤس، وكثر القتل والدمار، وبلغ من شدة الرعب الذى لحق بالناس أن امتنعوا عن الخروج من منازلهم خوفا من أن يسخرهم المغول فى ردم الخنادق وأداء بعض الأعمال الحربية(١).

لما عاد غازان إلى بلاده بعد أن نهب دمشق سنة ٦٩٩هـ عهد إلى قبجق بنيابة دمشق، وعين قطلوشاه قائدا لحامية المغول ببلاد الشام، لكن أرجواش رفض تسليم القلعة، ولم يلبث أن سيطر على دمشق، بعد خروج قبجق إلى مصر لمقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون؛ لأنه أقلع عن خيانته للسلطان المملوكى، وعول على تطهير بلاد الشام من المغول، وقد رحب به السلطان الناصر محمد، ورحب بعودته إلى جانب المماليك بعد أن خانهم وانضم إلى عدوهم، ويسر للمغول أمر دخول الشام. أما الآن فقد عاد إلى الصواب، وانضم إلى الناصر فى محاولة استرداد الشام من المغول.

على كل حال أعد الناصر محمد جيشا كبيرا لطرد المغول، وفى سنة ٧٠٠هـ سار محمود غازان على رأس جيش كبير للحيلولة بين المماليك واسترداد الشام، وعبر غازان الفرات، واتجه إلى أنطاكية، ونهبها، غير أنه لم يستطع مواصلة الزحف إلى سورية بسبب شدة البرد، وسوء الأحوال الجوية، كما أن الدول الأوربية لم توافق على مساعدته فى منع المماليك من العودة إلى سورية، وأرسل غازان سفارة إلى الناصر محمد ناشده عدم مهاجمة سورية، ويتوعده إن أقدم على ذلك، غير أن الناصر رفض تهديدات غازان، وطالبه بأن يمنع رجاله من النهب والقتل فى سورية، وأن يسحب جنده منها، ويبدى رغبته فى صداقته إن فعل ذلك، والتزم بتعاليم الإسلام.

لم تضع هذه المراسلات حدا للتوتر القائم بين البلدان، فعبر غازان فى سنة ٧٠٢هـ نهر الفرات على رأس جيش كبير، والتقى بجيش المماليك فى موقعة عرض،

(١) محمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون ص١٨٥.

وانتصر المماليك فى هذه الموقعة انتصارا رائعا، ولكن المغول لم يعودوا إلى بلادهم بعد الهزيمة، بل زحفوا إلى دمشق، واجتمعت الجيوش المصرية والشامية فى مرج الصفر بالقرب من دمشق، وهزم المماليك المغول ومزقوهم كل ممزق، وفر من استطاع.

وكان لهذا الانتصار آثار بعيدة المدى فى تطور الحياة السياسية فى بلاد الشام، فقد استرد المماليك دمشق، وسائر مدن الشام، وغادر المغول هذه البلاد، وعاد أهل هذه البلاد إلى بلادهم، بعد أن شردوا واضطهدوا. واحتفل أهل الشام ومصر بهذا النصر المبين احتفالات رائعة.

لم يحتمل غازان هذا الموقف، فقد اعتلت صحته ومرض وتوفى سنة ٧٠٣هـ، ١٣٠٤م.

ولى أولجايتو بن أرغون حكم الدولة الإيلخانية بعد وفاة غازان، وقد نهج سياسة جديدة، تعتمد على تقوية البلاد من الداخل، وذلك بضبط شئون البلاد الداخلية، والسهر على مصالحها، كنشر الإسلام وجعله الدين الرسمى للبلاد، وكان أولجايتو مسيحيا بتأثير أمه، ولما توفيت اعتنق الإسلام بتأثير زوجته المسلمة.

واصل أولجايتو السياسة الإصلاحية لأخيه غازان، فأبقى على جميع الوزارات والإدارات وإعطاء الصلاحية الكاملة لرجالات أخيه غازان والإبقاء عليهم، مثل الوزيرين فضل الله رشيد الدين الهمدانى، وسعد الدين الساوجى(١).

وفى سبيل توحيد البلاد وخلق الاستقرار الأمن داخليا، قام أولجاتيو بمحاربة القبائل الثائرة والساخطة على الحكم المغول مثل بلاد كيلان وهراة، وقد كلفه ذلك عناء وجهدا كبيرين(٢).

وفى الميدان العمرانى قام السلطان أولجايتو بتشييد عاصمة جديدة للدولة بين قزوين وهمذان عام ٧١٣هـ- ١٣١٣م وسماها السلطانية. وقد ازدحمت العاصمة الإيلخانية الجديدة بالكثير من القصور والمساجد والمدارس والمستشفيات، كما بنى فيها مسجدا جامعا على نفقته الخاصة ومدرسة على نمط المدرسة المستنصرية فى بغداد،

(١) حافظ ابرو: ذيل جامع التواري، مخطوطة فارسية رقم ٦٨ (أ) ورقة ٤٧١، وانظر أيضا عبد المعطى الصياد، مؤرخ المغول الكبير، فضل الله رشيد الدين ص١٧٨.

(٢) ميرخواند: روضة الصفا، جـ٥ ص٤٨٨، ٤٩٥، وحبيب الشافعى: درة الأملاك فى دولة الأتراك، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٦٥٣ح، جـ١ ص٥٠٨.

وأصبحت تمثل أحد مراكز الثقافة الإسلامية الهامة سواء فى الثقافة أو فى نشر الإسلام ذاته(١).

وكان هذا السلطان قد اتبع المذهب الحنفى بتأثير الأئمة الذين كانوا يحيطون به عندما كان واليا على خراسان أثناء حكم أخيه السلطان محمود غازان. ولما توفى غازان واعتلى أولجايتو عرش البلاد تحول إلى المذهب الشافعى علم ٧٠٧هـ-١٣٠٧م بتأثير وزيره رشيد الدين، كما تحول إلى مذهب الأئمة الاثنى عشرية منذ عام ٧٠٧هـ-١٣٠٧ وضرب أسماءهم على السكة وتغيير صيغة الخطبة لتتفق مع مذهبه الشيعى الجديد(٢).

وفى جانب العلاقات بين الإيلخانات وباقى دول المغول بحث أولجايتو جديا فى عودة السلام بين جميع القادة المغول بعد حروب متصلة بينهم دامت خمسة وأربعين عاما، ولكن القبائل المغولية المختلفة قد اندرجت كل قبيلة منها فى حضارة المنطقة التى احتلتها وعاشت فيها. حقيقة قد عمل غازان من قبل على عودة الوحدة المغولية، غير أن تلك الجهود لم يكن لها من أثر ملموس، كذلك فإن أولجايتو فى مجال بعث هذه الوحدة المفقودة استقبل فى مراغة فى أغسطس سنة١٣٠٤م سفير الخاقان تيمور حفيد قوبيلاى وخليفته، كما استقبل أولجايتو أيضا سفراء شابار بن قايدو ودوا بن بوراق وهم من المغول الجغطائيين فى مهمة لإنهاء المنازعات بين مختلف الفروع المغولية من بنى جنكيزخان، كما استقبل أيضا سفراء طنطاى خان القبيلة الذهبية(٣) غير أن تلك المساعى كلها لم تكن لها أيه نتائج إيجابية؛ لأن فكرة غزو العالم قد انتهت، ولم يعد هناك إمكانية عمل عسكرى مشترك لأن كل دولة مغولية أصبحت مهتمة بمصالحها الخاصة، ولم يكن للاعتراف بتيمور حفيد قوبيلاى خانا أعظم للمغول من ميزة سوى بقاء السلام لفترة وجيزة بهدف تشجيع التجارة فيما بينهم(٤).

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ جـ٢ ص١٦٦.

Saunders, the History of the Mongol Conquests, P.143, 144.

(٢) العينى: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، جـ٢٣ ت١ ورقة ١٦، ١٧، ١٠٤، ابن العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٣ ص٤٦٨.

(3) Cambridge: History of Iran, Vol. 5 P.398, 399.

(4) Prawdin: the Mongol Empire, P. 378.

واتخذ سياسة ودية نحو دولة المماليك وأرسل الهدايا إلى سلطان المماليك والرسائل الودية التى دعا فيها سلطان المماليك إلى صداقته، وخاطبه بالأخوة وسأله إخماد الفتن، وطلب الصلح، وبادله الناصر الهدايا، والرغبة فى السلام(١).

على أن هذه العلاقات الودية لم تستمر طويلا؛ ذلك أن أولجايتو اعتنق المذهب الشيعى، وحرص على نشره فى أقاليم دولته الغربية، بل عول على استعادة سورية، واستعان بالبابا كلمنت الخامس، وإدوارد الثانى - ملك إنجلترا - وفيليب الجميل - ملك فرنسا - ولكنهم رفضوا تلبية رغبته.

اعتزم أولجايتو سنة ٧١٢هـ مهاجمة سورية، فأرسل نائب حلب إلى السلطان الناصر محمد يخبره بزحف المغول على بلاد الشام، فزحف السلطان الناصر بجيوشه الجرارة إلى سورية لدرء الخطر المغولى عنها، عندئذ توقف أولجايتو عن الزحف على سورية، وأمر قواته بالانسحاب من الرحبة(٢).

على أن قوات المغول اشتبكت سنة ٧١٥هـ، بقوات المغول فى ماردين، فقد توجه من حلب ستمائة فارس منهم الأمير شهاب الدين قرطاى للغارة على بلاد ماردين ودنيسير، لقلة مراعاة صاحب ماردين لأوامر وقرارات السلطان ناصر محمد، وعدم التزامه بتنفيذها، فشن قرطاى الغارة على ماردين يومين، فتصادف وجود فرقة من جيش المغول فى هذه النواحى لجباية الأموال منها على عادتهم فى كل عام(٣)، فحاربهم قرطاى وقتل منهم ستمائة رجل، وأسر مائتين وستين وقدم بالرءوس والأسرى إلى حلب، وقد ابتهج السلطان بذلك، وأنعم على نائب حلب وعلى قرطاى(٤).

ولكن جند أولجايتو تعرضوا للقتل فى بلاد الحجاز، فأرسل أولجايتو جندا إلى بلاد الحجاز لاحتلالها، وإقامة الخطبة له على منابرها، فهزم جند الناصر المغول - وكانت الحجاز تتبع الناصر - وقتل من المغول أربعمائة رجل، وغنم العرب أموالهم وخيولهم.

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٢ القسم الأول ص٦.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٢ القسم الأول ص١٤٧.

(٣) المقريزى: السلوك جـ٢ القسم الأول ص١٤٨.

(٤) ميرخواند: مصدر سابق، جـ٥ ص٥١٢، ٥١٣.

وظلت العـلاقة بين الإيلخـانيين والمـماليك زمن أولجايتـو تتأرجح بين الشـقاق والمهادنة حتى أواخر عهد الإيلخان، بل ساءت إلى حد كبير قبل مماته(١).

وكان مـغول إيران على علاقـة مع البابوية وملوك أوربا أيضا، هذه العـلاقة التى يمكننا أن نحكم عليها أنها عـلاقة مصالح خاصة، فبالنسـبة للبابوية وملوك أوربا كانت مصلحتـهم تتمثل فى ناحيتـين: الناحية الأولى هى التبشـير بالمسيحيـة الكاثوليكية بين المغول، والناحية الثانية هى محاولة التحالف مع المغول ضد دولة الإسلام فى مصر وبلاد الشام فى عـهد بنى أيوب وفى عهـد سلاطين المـماليك. وكان الأيوبيون والمـماليك قد أذاقوا الصليـبيين فى بلاد الشـام هزائم مريرة وانتزعـوا منهم بعض الإمارات الصليبـية وأعادوا لها شكلهـا الإسلامى. أما بالنسبة لمغول إيران فـيعود السبب للمواجهـة العنيفة التى وقف بها المـماليك فى وجه المغول، والهـزيمة التى ألحقـوها بهم فى موقعـة عين جالوت، وكانت تلك أول هزيمـة تلحق بالجيوش المغولية. ومن هنا جـاء التحالف بين المغول والصليبيين فى بلاد الشام وفى بلاد أوربا أمرا متوقعا».

وسار أولجايـتو على نهج نفس سياسـة أسلافة، وهى التقـرب من ملوك الغرب المسيحى وربط علاقات ودية مـعهم، ويبدو أن هدف إيلخانات إيران من تلك المحالات كان مـجرد إرهاب المماليك بعد أن ثبت عـدم رغبة القـوى الأوربية - بسبب مشـاغلها الداخلية - فـى التورط فى مشـاريع صليبـية جديدة فى بلاد الشـام، وكان أول سـفراء خـدابنده إلى الغـرب الأوربى هـو السـفيـر تومـاس الدوتشي- (THOMAS EL DOUTCHI)(٣) الذى ذهب إلى كلمنت الخـامس زعيم البابوية فى رومـا وإلى فيليب الجميل (Philippelebel) ملك فـرنسا، وإلى إدوارد الـثانى ملك إنجلتـرا، وقـد عبـر أولجايتو فى رسالته لهؤلاء جميعا عن سـعادته للوفاق القائم بين زعماء الغرب المسيحى وبين سائر قادة المغول من سلالة جنكيزخان(٤).

كما أبدى أولجايتو رغبته فى مواصلة العلاقات الودية بين الجانبين(٢)، غير أن هذا التحالف بين الجانبين لم يتم أبدا، وظلت آمال تحقيقه حلما يراود السلطان أولجايتو حتى مماته.

---

(١) كانت وفـاة السلطان أولجـايتو فى يوم الأربعـاء ليلة رمضـان ٧١٦هـ-١٢ ديسـمبر ١٣١٦م (أبو القاسم القاشانى، تاريخ أولجـايتو، مخطوطة فارسية ١٤١٩ ورقة ١٤٧)، بيـنما يذكر العينى فى مؤلفه عقد الجمان جـ٢٣، ص١٠٤، أن وفاته كانت فى السابع والعشرين من رمضان ٧١٦هـ.

(2) Sykes, AHistory of Persiaa, Vol. II. P. 115.

(3) Berthold, History of the Mongols P.142, 144.

(4)Aziz Suryal Atiya, The Crusade in the Later middle ages, P. 56.

وجدير بالذكر أن السلطان أولجايتو تعصب للمـذهب الشيعى وأمر بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمـان من الخطبة، وتعصب للشيعة ومذهب آل البيت، وأصـدر الفرمـانات إلى أنحاء دولـته بنقش أسـامى الأئمة الاثـنى عشـر على السكة، وتعصب لمذهبه الشيعى، واضطهد أهل السنة، وكانوا يشكلون أغلبية السكان فى دولته، وساءت العلاقات وتدهورت فى مملكته بين السنيـين والسلطان وأنصاره من الشيعة، ولما خشى السلطـان من اندلاع الفتن، عاد فأمـر بذكر أسمـاء الخلفاء الراشـدين الأربعة فى الخطبة.

وكان أولجـايتو حريصا علـى نشر العدل بين الناس، وإنصـاف المظلومين، ومنع تعدى المغول على الأهالى، وأحيـا قوانين غازان، ونظم إدارة البلاد وازدهرت إيران فى عـهده وعـمّهـا الرخـاء، ويرجع الفـضل فى ذلك إلى وزيره رشـيد الدين فـضل الله الهمذانى، وتوفى أولجايتو سنة ٧١٦هـ- ١٣١٦م.

خلف بوسعيد أباه فى حكم الدولة الإيلخانية، وكان فى الثالثة عشرة من العمر، وتولى الوصـاية عليه الأميـر جوبان ـ أمـير الأمـراء ـ وظل رشيد الديـن فضل الله فى الوزارة.

وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مستمرا فى عداوته للمغول، فأنفذ بعض أمراء طائفة الإسماعيلية لاغتيال قراسنقر ـ حاكم مراغة من قبل المغول ـ لكن هذه المؤامرة باءت بالفـشل، وإن جعلت المغول يلزمـون جانب الحذر من الممـاليك، وقد أثر بوسعـيد مهـادنة المماليك، وأرسل رسـولا إلى مصر، يعـرض الصلح، واتفق السلطان الناصر مع مندوب بوسعيد على عقد صلـح يتضمن وقف الحملات الحربية بين البلدان، وعدم إنفاذ الناصر الإسماعيلية إلى فارس للتخريب وأعمال الاغتيالات، وأن من حضر من مصـر إليهم لا يطلب، ومن حـضر منهم من مصـر لا يعود إليهـا إلا برضاه، ولا يحرض الناصر العرب والتركمان بالإغارة على دولة المغول، وتضمن الصلح تأمين طرق التجـارة بين الدولتين، وعدم التحـريض على قتل قراسنقـر ـ حاكم مراغة ـ وأن يسـير المحمل كل عـام من العراق إلى بلاد الحـجاز، حامـلا علمى سلطان مصـر، وإيلخان المغول[1] وكان لهذا الصلح أثره فى تحسين العلاقات بين البلدين.

وفى سنة ٧٢١هـ، اعتنى بوسعيد بأمر حـجاج العراق عناية تامة، وغشى المحمل بالحـرير، ورصعـه باللؤلؤ واليـاقوت وأنـواع الجواهر، فلمـا مـر ركب العراق بعـرب

(١) المقريزى: السلوك، جـ٢ القسم الأول ص ٢٠٩.

البحرين، تعرض لهم ألف فارس، فتوسط الوسطاء بينهم على أن يكفوا عنهم مقابل ثلاثة آلاف دينار، ولكنهم أعادوا المال لما قالوا لهم: إنما جئنا بأمر الملك الناصر، وقالوا: لأجل الملك الناصر نحفركم بغير شيء، ومكنوهم من المسير، فأنعم السلطان على العربان، وأرسل السلطان إلى أمراء المغول وأعيانهم الخلع، وأقيمت الدعوة بوسعيد على منابر مكة بعد السلطان الناصر محمد، وأصبح الحجاج آمنين على أنفسهم وأموالهم(١).

استأثر جويان بالسلطة والنفوذ فى فارس، ولم يعد لبوسعيد من السلطة إلا اسمها، وأناب جوبان ابنه، دمشق خواجا بشئون الجيش وعهد بحكم آسيا الصغرى إلى ابنه دمرداش.

على أن بوسعيد استرد سلطانه لما بلغ الحادية والعشرين من عمره، وقد مهد لذلك بالتخلص من دمشق خواجا، ودبر مؤامرة لاغتيال جوبان، حتى أن جويان سار على رأس جيش كبير لمحاربة بوسعيد، ولكن جويان قتل، وقتل السلطان بوسعيد أبناءه وأقاربه وأحفاده، وكل من له صلة بالأسرة.

وكان دمرداش بن جويان، لما شعر بموقف بوسعيد منه ومن أسرته، فرض على نفسه حراسة مشددة، خوفا من أن يرسل السلطان الناصر بعض أفراد الإسماعيلية لقتله، لأنه منع تجار الرقيق من حمل المماليك إلى مصر من ولايته فى آسيا الصغرى، ولما وقعت فى يده رسائل بوسعيد تحض على قتله، قتل الرسل، ودخل فى طاعة الناصر حماية له من بطش بوسعيد، وسأله أن يأذن له بالقدوم إلى مصر، ليكون نائبا له، وأذن له الناصر، وقدم إلى القاهرة فعلا وأحسن الناصر استقباله، وأنزله فى بيت يليق به، ولكن بوسعيد ما زال بالسلطان الناصر حتى قتله(٢)، وبذلك تخلص بوسعيد من أسرة جويان، التى استأثرت بالحكم دونه فى مستهل حكمه.

أراق بوسعيد الخمر فى مملكته، وأبطل منها بيوت الدعارة، وأبعد أرباب الملاهى، وأغلق محال الخمور، وأبطل المكوس، وهدم الكنائس بالقرب من تبريز، ودعا غير المسلمين إلى المسارعة فى الدخول فى الإسلام، ونشر العدل وعمّر المساجد والجوامع، وقتل من وجد عنده الخمر بعد إراقته، واقتدى به الناصر محمد، فأرسل إلى نوابه

---

(١) المصدر السابق ص٢١٤.

(٢) المقريزى: السلوك، جـ٢ القسم الأول ص٢٩٤.

بالشام يأمرهم بإغلاق محال الخمور، واستتابة أهل الفواحش، وتم تنفيذ ذلك فى سائر بلدان الشام(١).

كان لزوجة بوسعيد، بغداد خاتون، تأثير كبير عليه، وكان يستشيرها فى كل أمور الدولة، وأطلق يدها فى الحكم، وملكت فؤاده حتى منحها لقب «خدا وندكار» أى سيدة العالم(٢).

وحرص بوسعيد على تحسين علاقته بدول أوربا، فعقد اتفاقات تجارية مع البندقية لترويج التجارة بين دولته ودول أوربا.

ولكن نهاية بوسعيد كانت على يد امرأته التى بالغ فى حبها، فلما انتزعت ولشاد خاتون ابنة دمشق خواجا حب بوسعيد وتبوأت من قلبه موضع بغداد خاتون، لم تقبل هذه الأخيرة هذا التغير من زوجها، فدبرت مؤامرة قتله انتقاما لنفسها، ولكن الأمراء نكلوا بها(٣).

ويعتبر السلطان بوسعيد آخر ملوك الأسر الإيلخانية العظام الذين حكموا فى إيران؛ ذلك لأن بوسعيد لم يعقب ولدا، فتعاقب على حكم الدولة أمراء من آل هولاكو.

أوصى بوسعيد قبل وفاته بأن يخلفه أرباخان على العرش الإيلخانى ونفذ وزيره غياث محمد الوصية، وولى أرباخان الحكم من سنة٧٢٦هـ - ٧٣٦، وقد واجه منافسة شديدة ومعارضة من الأمراء الإيلخانيين؛ لأنه لا ينتمى لأسرة هولاكو. ومن أهم أعماله مواصلة سياسة سلفه فى قتال أوزبك خان ـ رئيس القبيلة الذهبية ـ الذى أغار على الأطراف الشمالية لمملكته، واستطاع أرباخان الانتصار عليه، لكن الأمراء الإيلخانيين أصروا على التخلص منه، وتزعم الأمير على بادشاه ـ حاكم بغداد ـ هذه الحركة المناوئة لأرباخان، واتصل بالأمراء الإيلخانيين وبعض أمراء العرب، وانضم إلى الحركة أمراء وأميرات بيت هولاكو، واستقر رأيهم على تنصيب الأمير موسى بن على ابن بايدوخان إيلخانا، وأجلسوه على العرش الإيلخانى، وتلقب بموسى خان، واستطاع على بادشاه إعداد حملة كبيرة تخلص من أرباخان ووزيره خواجة غياث الدين محمد، وولى موسى خان الحكم سنة ٧٣٦هـ، ولكنه واجه ما واجهه سلفه من معارضة الأمراء

(١) المصدر السابق ص ٢٢١، ٢٢٣.

(٢) عبد السلام عبد العزيز فهمى: تاريخ دولة المغول فى إيران ص٢٢٧.

(٣) رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص١٤٥.

لحكمه واستهانتهم به، وقاد محمد خان المعركة ضده، انتهت بهزيمته، وولى محمد خان الإيلخانية ٧٣٦ ـ ٧٣٨هـ ولم ينعم بحكمه بل ظلت الاضطرابات الداخلية فى دولته، وقتله شيخ حسن كوجك، وأسس حكومة فى تبريز، واتخذها عاصمة له، واستمر النزاع على العرش حتى ولى أنوشروان العادل الحكم ٧٤٤ ـ ٧٥٦هـ وهو آخر حكام الدولة الإيلخانية، وكان رجلا مغمورا لا يعرفه حتى الأمراء الإيلخانيين، وكان يقضى طوال يومه فى الشراب والطرب، ونصبه ملك أشرف إيلخانا حتى يحكم باسمه واستمر حكمه حتى وفاته الفجائية سنة ٧٥٦هـ، وفى سنة ٧٥٤هـ توفى طغاتيمور الذى كان يحكم المنطقة الشرقية من الإيلخانية بوفاة أنوشروان ينتهى حكم الدولة الإيلخانية لإيران الذى استمر قرنا من الزمان.

الدولة الإيلخانية معاصرة لدولة المماليك فى مصر والشام ومعاصرة لدولتى المماليك والدولة الخلجية فى الهند ـ وهما دولتان إسلاميتان ـ وعاصر الخانيون دولة القبيلة الذهبية فى روسيا، وعاصرته دولة بنى الأحمر فى الأندلس (غرناطة) وعاصرت بنى حفص فى المغرب وبنى مرين فى المغرب.

❊ ❊ ❊

القسم الثانى

حضارة المشرق الإسلامى

الباب الثالث

نظم الحكم والإدارة

١ - السلطة السياسية

السلطان - الوزير - الحاجب

٢ - النظام الإدارى

التقسيم الإدارى

الوالى - المشرف - العارض للدواوين

٣ - خطط حواضر الدول المستقلة فى المشرق الإسلامى

كانت الدول الإسلامية المستقلة التى أشرنا إليها، وهى الدول: الطاهرية والصفارية والسامانية والغزنوية والسلجوقية والخوارزمية من الناحية القانونية تابعة للخلافة العباسية، غير أن هذه التبعية كانت اسمية فقط لها إدارتها وميزانيتها وجيوشها وأجهزتها مستقلة من الناحية العملية، أما التبعية للخلافة العباسية فكانت اسمية، إذ إن الدولة الإسلامية دولة واحدة، والخليفة العباسى يعتبر حاكم المسلمين أينما وجدوا، والولايات الإسلامية ملكا له. ولكن الخليفة لم يعد فى مقدوره حكم هذه الولايات حكما مباشرا، بسبب زيادة مساحة هذه الولايات، وصعوبة الاتصالات فى ذلك العصر، وتغلب على الولايات حكام أقوياء، واستقلوا بإدارة شئون ولاياتهم. ولكن الاستقلال لا يكون كاملا لما تتمتع به الخلافة العباسية من نفوذ شرعى على كل بلاد الإسلام.

وتمثلت تبعية الدول الإسلامية للخلافة العباسية فى مواقف محددة، منها إضافة الخطبة باسم الخليفة فى صلاة الجمعة، ونقش اسمه على العملة وعلى الطراز، وحصول الحاكم على تفويض من الخليفة بحكم ولايته، وهذا يكسبه الصفة الشرعية. وإظهار الولاء والطاعة للخليفة العباسى.

كان أمراء وسلاطين الدول المستقلة يحكمون بلادهم حكما مطلقا وهم مصدر لكل السلطات.

وكان حكام الدول الطاهرية والصفارية والسامانية، يطلق على الواحد منهم أمير، وأول من أطلق عليه سلطان، محمود الغزنوى[٢]، وأُطلق لقب سلطان على حكام الغزنويين والسلاجقة والخوارزميين.

والسلطان عليه أن يحكم بالعدل بين الرعية، ويلتقى يوميا برجال الدين والفقهاء، ليتعرف منهم عن الحلال والحرام والحق والباطل، وعليه أن يدير أمور الدولة باستشارة العلماء والشيوخ وأهل الخبرة بالحكم ويتدارس معهم تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى وتاريخ الملوك العدول، وعليه أن يعقد مناظرات بين العلماء، ليتعرف

(١) نظام الملك: سياسة نامه ص٧٦.

على أهم آرائهم وأحكام الشريعة وتفسير القرآن ،ويتعرف على أقوال المنشقين عن الدين، حتى يزداد عدلا وإنصافا، ويصلح أحوال الناس وينكل بالمفسدين، وإذا اجتمعت للسلطان الموهبة الدينية والملك، وكان محبا للعلم، فقد اجتمعت له سعادة الدارين؛ لأن أفضل القرارات السلطانية لا تأتى إلا بالعلم، ويجب على السلطان الشورى حتى لا يستبد[1]. ولابد للسلطان من ندماء لائقين، وهؤلاء الندماء لا عمل لهم مع السلطان كالقادة ورؤساء الدواوين، لذلك يجب على السلطان ألا يولى أحدا منهم منصبا من المناصب، حتى لا يستغل صلته الوثيقة بالسلطان فى ظلم الناس. ويجب على النديم أن يكون فكها حافظا للنوادر حتى يسعد السلطان بصحبته. ووقته مع السلطان معلوم، حتى يتفرغ السلطان لشئون الدولة.

والنديم له فوائد: منها أن يؤنس السلطان، ويتكلم معه بألوان اللهو والهزل؛ لأن هذا اللون لا يجده من المسئولين؛ لذلك يجب أن يكون النديم حسن السيرة أصيلا، كتوما طاهر المسلك، محدثا، قارئا للقصص من هزل وجد، حافظا لكثير من الأحاديث، لاعبا للنرد والشطرنج عازفا للموسيقى، وعليه أن يمارس مع السلطان النزهة والشراب واللهو ومجلس الأنس، ويخرج مع السطان للنزهة والصيد، ويوافق السلطان على ما يقول، لا يكثر من النصيحة، حتى لا يمله السلطان[2].

اتخذ أمراء وسلاطين الدول الإسلامية فى المشرق الإسلامى الندماء والأطباء للإشراف على العلاج والطعام، والمنجمون حتى يطلعوهم على الوقت والساعات، ويخبروهم بطوالع السعد والنحس. وقربوا إليهم الفقهاء ورجال الدين، حتى يعرف منهم أحكام الله والشريعة وتفسير القرآن والحديث النبوى؛ لأن استقامة الملك مرهون بالعمل بما أمر الله.

كانت هناك مراسم متبعة بالنسبة للدخول على السلطان، يدخل الناس على السلطان حسب مراتبهم، فيدخل أهل السلطان عليه أولا، فالمعروفون من حشمه، ثم أجناس الخلق بعد ذلك.

وعلاقة انعقاد المجلس رفع الستار، والمجلس العام يُعقد يوما أو يومين، وفى هذا المجلس تتاح الفرصة للناس لحضور المجلس، ولا يُمنع أحد من الدخول، وإذا عقد

(١) المصدر السابق ص٨٠.

(٢) المصدر السابق ص١١٠.

المجلس الخاص فعلى عامة الناس عدم المطالبة بحضور المجلس لأنه لخواص رجال الدولة، وإذا قدم أحد إلى المجلس، يجب أن يكون فى صحبة غلام واحد. ويجب على السطان ألا يطيل الجلوس مع كبار رجال الدولة حتى لا يفقد هيبته، ولا يعطيهم الفرصة للتبسط معه(١).

وينبغى اتخاذ الاحتياط التام فى أمر الحرس، وحراس الأبواب والخواص أصحاب النوبة، ويجب أن يطمئن السلطان على المشرفين على هؤلاء الحرس؛ ويعرفهم حق المعرفة، وأن يعلم بكل صغيرة وكبيرة عن هؤلاء الحراس، لأنهم أكثر طمعا لرقة حالهم،وأكثر انخداعا بالمال، وإذا وجد بينهم غريب وجب التحرى عنه، ويجب عليهم حين تحل نوبتهم أن يتحلوا باليقظة طوال الليل؛ لأن مهامهم خطيرة ودقيقة(٢).

ويجب احترام توقيع السلطان، وتنفيذ ما جاء فيه، ويعاقب كل من يمتنع عن تنفيذ ما وقع عليه السلطان؛ لأن هناك فرقا بين ما يكتبه السلطان وما يكتبه غيره من الناس، لأن الناس لأوامره منقادون وبتوقيعه عاملون. والأمير أو السلطان صاحب السلطان المطلق فى دولته، وأوامره قوانين غير قابلة للمناقشة، وأمره نافذ على الرقاب والعباد، ولاراد لحكمه ولو كان خطأ.

ومن المناصب الهامة فى قصر السلطان وكيل الدار، وعليه الإشراف على مطبخ السلطان والعيال والحاشية والمقاصير الخاصة، وعليه أن يطلع السلطان فى كل يوم على ما يجرى فى القصر، ويدخل عليه فى كل وقت، ويخبره بما يحدث فى القصر.

وللسلطان حرس خاص، يتكون من مائتى رجل، يسمون المفردون ويتميزون بحسن الطلعة وجمال القد، وتمام الرجولة والشجاعة، منهم مائة رجل من أهل خراسان، ومائة رجل من الديلم، لا يغيبون عن الخدمة لا فى الحل ولا فى الترحال ويقيمون بالقصر، وينبغى لهم حسن المظهر، فيرتدون الحلل الجميلة والسلاح الكامل يوزع عليهم عند الضرورة، ثم يسترد منهم، ويجرى عليهم المأكل والمشرب والملبس، ولكل خمسين رجلا منهم نقيب يعرف أحوالهم، ويكفل لهم الخدمة وهم فرسان. وبالقصر عدد من المشاه يبلغ عددهم أربعة آلاف رجل من كل جنس تكتب أسماؤهم فى

---

(١) المصدر السابق ص١٤٤.

(٢) المصدر السابق ص١٥٠.

الديوان، وينتخب ألف منهم لخدمة وحراسة السلطان ويظل الثلاثة آلاف رجل فى خدمة الأمراء والقلعة، لحين الحاجة إليهم(١).

وكانت إمارة الحرس من أهم المناصب؛ لأن عمله يتصل بالعقاب والسياسة، وكل الناس يخافون عقاب الملك وغضبه، فإذا غضب الملك على أحد أمر أمير الحرس بضرب العنق وقطع اليد والقدم والصلب والضرب والحبس فى غيابة الجب، لذلك كان الناس يخشونه أكثر مما يخشون الملك، وكان لأمير الحرس خمسين رجلا معهم السلاح، ولأمير الحرس أحسن الآلات وأفضل الأسلحة. ويستبدل بغيره إذا أخطأ.

وعلى السلطان أن ينشر العدل بين الرعية، ويجلس للنظر فى المظالم وينظر فى شكاوى المظلومين، وينصفهم، فإذا علم الناس بأن السلطان، ينصف المظلومين، يعم العدل، ويطمئن الناس، ويكف الظلمة عن العدوان(٢).

يتضح مما تقدم أن السلطان فى دول المشرق الإسلامى، كان يضم قصره الحرس ورئيس الحرس، ويشرف على قصره وكيل الدار، ويضم القصر الحاجب والندماء والمستشارون من الفقهاء وأهل الخبرة. ويجب أن يجتمع السلطان برجال الدين مرة أو أكثر كل أسبوع حتى يعرف منهم أحكام الدين، وسير العلماء والصالحين من الملوك.

كان الحكم وراثيا فى دول المشرق الإسلامى، ولم تكن هناك قاعدة ثابتة لوراثة الحكم، فأحيانا يتولى الأخ بعد أخيه وأحيانا يتولى الابن، وأحيانا يفضل الابن الصغير الطفل بدلا من أخيه الأكبر تحت تأثير الزوجات أو رغبة فى أن يسيطر رجال الدولة على الحكم فى ظل الطفل الصغير، فحينما ولى طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الحكم - وكان طفلاه - لم يستطع القيام بأعباء الحكم، وتغلب عليه السبكرى، فأدى ذلك إلى انهيار الدولة الصفارية، وضعفت الدولة السامانية بعد تولية نصر بن أحمد بن إسماعيل السامانى، وكان فى الثامنة من العمر(٣). وشهد العصر البويهى عدة حروب بين أبناء عضد الدولة البويهى حول ممتلكات أبيهم، وعَجَّلت الانقسامات بين أبناء البيت البويهى بانهيار حكم هذا البيت، وكان الغزنويون لايولون عهدهم إلى الابن الأكبر ـ الذى هو

(١) المصدر السابق ص١١٥.

(٢) أحمد سعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ص٤٨٠.

(٣) خواندمير: دستور الوزراء ص ٣٠٢.

أحق - مما أدى إلى حدوث منازعات بين الأخوة، فلما عهد سبكتكين إلى ابنه إسماعيل بدلا من محمود، حارب محمود أخاه إسماعيل، حتى استرد حقه فى السلطنة(١).

وحدث ذلك من محمود الذى عهد إلى ابنه محمد بدلا من مسعود الأكبر سنا، فحدث نفس الشيء، وحارب مسعود أخاه محمد وحصل على حقه فى السلطنة(٢) وأدت الخلافات بين أمراء بيت سبكتكين إلى طمع أحد القادة - طغرل - فى الدولة، والاستيلاء على الحكم، ثم حارب الأخ أخاه، ولم يعبأ حكام هذه الدول بمصلحة البلاد أو الحفاظ على بيتهم من الانهيار، إنما كان يهمهم المصالح الشخصية.

ومن أسباب انهيار البيت السلجوقى أن ملكشاه - تحت تأثير زوجته - عهد إلى ابنه الطفل بدلا من ابنه الشاب، فانقسم البيت السلجوقى على نفسه، وأحيانا كان يتولى الحكم سلطانان وأحيانا ثلاثة. وحدث نفس الشيء فى العصر الخوارزمى، الدولة تواجه خطر المغول، وتركان خاتون تحرض السلطان محمد شاه على تولية الطفل أزلاغ بدلا من جلال الدين منكبرتى القوى، لولا أن تدارك السلطان علاء الدين محمد الموقف، وعهد إلى جلال الدين منكبرتى.

وأمراء وسلاطين الدول المستقلة فى المشرق، كانوا قادة جيوش أو ولاة على الأقاليم، فطاهر بن الحسين كان قائد المأمون فى حربه ضد الأمين، وواليا على خراسان، ثم أقام الدولة الطاهرية. كما أن يعقوب بن الليث الصفار كان واليا على سجستان، وانتهز فرصة ضعف الدولة الطاهرية، وأقام دولته على أنقاضها. والسامانيون كانوا حكاما لمدن فى بلاد ما وراء النهر، وبرز منهم، نصر بن أحمد بن أسد - والى سمرقند - الذى سيطر على بخارى، وأقام الدولة السامانية، وكان ألبتكين قائد الجيش فى العصر السامانى، وسيطر على غزنة، وأقام الدولة الغزنوية.

وكان أنوشتكين يعمل فى بلاط السلاجقة، وارتفعت مكانته وولى ابنه محمدا حكم خوارزم، ومن هذا الموقع انتهز الخوارزميون فرصة ضعف السلاجقة، وأقاموا دولتهم على حساب السلاجقة(٣).

---

(١) عصام الفقى: الدول المستقلة ص٣٥٥.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٦.

(٣) نفس المصدر.

يتكون الجهاز السياسى فى الدول المستقلة فى المشرق الإسلامى من السلطان والوزير وكبير الحجاب والمشرف والعارض.

تحدثنا عن اختصاص الأمير أو السلطان، ونتحدث الآن عن الوزير.

من وزراء الدولة السامانية، أبو عبدالله محمد بن أحمد الجيهانى وزير - أحمد ابن إسماعيل السامانى - ولما توفى أجمع الناس على تولية عمه إسحاق، ولكن الوزير نصب ابنه الطفل، وتعهده وتكفل بإدارة شئون الحكم، وبذل جهدا كبيرا فى تنظيم شئون الدولة واستمالة الجيش، وهزم الأمير إسحاق، وأدخل جميع المخالفين لنصر فى طاعته، وفاقت منزلته منزلة آبائه وأجداده(١).

وكان هذا الوزير عالما بصيرا بالأمور، وله مؤلفات كثيرة فى كل فن وعلم، وطلب من الممالك المختلفة نسخا من رسوم الدواوين فاستنسخها، واستفاد منها فى إدارة دواوين دولته، وكان لايقدم على عمل إلا بعد دراسة، لذلك حقق كل أهدافه.

وحينما اعتلى الأمير نوح بن نصر السامانى، أسند منصب الوزارة إلى أبى الفضل محمد بن أحمد الحاكم، وبذل الحاكم جهدا كبيرا فى ضبط ميزانية الدولة وزيادتها، وأعطى رواتب كبيرة لكل العاملين فى ديوان الدولة، وفى القصر، وحدث عجز فى ميزانية الدولة، حتى أنه عجز عن دفع رواتب الجند، فثاروا ضده وقتلوه(٢) سنة ٣٣٥هـ.

ومن أشهر وزراء الدولة السامانية، الوزير أبو الحسين العتبى، واستطاع أن يكفل الاستقرار للدولة السامانية، وإدارة شئونها بالعدل والحزم، وأنقذ الدولة من غارات البويهيين والزياريين وبعض القادة السامانيين، لذلك تخلص منه القائدين فائق وأبى سيمجور، دون أن يتمكنا من تحقيق أهدافهما(٣).

ومن الوزراء من كان رئيسا للديوان مثل الوزير أبو الحسين المازنى، ولم يستطع صد هجمات الثائر أبى سيمجور، وأغراه بالإقطاعات، لذلك أثبت ضعفه، فعزله الأمير

(١) نظام الملك: سياسة نامة.

(٢) الكرديزى: زين الأخبار.

(٣) المصدر السابق.

السامانى[1]. ومن وزراء الفرس الأكفاء، عبدالله بن عـزيز، كان مرجعا لأرباب السيف والقلم، عُزل، وسُجن حتى وفاته[2].

واستوز عبدالملك بن نوح أبا على محـمد بن البلعمى، الذى ترجم إلى الفارسية كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى[3].

ومن وزراء الدولة السامانية، أبو نصـر أبوزيد صاحب ديوان الإنشاء، ولاه الأمير نوح الوزارة، وبذل كل جهده فى تدبير أمور الدولة والجيش، وأغدق على رجال الدولة وعمالها، وقتله أحد غلمان الدولة السامانية[4].

من أبرز وزراء الدولة الغزنوية، أحمد حسن الميـمندى، اشتهر بغزارة العلم وعلو الهمة، حسن السـياسة، ويذكر العتبى أنه رفع ألوية الكتابة، وعـمر أفنية الآداب «وأمر الكتاب أن يتحاشوا الكتابة بالفارسـية إلا عن ضرورة من جهل من يُكتب إليه، وعجزه عن فهم ما يتقرب به إليه، فطارت توقيعاته فى البلاد. أما خلفه أبو العباس، فقد أهمل المخاطبة بالعربية، وجعلها بالفارسية[5].

والوزير فى الدولة الغزنـوية، يدير شئون الدولة الداخليـة والخارجيـة والعسكرية أحيانـا، فكان الوزير أحمد عبـد الصمد يقود الجـيوش، فضلا عن إدارة شـئون الدولة السـياسـية، وقـد يرث الابن أباه فى الوزارة، فـالوزير عـبد الرازق بن أحـمد حـسن الميمندى، ولى الوزارة بعد وفاة أبيه.

كان السلاطين الغزنويون يراقبون وزراءهم، ولا يتهاونون معهم إذا تلاعبوا بأموال الدولة، فالسلطان محـمود الغزنوى، صادر أموال وزيره أحمد حـسن الميمندى. وقبض عليه سنة ٤١٢هـ-١٠٢١م. على أن السلطان مسعود أفرج عنه وأعاده إلى الوزارة.

وحينما يرشح السلطان رجلا للوزارة، يكتب المرشح إلى السلطان بيانا بالمهام التى سيضطلع بها بعد تعيينه، الإصلاحـات والإنجازات التى سيلتزم بأدائها، فإذا وافق عليها

(١) المصدر السابق ص٤٢٦-٤٢٨.
(٢) المصدر السابق ص١٥٤.
(٣) المصدرالسابق ص١٥٥.
(٤) النرشخى: المصدر السابق ص٢٣٣.
(٥) المصدر السابق: ٢٣٤.

السلطان، يصدر مرسوم تعيينه، ويقسم الوزير للسلطان على الإخلاص والوفاء بواجباته نحو وطنه ومواطنيه، ومما يحدد مهام الوزير قـول السلطان مسعود لوزيره، أحمد حسن أن الخواجة خليفتنا فى كل ما تئول إليـه مصالح البلاد، وإشارته نأخده فى كل الشئون، وليس لأحد أن يعترض على ما يراه(١).

ويخضع تعـيين الوزير فى الدولة الغـزنوية لمراسم معينـة، فبعـد القسم، يذهب الوزير إلى خزانة الملابس، لارتداء الخلعة المخصصـة له، وتتكون من قباء ناصع البياض عليه نقوش دقيـقة فضية دقيقة الطراز وسلـسلة فخمة ومقطعة تزن ألف مثقـال مرصعة بالفيروز(٢).

ويساعد الوزير فى عمله عدد من الحجـاب والكتاب والنساخ والمساعدين يرتدون السواد، وفور تعيينه يتبادل مع السلطان الهدايا، ويعـود إلى بيته فى موكب كبير، حيث يهنئه الناس بالوزارة، ويقـدمون له(٣) الهدايا النفـيسة، ويعطيـه السلطان خاتم الدولة، ويأمره بالنظر فى ميزانية الدولة وشكاوى الناس.

كان يلى الوزارة فى عـهد بنى بويه، علمـاء وكتاب كبـار، وأصحاب خـبرة فى شئـون الإدارة والحرب والمال والأعـمال. ومن هؤلاء الوزراء ابن الـعميـد - وزير ركن الدولة البويهى، اشتدت هيبته، وارتفعت مكانته، وسعى هذا الوزير إلى تقوية العلاقات بين أبناء ركن الدولة، فعقد اجتماعـات بين أبنائه حضره الأمير ركن الدولة. وقسم ابن العميد الملك بين هؤلاء الأبناء، عضد الدولة، ومؤيد الدولة وفخر الدولة.

ومن وزراء الدولة البويهـية الكبار، مـحمد بن حسن المـهلبى. تولى الوزارة لمعز الدولة، وقد حظى بمكانة عـالية ت ٣٥٢هـ. وكان الصاحب إسـماعيل بن عـباد أوحد عصره وزمانه فى العلم والفـضيلة وصواب الرأى، تولى الوزارة لمؤيد الدولة، الذى كان حاكمـا على بعض بلدان العراق، واستوزره مـؤيد الدولة البويهى، وكان كاتبـا وتلميذا لشيخه ابن العـميد، لذلك سمى بالصاحب، ويرجع إليه الفـضل فى تعيين فخر الدولة البويهى خلفا لأبيه مؤيد الدولة سنة ٣٧٣هـ. استدعاه من نيسابور، وأجلسه على عرش أبيه، وضبط الصاحب أمور الدولة، وأحسن إدارتها، وأخضع حركات التمرد، وأخضع طبرستان ونكل بالمتمردين فيها سنة ٣٧٨هـ.

---

(١) المصدر السابق ص٢٥٠.

(٢) عصام الفقى: تاريخ الإسلام ص١٥٦.

(٣) خواندمير: دستور الوزراء ص٢٢١-٢٢٢.

وبعد وفاة الصاحب إسماعيل بن عياد، ولى الوزارة رجال ضعاف، مثل الوزير ابن سهلان، الذى ارتكب أعمال الفسق والتزوير، وكان سببا فى الحروب التى حدثت بين أمراء البويهيين مثل سلطان الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة، ولما انكشف أمره، قبض عليه، وسُملت عيناه(١).

ومن أشهر وزراء المشرق الإسلامى، الشيخ الرئيس ابن سينا عمل وزيرا فى بعض دول المشرق مثل دولة الأكراد الكاكوية والدولة السامانية والدولة البويهية والدولة الزيارية.

ومن وزراء الدولة السلجوقية الوزير الكندرى - وزير السلطان ألب أرسلان - وتآمر على نظام الملك، وحرض السلطان على قتله حتى ينفرد بالوزارة.

يعتبر نظام الملك من أشهر وزراء المشرق الإسلامى، كان عالما فقيها، إداريا محنكا، ربى ملكشاه وأدبه، ففوضه شئون الدولة السلجوقية، ولقبه أتابك - أى مربى الأمير، وكان يحارب الإسماعيلية لانحرافهم عن العقيدة، وعزله ملكشاه بسبب خلاف حول تولية العهد- كما أشرنا إليهم - وقتلته الإسماعيلية سنة ٤٨٥هـ(٢).

يقول نظام الملك: يجب على من يتولى منصب الوزارة، أن يتخلق بالأخلاق الحميدة، ويتجنب السيئات، وعليه بالقناعة والنزاهة والأمانة، والتمسك بالدين، والعدل بين الناس والإحسان إليهم، وفعلا شيد نظام الملك المدارس والمنشآت الخيرية فى الدولة السلجوقية، وأوقف عليها الأوقاف(٣).

ولقد كتبت المصادر الفارسية والعربية كثيرا عن أفضال هذا الوزير، ولا يمكن مقارنته بوزير آخر فى المشرق. فتحدثت المصادر عن أفضاله وعدله وإحسانه.

لقد أصبح اسمه الجليل مقرونا بالعدل على كل لسان وتجاوز كرمه وإحسانه قدر النجوم والأفلاك، وكانت أحكامه وأقواله مطاعة كأحكام القضاء والقدر، ومنفذة فى جميع الأمصار والأطراف.

---

(١) خواندمير: المصدر السابق ص٢٢٤.

(٢) المصدر السابق ص٢٥٢.

(٣) المصدر السابق ٢٥٣ وما بعدها.

يصبح كل عرش بوجوده جديرا بالسلطنة

ويصبح كل عقد يشهده تاجا يليق بالملوك[١]

ولى الوزارة فى الدولة السلجوقية من أبناء نظام الملك، ابنه مؤيد الملك والوزير ضياء الملك أحمد والوزير فخر الملك مظفر بن نظام الملك.

وفى العصر الخوارزمى المضطرب الذى شهد حروبا متصلة، كان وزراؤه يمثلون اضطراب ذلك العصر، فى الإدارة والحرب والسياسة والأموال، ومن أمثلة هؤلاء الوزراء، محمد بن صالح، كان ابنا لأحد غلمان تركان خاتون ـ أم علاء الدين محمد شاه ـ تلاعب محمد بن صالح بأموال الدولة، فعزله محمد شاه، ولكن أمه تركان خاتون جعلته موضع رعايتها، وقامت بحمايته من السلطان، وقربته واعتمدت عليه فى إدارة شئونها، ووقع هو وتركان خاتون فى أسر جنكيزخان، ولما علم جنكيزخان بخبرة محمد بن صالح فى الحسابات، اعتمد عليه فى مراجعة حسابات بعض الولايات. ولكنه وقع فى حب وغرام جارية مغنية لجنكيزخان، وبادلته الحب، وهمت به، وقويت العلاقة بين العشيقين، فعلم جنكيزخان، فقتله[٢] وفقد السلطان علاء الدين محمد شاه الثقة فى وزرائه، فشكل مجلسا يتكون من ستة من كبار رجال الدولة، يتشاورون فى أمورها، ويصدرون قراراتهم بالإجماع.

ومن وزراء ذلك العصر المضطرب، فخر الدين على الجندى، كان حاكما لجنيد ـ من أعمال نيسابور ـ فظلم الناس، واستبد بهم، فتعددت الشكاوى ضده، لذلك عزله السلطان الخوارزمى، فهرب عن أعين السلطان حتى لا يقتله. ولما ولى جلال الدين منكبرتى أدخله فى خدمته وجعله وزيرا له وظهرت خبرته فى شئون المال والإدارة وقيادة الجيوش. وخدم الدولة والسلطان بذكائه وصفاء ذهنه غير أنه عاد إلى الظلم من جديد، فصادر أموال الناس وممتلكاتهم فغضب عليه السلطان وقتله[٣].

ومن الوزراء ذوى الخبرة ـ الوزير أبو دهدار أبو على ـ وكان مقربا للحسن بن الصباح ـ أمير الجبل ـ وضبط إدارة وشئون الديوان وظل ملازما للحسن بن الصباح. وأوصى ابنه كبابزرك بأن يبقيه فى الوزارة لإخلاصه ومهارته، وظل فى منصبه حتى وفاته.

(١) خواندمير: المصدر المصدر السابق ص٢٨١ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص٢٨٣.

(٣) المصدرالسابق ٢٨٤.

ومن وزراء تلك الإمارة الجبلية شمس الدين كيلك ـ وزير خورشاه ـ واستسلم هو وأميره لهولاكو. ومن أبرز وأشهر وزراء الدولة الإيلخانية، رشيد الدين فضل الله الهمذانى، كان عالما، له مؤلفات. وقُتل بمؤامرة ضده.

وبذلك نرى أن دول المشرق الإسلامى اتخذوا الوزراء. فكان يلى الوزارة، وزير واحد فقط من أهل الخبرة بالإدارة والمال وأهل العلم بالشرع والفقه والأدب والحسابات، و كثيرا ما تعرض الوزراء للقتل ومصادرة الأموال، بسبب المؤامرات التى كانت تحاك ضدهم أو بسبب مواقفهم من الأمراء أو السلاطين، وشهدنا وزراء أدباء وعلماء ومصنفى كتب قيمة، وأحيانا كانت تستمر الوزارة فى أسر معينة. على كل حال كان الوزير هو الرجل الثانى فى الدولة بعد السلطان.

كبير الحجاب

يشبه اختصاصه كبير الأمناء فى عصرنا هذا، إذ يقوم بنقل أوامر السلطان إلى كبار رجال الدولة، وينقل رغبات وطلبات الوزير وكبار الموظفين إلى السلطان، كما يقوم بالإشراف الكامل على مقر السلطان ومجلسه وشئونه الخاصة، ويستشيره السلطان فى كل مهام الدولة صغيرها وكبيرها، وقد يسند إليه السلطان مهمة قيادة بعض الحملات العسكرية، ويعرض على السلطان بعض الأمور الهامة التى يجب على السلطان بحثها، وإبداء الرأى فيها ويرأس عددا من الحجاب، وبلغ من أهمية هذا المنصب، أن صاحبه يدير شئون الدولة نيابة عن السلطان فى غيابه، وحينما توفى السلطان محمود، استدعى كبير الحجاب - على قريب ـ محمدا، وولاه الملك، ولما سار محمود الغزنوى إلى غزنة مطالبا بالعرش، مال إليه، ولكن محمود فقد ثقته فيه، فعزله من منصبه، وصادر أمواله[1].

والمراسم السلطانية تتم بإشراف كبير الحجاب، فقد صحب بلكاتكين الذى خلف، على قريب، فى منصب حاجب الحجاب ـ الوزير أحمد حسن الميحندى إلى خزانة الملابس، لارتداء خلعة الوزير، وتمت مراسم التعيين بمباشرته[2].

(١) المصدر السابق ص٣٠٣.

(٢) المصدر السابق ص٣٠٤.

ومن أبرز من تولى منصب حاجب الحجاب فى المشرق الإسلامى، ألبتكين - وكان يلى هذا المنصب للأمير عبدالملك بن نوح، وارتفع شأنه بهذا المنصب، حتى أن الوزير كان يأتمر بأمره، ويلتزم بتنفيذ تعليماته وتوجيهاته، ولما توفى الأمير السامانى، تشاور أمراء الدولة مع ألبتكين فيمن يلى أمور الدولة، فرفض تولية منصور بن نوح الذى كان طفلا صغيرا، وطلب تعيين أمير شاب، ولكن اقتراح ألبتكين لم يُعمل به، ولما ولى منصور بن نوح غضب على ألبتكين فهرب إلى غزنة[١]، وأقام فيها نواة دولة جديدة، هى الدولة الغزنوية.

ومن أبرز حجاب السلطان محمود الغزنوى، أبوسعيد التونتاش لعب دورا هاما فى الاستيلاء على خوارزم، وضمها إلى الدولة الغزنوية فكافأه السلطان محمود بأن أسند إليه ولاية خوارزم، ولقبه خوارزمشاه وكان السلطان مسعود يخاطبه بالعم، ومما يجدر ذكره أن التونتاش كان مملوكا، وجنديا فى الجيش الغزنوى، وظل يتدرج فى سلك الجندية حتى ولى منصب حاجب الحجاب[٢]، وزاد نفوذ بزرك كبير الحجاب فى العصر السلجوقى.

والمشرف على المملكة، يشبه اختصاصه، اختصاص رئيس المخابرات فى أيامنا، فهو يقوم بجمع الأخبار التى تتعلق بالدولة، والتى تمس أمنها وسلامتها، وينقلها إلى السلطان، ويعاونه فى عمله أربعة مشرفين، يرأسون عددا كبيرا من المشرفين الأقل منزلة، ويتولى كل واحد منهم الإشراف على مدينة أو ناحية، ومن أبرز المشرفين فى الدولة الغزنوية أبو سهل الحمدونى، وكان يشغل منصب وزير فى عهد السلطان محمد بن محمود، ولما تولى السلطان مسعود، عزله عن الوزارة، وأسند إليه منصب المشرف، وللمشرف جواسيس، ينتشرون بين الناس، حتى أن رسول الخليفة ورسل الملوك والأمراء، كان يصحبهم رجل متنكر، يعرف أقوالهم وانطباعاتهم وأخبارهم، وينقلها إلى المشرف، والمشرف بدوره ينقل كل ما وصل إليه من أخبار إلى السلطان. ويقوم السعاة بنقل الأخبار من المشرفين إلى المشرف العام. ومن مهام المشرف العام معرفة أخبار القصر وما يجرى فيه. ويجب أن تكون رواتب المشرفين من بيت المال حتى لا يجهدوا الناس بمطالبهم المالية، وحتى يترفعوا عن أموال الرعية.

(١) المصدر السابق ص٢٠٦.

(٢) نفسه.

وكان العارض ـ وهو قائد الجيش ـ يتمتع بنفوذ كبير فى الدولة فكان قائد الجيش السامانى ألبتكين يستشيره الأمير السامانى فى شئون الدولة وولاية العهد، ولما غضب عليه الأمير منصور بن نوح، السامانى لجأ إلى غزنة، وأقام بها نواة دولة كبرى فى المشرق، هى الدولة الغزنوية، كما أن أبا سهل الزوزنى قائد الجيش الغزنوى فى عهد السلطان مسعود، كان يستشيره فى شئون سياسة الدولة، واستغل نفوذه، وأساء إلى رجال السلطان محمود الغزنوى، فاعتقل - على قريب ـ كبير حجاب السلطان محمود بحجة مساعدة محمد بن محمود فى تولى السلطنة واضطهد التونتاش ـ كبير حجاب السلطان محمود ـ وتآمر على حسنك ـ وزير السلطان محمود ـ وقتله، واعتقل عم السلطان مسعود، وأمر باسترداد ما مُنح من صلات فى عهد السلطان محمد[1].

واهتمت دول المشرق الإسلامى بالجند، فاهتموا بتحديد أرزاقهم وصرفها فى مواعيدها، ويحدثنا الكرديزى[2] عن عرض السلطان محمود لجيشه فيقول: ضربت خيمة عظيمة تسع عشرة آلاف فارس، وخيمة أخرى خاصة من الديباج الأحمر، والستائر المنسوجة، ووصف الجيش بإقامة الميمنة والميسرة والجناحين والقلب، والأسلحة وضعت خلف الجيش، وأوقفوا الفيلة بدروعها وسروجها، ودُقت على ظهور الفيلة الطبول والدفوف، ونُفخ فى الأبواق، وضُربت الأصناج، وكان هذا العرض لاستعراض القوة أمام الترك.

وإذا كنا قد تكلمنا عن قائد الجيش، فيجب أن نتكلم عن الجند وتنظيماتهم فى دول المشرق الإسلامى. فلا يصح أن يكون جند الجيش من جنس واحد، حتى لا تؤدى وحدتهم إلى خطورة مواقفهم من الدولة الحاكمة، لذلك اتخذ الحكام المسلمون فى المشرق جيوشهم من أجناس متعددة. ويعسكر حول قصر الأمير أو السلطان ألفان من الديلم والخراسانية، ويضاف إليهم ألفان من الكرج والفرس، لأن هؤلاء القوم كرام العنصر[3].

وكان السلطان محمود الغزنوى، يتخذ جيشه من كل جنس، مثل الترك والخراسانيين والعرب والهنود والديلم وأهل الغور وكان يعين لكل طائفة معسكرها فى

---

(١) عصام الفقى: تاريخ الإسلام ص١٥٦.

(٢) زين الأخبار ص١٩٥-١٩٦.

(٣) نظام الملك: سياسة نامه ص١٧٥.

وقت القتال، فإذا نشبت المعركة تنافست كل طائفة مع الأخرى فى إظهار كفاءتها وتفوقها فى المعركة، على الأجناس الأخرى(١). لذا أحرز جيش السلطان محمود الغزنوى بهذه الخطة انتصارات رائعة،ولم يستطع أحد من ملوك الأطراف الخروج على جيش السلطان المظفر.

وقد حرص أمراء وسلاطين المشرق الإسلامى على إرضاء الجيش وتحسين أحوالهم المعيشية، والعناية بمظهرهم وتدريبهم، فكان عمرو بن الليث الصفار، يأمر كل ثلاثة أشهر لجنده بالصلات والعطايا، ويوم أداء الرواتب للجند، يأمر بقرع الطبول، فتجتمع الجند، ويجلس سهل بن حمدان العارض، ويضع مجموعة من الدراهم أمام الأمير عمرو بن الليث، ويمسك غلامه الدفتر الذى به أسماء الجند، وينادى العارض أو قائد الجيش على الجنود، فالجندى الذى ينادى عليه ينظر العارض إليه وإلى حليته وجواده وسلاحه، فإذا لاحظ أن الجندى احتفظ بجميع أدواته جيدا، يمنحه راتبه، وكان أول من ينادى عليه من الجند، عمرو بن الليث الصفار الذى يأخذ صلته ويراقب من ينادى عليه من الجند من مكان مرتفع، ويراقب العارض وهو يعطى الجند رواتبهم، ويطمئن كالعارض تماما على أدوات الجندى مثل الجواد واللجام والعلم، وعدة كل فارس وراجل، وتُعطى الرواتب للجند حسب مراتبهم(٢).

ظل الجند يتقاضون رواتبهم كل ثلاثة أشهر حتى نهاية العصر الغزنوى، ولما حكم السلاجقة المشرق الإسلامى، كانت أرزاق الجند من إقطاعات تقطع لهم حسب مراتبهم. أما الغلمان الذين لا إقطاع لهم، فيحصلون على أرزاقهم من الخزانة،و ذلك فى عرض خاص يحضره السلطان، حتى يقدروه ويحبوه(٣).

وكان الجندى يتدرج فى سلك الجيش من أمير العشرة، أى أميرا على عشرة فرسان كل فارس له حصانه ومعداته، ثم أمير المائة، ثم أمير الألف، ثم القائد العام للجيش.

أما المغول فيتولى القائد قيادة ألف جندى، ويعين ضابطا على كل عشرة رجال، وقائدا لكل مائة، وكل ألف وكل عشرة آلاف على التعاقب، وضابط العشرة، يتلقى هو

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٨.

(٢) الكرديزى المصدر السابق ص٣٠٢.

(٣) المصدر السابق.

عشرة من زملائه قــواد العشرة الأوامر من قائد المائة، وكل عشــرة من قواد المائة، يتلقون الأوامر من قائد الألف، وكل عــشرة من قواد الألف، من قائد العــشرة آلاف، والقائد العام ـ قــائد المائة ألف، حين الاستعــداد للقتال يأمــر قواد العشرة آلاف بجــمع قواتهم وهؤلاء بدورهم، يأمــرون قواد الألف، وقــواد الألف يعبــئون قواد المائة، وقــواد المائة يعبئون قواد العشرة. وبهذا التسلسل يتم جمع الجيش وإعداد الجند فى أسرع وقت.

وعندما يتــقدم الجيش يرسلون أمامه كــوكبة من الرجال للاســتطلاع، والجيش له ميمنة وميسرة تحميه من الاعتداءات المفــاجئة، ولكل فرقة من الجيش ما يلزمها من طعام وأدوات، وهم يعيــشون فى معظــم أيامهم على اللبن المجفف ولكــل رجل فى المتوسط ثمانية عشر حصــانا وفرسا، والحصان المجهد يستبدل بسرعــة بواحد مستريح، وإذا نفذ الماء من عند الجند، ففى إمكانهم الشرب من دم مواشيهم، وذلك بقطع عرق واحدة من المواشى.

وفى المعــركة يتــبع الجند المغولى خطة الكر والــفر، فيــرمون أعــداءهم بالســهام ويتظاهرون بالفرار والهزيمة، ويلحقون الخــسائر بالخيول، ودربوا خيولهم على المناورات والحركــات السريعة والاقتــراب من الخصم والبعــد عنه، وإذا اطمأنوا إلى اعتقــاد العدو بالنصر والاطمــئنان ووقف الهجــمات، قامــوا بمهاجمــة العدو بقوة حــتى يهلكوا الجند وخيولهم(١)

انقســمت دول المشرق الإسلامى إلى ولايات، يحكم كل ولاية وال مســئول عن شئون الولايــة الإدارية والأمنية والدفاعيــة والمالية ويعاونه فى عمله عــدد من الموظفين، منهم صاحب الشــرطة وصاحب البريد والبندار ـ كاتب السكة ـ ومــهمته جــباية الخراج والأموال المقررة وصــاحب الجند، ومتولى الضــياع السلطانية، وكان الوالى يقــوم بحفظ الأمن والنظام فى ولايته وحمايتها من الخطر الخارجى، والاتفاق على متطلبات الولاية، مما يجمعه من مال، وإرسال ما تبقى إلى خزانة الدولة(٢).

عنى أمراء وســلاطين دول المشرق الإســلامى باختــيار ولاة على قــدر كبــير من الكفاءة، ولم يجد الســلاطين الغزنويون غضاضة فى الإبقــاء على الحكام الذين انتزعوا منهم ولاياتهم، ما دامــوا على الولاء والطاعة لهم. بل أبقوا الحكم وراثيــا فى بيوتهم،

---

(١) المصدر السابق ص٣٠٣.

(٢) نظام الملك المصدر السابق ص١٨٦.

ومن هؤلاء الحكام، خلف بن أحمد ـ صاحب سجستان ـ وهو ابن محمد بن الليث الذى كان واليا للسامانيين، وأبقى السلطان محمود الغزنوى الزياريين فى حكم طبرستان وجرجان. وبقى علاء الدين كاكوية فى حكم همذان وأصفهان. وبقيت ولاية جوزجان فى بيت آل فريغون.

وبقيت غرشستان فى أيدى حكامها الأصليين، ومن أبرز ولاة الأقاليم أبو سعيد التونتاش ـ والى خوارزم ـ وتوارث أبناؤه حكم إقليم خوارزم. ودافع التونتاش بكل قوة عن ولايته من غارات الترك وغارات السلاجقة.

وفى إقليم الهند الغزنوى كان يعهد إلى بعض القادة الهنود بحكم الإقليم الهندى التابع للدولة الغزنوية(١).

وكان الغزنويون يختارون الولاة من أهل البيوتات الكبيرة أو من القادة أوأصحاب المناصب الرفيعة فى الدولة، بل عينوا ولاة دفعوا مراتبهم إلى مرتبة الوزير، فخلع السلطان مسعود خلعة الوزارة على واليه على الرى ـ أبو سهل الحمدونى ـ، وأمر بأن يخاطب بالشيخ العميد، وأحيانا يعهد السلطان إلى أحد أمراء البيت الحاكم بولاية معينة، بحيث يساعده الكتخدا، وهو وكيله فى إدارة الولاية(٢).

وكانت هناك مراسم معينة تتبع عند تولية الوالى، فبعد تعيينه واليا، يخلع السلطان عليه خلعة السلطنة، ويقسم الوالى للسلطان بالإخلاص والولاء للسلطنة أمام الشهود من العلماء والقاضى والفقهاء ورجال الدولة، ويوصيه السلطان باليقظة وحسن التدبير، ويبصره بالواجبات التى يجب أن يؤديها(٣).

وجدير بالذكر أن خلعة الولاة كانت تتكون من عمامة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة برسم السلطان وكمر من ذهب وثلاثين ثوبا مخيطة(٤).

انقسمت كل ولاية إلى عدد من المدن، يحكم كل منها رئيس يشرف عليه الوالى، ويقوم رئيس المدينة بإدارتها وإدارة النواحى التابعة لها، ومن أهم موظفى المدينة، الشحنة، ويقوم بحمايتها والنواحى التى تليها من الغزو الخارجى، ويرأس عددا

(١) تاريخ البيهقى ص٢٩٤.

(٢) المصدر السابق ص٤١٤، ٤٥١.

(٣) عصام الفقى: الدول المستقلة ص١٦٤.

(٤) المصدر السابق.

من الجند لتأدية مهمته، وصاحب الشرطة، ويقوم بحفظ الأمن والنظام فى المدينة، وكان يسمى فى الدولة الغزنوية خليفة المدينة(١). ومنصب صاحب الشرطة من المناصب الرفيعة، حتى أن الخليفة العباسى عهد إلى طاهر بن الحسين وعبدالله بن طاهر وغيرهما من ولاة خراسان، ولاية شرطة بغداد.

ولى شحنة الرى فى العصر الغزنوى، حسن سليمان، ويقوم بالمحافظة على الأمن الداخلى والخارجى للمدينة، وخلعة الشحنة عبارة عن قباء من الديباج الرومى ومنطقة ذهبية، وإذا ولى منصبه، يتوجه بخلعته فى جند كثيف، ويخرج أعيان المدينة لاستقباله، وتنثر عليه الأموال، وينزله رئيس المدينة فى قصر يليق به(٢).

وفى الدولة السلجوقية، عهد السلاطين إلى أمراء من البيت السلجوقى بحكم الولايات، فكان تتش واليا على الشام، وقتلمش واليا على آسيا الصغرى، كما أن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ـ عهد إلى اثنى عشر من أبنائه بحكم الولايات فظلموا الناس، واستبدوا معتمدين على نفوذ الوزير.

ويشترط فى تعيين الوالى، السيرة الحسنة، فى خلق الله، ولا يأخذ من الناس من المال إلا ما هو مقرر عليهم، وأن يأمر عماله بأخذ المال من الناس بالعدل والرفق، وألا يأخذوا الخراج إلا وقت نضج المحصول، وألا يشتدوا على الناس فى المطالبة، حتى لا يهجر الفلاحون أراضيهم، أو يبيعوا بعض ممتلكاتهم بأبخس الأثمان(٣).

والسلطان ينصح رئيس المدينة عند توليته، بأن يسأل عن حال العامل والقاضى والمحتسب والرعايا، وعليه أن يعلم بالصغيرة والكبيرة، ويخبر السلطان بكل شىء، حتى يأمر السلطان باتخاذ الإجراء الذى يناسب كل واقعة، وإذا كلف رجل بهذا الواجب ـ وكان جديرا به وقادرا عليه، وجب عليه تحمل هذه المسئولية إكراها وإرغاما(٤).

وأدى تقسيم دولة السلاجقة بين أمرائها إلى حدوث منازعات وحروب بينهم حول طمع الأمير فى ولاية الأمير المجاور له واتحاد بعض الأمراء ضد أمير قوى، مما أدى إلى زيادة ضعف الدولة السلجوقية، وتعجل انهيارها، وكان الأمير السلجوقى إذا توفى وترك

(١، ٢) عصام الفقى: المصدر السابق ص١٦٥.
(٣) نظام الملك: سياسة نامه ص٥١.
(٤) المصدر السابق ص٥٥.

طفلا صغيرا رباه أحد كبار رجال الأمير، يتزوج هذا الرجل أو الأتابك - مربى الأمير بأم الأمير المتوفى، ويستبد الأتابك بحكم الولاية، ويمنع الأمير الذى خلف أباه - من مباشرة شئون الحكم، ومن هنا قامت على أنقاض الدولة السلجوقية، دول الأتابكة. فحكم عماد الدين زنكى الموصل وحلب، وخلفه أبناؤه وحكم بنو أرتق ولايات الجزيرة، وحكم أوزبك البهلوان أذربيجان، وحكم طغتكين دمشق(١).

التقسيم الإدارى

يقع إقليم خوزستان ويعرف أحيانا بالأهواز، بين إقليم فارس وإقليم العراق، ومن ناحية الغرب يحده إقليم العراق عند منطقة واسط والبصرة، ويذكر ابن حوقل(٢)، أن هذه المنطقة ضُمت إلى إقليم الجبال، وتشمل سبع كور كبرى: الأهواز - السوس - جند يسابور- تستر - عسكر مكرم - رام هرمز- الدورق(٣). وكانت مدينة الأهواز عاصمة إقليم خوزستان وقال الإصطخرى(٤): إنها الكورة التى تنسب إليها سائر كور الإقليم.

أما إقليم الجبال فيحده من ناحية الشرق فارس ومفازة خراسان، ومن جهة الجنوب إقليم خوزستان، ومن جهة الغرب إقليم أذربيجان الجزء الشمالى من إقليم العراق، ومن جهة الشمال إقليم طبرستان وجيلان اللذان يدخلان فى منطقة الديلم(٥). وينقسم إقليم الجبال إلى خمس مناطق رئيسية - كرمانشاه - همذان - أصبهان - الرى ثغرقزوين - والأولى تحتل المنطقة الغربية من إقليم الجبال، وتضم هذه المنطقة عددا من الكور: الدينور - شهرزور حلوان وكانت همذان تلى المنطقة السابقة جنوبا وقصبتها همذان(٦)، أما منطقة أصبهان فتقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من إقليم الجبال قرب حافة المفازة الكبرى(٧) وتضم كورها عددا من الرساتيق التى تحوى عددا من القرى(٨).

---

(١) انظر كتاب: بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى للمؤلف ص٥ وما بعدها.

(٢) المسالك والممالك ص٣٣٧.

(٣) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٢٤١.

(٤) ابن خردابة: المسالك والممالك ص٤٢.

(٥) الإصطخرى: المسالك والممالك ص٩٢.

(٦) الإصطخرى: المسالك والممالك ص١١٥.

(٧) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٢٢٩ ، ٢٣٠.

(٨) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٣٨٥.

وتعتبر منطقة الرى من أشهر مناطق الجبال، وقصبتها مدينة الرى، وعدت عاصمة إقليم الجبل وعلا شأنها بعد أن استولى عليها البويهيون سنة ٣٣٦هـ- ٩٤٧م، واستطاعوا أن يسيطروا منها على منطقة واسعة من إقليم الجبل[١]، وتقع منطقة قزوين فى الطرف الشمالى لإقليم الجبل فى مستوى الرى، وكانت قصبتها ثغر قزوين واستحدثت لغزو الديلم، ومن أهم نواحيها: أبهر وزنجان والطالقان.

إقليم كرمان: يحد هذا الإقليم شرقا مفازة خراسان وإقليم كرمان وغربا إقليم فارس، وجنوبا بحر فارس، وشمالا جزء من مفازة خراسان[٢].

إقليم مُكْرَان: يتكون من أراضى واسعة يحده جنوبا بحر فارس وشمالا إقليم سجستان والمفازة الكبرى، وشرقا بلاد السند. وهذا الإقليم يغلب عليه الصحارى القاحلة[٣] ومن أهم مدنة التيز، وهى الميناء الرئيسى لهذا الإقليم، وتقع على ساحل بحر فارس، وأهم مناطق هذا الإقليم منطقة طوران وقصبتها قصدار[٤] ومنطقة الملتان[٥].

مفازة خراسان الكبرى:

تمتد المفازة الكبرى فى قلب بلاد فى فارس من الشمال الغربى إلى إقليم مكران فى أقصى الجنوب الشرقى[٦]، وتحد المفازة جهة الشمال الغربى، ومن جهة الغرب إقليم الجبال، ومن جهة الجنوب إقليم مكران، ومن الجنوب الغربى إقليم كرمان، ومن الشمال الشرقى إقليم خراسان، ومن الشرق قرهستان، ومن الجنوب الشرقى إقليم سجستان، وهى منطقة قاحلة تشتمل على عدد قليل من الواحات[٧].

---

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك ص٢٦٧.

(٢) الإصطخرى المسالك والممالك ص٩٧.

(٣) الإصطخرى: المسالك والممالك ص١٠٥.

(٤) ابن حوقل المسالك والممالك ص٢٢٦.

(٥) الإصطخرى: المسالك والممالك ص١٠٥.

(٦) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٣٦٠ ، ٣٦١.

(٧) الإصطخرى: المسالك والممالك ص٩٧.

إقليم سجستان:

يعرف هذا الإقليم أيضا باسم سيستان، ويحده شرقا نهر السند، وغربا مفازة خراسان وإقليم قوهستان، وشمالا إقليم خراسان، وجنوبا إقليم مكران، وهو إقليم عديد الكور، ومن أهمها منطقة رخج(١) ومنطقة زابل أو زابلستان وقصبتها غزنة أو غزنين وهى منطقة جبلية، ومنطقة كابلستان وقصبتها كابل(٢).

إقليم جرجان:

يقع فى جنوب شرق بحر قزوين، أى فى أقصى شمال بلاد الفرس، ويحد جرجان جنوبا إقليم خراسان، وشرقا إقليم خوارزم، وغربا بحر قزوين وإقليم طبرستان(٣)، ويعتبر هذا الإقليم من مناطق الديلم، وعاصمته مدينة جرجان. وجدير بالذكر أن نفوذ العلويين انتشر فى هذه المنطقة، واستطاع مرداويج بن زيار أن يستقل بهذا الإقليم حيث أسس الدولة الزيارية سنة ٣١٩هـ - ٩٣١م (٤).

إقليم خراسان:

لم تكن حدود إقليم خراسان تمتد إلى أبعد من حدود نهر جيحون شرقا، ويحد إقليم خراسان من جهة الجنوب إقليم سجستان وقوهستان، ومن جهة الشمال طبرستان وجرجان(٥).

ويضم إقليم خراسان أربع مناطق رئيسية هى نيسابور - مرو - هراة - بلخ.

(أ) **منطقة نيسابور:** وتقع فى الطرف الغربى من إقليم خراسان، وتشمل هذه المنطقة عدة قرى ومدن، أهمها نيسابور. وبذكر ابن حوقل أن مدينة نيسابور تقع فى أرض سهلة، وليس فى خراسان مدينة أصح هواء وأكثر عمارة وأروج تجارة وأكثر سابلة وأعظم قافلة من نيسابور(٦).

---

(١) الإصطخرى: المسالك والممالك ص١٤١.

(٢) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٣٨٨ ، ٣٨٩.

(٣) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص١١٧.

(4) Lane Poole: the Mohammadan Dynasties P. 136.

(٥) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٢٣.

(٦) المسالك والممالك ص٤٣١.

(ب) منطقة مرو: وتمتد هذه المنطقـة حول نهر مرو فى الجزء الشـمالى من إقليم خراســان الذى يقع جنوب خوارزم، وعـاصمة هذه المـنطقة مرو الشـاهمان، وسُـميت كذلك تميـيزا لهـا عن مرو الروذ الذى يقع فى القـسم الجنوبى من هذه المنطقـة. ويذكر المقدسى(١) أن مرو الروذ متداخلة فى غرشتان(١).

(جـ) منطقـة هراة: وتقع فى الجـزء الجنوبى من إقليم خراســان المتـاخم لحدود سجستان، وهراة عاصمة هذه المنطقة.

(د) منطقة بلخ: وتقع فى الجزء الشمالى الشرقـى من إقليم خراسان شمال هراة وعاصمة هذه المنطقة بلخ(٢).

إقليم قوهستان: يقع فى قلب بلاد فارس، ويحده من جهة الشمال والشرق إقليم خراســان، ومن جهة الجنوب بعض نواحـى إقليم سجسـتان، والمفازة الكبـرى، وتحده المفازة من جهة الغرب، وأضيفت الكثير من قرى هذا الإقليم إلى منطقة نيسابور وهراة.

إقليم طبرستان: يقع جنوب بحر قزوين، ويحـده شرقا إقليما خراسـان وجرجان وغربا إقليمـا الجبال وأذربيجان، وجنوبا المفـازة العظمى، وقد تنقلت عاصمة طبـرستان بين مارية وآمل. ومن أهم مدن طبرستان، دامغان ومازندان وتلى بحر قزوين جنوبا

ولم يكن هذا التقسيم ثابتا بسبب الصراع بين حكام هذه الأقاليم حول ضم بعض المدن إلى ممتلكاتهم.

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٣٦٤.

(٢) لسترنيج: بلدان الخلافة الشرقية ص١٦٨.

بلاد ما وراء النهر

كان نهر جيحون القديم يعد الحد الفاصل بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية، أى إيران وتوران، فالأقاليم التى وراءه، أى وراء نهر جيحون أسماها العرب بلاد ما وراء النهر.

وينقسم هذا الإقليم إلى خمسة أقسام، أولها الصغد أى صغديانا مع قصبتيه، بخارى وسمرقند، وفى غرب الصغد، خوارزم، ويعرف اليوم بإقليم خيوه، ويشتمل على دلتا نهر جيحون، وفى الجنوب الشرقى ضغانيان وبلاد الختل[١].

ومدن الكور الكبيرة أعالى نهر جيحون، بذخشان، ويكاد يطوقها المنعطف الأخير للنهر، فيما وراء طخارستان وإقليما نهر سيحون، وهما فرغانة فى أعلى النهر، وإقليم الشاش (طشقند) مع النواحى التى فى الشمال الغربى، الممتدة حتى مصب سيحون فى مستنقعات بحر آرال[٢].

وفى شرق بذخشان ـ أعلى جيحون، مدينة وخان، وهى تؤدى إلى التبت.

وكانت البقاع الجبلية العظيمة التى تقع فى الزاوية التى يؤلفها نهر وخشاب مع جيحون، تعرف بالختل

وأجمل مدن ضغانيان، مدينة ترمذ، وتقع فى شمال مضيق نهر جيحون.

يتضمن إقليم سيحون، إقليم أشروسنة، وأرض الإقليم، سهول وجبال، وتتخللها أنهار كبيرة، وهى على طريق خراسان الآتى من بخارى وسمرقند[٣].

تقع فرغانة على ضفة سيحون، وخجند أول مدن فرغانة من الغرب للقادم من سمرقند، تقوم على ضفة سيحون اليسرى وعلى فرسخ من جنوبها ـ جَنَد، وهى مدينة جميلة، وأهلها تجار، يمتلكون سفنا، يجتازون بها نهر سيحون، وكانت الشاش، أعظم مدن سيحون، بناكت تقع على طريق سيحون المؤدى إلى الشاش.

وعلى ضفة سيحون الشرقية عند مصب سيحون توجد مدينة فاراب أترار فيما بعد، وهى بلدة الفيلسوف، الفارابى. ومن المدن الهامة على سيحون سغتاق ـ قصبة

(١) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٧٦.

(٢) المصدر السابق ص٤٨٠.

(٣) المصدر السابق ص٥١٧.

قفجاق على بعد ٢٤فرسخا(١) من أترار وكثيرا ما كان يسمى بحر آرال، بحر جند، وبالقرب منه قرية الغز(٢).

أذربيجان: اشتهرت بكثرة مدنها، ومن أهمها أردبيل ثم تبريز التى كانت قرية صغيرة، نمت فى خلافة المتوكل على الله، وحصنها بسور، فنزلها الناس وعمروها. ومن مدن أذربيجان، مراغه ـ على بعد سبعين ميلا جنوب تبريز، واتخذها المغول قصبة لإقليم أذربيجان بها البساتين الخضراء والحقول العامرة بمختلف المزروعات وقصبة إقليم الكرج (جورجيا الحالية) تفليس وبدليس، التى تنتج التفاح الجيد.

العراق العجمى:

وهى البلاد التى تقع فى القسم الأسفل من بلاد ما بين النهرين وكانت كتب الأدب تطلق على البصرة والكوفة، العراقين، وأضيف إقليم الجبل إلى العراقين، حيث أصبح ثانى العراقين، وأطلق العوام عليه، العراق العجمى، وسُمى قهستان، وانقسم إقليم الجبل إلى كردستان فى الغرب. والجبل وعراق العجم فى الشرق، والمدن الرئيسية فيه، فرميسين وكرمان الحديثة وهمذان والرى وأصفهان، كانت أصفهان قاعدة إقليم فارس، وأكثرها مالا وخصبا وعمارة، وتعرف كردستان ببلاد الكرد، وقصبة كرمان، شاهان وتختصر إلى كرمانشاه(٣).

الوظائف الرئيسية فى الدولة

كانت فى دول المشرق الإسلامى وظائف رئيسية، ومن أهمها **وظيفة القاضى**، وحرصت الدول الإسلامية على حسن اختيار القاضى؛ لأن العدل أساس الملك، وشدد الإسلام على أن يحكم المسلمون بالعدل، والله يأمر بالعدل والإحسان، والعدل أقرب إلى التقوى، وكان أمراء وسلاطين الدول الإسلامية يراقبون قضاة بلادهم ويختارون من كان منهم، أغزر علما وأزهد نفسا وأعف يدا، وأقل طمعا، ويولون من تتوافر فيه هذه الشروط، ويعزلون من يظهر منه الظلم وعدم الإنصاف والفسق، وخيانة واجبات الوظيفة؛ لذلك فإن هذا المنصب لا يسند إلى الجاهل الفاسق، بل يسند إلى العالم الورع، وواجب وكلاء السلطان أن يبلغوه بتلاعب بعض القضاة وفسادهم، ووجب

(١) الفرسخ: يساوى $\frac{٣}{٤}$ ٢ ميل.

(٢) المصدر السابق ص٥٢٠.

(٣) المصدر السابق ص٧٠.

إجبار القاضى على الحضور إلى ساحة القضاء إذا امتنع، حتى يتم الفصل فى قضايا الناس، ويجب إعطاء القاضى راتبا كبيرا حتى لا يطمع فى الغير، ولا تمتد يده إلى الرشوة، ويستريح معيشيا. وبذلك يستطيع أن يؤدى واجبه الكبير بإخلاص ونزاهة. وبلغ من أهمية منصب القضاء أن القضاة والخطباء والوعاظ ورجال الدين، كان يتم تعيينهم بمرسوم من الخليفة، ولا يجوز للقاضى أن يجلس للحكم إلا إذا حصل على تفويض من الخليفة، وقد حاول بهاء الدولة البويهى إسناد منصب القضاء لأحد العلماء، فأخفق لأن الخليفة لم يصدر له مرسوما بذلك. ولما غضب الخليفة القائم على جلال الدولة البويهى، أمر القضاة بالتوقف عن العمل، فاضطر الأمير البويهى إلى إرضائه(١).

وكان على السلطان أن يجلس للمظالم مرتين فى الأسبوع يأخذ للمظلوم حقه من الظالم، وينتصف له، وعلى السلطان أن يستمع إلى شكاوى الناس دون وساطة، حين يعلم الظلمة أن السلطان لايتهاون معهم، ينعدم الظلم ويعم العدل(٢).

ونظر السلطان محمود الغزنوى فى شكوى امرأة تظلمت ـ من عامل نيسابور ـ الذى استولى على ضياعها، وأثبتت بالدليل القاطع ملكيتها فرد إليها ضياعها(٣). وتظلم بعض الناس من لصوص اغتصبوا أموالهم فى العراق، فاستطاع بحزمه وقوة بأسه ويقظته أن يتعرف على اللصوص، ويعيد إلى المتظلمين أموالهم(٤). ولما تظلم رجل من قاض لم يرد إليه الأمانة التى أودعها عنده، عزله من القضاء، وأمره برد الأمانة لصاحبها، ووبخه فى جمع من الناس، وفرض عليه غرامة خمسين ألف دينار(٥).

ومن الوظائف الرئيسية فى دول الإسلام فى المشرق، وظيفة المحتسب وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويراقب حركة الأسواق، ويمنع الفساد أينما وُجد، ومن واجبه التعزير أى محاكمة من يخل بالدين أو يعتدى على الناس أو يهمل فى واجبه. إهمالا يضر بالناس، أما الحدود فهى من اختصاص القاضى، وقد أمر بها الله. وللمحتسب مكانة كبيرة فى الدولة، حتى أن الأمراء والسلاطين كانوا لايتدخلون فى أعمالهم. ومن أمثلة ذلك أن القائد التركى على نوشتكين قضى سهرة مع السلطان محمود الغزنوى، وانصرف من عنده فى جوف الليل وهو سكران، فلما رآه المحتسب

(١) نظام الملك: سياسة نامة ص٦٨.

(٢، ٣) المصدر السابق ص٣٩.

(٤) المصدر السابق ص٩٠ وما بعدها.

(٥) المصدر السابق ص١٠٤ وما بعدها.

فى الطريق، وهو بين جنده وغلمانه، لم يأبه بذلك، وأنزله من فوق جواده، وعاقبه[1].

وحدث أن أبلغ المحتسب السلطان إبراهيم الغزنوى بأن الخبازين فى غزنة أغلقوا محالهم، وانعدم الخبز، وعم البؤس، وأبلغ المحتسب السلطان بأن خبازى القصر خزنوا الدقيق المستورد من البلاد، وحرموا الخبازين منه، فأمر السلطان الغزنوى بقتل كبير الخبازين بواسطة فيل، ونادى المحتسب فى الأسواق بأن هذا جزاء من يحتكر الدقيق، ولا يخبزه للناس.

وكان بكل مدينة محتسب، يضبط موازينها، ويحدد أسعارها ويشرف على البيع والشراء حتى تستقيم أمور الناس، ويحتاط لكل ما يجلب من الأطراف، ويباع فى الأسواق، ويمنع الغش والخيانة، ويقوم على القسط، ليقسط الناس فى الميزان، ويجب على السلطان ووكلائه شد أزره حتى يستطيع أداء عمله، وبذلك يزول الفسق والغش والفجور، والمكلف بهذا العمل خادم تركى شيخ وقور لا يحابى أحدا فيخشاه الخاص والعام، وتزداد قواعد الإسلام استحكاما ورسوخا[2].

البريد

من الإدارات الهامة فى الدولة الإسلامية، البريد؛ لأنه يمكن السلطان من معرفة أحوال الرعية والجند والقاصى والدانى حتى يعرف كل ما يجرى فى الدولة، ولا يغفل عن أمر من أمورها، لذلك فإن السلطان فى المشرق الإسلامى كان يعهد بأمر البريد إلى أناس فوق الشبهات؛ لأن صلاح الناس وفسادهم، رهين بهم، لذلك حددت لهم رواتب شهرية مقنعة، وعليهم أن يطلعوا السلطان بكل ما يجد من أمور الناس. وعلى السلطان أن يبث العيون فى كل الأطراف فى هيئة التجار والسياح والمتصوفة والدراويش، ويرسلون الأخبار التى يسمعونها إلى عامل البريد، وهو بدوره يخبر بها السلطان، حتى يمكن تدارك الأمور الخطيرة. وبهذا الأسلوب أمكن إحباط حركات تمرد الولاة وأصحاب الإقطاع وأمراء الجند، وإذا قاد ملك جيوشه لمحاربة الدولة طمعا فى أراضيها، أمكن للسلطان التعامل مع هذه الجيوش وإعداد العدة لردها عن البلاد[3].

(١) المصدر السابق ص٧٠.

(٢) المصدر السابق ص٦٢.

(٣) نظام الملك: سياسة نامة ص٩٦.

وكانت الدولة الإسلامية تمهد الطرق البريدية حتى يسافر عليها العدائيون وبين كل مسافة تقدر بخمسين فرسخا، أى $\frac{1}{2}$ ١١٤ ميل محطة بريدية مزودة بكل وسائل الراحة من علف للخيول واستبدال الحصان المجهد بحصان مستريح، وماء وطعام يعده النقباء فى المحطات البريدية، ووسائل الراحة الأخرى. والتنقل بين المحطات البريدية، يتم ليلا ونهارا، حتى يتم للسلطان معرفة ما يجرى فى الدولة أو من خارجها بأسرع وقت ممكن.

ومن أهم الطرق البريدية فى المشرق الإسلامى، الطريق من بغداد إلى المشرق، ويمر بحلوان وهمذان والرى ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند، ثم يمتد الطريق من هذه المدينة حتى يصل إلى الصين(١).

استخدمت الجمازات فى نقل البريد، وهى جمال بلخية سريعة العدو. وفى حالة الرسائل العاجلة، كان عمال البريد يختصرون فى صيغتها بأسرع وسيلة ممكنة، وتسمى الملطقة، وتشبه البرقية فى عصرنا الحالى، وكانت تُكتب فى رقاع وترسل إلى السلطان أو الوزير، وعرف الغزنويون ما يشبه بالشفرة فى عصرنا الحالى، وهى رموز، ترمز إلى موضوع معين(٢).

ولما استولى المغول على خراسان وبلاد ما وراء النهر، واتسعت دولتهم اتساعا كبيرا، استفادوا من نظم البريد فى بلاد المشرق، وأقام جنكيزخان محطات البريد كحلقات وصل بين الطرق البريدية. وفى كل محطة كان يحتفظ بعدد من الخيول الاحتياطية، وكان يعسكر حراس الطرق المسلمون بجوار المراحات الملحقة بمحطات البريد، ليطهروا الطرق من الأعداء، وكانت القوافل المحملة بالذهب والفضة والبضائع النفسية، تمر بهذه المحطات، وفرق الشباب المسلمين المتلهفين إلى الانضمام إلى الجيش، والجند العائد من الحرب محملا بالأسلحة والغنائم(٣).

وفى هذه المحطات كانت تتوقف رسل الخان الذين تتدلى مناطقهم أجراسا تنذر بمقدمهم، وكانوا يحملون أوراقا بختم الخان تتضمن أوامره، وكان من حق سعاة الخان نفسه أن يوقفوا أى مسافر، ليأخذوا جواده، ولو كان قائدا، وكانوا يقطعون مائة

(١) تاريخ البيهقى ص٦١١.

(٢) المصدر السابق ص١٣٦.

(٣) لامب: جنكيرخان ص١٢٠.

وخمسين ميلا فى اليوم دون تعب أو كلل، وكان على كل مسافر أن يفسح لهم الطريق، وهم فى عدوهم كالسهم(١).

وكان الخان يستطع الحصول على الخبر فى أى مكان على بعد عشرة أيام فى يوم وليلة. . وفى كل محطة بريدية يسجل الكاتب وقت وصول عامل البريد، ووقت رحيله. ويلحق بمحطات البريد، ما يسمى مراحات، بناء ضخم جميل يجد فيه الراكب كل وسائل الراحة. وفُرشت الغرفات بالحرير(٢).

حرصت دول المشرق الإسلامى على المحافظة على أمنها وسلامتها وعدم تسرب أخبارها إلى الأعداء، وتجلى ذلك فى الرسل والسفارات والزوار الأجانب، واتخاذ الاحتياطات الأمنية نحو زياراتهم، فحينما يقدم رسل الممالك الأخرى إلى الحدود، ينبغى على والى الحدود أن يرسل فارسا إلى السلطان بسرعة، عن الرسول، ومن أين أقبل، وكم معه من الفرسان والمشاة، وصفة تجملهم ومعداتهم وأسباب مقدمهم، وعلى والى الحدود أن يعين لهم معتمدا يرافقهم إلى مدينة معينة ينزلون فيها، ويجب أن يحظوا بكرم الضيافة فى طريقهم، ويعودوا فرحين مسرورين؛ لأنهم يمثلون سلطانهم، وما ينالوه من خير أو شر، فإنما ينال سلطانهم.

وكانت الرسل موضع تكريم حتى ولو كانوا من قبل سلطان عدو للسلطان الذين قدموا إليه؛ لأن الملوك تحترم الملوك والرسل جاءوا لتبليغ رسالة، «**وما على الرسول إلا البلاغ**» فيجب إكرامهم وحسن استقبالهم(٣).

وجرت العادة أن الرسل تأتى ظاهرا لإبلاغ رسالة للسلطان، وفى حقيقة أمرها تطلع على كل ما يجرى فى دولة السلطان، كمعرفة حال المسالك والوديان والشعاب والموارد وعدد الجند، وقوة الجيش وأسلحته، وأماكن العلف وولاة المناطق ومجلس السلطان، وتعامله مع الرعية، وموقف الرعية منه، وأحوال وزرائه وندمائه، وسيرة السلطان وخُلُقه، ومقدرته وأسلوبه فى الحكم. وكل ما يتعلق بالمملكة.

(١) المصدر السابق ص١٢١.

(٢) المصدر السابق ص١٢١.

(٣) نظام الملك: سفرنامه ص١١٦.

والرسل يدخلون على الوزير لإبلاغه عن مضمون مهمتهم والوزير يبلغ الرسالة الدبلوماسية إلى السلطان،ويتلقى منه الرد الذى يحمله للسفير(١).

والرسل أكثر التماسا للعيوب، وهم ينظرون إلى ما قد يكون من عيب أو نقص فى المملكة. ولا يليق للسفارة إلا رجل خدم الملوك ثابت الجنان إذا تكلم، مُقلّ إذا قال، كثير الترحال، ملم بكل فن بطرف، ويفضل الشيخ العالم، الشجاع الشهم، أو الشريف صاحب المكانة المرموقة، ولا يصح أن يكون السفير من أهل الشراب أو الثرثرة أو القمار أو المزاح، وكثيرا ما أرسل الملوك رسلهم بالهدايا والطرائف الكثيرة والسلاح والمتاع، ويعيدهم السلطان بمثل ما قدموه من هدايا وتحف(٢).

الدواوين

شكلت الدواوين تنظيمات دول المشرق الإسلامى الإدارية والمالية، ومن أهم الدواوين، ديوان العارض، ويختص بشئون الجيش من تغطية نفقاته العسكرية وأرزاق الجند والأسلحة والخيول والدواب والخرائط والمؤن وملابس الجند، وكل ما يتعلق بالجيش، ومن رؤساء ديوان العارض، سهل بن حمدان فى أيام عمرو بن الليث الصفار(٣)، وكان بكر بن مالك ـ قائد الجيش فى عهد الأمير السامانى عبدالملك بن نوح. وولى قيادة الجيش الغزنوى فى عهد السلطان محمود، أبو القاسم كثير، غير أن أمواله صودرت بعد أن اتهم باستحواذ أموال الجند لنفسه. ومن أبرز رؤساء ديوان العارض أو قادة الجيوش، أبو سهل الزوزنى، كان له نفوذ كبير فى عهد السلطان مسعود، وزاد نفوذه فى الدولة، واستغل هذا النفوذ فى مصادرة أموال الناس، وقتل الوزير حسنك، وكثرت الشكاوى ضده، فعزله السلطان مسعود وصادر أمواله، وعهد إلى أبى فتح الرازى بقيادة الجيش، وكان رجلا قديرا فى عمله، ولكنه نهب أموال الجند، مما كان سببا فى عزله ومصادرة أمواله(٤).

ديوان الرسائل

يقوم بتحرير المراسم، ووثائق التولية والعقود والرسائل الرسمية والسياسية،وكان يحضر مجلس السلطان الذى يعقده للتشاور فى الشئون السياسية والداخلية للدولة. ومن

---

(١) المصدر السابق ص١١٨ ، ١١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٣، ٤) الكرديزى: زين الأخبار ص٢٢٨ .

أشهر رؤساء دواوين الرسائل فى المشرق ابن العميد والصاحب إسماعيل بن عباد، وليا هذا الديوان قبل تولية الوزارة البويهية، وكان يتصفان بالمقدرة الأدبية والفكرية، وكان الوزير الجيهانى رئيسا لديوان الرسائل فى عهد السامانيين، وقد أهله ذلك لتولى الوزارة. ومن أشهر رؤساء دواوين الرسائل أبو الفتح البستى فى عهد السلطان سبكتكين، وعهد محمود الغزنوى إلى هذا الشاعر المفكر والكاتب المبدع برئاسة ديوان الرسائل، وكان موضع سره ومستشاره فى أمره، واشتهر بجودة الخط والمهارة والترسل فى الإنشاء. ومن أشهر رؤساء ديوان الرسائل فى العصر الغزنوى، محمد بن حسين البيهقى، خلف أبونصر مشكان، وأبو سهل الزوزنى وولى رئاسة الديوان فى عهد السلطان عبدالرشيد، وقد احتفظ البيهقى بالكثير من وثائق الديوان، وكتبها فى كتابه «تاريخ البيهقى» وهو صورة صادقة وموثقة عن تاريخ الدولة الغزنوية فى عهد السلطان مسعود(١).

وفى العصر السلجوقى، ولى الجوينى رئاسة ديوان الرسائل فى عهد السلطان سنجر، وقد حفظ لنا كثيرا من الرسائل والأوامر السلطانية فى كتابه «عتبة الكتبة»، تعطينا مصدرا هاما لتاريخ الدولة السلجوقية فى هذه الفترة المعقدة، وتعرفنا بوزرائهم وكتابهم وعمالهم.

ويشترط فيمن يتولى الكتابة فى هذا الديوان، الدقة فى التلخيص، والمهارة فى قراءة الخطوط الغريبة، وحسن عرض الموضوعات. ومن بين موظفى هذا الديوان، كاتب الديوان، ويختص بترتيب الكتب وتلخيصها، وعرضها على صاحب الديوان. ويختص المراجعون بقراءة الكتب التى ترد إلى الديوان ونسخها قبل أن يراجعه صاحب الديوان، والخطاطون ينقلون الكتب التى نسخت. والخازن يحتفظ فى أرشيف الديوان بنسخة من المراسم والأوامر السلطانية.

ديوان الاستيفاء: ويقوم صاحبه بواسطة موظفيه بعمل إقرار يوقع عليه من يلى الولاية على ما يمتلكه من مال أو أرض أو عقار، وتحصى أمواله بعد عزله، وتصادر فى حالة إثبات حصوله على مال دون وجه حق، وكان السلطان محمود الغزنوى لايتهاون فى محاسبة عماله، ويعاقبهم بالمصادرة والضرب بالسياط، وقطع الأيدى والأطراف.

وتوجد دواوين أخرى مثل ديوان البريد وديوان الشرطة وديوان الخراج.

---

(١) تاريخ البيهقى ص٣٥٦ ، ٣٥٧.

من مظاهر الملك فى دول المشرق الإسلامى، تلقب الحكام ومن يلوذ بهم بالألقاب. وكان أمراء الدول الطاهرية والصفارية والسامانية يلقب الحاكم منهم «أمير» وأول من لُقب بلقب سلطان، السلطان محمود الغزنوى. وأصبح الحاكم فى المشرق منذ ذلك الوقت، يُلقب بلقب سلطان، وحدث هذا فى الدول الغزنوية والسلجوقية والخوارزمية، وحرص الحكام المسلمون على الحصول على الألقاب من الخليفة، تكريما لهم، فلقب محمود الغزنوى، يمين الدولة وأمين الملة. واللقب للأول يعنى الحكم الدنيوى والثانى يعنى القائم على أمور الدين. إذن فاللقبان يعطيان لمحمود صفتى الحاكم الدنيوى والحاكم الدينى. وكان الملوك لايقنعون بلقب أو لقبين إنما حرصوا على التلقب بالعديد من الألقاب.

وكان السامانيون يتلقب الواحد منهم لقبا فى حياته ولقبا يضاف بعد وفاته، فالأمير إسماعيل لُقب فى حياته بالعادل، وبعد مماته الماضى[1]. ولُقب الأمير أحمد بن إسماعيل بعد وفاته - الشهيد - والأمير نصر بن أحمد - بالسعيد. ونوح بن نصر -، الحميد -، وعبدالملك بن نوح - الرشيد، ونوح بن منصور - الرضى - [2].

وروعى مناسبة اللقب للرجل، فألقاب رجال الدين والفقه والقضاء: مجد الدين - شرف الدين - شرف الإسلام - سيف السنة - زين الشريعة. وإذا لُقب رجل من غير رجال الدين بالألقاب التى تعنى الدين والتى ذكرناها، ولم يرخص له السلطان أو الملك باللقب الذى ادعاه لنفسه، وجب عقابه، وحتى يعرف كل امرئ قدر نفسه - وكان قواد الجند والأمراء والمقطعون والوكلاء، يلقبون بالألقاب التى تتصل بنفوذهم فى الدولة مثل: سيف الدولة - حسام الدولة - ظهير الدولة - جمال الدولة . . . إلخ.

أما العمال والعمداء والمتصرفون، فكانوا يلقبون بألقاب تتصل بالملك، مثل: شرف الملك - عميد الملك - نظام الملك - كمال الملك - شمس الملك. . . إلخ[3]، ولُقب الوزير الغزنوى الميمندى بلقب الأستاذ الرئيس أو الخواجه، ولقب الوزير أحمد عبدالصمد بلقب - شيخى ومعتمدى [4].

---

(١) الكرديزى: زين الأخبار ص٢٣٥.

(٢) المصدر السابق ص٢٤٧.

(٣) المصدر السابق ص٢٦٤.

(٤) تاريخ البيهقى ص١٦.

وأقبل الناس على اقتناء الألقاب، حتى صار للرجل القليل الشأن عدة ألقاب.

والبويهيون اتخذوا لأنفسهم ألقابا كثيرة، مثل ركن الدولة وعضد الدولة ومعز الدولة، وكان وزراؤهم يتلقبون بالأستاذ الجليل والأستاذ الخطير وكان الصاحب بن عباد - وهو من أعظم وأجل وزراء بنى بويه، يلقب «كافى الكفاة» وكان لقب وزير السلطان محمود الغزنوى، شمس الكفاة، ولقّب الخليفة العباسى المقتدى، السلطان ملكشاه «معز الدنيا والدين»(١).

ولُقب السلطان بركياروق «ركن الدنيا والدين»، ولُقب السلطان محمود «ناصر الدنيا والدين» والسلطان محمود «غياث الدنيا والدين»(٢).

وزادت الألقاب، وعمت كل طوائف الناس، وحصلت النساء وأمراء الأسر الحاكمة على ألقاب، وحصل العمال على ألقاب حتى الأتراك والغلمان، ولقب نظام الملك «قوام الدين» ويقول نظام الملك: «واليوم يدخل كل ساقط جاهل مجهول فى ألقاب خطة الدين والدولة والملك».

والدين والدولة والإسلام، جائزة فى حق أربع طوائف، فى لقب الملوك ولقب الوزراء ولقب الأئمة ولقب العلماء ولقب الأمير الذى يديم الغزو ونصرة الإسلام، فيكتب لقب السلطان «ظهير الإسلام، غياث الدين والدنيا، شرف الإسلام». وفى لقب الوزير، «صدر الإسلام - نظام الدين» - وفى لقب الأمير جمال الدين، شرف الإسلام، وفى لقب الملك، الغازى معين الإسلام، سيف الدين(٣). وفيما عدا هذه الفئات ينبغى ألا يلقب أحد نفسه بلقب من هذه الألقاب، حتى لا يعاقب - ويمكن أن يلقب الصاحب الرشيد - الصاحب المختص - الصاحب النجيب - الصاحب الأمير - الأستاذ الخطير. وكثرت الألقاب. والمقدسى يقول: إنه لُقب بستة وثلاثين لقبا، حسب البلاد التى نزل فيها(٤).

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق ص١٩٧.

(٢) نظام الملك: سياسة نامه ص١٩٨.

(٣، ٤) المصدر السابق ص١٩٩.

خطط حواضر الدول المستقلة
فى المشرق الإسلامى

تتضمن أقاليم المشرق الإسلامى الكثير من المدن الرئيسية التى لعبت دورا كبيرا فى الحضارة الإسلامية، ومن أهم هذه المدن، نيسابور والرى وبخارى وسمرقند وعزنة. ونيسابور حاضرة الطاهريين والصفاريين، وشيراز حاضرة - بنى بويه، وغزنة حاضرة الدولة الغزنوية، وبخارى حاضرة السامانيين، والرى حاضرة السلاجقة، وسمرقند حاضرة الخوارزميين. وسندرس خطط هذه المدن.

اتخذ الطاهريون، والصفاريون من بعدهم نيسابور حاضرة لدولتهم أسسها سابور الأول بن أردشير ـ ملك الفرس الساسانى ـ وهى تقع فى إقليم قوهستان، وسُميت إبرانشهر، وهى مدينة عامرة بالأبنية وبالناس، ولها القهندز[1] وربض، ومسجدها الجامع فى الربض، بناه عمرو بن الليث الصفار، مقابل ميدان يعرف بالمعسكر ويجاور المسجد دار الإمارة، ويؤدى إلى ميدان آخر، يعرف ميدان الحسنيين، وبين دار الإمارة والمسجد، مسافة قصيرة لا تزيد عن نصف فرسخ[2].

وللقهندز بابان، وللمدينة أربعة أبواب، أحدهما يعرف بباب القنطرة، والثانى باب سكة معقل، والثالث باب القلعة، والرابع باب قنطرة تكين، وأرباضها فى خارج القهندز ومدينتها وتحف بهما، وأسواقها فى أرباضها،ولها أبواب كثيرة، منها باب يعرف، باب القباب، ويخرج منه إلى الغرب، ويقابله باب جنك أى باب الحرب، وباب فى الجنوب يعرف باب أحوص أياد، وهناك أبواب أخرى، وأعظم أسواقها، سوقان، أحدهما سوق المربعة الكبيرة، والآخر المربعة الصغيرة على بعد قليل من السوق الآخر، وكان السوق الأول، قرب المسجد الجامع، وسوق المربعة الصغيرة فى الأرباض الغربية قرب دار الإمارة وميدان الحسنيين، وهى أسواق مكتظة بالدكاكين، لذلك فهى دائما

(١) قهندز: معناها قلعة.

(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص٦٣٠.

مزدحمة بالسكان، والسوقان المذكوران متصلان بطريق يمتلئ بالحوانيت، والسكك المتقاطعة مع هذا الطريق تمتلئ كذلك بالدكاكين(١).

وبيوت المدينة تصلها المياه عن طريق قناة خارج المدينة، تمتد تحت الأرض وتصل البيوت وتمدها بالماء العذب والبيوت بها آبار وبها صهاريج ماء، تخزن فيها الماء لحين الحاجة إليها فى موسم الجفاف «والمسجد الجامع أربع رحاب ويقوم سقفه على أساطين الآجر، يدور على صحنه ثلاث أروقة زوقت حيطانه بنقوش ذهبية، وللجامع أحد عشر بابا بها أعمدة رخام وحيطانه وتحفه مزوقة(٢).

وتعرضت هذه المدينة العامرة للخراب والدمار، أولا فى زلزال سنة ٥٤٠هـ-١١٤٥م. والثانى فى غزوات الغز المدمرة سنة ٥٤٨هـ - ١١٥٣م، وذلك حين غادرها السلطان السلجوقى سنجر، وأسره الغز، وانتقل من بقى من أهلها إلى ضاحية شاذياخ، وعمروها، وفى سنة٦١٨هـ - ١٢٢١م، غزاها جنكيزخان ودمرها وخربها(٣).

ومدينة شيراز أهم مدن فارس، اتخذها الصفاريون حاضرة لدولتهم، أسواقها ضيقة مزدحمة بالناس، وكان للمدينة فى ذلك الوقت، ثمانية أبواب، باب إصطخر، تستر ـ بادستانة كسار، مندر، مهندر، وعمرها عضد الدولة البويهى، واتخذ بها قصرا ومكتبة وبيمارستانا وعلى بعد نصف فرسخ جنوب شيراز اتخذ عضد الدولة البويهى، قصرا أو بستانا، أنفق عليه الأموال الكبيرة، وزينه بالأشجار المختلفة الثمار، ذات الأوراق الملونة، وسميت المدينة الجديدة، فناخسرو، ونقل إليها التجار دكاكينهم، وانتقل إليها الصناع، وبها دار لضرب النقود، ولكن هذه المدينة لم تدم طويلا، فقد تعرضت للخراب والدمار فى أواخر القرن الرابع الهجرى(٤).

وأعاد صمصام الدولة البويهى بناء سور شيراز، وله ما لا يقل عن أحد عشر بابا، وبها سبع عشرة محلة، منها باب إصطخر وباب فنا وباب الدولة وباب السعادة(٥).

---

(١) ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص٤٢٥.

(٢) المصدر السابق ص٤٢٦ ، ٤٢٧.

(٣) الإصطخرى: المسالك الممالك ص٢٥٤ ، ٢٥٥.

(٤) ليسترنج: المصدر السابق ص٢٨٦.

(٥) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٥٠ - ٥٣.

وفى شيراز ثلاثة مساجد جامعة، أولها الجامع العتيق، وقد بناه عمرو بن الليث الصفار فى القرن الثالث الهجرى، وشيد سعد الدين زنكى - أتابك فارس - المسجد الجديد، وبها مشهد ولدى الإمام جعفر الصادق، وكان الشيعة يزورونه، ويشق المدينة خمسة أنهار.

بخارى

اتخذ السامانيون بخارى حاضرة لدولتهم، التى شملت بلاد ما وراء النهر وخراسان ويجب أن نتحدث عن خطط بخارى وتطورها.

بخارى مدينة قديمة، نشأت قبل الإسلام بقرون، وكان يقطنها الترك، ولما فتحها القائد العربى قتيبة بن مسلم الباهلى، مَصَّرها أى أعطاها وصبغ عليها الطابع الإسلامى، وأول ما يجب تشييده فى المدينة الإسلامية، المسجد الجامع، فإنشاؤه يؤكد طابعها الإسلامى، وفى سنة ٩٤هـ- ٧١٢م شيد قتيبة المسجد فى قلعة بخارى، وكان ذلك الموضع بيت أصنام، وأمر أهل بخارى بأن يجتمعوا فى المسجد كل يوم جمعة، وعهد القائد قتيبة إلى بعض رجاله بأن يعلموا الناس الصلاة والركوع والسجود، وكانت أبواب المسجد عليها صور، كشط العرب معالمها، وكان الفقراء يقبلون على الصلاة فى المسجد والقائد المسلم يمنح لكل فرد، درهمين(١)، وورد ذكر مثل هؤلاء فى القرآن الكريم ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، أى أن هؤلاء لهم حق فى مال الزكاة حتى يألفوا الإسلام.

زاد إقبال أهل بخارى على الإسلام، حتى زاد عدد المسلمين، وبالتالى ضاق المسجد بالمصلين، فشيد الفضل بن يحيى البرمكى - والى المشرق - مسجدا جديدا يقع بين الحصن والمدينة سنة ١٥٤هـ- ٧٧٠م، وتعطل بذلك مسجد قتيبة بن مسلم الباهلى، وصار ديوانا للخراج، وأنفق على تشييده أموالا طائلة. وكان كل أمير يلى بخارى، يزيد فى هذا المسجد، حتى ولى الأمير إسماعيل السامانى بلاد ما وراء النهر، واتخذ بخارى حاضرة لدولته، وقام بإجراء توسعات كبيرة فى المسجد الجامع، فاشترى دورا كثيرة، وأضافها إلى المسجد الجامع، بحيث زاد بمقدار الثلث، وأضاءه بالقناديل، وخصوصا فى شهر رمضان(٢) على أن سقف المسجد انهار على المصلين، وهلك وجُرح فى ذلك الكثير من أهل بخارى، وانهارت بعض جوانبه بعد ترميمه بسنة واحدة، وأعيد بناؤه من جديد، وقام الوزير عبيد الله الجيهانى بعمل منارة للمسجد سنة ٣٠٦هـ- ٩١٨م. وكان هذا المسجد متصلا بالقلعة. وتعرض المسجد للحريق فى بعض الحملات

(١) النرشخى: تايخ بخارى ص٧٨.

(٢) المصدر السابق ص٧٩.

الحربية على بخارى، ولكن الملك شمس الملك[1] لما سيطر على بخارى أعاد بناء المسجد، وقام أرسلان خان بهدم المسجد الذى تصدع بناؤه، وأعاد بناء مسجد جامع جديد سنة ٥١٥هـ- ١١٢١م بعيدا عن القلعة حتى لا يتضرر من الغزو والحروب التى تتعرض لها المدينة، وأقام للمسجد منارة فخمة، ولكن المنارة انهارت على المسجد فسقط السقف، وتهدم ثلث المسجد، فأعاد أرسلان خان[2] بناء المنارة بالآجر، وأحكم بناءها. وبالمسجد خمسة أروقة داخلية. وجدير بالذكر أن بقايا مسجد قتيبة بن مسلم الباهلى، كان أثرا يذهب الناس من كل أنحاء بلاد ما وراء النهر لمشاهدته، ولما استولى السوفيت على بخارى، وأزالوا كل أثر للإسلام بها، حولوا هذا الأثر الرائع إلى مكتبة ومتحف ووضعوا أمامه تماثيل، وأسموا المكتبة مكتبة ابن سينا[3].

شيد قتيبة بن مسلم الباهلى من داخل المدينة إلى الأطراف حيث يوجد ريكستان أى الصحراء، مصلى للعيد، وضاق هذا المصلى بالمصلين مع انتشار الإسلام، فاشترى الأمير منصور بن نوح حدائق وبساتين، وأضافها إلى المصلى القديم، وأقام للمصلى منبرا ومحرابا جميلين، وأقام مبلغات يكبر عليها المكبرون، فيستمع الناس شعائر الصلاة جيدا ومن مصلى العيد إلى القلعة مسافة قصيرة، تقدر بنصف فرسخ. وظل هذا المصلى قائما يؤدى فيه الناس صلاة العيد، وكان يمتلئ بالمصلين، وأقام أرسلان خان مصلى آخر خارج المدينة، حتى امتد العمران خارج المدينة،وكان للملوك حديقة على باب إبراهيم يخرجون إليها للنزهة وقضاء أوقات الفراغ، تسمى شمس أباد وبمرور الزمن تحولت هذه الحديقة إلى أراضى زراعية،ولكن خاقان الترك، اتخذها مصلى للعيد،واتخذ لها منبرا ومحرابا[4]. وكان للرستاق والمدينة، سبعة أبواب، الباب الأول، باب السوق، لأنه أقرب أبواب المدينة إلى السوق؛ وسمى أيضا باب العطارين. ويؤدى باب العطارين إلى باب نون، وقد أقطع قتيبة المنطقة بين البابين إلى العرب المضرية وربيعة واليمن، وعلى يسار الداخل إلى المدينة، توجد محلة كوى وندان، وخلفها كنيسة للمسيحيين، وبالقرب منها مسجد بنى حنظلة[5]. وعلى يمين الداخل إلى المدينة محلة الوزير أيوب بن

---

(١) من ملوك الترك.

(٢) أحد ملوك الترك.

(٣) النرشخى: تاريخ بخارى ص٨٠.

(٤ ، ٥) المصدر السابق ص٩٢.

حسان، وتسمى تلك المحلة، كوى كاخ، أى محلة القصر، وكان أمراء بخارى يفضلون الإقامة فى محلة القصر، وهناك سراى، يقيم فيه أمراء بخارى، ومن أسواق المدينة سوق الفستقيين، وسوق البقالين، ومن باب نون إلى وسط المدينة طريق مستقيم، ومن باب البقالين إلى باب الفستقيين، ربع المدينة وبه ألف دكان هى أهم أسواق المدينة فى تلك الربعة.

ويتبع بخارى خمس وسبعون قرية، ومن باب العطارين يأتى باب بنى سعد، وبنيت محلة علاء بباب علاء. ومن باب بنى سعد هناك باب بنى أسد، وكانت مدافن بخارى بالقرب من باب المجوس الذى تهدم، ويوجد باب آخر يسمى باب حقره[1] أى باب طريق الحق[2]، وباب درنه، أى الباب الجديد، وسمى بذلك لأنه أحدث أبواب المدينة، ويؤدى إلى المسجد القرشيين[3].

الرى

اتخذ السلاجقة مدينة الرى - حاضرة لدولتهم الكبيرة، وهى من مدن إقليم الجبال، وكانت تسمى المحمدية، نسبة إلى الخليفة محمد المهدى التى نزلها فى عهد أبيه الرشيد، وعمرها، وللرى حصن له خمسة أبواب باب الطاق فى الجنوب الغربى، ويخرج منه طريق بغداد، وباب بليسان فى الشمال الغربى، ويؤدى إلى قزوين، وباب كوهك فى الشمال الشرقى، ويؤدى إلى طبرستان، وباب هشام فى الشرق، ويخرج منه طريق خراسان، وباب سين فى الجنوب، ويؤدى إلى قم. وكانت أسواق المدينة عند هذه الأبواب وخارجها، وأعظمها تجارة ربض ساذبانان وروذه،وبها معظم التجارات والخانات، وهو شارع عريض مشتبك الأبنية والعقارات والمساكن، ويمر بالمدينة أكثر من نهر. تيسر للناس وللحيوانات وللنبات مياه الشرب[4].

وبالمدينة دار البطيخ، وهو سوق الفاكهة، ودار الكتب بأسفل الروذه. وكان ومسجد المدينة الذى شيده الخليفة المهدى.

(١، ٢) المصدر السابق ص٨٧ ، ٨٩.

(٣) ويجلس فيه المشايخ والفقهاء والوعاظ لتعليم كل من يرد إليهم من بخارى وقراها تعاليم الدين والفتوى، لذلك سمى طريق الحق.

(٤) ليسترنج: المصدر السابق ص٢٥٠.

وفى داخل المدينة بالقرب من المسجد الجامع، دار الإمارة، وحولها خندق، وأهل الرى يدعونها المدينة، وأغلب المدينة الخارجية، كـانت تعرف بالمحمدية، وقد كانت فى أول أمرها ربضا محـصنا، وكان فى الرى قلعة أخرى، تسمى الفـرخان، وعُرفت أيضا بالجوسق. وفى القرن الرابع الهجرى شيد فخر الدولة البويهى القصر القديم القائم فوق قمة الجبل، وشيد ابناه له قبة مشرفة على البساتين، تسمى فخر أباد(١).

وأشهر بساتين الرى وأكثرها خصوبة بستان روذه، وتعددت ضواحى الرى، وكل ضاحية أشبه بمدينة صغيرة، بكل واحدة ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل. وعُمرت الرى وازدهرت بأبنيتها وقصورها حينما اتخذها السلاجقة حاضرة لدولتهم الكبيرة(٢).

انقسمت مدينة الرى فى العصر السلجوقى إلى أحياء، أبرزها محلة الشيعة ومحلة الحنفية ومحلة الشافعية، والشافعـية أقل، والحنفية وهم الأكثر، والسواد الأعظم شيعة، وأهل البلد كان نصفهم شيعة. وأهل الرستـاق كلهم شيعة، وقليل من الحنفية، ووقعت العصبية بين الشيعة والسنة، وبين الشافـعية والحنفية، وكان أهل الرستاق ـ وهم حنفية، لايدخلون إلى البلد إلابالسلاح، وأفنت الحروب الشيعة والحنفية، ولم يبق إلا الشافعية، ومن تبقى من الشـيعة والحنفيـة يخفى مذهبه، حـتى يأمن على نفسه، وخُربت مـحلتا الشيعة والحنفية، وكانت دورهم تحت الأرض، والمسالك التى تؤدى إلى دورهم فى غاية الظلمة، فعلوا ذلك لكثرة الغارات ضدهم.

وقال الشاعر:

الـرى دار فـارغـة ـ لـهـا ظـلال سـابغة

على تيوس مالهم ـ فى المكرمات بازغة

لاينفق الشعر بها ـ ولـو أتاهـا النابغة(٣)

والرى مدينة عامرة بمبانيها وأسـواقها وقصورها، ويبنون بيوتهم بالخشب والطين، ويتبع الرى الكثـير من القرى والرساتق. ومـدينة الرى الداخلية محاطة بخندق يفـصلها عن المدينة الخارجية أى خارج السور. ودار الإمـارة بجوار المسجد، وبالرى قلعة تسمى

(١) المصدر السابق ص٢٥٠.

(٢) المصدر السابق ص٢٥١.

(٣) ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص١١٦.

الفرخان. والرى سبعة عشر رستاقا[1]. وفى العصر السلجوقى تم إنشاء محلة سراى أيالت، الذى شيده طغرل بك عند مقدمه إلى الرى، وجعله مقر حكومته، وبنى بالقرب منه مسجدا، ومحلة مهدى آباد نسبة إلى المهدى الذى أسس مدينة المحمدية، وفى تأسيسه للمسجد الجامع أخذ بعض الدور من الناس، وعوضهم عنها ببيوت فى هذه المحلة.

وتضم المدينة العديد من المحلات. على أن كل محلة، كانت تشكل وحدة مستقلة بها مسجد وقلعة ومدرسة، وللسور أبواب تغلق ليلا وقت الأزمات.

لما قدم طغرلبك الرى، نزل بدار الإمارة التى تضم القصور، ولها سور محكم به أبواب، على أن طغرل أبقى على دار الإمارة، واتخذها مقرا لحكومته والإدارات الحكومية، بينما أقام هو فى قصر السراى آيالت خارج الرى، وأقام الأمراء السلاجقة قصورهم فى داخل الرى وخارجها ثم أقام السلطان السلجوقى لنفسه قصرا فخما، وأقام الأمراء السلاجقة حول قصره العديد من القصور المزدانة بأبهى معالم الزينة[2].

وتضم مدينة الرى العديد من المساجد بالإضافة إلى المسجد الجامع، وبها الحمامات والبيمارستانات والحدائق والبساتين الرائعة. لذلك يمكن القول بأنها من أهم مدن إقليم الجبل وأكثرها عمارة وازدهارا فى حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

سمرقند حاضرة الخوارزميين

تقع على بعد مائة وخمسين ميلا شرقى بخارى، ويحيط بالمدينة سور يليه خندق عميق، تحف بالمدينة البساتين والأشجار، وتصل المياه جميع البيوت والدور؛ لأن المدينة يمر بها نهر أو أكثر، وكل بيت محاط ببستان والعديد من الأشجار، وفى القلعة دار الإمارة والسجن، وللقلعة باب حديد خارجى، وباب حديد داخلى. وللمدينة أربعة أبواب باب الصين فى جهة المشرق، ينزل عنه بدرج إلى أسفل، مطل على وادى السند. وباب بخارى فى جهة الشمال، وباب النوبهار فى جهة المغرب والباب الكبير، يعرف بباب كش جهة الجنوب[3].

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص١١٧، ١١٨.

(٢) سعاد عبد الله: الرى فى العصر السلجوقى ص٧٦ - ٧٨.

(٣) لسترنج: المصدر السابق ص٥٠٦.

والمدينة عامرة بالأسواق والحمامات، ولهذه المدينة مساكن كثيرة وماء جار يدخل إليها فى نهر قاعه من رصاص وضفتيه من حجارة، وسوق سمرقند الكبير، يعرف برأس الطاق، كان سوقا رحبا. وفى أسفل القلعة، المسجد الجامع ودار الإمارة. وبُنيت دور المدينة بالخشب والطين. والمدينة مكتظة بالسكان(١).

وأرباض سمرقند تمتد بامتداد ضفة النهر، فى بسيط من الأرض يحيطها سور من ناحية البر، والنهر من ناحية الشمال، فيتم بذلك خط دفاعها. وللربض ثمانية أبواب، تفضى منها دروب مختلفة وطرق البلد وسككها وأسواقها، مغطاة بالحجارة، وأسواق ربضها مجمع التجارات، زاخرة بالسلع الواردة إليها من جميع الأنحاء. والذى ينظر إلى المدينة من فوق القلعة، يرى أرض مغطاة بالبساتين الخضراء، وفى جنوب سمرقند جبل كوهك(٢)، ورساتيق سمرقند فى شرقها وجنوبها وكلها خصبة وافرة الخيرات. وقد خربها المغول سنة ٦١٧هـ-١٢٢٠م - كما قلنا - وأعاد عمارتها تيمورلنك، الذى اتخذها حاضرة لدولته الكبيرة.

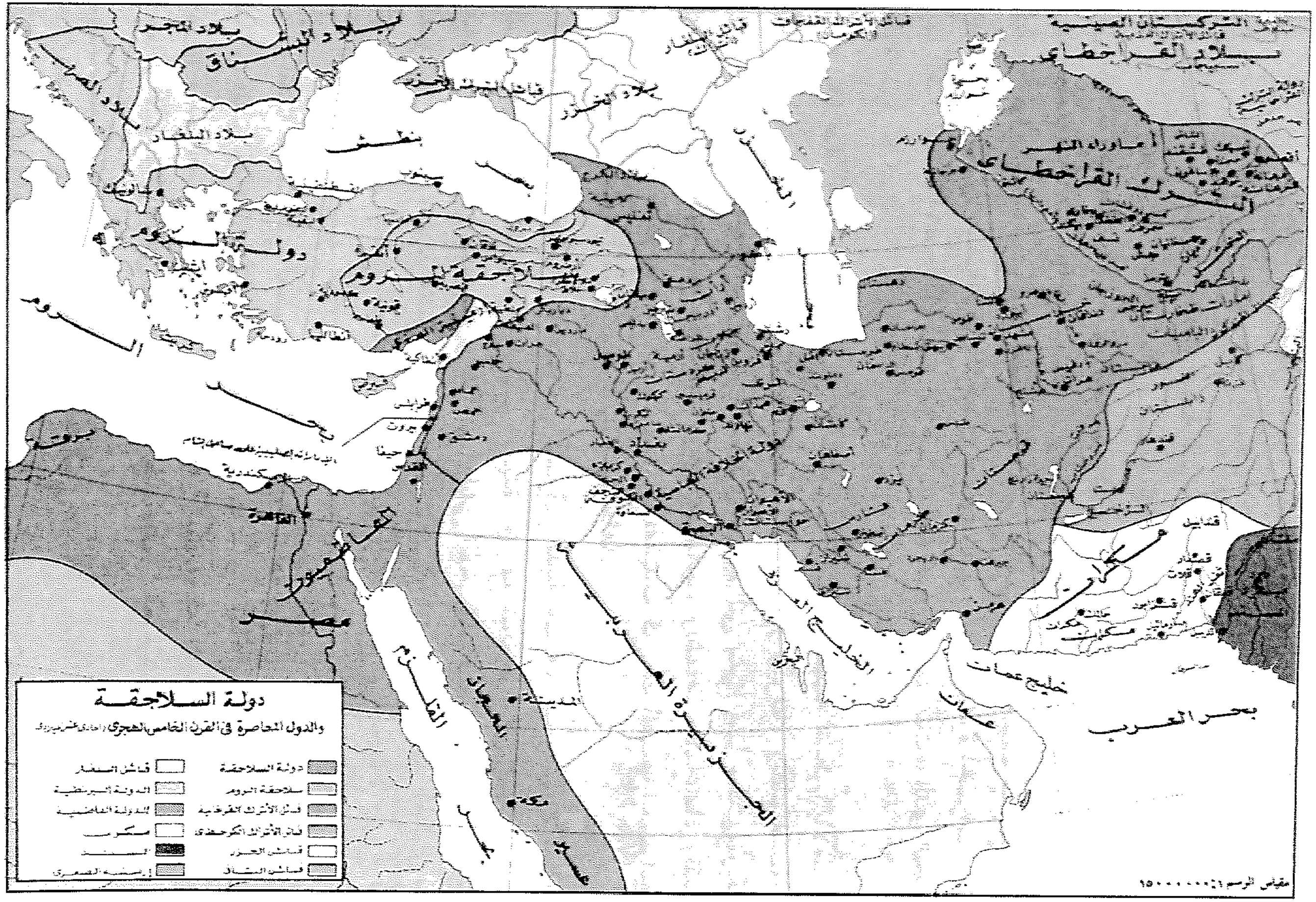
والخلاصة: أن حواضر المشرق الإسلامية كانت محصنة عسكريا بالأسوار والأبواب والقلاع والحصون، وكان بها قصور فخمة ودور وبيوت، وتضم المساجد الجامعة والأسواق والحمامات والبيمارستانات والدروب التى يتفرع منها سكك، ولكل حاضرة رساتيق. وشهدت هذه الحواضر رواجا اقتصاديا، ونشاطا اجتماعيا، وتقدما فكريا. ولكنها تعرضت لغزوات المغول المدمرة، ففقدت كل خصائصها العمرانية، وهجرها أهلها وبكت من شيدها وبناها وأقام صرحاها.

ومن أبرز الحواضر الإسلامية فى المشرق، مدينة غزنة، سيطر عليها القائد الساماني ألبتكين، واتخذها نواة لدولته الجديدة، وارتفع شأن غزنة فى عهد السلطان محمود الغزنوى الذى عمرها، وأنشأ فيها المبانى الفخمة، المسجد الجامع والمدرسة والقصور وزادت ثروة غزنة بفضل الغنائم والثروات الهائلة التى جلبها الجند الغزنوى من الهند، وشهدت فترة انتعاش اقتصادى فأقيمت فيها الدور والبيوت الفخمة، وتروج فى المدينة التجارة، التى جلبها التجار من الهند، وتضم مختلف السلع.

والمدينة شديدة البرد لعظم ارتفاعها، ولا يوجد بها بساتين، ولا يجرى فيها نهر، وتضم رساتيق وقرى ومدن، اندثرت، وتعرضت المدينة للتخريب من حملات الغز والغوريين، ثم المغول، لذلك فقد ذكر الرحالة(٣) بأن معظم المدينة خرابات، واندثرت كل معالم الأبهة والثراء التى شهدتها أيام السلطان محمود الغزنوى.

(١، ٢) المصدر السابق ص٥٠٧.

(٣) ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٣٨٧.



دولة السلاجقة
والدول المعاصرة في القرن الخامس الهجري
دولة السلاجقة
سلاجقة الروم
الدولة البيزنطية
الدولة الفاطمية
بحر العرب
خليج عمان
عمان
الخليج العربي
الجزيرة العربية
المدينة
مكة
الحجاز
القلزم
مصر
القاهرة
الإسكندرية
برقة
بحر الروم
بيروت
حيفا
طرابلس
بنطس
بلاد الهنجر
بلاد الصرب
مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

الباب الرابع

الوضع الاقتصادى والحياة الاجتماعية
فى المشرق الإسلامى

أولا: الوضع الاقتصادى

من الطبيعى أن تنتعش الحياة الاقتصادية فى المشرق الإسلامى لزيادة إنتاجه، ومهارة سكانه فى استثمار ثرواتهم الطبيعية.

١ ـ الزراعة:

ازدهرت الزراعة فى المشرق الإسلامى؛ لأنه يضم أراضى واسعة، ويتوافر لأراضيه الماء اللازم للزراعة، وخبرة أهله الطويلة بالزراعة، ففى بلاد ما وراء النهر يوجد نهرا سيحون وجيحون وفروعهما، وحينما تتجمد المياه فى فصل الشتاء، ثم يذوب الجليد فى الأنهار وعلى الأرض، فتنساب المياه بغزارة فتزدهر تبعا لذلك الزراعة. وفى مرو أقيم ديوان لتنظيم ماء الرى، يسمى ديوان الماء، وبه سجلات عن رى الأراضى الزراعية، يحدد الخراج على الأرض طبقا لوصول الماء إلى الأرض(١).

وفى شرق فارس، نهيرات تستمد مياهها من المرتفعات، بعد سقوط الأمطار، لذلك حرص المسئولون على الاستفادة من هذه المياه، فأقاموا جداول تحت الأرض عليها قناطر، واشتهرت نيسابور بقنواتها تحت الأرض، وتمر داخل المدينة. وفى خارج المدينة قنوات تروى البساتين والزروع المحيطة بالمدينة(٢).

تنوعت المحاصيل الزراعية فى المشرق الإسلامى، وأنتجت بلاد المشرق الحبوب التى يحتاجها سكانها، بل وزاد الإنتاج من الحبوب عن حاجة الناس، حتى كانت أسواق خوارزم عامرة بالقمح والشعير(٣). وكثر إنتاج مازندران من الأرز حتى كانوا يصنعون منه خبزا، وزاد إنتاج القمح فى بلاد ما وراء النهر فى استراباد، ونيسابور ينمو فيها أجود أنواع البطيخ. وفى نيسابور أيضا أجود أنواع الفواكه مثل السفرجل والمشمش، وينمو فى جرجان اللارنج والأعناب، وتنتج ترمذ العنب والسفرجل. ومدينة

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص١٩٥.

(٢) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٣٠.

(٣) ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٢٥، ٤٨٠.

مراغة بها بساتين تضم أشجارا مختلفة الفواكه، وينمو فيها أيضا أنواع مختلفة من الحبوب والخضراوات والجوز واللوز. وينمو فى بدليس التفاح المعروف بجودته وكثرته. وكان التمر ينمو بكثرة فى كرمان يزيد عن حاجة الناس ويُحمل إلى خراسان، ورخص سعره لكثرة المعروض منه. وكانت كابل والبلاد المحيطة بها تزرع قصب السكر.

انتشر الإقطاع فى المشرق الإسلامى، ولما كان صاحب الإقطاع يجد صعوبة فى زراعة أرضه، لذلك كان بعضهم يقطع بعض المزارعين جزءا من أرضه، ويمدهم بما يحتاجون إليه من أدوات زراعية ومواد وييسر لهم سبل الرى، ويمنحهم جزءا من المحصول، ويؤدى المُقطِع ضريبة العشر عن أرضه، وتظل الأرض ملكا له يتوارثها ورثته من بعده(١). وزاد نظام الإقطاع فى عهد بنى بويه وفى العصر السلجوقى.

وقد يحدث أحيانا أن يرغب صغار ملاك الأراضى الزراعية فى الإفلات من عبء الخراج العادى، فدونوا إقطاعهم مع ضياع كبار ملاك الأراضى الزراعية الأقوياء، فكانوا يدفعون عنها العشر فقط ـ كما هو الحال فى الإقطاعات، على أن هذا التصرف لم يمنعهم من ممارسة حقوق ملكياتهم الزراعية، فظلوا يتبايعونها ويتوارثونها، وإن كانت بأسماء كبار الملاك المدونة مع ضياعهم(٢).

شاع نظام الإقطاع فى المشرق الإسلامى، أى أن صاحب الأرض المقطعة يلتزم بتقديم الخراج عنها، وإذا أهملها تنزعها الدولة منه، وتمنحها لغيره، وكان كبار الموظفين فى المشرق يحصلون على إقطاعات بدلا من الرواتب، ويؤخذ الإقطاع من المقطع فى حالة عزله من منصبه أو إهماله للأرض.

وأسوأ أنواع الإقطاع، الإقطاع العسكرى، وقد ظهر هذا النظام مع ازدياد نفوذ الترك، وأدى إقطاع الأراضى إلى الترك إلى خراب الأرض الزراعية؛ لأن أصحابها يبحثون عن الربح فقط، ولا يقدمون للفلاحين ما تحتاجه الأرض من خدمات ولم يك لديهم خبرة بالزراعة، وإنما وكلوا عنهم من يباشر الأرض، وهؤلاء يجمعون الأموال لأنفسهم، والفلاح هو الذى يؤدى كل هذه المتطلبات، التى أثقلت كاهله، ومن ثم

(١) أبو يوسف: الخراج ص٣٣.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص١١٨.

تركوا الأرض الزراعية وأهملوا زراعتها. وبذلك أدى نظام الإقطاع إلى تدهور الزراعة وخراب الأرض[1].

وقد شاع نظام التكملة فى المشرق، بمعنى أن أهل الولاية الواحدة يلتزمون بأداء خراج القوم الذين ماتوا أو جلوا عن بلادهم بسبب سوء معاملة بنى الصفار لهم، وقد رفع أهل فارس شكواهم من هذا النظام إلى الخليفة المقتدر، فأمر برفع هذه التكملة[2].

إذن تنوعت ملكية الأرض الزراعية فى المشرق، بين أفراد يمتلكون أرضا يؤدون عنها الخراج، إن كانوا من أهل الذمة أو العشر إن كانوا من المسلمين. والنظام الثانى للملكية الزراعية، هو نظام الإقطاع.

ظل المشرق الإسلامى ينتج ما يحتاجه من المحاصيل الزراعية، ويواجه بعض الكوارث، ويتخطى الأزمات الاقتصادية الناتجة عن الجفاف أو الزلازل، كما حدث فى تبريز أو نيسابور[3].

وتدهورت الزراعة فى المشرق الإسلامى فى فترة الغزو المغولى لخراسان وفارس وبلاد ما وراء النهر، وهجر الفلاحون قراهم خوفا من بطش المغول، وقد زار ماركبولو المشرق، وتحدث عن خراب الأرض الزراعية، بسبب غارات المغول الوحشية[4].

وتعددت وتنوعت الثروة الحيوانية فى المشرق، بها أنواع الجمال والغنم والبقر والطيور من كل صنف. واشتهر المشرق بصفة خاصة بالخيول التى تجد مراعيها فى حشائش الاستبس، وكانت الجمال البلخية ذات السنامين، سريعة العدو، تستخدم فى البريد. وحركة النقل السريعة بين المدن.

٢ ـ الصناعة

تقدمت الصناعة فى المشرق الإسلامى بسبب وفرة المواد الخام اللازمة لمختلف الصناعات، ووفرة الأيدى الماهرة، والخبرة التى اكتسبها العمال الصناعيون من الأجيال السابقة، واتصال المشرق الإسلامى ببلاد لها خبرة صناعية كبيرة مثل الهند والصين.

---

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص١٢٢.

(٢) جمال الدين سرور: المصدر السابق ص١١٥.

(٣) ليسترنج: المصدر السابق ص١٤٤، ٤٣٤.

(٤) ماركبولو: الرحلة جـ١ ص٧٦.

وتقدمت صناعة الخزف فى المشرق، بسبب الاتصال بالصين، عن طريق التجارة أو السفارات، وعرف المسلمون عنهم الصناعات الخزفية، المزينة بالنقوش والزخارف، وأما الفخار الصينى الأصل الذى نقل أهل المشرق صناعته من الصين، غير قابل للكسر وعرف المسلمون عن الصين نوعا من الأباريق، يتضمن نقوشا وله فم قصير مستقيم ومقبض(١).

وتقدمت صناعة السكر فى أصفهان وكابل، نظرا لزيادة الإنتاج الزراعى من السكر.

عرف المسلمون سر صناعة الورق من الصين، وقد كثرت فيها أشجار الكاغد، التى يصنع من لبه الورق، وانتقلت هذه الصناعة إلى سمرقند، التى انضمت إلى الدولة الإسلامية، ومن سمرقند انتقلت صناعة الورق إلى سائر مدن المشرق الإسلامى، وبالتالى إلى الدولة الإسلامية الكبرى(٢).

وازدهر فى المشرق صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها، ففى شرق فارس تُصنع المنسوجات القطنية، وعلى الأخص الطيالس، وصُنع فى فارس كذلك المنسوجات الصوفية، وأدى نمو شجر التوت فى بلاد ما وراء النهر، ونمو دودة القز عليها بكثرة إلى صناعة الحرير، واقتبس المسلمون هذه الصناعة من الصين(٣)، عن طريق التجار والسفارات وازدهرت فى أرمينية وأصبهان صناعة البُسْط، وصُنع الكتان فى فارس، وفى كازرون على وجه التحديد، والمعروف أن البسط الأرمينية من أجود أنواع البسط(٤). واشتهرت طبرستان بجودة صناعة السجاد الطبرى، والبسط الحسان، واشتغل أهلها بنسج الحرير، وخصوصا الإبريسم، وصنعوا المناديل والآلات. وصنع أهل صغانيان الأنسجة، وتفوق أهل شيراز بصناعة الخز والديباج والسجاد، ويُصنع بنيسابور ثياب الحرير، ويقوم أهل ترمذ بنسج الصوف والأكسية، ومن مراكز صناعة السجاد فى المشرق، كرمان وشيراز وأصفهان وتبرير وكاشان، وتنوعت صناعته، ومنها سجاد يحتوى على مجموعة متنوعة من الرسوم الحيوانية، وقد تدخل الرسوم الآدمية فى زخرفتها، وترسم الصور الحيوانية على أرضية من الزهور والنباتات، بحيث لا يمكن معرفة أى العنصرين هو

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص ١٢٣.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامه ص٤١٣.

(٣) بدر الدين الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص٢٤٤.

(٤) ناصر خسرو: المصدر السابق ص٤١٥.

الأصل. وسجاد الزهور ويتضمن رسوم نباتات وزهور وورود ووريقات طويلة مقوسة ومشرشرة، وسجاد الأرابيسك عبارة عن فروع نباتية وزهور وكتابات فارسية(١).

وامتازت تبريز بصناعة سجادة الصلاة، وتحتوى على آيات قرآنية، مكتوبة بخط النسخ والخط الكوفى وتحتوى على خيوط معدنية منسوجة بطريقة الديباج. والزخارف النباتية مرسومة بشكل معين على صورة محراب(٢).

وكان يسكن إقليما كرمان وفارس قبائل تركية مثل الأفشار وغيرها وسط العناصر الفارسية الأصيلة، ونسجت هذه القبائل أبسطتها بالأسلوب التركى، من حيث العقدة والرسوم والألوان التى اعتادوا عليها منذ القدم؛ لذلك يمكن القول بأن نسج الأبسطة بالعقدة الفارسية معروف فى فارس قبل دخولها فى حوزة السلاجقة بعدة قرون(٣).

وكان يقصد بصناعة الأبسطة فى فارس سد حاجة الناس من البسط والفرش اللازمة لتغطية الأرضية، مما يبعث الدفء والسرور.

واستخدمت عليها زخارف حسب كل إقليم دون حاجة إلى الاستعانة بمصورين أو زخرفيين أو رسامين متخصصين.

واشتهرت بذخشان بأحجارها الكريمة ومعادنها، ولاسيما الذهب والفضة ومعدن البلخش المقاوم للياقوت، وبها معدن اللازورد والبلور وحجر البازهر، ويرتفع منها المسك.

وزاد إنتاج أذربيجان من القماش، والثياب المصبوغة بالقرمز الناتج عن دودة القز ويسمى الحرير القرمزى، ويصنع به الوسائد والبسط والستائر(٤).

وكان المشرق الإسلامى مصدرا هاما للمعادن، لذلك ازدهرت فيه الصناعات المعدنية، وكانت فارس تنتج الحديد بكثرة، وتكثر مناجم الحديد فى كابل وفرغانة وكرمان، وفى بخارى مناجم النحاس الأصفر ويستخرج الفيروزج الأزرق من نيسابور(٥). وكانت بذخشان تشتهر بأحجارها الكريمة، وخصوصا الياقوت واللازورد

(١) سعاد ماهر: الفنون الإسلامية ص١٨١.
(٢) المصدر السابق ص١٨٢.
(٣) أحمد عيسى: تراث فارس ص٣٠٦.
(٤) ليسترنج: المصدر السابق ص٢١٨ وما بعدها.
(٥) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية ص١٣٩.

والبلور وحجر البازهر والحجر الفوسفورى المضىء ومعدن اليلخش، ويصنع المسك فى مدينة وخان، وتنتج الذهب والفضة فى أودية أنهارها[١]. وكثرت مناجم الفضة فى كابل، وتقع على عمق شديد فى باطن الأرض ينزل إليها الناس بمصابيح فى عمق شديد لجلب المعدن.

وتنوعت الصناعات الخشبية، لكثرة الغابات فى خراسان وطبرستان، ويصنع من الأخشاب، أثاث المنازل والأدوات المنزلية.

٣- التجارة

ازدهرت التجارة فى المشرق الإسلامى، بسبب زيادة وتنوع إنتاجه الزراعى والصناعى، وتوسطه بين عالمين كبيرين، الهند والصين شرقا، والغرب الأوربى وباقى الدولة الإسلامية من ناحية أخرى، وتمر بالمشرق طرق التجارة العالمية.

وتنقسم التجارة إلى داخلية وخارجية

التجارة الداخلية، مركزها الأسواق، وأقيمت الأسواق فى المدن المشرقية، فى أوقات محددة وبسلع معينة، وتضم الأسواق عددا من الدكاكين المغطاة، وتستمر حركة التجارة منذ الصباح الباكر حتى المساء. وكان لكل سوق مراقب يتبع المحتسب، يتابع حركة البيع والشراء، ولا يقبل عرض السلع المغشوشة أو التالفة، ويمنع التلاعب فى الأسعار، ويتابع صحة الموازين والمكاييل.

وقد وصف لنا ناصر خسرو[٢]، أسواق أصبهان، لها باب محكم وسور، وكانت أسواق بخارى وسمرقند وجند وخجند تروج فيها بضائع الصين، فضلا عن الورق والحرير والمعادن والرقيق الأبيض. وتروج فى أسواق فارس البسط والسجاد، وفى خراسان الحبوب والمعادن والأقمشة والجوارى.

التجارة الخارجية

يمر الطريق البرى بين الصين والعراق بتركستان وبلاد ما وراء النهر، مارا بمدن كاشغر وبخارى وسمرقند، وراجت التجارة فى خراسان، وما وراء النهر فى عصرى السامانيين والغزنويين.

(١) ليسترنج: المصدر السابق ص٢٨٠.

(٢) سفرنامه: ص١٠٢، ١٠٣.

كان تجار فارس يفدون بكثرة على مدن الهند للتجارة، مثل قاليقوط ومليبار، وكان التجار المشارقة يفدون إلى الهند محملين ببضائع المشرق، ويعودون من الهند محملين بمنتجاتها مثل التوابل والمنسوجات والمعادن(١) وكان تجار سيراف يتاجرون مع بلاد الشرق الأقصى وزادت ثروتهم، وكانوا يقضون حياتهم فى البحر.

ويذكر المسعودى أن القوافل الإسلامية كانت تواصل رحلاتها بين خراسان والسند والهند، مرورا بزابلستان (أفغانستان الحالية) التى تزدهر فيها بضائع الهند وتروج بصفة خاصة فى كابل وغزنة. يجلب تجار المشرق من الهند، الدر والعنبر والأحجار الكريمة والذهب والعاج والخيزران والعود والكافور والقرنفل والصندل والياقوت والبلور والفلفل الأسود . . . إلخ.

وأدت سيطرة الغزنويين على شمال الهند إلى توغل التجار الفرس بتجاراتهم فى داخل الهند، وكانت السفن الإسلامية تتعرض لغارات الهنود المتمركزين فى جزيرة سومطره(٢).

كانت أحجار الزمرد تصدر إلى الغرب عن طريق التجار الفرس، وكانت الهند تصنع وتصدر أنياب الفيل، وكانت القوافل تنقل البضائع الهندية من منطقة السند داخل بلاد الفرس عن طريق سجستان، وإلى الشمال تنقل قوافل البنجاب بضائع الهند عبر هضاب أفغانستان الشاهقة، وتأتى بها إلى كابل وغزنة، وأصبحتا من أهم مراكز التجارة بين الهند وبلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس وروسيا، وهناك تتجه القوافل من ناحية الغرب إلى خراسان، ومن ناحية أخرى إلى الشمال صوب بخارى، وكانت توابل الهند تنتشر فى هذه البقاع، وكانت سيلان تصدر اللؤلؤ(٣).

الطرق التجارية

كانت طرق التجارة العالمية تمر بالمشرق وهى:

١ ـ الطريق التجارى بين بلاد الروس والمشرق عن طريق بحر قزوين ومنه تنقل التجارة إلى بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر إلى الصين(٤).

٢ ـ الطريق التجارى الذى يصب من مصب نهر السند نحو فارس مارا بولاية

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص١٢٩.
(٢) بزرك: عجائب الهند ص١٣٠.
(٣) المصدر السابق ص٧٤.
(٤) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٤٨، ١٥٠.

سجستان، وإلى الشمال من هذا الطريق كانت القوافل تنقل من البنجاب البضائع إلى كابل وغزنة. ومن هناك تسير القوافل نحو خراسان غربا وبخارى شمالا.

٣ ـ الطريق البرى من غرب أوربا عبر الأندلس وبلاد المغرب ومصر إلى بلاد الشام والعراق إلى فارس والهند والصين(١).

وما دمنا نتكلم عن طرق التجارة، فلابد أن ندرس بإيجاز طريق الحرير العظيم الذى يمر بمدن المشرق الإسلامى، فظل طريق الاتصال بين أوربا والصين عدة قرون، وأهم ما يُنقل عبر هذا الطريق، الحرير الذى انفردت الصين بإنتاجه وكانوا يصدرونه إلى أوربا مقابل الحصول على بضائع الأوربيين، وكان طريق الحرير أحد أعظم الطرق التجارية فى العالم، لأنه لم يكن فقط طريقا لتبادل التجارة، بل كان طريقا لتبادل الثقافة، كالكتابة وأساليب الزراعة والصناعة وركوب الخيل وغير ذلك، وكان معبرا لانتقال الديانات فى العالم مثل الإسلام والمسيحية والبوذية وغيرها، وكان أداة لتبادل النباتات الفاخرة كالزهور. والنباتات العطرية والورد، والفواكه التى انفردت الصين دون سواها بإنتاجها، كذلك انتقل استعمال الخيول والجمال ذات السنامين من المشرق إلى العالم عبر طريق الحرير، والتقدم العلمى فى مجال الأسلحة وعلوم الطب والفلك انتقل من الصين إلى المشرق إلى أوربا عبر طريق الحرير العظيم(٢).

وطريق الحرير، طريق وعر شائك، فهو امتداد للصحراء الكبرى فى آسيا، يمتد فى طريق صحراوى من الصين إلى البحر المتوسط، وبعض أجزاء الطريق يمر بهضاب عالية وجبال مرتفعة، أى أنه يمر فى أكثر المناطق طردا للسكان. ولكن رغم ذلك بقى هذا الطريق مفتوحا لأهميته عدة آلاف من السنين. وقد أغرت الناس البضائع النفيسة(٣) التى تُحمل فى هذا الطريق مثل الحرير الصينى وعطور الجزيرة العربية والتوابل الهندية، وجواهر آسيا الوسطى، وقد حرص أهل آسيا الوسطى على استعمال الحرير فى زيهم وكسوتهم وتزيين بيوتهم(٤).

يمتد هذا الطريق مسافة خمسة آلاف ميل، ونظرا لوعورته فلم يكن يمر به إلا القليل من الناس، مثل التجار والوسطاء الذين يجنون أرباحا هائلة من استعمال هذا

(١) المصدر السابق.

(٢) إيرين فرانك، ترجمة أحمد محمود، طريق الحرير ص١٤.

(٣) المصدر السابق ص١٥.

(٤) رحلة ماركبولو جـ١ ص١٢.

الطريق. وكان هذا الطريق يتعرض من وقت لآخر لقطاع الطرق أو للحملات الحربية التى توقف الحركة التجارية المارة به.

واستقر هذا الطريق فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بعد أن سيطر المغول على آسيا، فسيطروا على الأمن فى هذا الطريق(١)، وانتظمت الرحلات التجارية فيه، وكثر استخدام المسافرين فى هذا الطريق، بل كتب بعض المرشدين دليلا يهتدى به الناس إلى المحطات فى الطريق. ومن أهم المدن التى تقع على هذا الطريق الرى وبخارى وسمرقند وطشقند وبلخ ونيسابور، وقد انتعشت هذه المدن بانتظام الحركة فى طريق الحرير، وأفل نجم هذه المدن مع أفول نجمه(٢).

الإدارة المالية

لكل دولة من دول المشرق بيت للمال، وله دخل ومنصرف. والدخل يأتى من الجزية التى يؤديها أهل الذمة من المسيحيين واليهود والمجوس، ويأتى أيضا من ضريبة الخراج التى تفرض على الأرض الزراعية، وشكلت المصادرات دخلا كبيرا للدولة وكذلك الضرائب على الدور والحوانيت، وضرائب التجارة فى الداخل تؤدى $\frac{1}{20}$ من صافى الربح، والتجارة مع الخارج يفرض عليها $\frac{1}{10}$ وكان دخل هذه الدول كبيرا؛ لأن مصادر الثروة كبير، ولم يكن هناك تهاون فى جباية الضرائب، وكانت نفقات الدولة تتم على الجيش ورواتب الموظفين والقضاة والعمال، وكان هناك فائض، حتى أن عمرو بن الليث الصفار كان يمتلك ثلاث خزائن مملوءة بالذهب والفضة(٣).

وكان دخل الدولة الغزنوية كبيرا جدا، بسبب الغنائم التى حصل عليها الجيش الغزنوى من حملاته المتكررة فى الهند.

وكانت الدراهم هى النقود المستعملة فى المشرق، وأدى انتعاش سوق المال والتجارة إلى ظهور أساليب جديدة فى المعاملات المالية، تيسر للعملاء سبل التعامل، فاستعملت السفاتج - جمع سفتجة - وهى حوالة خطاب، يشمل قدرا معينا من المال يكتب فى السفتجة، يصرفها المسافر من صراف محدد فى البلد التى سيصل إليها. والصك أشبه بالشيك، يثبت فيه قيمة الاستحقاق، وموعد استحقاق صرفه، وكان

(١) فرانك: المصدر السابق ص١٨.

(٢) رحلة ماركبولو: جـ١ ص٢٧، ٢٨، ٢٩.

(٣) الكرديزى: زين الأخبار ص٢٢٨.

الجهابذة يصرفون الصكوك لأصحاب الأمـوال المودعة لديهم نظير مبلغ معين من المال، ويشهد على الصك رجل ثم يختم. ويوقع عليه ضامن يتعهد بدفع قيمة الصك فى حالة عجز المدين عن دفع قيمـته. وكان هناك سوق للصرافين فى أصفهـان ونيسابور وشيراز وغيرها من مدن الإسلام(١).

كان للسلطان أو الأمير فى المشرق الإسلامـى، خزانتان، الأولى للإنفاق، والثانية تسمى الخـزانة الأصلية، وهى بمثابة خـزانة احتياطيـة فى حالة نفاد الأمـوال من خزانة الإنفاق، ومن واجب السلطان فى حالة اقتراضه مـالا من الخزينة الأصلية أن يعيده إليها فى أسرع وقت. وعليـه بإحصـاء الوارد والمنصرف، ويغطى نفقـات الموظفين والعـمال والولاة والجند، ويؤدى الصلات لأرباحها، وأن يصلح ما تحـتاجه البلاد من إصلاحات وعمارة. وكان للسلطان ألب أرسلان خزانة ـ ضـمن خزائنه فى قلعة قراهان، يلجأ إلى الأخذ منها فى حالة وجود عـجز فى خزائنه. ويجب أن تُراجع وتُدون حساب الولايات جيدا وبدقة، ويجب على السلطان ألا يتهاون فى حالة حدوث خلل فى مال الولايات. ويجب أن يحرص السـلطان على وجود فائض احـتياطى فى مـيزانيـة الدولة، حتى لا يحدث خلـل فى عجز يؤدى إلى اضطرابـات فى الدولة وتدهور أحوال الجند والعـمال والولاه.. وعلى السلطان أن يكون مـعتدلا فى إنفـاقه، أمينا على مـال الرعية ضـمانا لاستقرار دولته، واستقرار حكمه(٢).

٢ ـ المظاهر الاجتماعية فى المشرق الإسلامى

عناصر السكان:

لما فـتح العرب بلاد فـارس وخراسـان وما وراء النهـر، وهى بلاد الإمبـراطورية الفارسية القديمة ـ هاجرت إليها بعض القبائل العربية، واستقروا بها، واختلطوا بالفرس والتـرك ـ أهل هذه البلاد، وأصـبحت هذه البـلاد، بعد أن كـانت تشكل إمبـراطورية فارس، ولايات إسلامية، تجمعهـا وحدة الإسلام، ووحدة الانتماء إلى دولة واحدة هى الدولة الإسلامية الكبرى ـ أعنى الدولة العباسية، وكان نهر جيحون هو الحد الفاصل بين

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٢٣٨.

(٢) نظام الملك: سياسة نامه. ص٢٩٧ وما بعدها.

الترك والفرس. على أن الهجرات كثرت من أراضى الفرس إلى أراضى الترك على اعتبار أن ولايات المشرق جزء من دولة واحدة، واختلطت هذه الشعوب مع بعضها البعض. ومن ثم تغيرت التركيبة السكانية لهذه البلاد.

ويمكن تقسيم عناصر السكان فى هذه البلاد إلى:

١ ـ العرب

هم الذين تحملوا مشاق الفتح، وضحوا بأموالهم ودمائهم فى سبيل رفع راية الإسلام فى المشرق، وأسسوا المساجد، وأقام فيها العلماء والفقهاء والوعاظ، يعلمون أهل المشرق قواعد الإسلام، ويصلون بالناس ويفقهونهم فى الدين، ويعلمونهم اللغة العربية. وبجهودهم انتشر الإسلام بسرعة فى المشرق، بل درسوا علوم الدين واللغة، حتى برز منهم علماء فى علوم الدين واللغة. ولكن العرب عاملوا الفرس فى عهد بنى أمية على أنهم موال، وحرموهم من المناصب الرفيعة، وقد استاء أهل المشرق من ذلك، وعبروا عن سخطهم على بنى أمية، وناصروا الحركات المضادة لهم كالخوارج والشيعة، وقامت الدولة العباسية بجهودهم، وأعاد العباسيون إلى الفرس حقوقهم المشروعة فى المساواة، وتولوا المناصب الرفيعة فى الدولة العباسية، بل أقاموا دولا مستقلة ـ كما رأينا ـ ولكن تأثير العرب فى المشرق كان محدودا، فظل أهل المشرق يتمسكون بلغتهم الفارسية، وتقاليدهم.

٢ ـ الفرس

وهم الشعب الرئيسى فى المشرق، لم ينس أن العرب فتحوا بلادهم، وأفقدوهم أيام الإمبراطورية وأمجادها الغابرة، واعتزوا بقوميتهم وحضارتهم، وعبروا عن سخطهم على العرب بالشعوبية، وصنفوا الكتب التى تنظر إلى العرب على أنهم بدو متخلفون وأقل منهم فى مجال الفكر والحضارة، وتمسكوا بلغتهم ـ كما رأينا ـ وعبروا عن استيائهم من العرب بإظهار نحلهم القديمة ومحاولة إدخال الزندقة على الشباب المسلم بقصد إبعاده عن الدين السليم. وعلى الرغم من ذلك فإن رجال العلم من الفرس، ساهموا بدور رئيس فى ازدهار الفكر الإسلامى، نخص بالذكر منهم ابن سينا والفارابى وجابر بن حيان، وأصبحت المدن الفارسية فى المشرق مراكز حضارية كبيرة، مثل بخارى وسمرقند وأصفهان والرى، ولكن علماء الفرس اعتزوا بقوميتهم فألفوا الكثير من الكتب عن ملوك الفرس وسيرهم وأمجادهم وتراثهم، مثل الشاهنامه وغيرها.

٣- الترك

نزلت جماعة الحصون فى سمرقند فى القرن الأول الهجرى، وتحضروا على مر الزمان، وسموا بالهون البيض، وأسماهم الساسانيون، الهياطلة، وعرفوا فى الكتب العربية بهذا الاسم، وجلبهم الفرس فى المشرق على شكل جند، وكثر عددهم، وبرزوا وأثبتوا كفاءتهم فى الحروب وفى الجندية، وتدرجوا حتى وصلوا إلى قادة عسكريين أقوياء، أقاموا دولا كالغزنويين والسلاجقة والخوارزميين. ولم تظهر كلمة ترك إلا فى القرن السادس الميلادى. والأتراك قدموا من شرق آسيا، وأقاموا فى وسطها فى بلاد ما وراء النهر، وانتشر الإسلام بينهم بعد أن حكم السامانيون هذه البلاد، وكانت هذ الأقوام تسمى الأتراك، وأقاموا دولة القره خطائيين المسلمة، قضت على الدولة السامانية، وبدلا من أن يقوم هؤلاء الأتراك المسلمون بحماية بلاد الإسلام من خطر الكفار فى الشمال والشرق، إذ بهم - الأتراك - يقومون بشن حملات عدوانية على بلاد الإسلام(١).

ويرجع ظهور الترك فى البلاد الواقعة جنوب نهر جيحون إلى ما قبل القرن العاشر الميلادى، والتقوا بغزاة العرب فى جذخشان وأشد فروع الترك عنفا هم الغز، الذين أغاروا على بلاد المشرق مثل بلاد ما وراء النهر وخراسان(٢).

وعلى الرغم من غزوات الترك من القره خطائيين والغز للبلاد الإسلامية، واستيلاء الخطا الترك الوثنيين على بلاد ما وراء النهر فى حملات مدمرة، إلا أن الترك كجند فى جيوش المشرق أدوا دورا كبيرا فى نشر الإسلام وفى تحرير البلاد غير الإسلامية من الكفر. فقام الجيش الغزنوى بحملات على بلاد الهند، أدت إلى تكوين إقليم إسلامى فى شمالها، وانتشار الإسلام فى هذه البلاد، كما أن السلاجقة أقاموا دولة كبرى، واستولوا على آسيا الصغرى، ومهدوا لسقوط القسطنطينية، ونشروا الإسلام فى هذه البلاد. ولا ننس دور الخوارزميين القوى فى حماية الإسلام والمسلمين من خطر المغول.

وكما ينقسم المسلمون إلى عناصر، فقد انقسم المجتمع حسب الدين والمذهب إلى أقسام، منها أهل السنة والجماعة - وهم أنصار المذاهب الأربعة - والشيعة وهم فرق

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص٨٦.

(٢) المصدر السابق ص٩٠ وما بعدها.

متعددة، الإسماعيلية والاثنى عشرية والزيدية والنزارية - أتباع الحسن الصباح الذى ذكرنا تفاصيل مذهبهم - واشتدت الصراعات بين أنصار هذه المذاهب، وكثرت المجادلات والمناقشات بل والمعارك بين أنصار هذه المذاهب.

وانقسم أهل المشرق ككل، حسب الدين إلى المسلمين وغير مسلمين. والمسلمون هم السواد الأعظم، ثم يليهم المسيحيون واليهود والمجوس، وقد عامل المسلمون غير المسلمين معاملة تنطوى على العدل والتسامح والكرم. ومارسوا أعمالهم بحرية، بشرط أداء الجزية ولا يُفرض عليهم الإسلام، لأنه لا إكراه فى الدين. وكثر اليهود فى خراسان، وكانوا أكثر من النصارى، ومن الطبيعى أن يزداد عدد اليهود فى المدن التى تقع على طرق التجارة.

وكان يقيم فى المشرق أعداد كبيرة من المجوس، وعوملوا كأهل ذمة، يؤدون الجزية فى مقابل التمتع بحقوق المواطنة، وأنزل عضد الدولة البويهى العقاب بكل من تعرض لهم بسوء فى شيراز سنة ٣٦٩هـ(١)، واحتفل الذميون والمجوس بأعيادهم بإقامة الزينات فى الأسواق، وتبادلوا مع المسلمين المجاملات والهدايا والزيارات فى الأعياد.

ومارس أهل الذمة جميع الأعمال التى تتناسب مع خبراتهم، فكان منهم الأطباء والمهندسون والفلكيون والتجار والصيارفة والصيادلة وتدرجوا فى سلك الوظائف، حتى وصل بعضهم إلى أعلى المناصب فى المشرق(٢)، فشغل نصر بن هارون الوزارة لعضد الدولة البويهى، وأذن له بعمارة الأسواق والأديرة، وأطلق الأموال لفقراء أهل الذمة.

انقسم أهل المشرق الإسلامى إلى طبقات، الطبقة العليا الأرستقراطية وهم السلاطين والأمراء والحكام والولاة، وأبناؤهم وأفراد أسرهم ومن يلوذ بهم من الوزراء والكتاب ورجال الدولة، ويمتلكون ثروات كبيرة، تتمثل فى الضياع الواسعة والقصور الفخمة والأموال الكثيرة. والطبقة الوسطى وهم التجار والمهندسون والأطباء والشعراء والشيوخ والقضاة، وهؤلاء لا يجدون المال إلا فى ظل الطبقة العليا. والطبقة الدنيا، وهم السواد الأعظم من الفلاحين وكتاب الدواوين والعمال والجند والشرطة وصغار التجار. وهؤلاء يؤدون الضرائب الباهظة، ويقومون بالأعمال الشاقة، وإذا فشلوا فى أعمالهم ينضمون إلى العيارين وعصابات اللصوص وقطاع الطرق.

---

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم ص٣٢٣.

(٢) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٨٠.

٤- الرقيق

من العناصر التى كثر عددها فى المشرق الإسلامى الرقيق، وكانت أذربيجان وبلاد ما وراء النهر، تضم أسواقا عديدة للرقيق الأبيض، ومن الرقيق الجوارى الذى زاد الطلب عليهن لجمالهن. والغلمان الذين أقبل الأمراء والقادة على شرائهم، لأنهم عناصر مناسبة جدا للجندية، فيهم الشجاعة وقوة البأس، والقوة الجسمانية، والنمو السريع والخشونة والغلظة، وكان القادة يدربونهم على الجندية. وتاجر الرقيق يعرض الغلمان والجوارى فى غرف معدة لهم فى السوق، وينادى الدلال على غلمانه وجواريه، موضحا مميزات كل واحد منهم. ومن حق المشترى فحص الغلام أو الجارية فحصا جيدا، دون التعرض لحرمات الجسد، وعليه أن يتأكد عدم وجود تشويه أو مرض لدى المملوك. وفى حالة تعاقد المشترى مع التاجر على الشراء، من حق المشترى فحص دفاتر تاجر الرقيق ليتأكد، إن كان المملوك مسروقا أو حرا.

ومن أهم أنواع الرقيق، الخصيان، وكانت تُجرى عمليات للمماليك لإخصائهم أى إزالة صفاتهم ومقدرتهم الجنسية، وكان يموت فى هذه العملية الكثير من المماليك. ويباع الخصيان بثمن مرتفع جدا؛ لأنهم يعملون فى البيوت ويختلطون بنساء القصور. وكان هناك بعض جوانب الغش فى تجارة الرقيق، منها بيع المملوك على أنه خصى، وقد يكون غير ذلك. وقد شعرت امرأة فى بيت السلطان محمود الغزنوى بأن الخصى الذى يخدمها غير ذلك، وظهرت منه محاولة شهوانية نحوها، ولما حقق السلطان محمود الغزنوى فى شكواها، نكل بالمملوك وبائعه. وللجوارى أهمية كبرى، منها التسرِّى، وإذا أنجبت من سيدها تصبح أم ولد، أى لاتباع، ويبقى مسئولا عنها، وترتفع مكانتها، وتصبح وسطا بين المرأة الحرة والجارية. والجارية التى تتقن الغناء، وتتعلم الألحان، تزداد مكانتها وتباع بثمن مرتفع، وتعقد الحفلات بأدوارها الغنائية، وقد يستخدمها صاحبها فى إحياء حفلات الزواج والطرب.

والرقيق يعيشون حياتهم بلا أمل، ويشاهدون سادتهم ينطلقون فى مسيرة حياتهم بحرية، أما هم فينتقلون من مالك إلى مالك، وقد تساء معاملتهم من البعض، وقد يسخرون فى أعمال فوق طاقتهم، ولا أمل لهم فى الزواج، وممارسة الحياة الطبيعية، لذلك انتشر بينهم الشذوذ الجنسى، أو العلاقات غير المشروعة مع الجوارى، أو سيداتهم سيئى الخلق.

وكان الغلمان فى القصور يدربون على الطاعة وتنفيذ الأوامر ومنهم صاحب الماء والساقى وصاحب السلاح، وكان يكفل لهم سبل الراحة(١).

وكان هناك فى العهد السامانى قاعدة لتدرج الغلمان على قدر خدمتهم وفضلهم ولباقتهم، فالغلام يبدأ فى الركاب سنة ـ وهو راجل، ويرتدى الملابس القطنية البيضاء، ولا يؤذن للغلام طوال السنة بركوب الخيل، فإذا مضت سنة، ألبسه عريف الغلمان قباء وأعطاه جوادا له سرج من جلد خام ولجام من معدن، فإذا خدم السنة على الجواد، وأثبت جدارة، أعطوه سيفا، يربطه على وسطه. وفى السنة الرابعة، قوسا وكنانه، يشدها إذا ركب. وفى السنة الخامسة سرجا أجمل ولجاما مكوكبا، وخلعوا عليه قباء مصنوعا من القطن المخلوط بالحرير، وشد إلى حلقة سرجه دبوسا. وفى السنة السادسة، يؤمر بالسقاية مع صاحب الخيل، وشد إلى وسطه قدحا. وفى السنة السابعة، لبس ثياب الشرف. وفى السنة الثامنة، أعطى خيمة ذات ستة عشر وتدا، وجعل فى خيله ثلاثة غلمان، حديثى العهد، ولقب «عريف الغلمان» وارتدى قلنسوة من لبد أسود موشّى بالفضة، وخلعوا عليه قباء من حرير، فإذا أثبت لياقة وكفاءة ومقدرة، وكان حسن السمعة محبا لمولاه، يصبح عريف الخيل فحاجبا. فإذا أخلص لمولاه، وكان حسن المعشر لا تعقد له الولاية إلا فى سن الخامسة والثلاثين(٢).

ومن العبيد الذين وصلوا إلى مكانة كبيرة فى المشرق، ألبتكين كان عبدا للسامانيين، وتدرج إلى منصب حاجب، وقائد الجيش، وغضب عليه الأمير السامانى منصور بن نوح، فلجأ إلى غزنة واستولى عليها، وكون بها نواة الدولة الغزنوية، واشترى ثلاثين غلاما، منهم سبكتكين، ولمس فيه الذكاء والشجاعة، فاستثناه من مراسم تدرج الغلمان ـ الذى أشرنا إليه ـ وعينه قائدا للجيش. والمملوك إذا أخلص، يصبح أهم من الولد، وقيل: لمملوك واحد مطواع خير من ثلاثمائة ولد، فهؤلاء يتمنون موت أبيهم، وهذا يتمنى بقاء مولاه، وكان التونتاش عبدا للسلطان محمود الغزنوى، حاجب الحجاب ثم أمير خوارزم.

وكان يعيَّن لكل مملوك موضع وقوفه من الملك أو السلطان، فحملة السلاح والسقاة وغيرهما. ولا يجوز أن يتجاوز الواحد منهم موقفه، وانتشرت أسواق الرقيق فى

(١) نظام الملك: سياسة نامه ص١٢٨.

(٢) المصدر السابق ص١٢٩.

بلاد ما وراء النهر وخراسان، الذى كان يجلب من أواسط آسيا إلى خراسان وكان يجلب من روسيا وبلاد البلغار. وهم رقيق متميز فى المقدرة والذكاء والجمال، فالمملوك إذن يعمل بالجندية أو الخدمة فى البيوت أو مساعدة سيده فى تجارته أو صناعته أو زراعته أو مرافقته، ويستطيع أن يعمل ويتكسب خارج نطاق سيده، ويجمع المال الكافى لتحرير نفسه، أما الجارية فهى للخدمة أو التسرى أو الغناء فى الحفلات الكثيرة مثل حفلات الزواج أو الختان. ومن أشهر مطربات غزنة ستى زرين، وكان بغزنة حى للملاهى، يسمى شادى أباد يقدم فيه المغنيات أغانيهم ويقبل الناس على الاستماع إليهن نظير أجر، كما أن رئيس هذا الحى، يتعاقد مع طالبى عقد الحفلات(١).

المرأة فى المشرق الإسلامى

أتيح للمرأة فى قصور الحكم الفرص للتدخل فى شئون السياسة والحكم، فتولت سيدة الوصاية على ابنها مجد الدولة، وما لبثت أن أصبحت حاكمة للدولة البويهية، كما أن تركان خاتون ـ زوج ملكشاه ـ وهى من بنات خانات ما وراء النهر ـ تسلطت على زوجها ملكشاه، وأجبرته على تعيين ابنها محمود الطفل ولاية العهد، بدلا من ابنه بركياروق الشاب. وكان ذلك سببا لإيقاع المنازعات بين ملكشاه ونظام الملك، حتى عزل هذا الأخير، رغم مكانته الكبيرة، وتدهورت الدولة السلجوقية بسبب ذلك.

تركان خاتون أم محمود بن ملكشاه، الطفل، وزبيدة خاتون أم بركياروق ابن ملكشاه الشاب، والابن الأكبر ـ الذى هو أحق بولاية العهد من إخوته، ومع ذلك نجحت تركان خاتون فى إقناع زوجها السلطان ملكشاه بإسناد ولاية العهد إلى ابنها محمود، بدلا من بركياروق، مما أدى إلى حروب بين الأخوين، وعجّل بضعف الدولة السلجوقية وانهيارها(٢).

حرض كبار رجال الدولة، تركان خاتون على محاربة بركياروق، والتخلص منه حتى يصفو الجو لابنها محمود، فراسلت تركان خاتون، خال بركياروق، وحرضته على محاربة بركياروق والتخلص منه مقابل مال كثير، وعرضت عليه الزواج منه، وأرسلت

(١) تاريخ البيهقى ص٦٤٩.

(٢) البندارى: تاريخ دولة سلجوق ص٨٣.

إليه الأموال والسلاح والجند، ودارت الحرب بين بركياروق وخاله الذى فرج بعرض تركان خاتون الزواج منه ـ وهى من أجمل نساء عصرها ـ ولكن بكياروق هزم خاله وقتله، وحل الدهر هذه المشكلة بين الأخوين بمرض محمود وموته، وصفا الجو لبركياروق، وانفرد بالسلطنة(١).

وسعدت زبيدة خاتون بانفراد ابنها بركياروق بالسلطنة، وموت محمود ثم موت ضرتها تركان خاتون، وازداد نفوذها فى الدولة السلجوقية، ونشأت علاقة غرامية بين الأمير آسفهلار كمشتكين الجاندار، وبين زبيدة خاتون ـ أم السلطان بركياروق ـ واتهم العشيقان بممارسة علاقات غير مشروعة، وتفشت الإشاعات حول هذا الموضوع فى السلطنة، وانشغل هذا الأمير عن مواجهة حملات تتش - صاحب حلب - التى تهدف إلى تولى السلطنة وانتهت حياة العشيقين بالقتل(٢).

وتزوج طغرل ـ آخر سلاطين السلاجقة من زوجة عمه جهان بهلوان ولكن رجاله خوفوه منها، وقالوا له: إنها تدبر مؤامرة لقتله، كما فعلت مع عمها قزل أرسلان، لتتيح الفرصة لابنها أيتاخ بن البهلوان، لتولى الحكم، فدس طغرل لها السم وقتلها(٣).

كذلك ازداد نفوذ تركان خاتون ـ أم السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد خوارزمشاه ـ فى الدولة الخوارزمية، وكانت تتدخل فى الشئون السياسية والإدارية والمالية فى الدولة، وكان لها حاشية وكتاب وندماء، وتعقد مجالس أدبية وموسيقية وغنائية فى قصرها، وأقنعت ابنها السلطان علاء الدين محمد بإسناد ولاية العهد إلى ابنه الطفل، أزلاغ بدلا من ابنه الكبير جلال الدين منكبرتى القوى، ولكن أمكن تدارك هذا الأمر، وولى جلال الدين السلطنة التى تتعرض لأخطار جسيمة من قبل المغول. ويقول نظام الملك(٤): المكان الطبيعى للمرأة، البيت، وإنجاب الأولاد، وما تسلطت إمرأة على سلطان فى عهد من العهود، إلا نتج عن ذلك الشرور والفتن.

وكانت زوجة الأوزبك بن البهلوان ـ آتابك أذربيجان ـ تشارك زوجها فى حكم البلاد، ولما هرب من غزو جلال الدين منكبرتى، حكمت هى البلاد، غير أنها أعجبت

(١) الراوندى: راحة الصدور ص٢١٨.

(٢) الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية ص٧٥، ٧٦.

(٣) الراوندى: راحة الصدور ص٣٦٧.

(٤) سياسة نامه ص٢٠٢.

بجلال الدين، وأشهدت الشهود على أن زوجها البهلوان قد طلقها بسبب يمين طلاق لم ينفذه، وتزوجت من القائد الشجاع جلال الدين منكبرتى ـ التى أحبته وقدرت شجاعته ورجولته.

وقد شغلت بعض النساء وظائف رئيسية فى المشرق، فكانت ستى زرين مُقرّبة للسلطان مسعود الغزنوى، وبلغت منصب الحجابة فى قصر السلطان وقد عهد إليها بتبليغ رسائله إلى نساء القصر(١).

كذلك تمتعت المرأة المغولية بنفوذ كبير، وازداد نفوذها فى الدولة، فلما توفى أوكتاى سنة ٦٣٥هـ- ١٢٤١م، اتفق الأمراء على إسناد حكم الإمبراطورية المغولية إلى زوجة السلطان المتوفى، توراكينا خاتون، إلى أن ينعقد القروليتلاى، ويقرر انتخاب خان جديد للبلاد، وظلت هذه المرأة تحكم الإمبراطورية المغولية المترامية الأطراف ثلاث سنين، وأثبتت جدارة وكفاءة فى الحكم. ولما انعقد القروليتلاى، انتخب ابنها كيوك خانا للإمبراطورية، فاعتذر عن الحكم، وبقيت أمه توراكينا تحكم البلاد سياسيا وعسكريا حتى وفاتها ثم وفاته هو ـ أى كيوك ـ سنة ٦٤٧هـ - ١٢٤٩م فحكمت البلاد أرملته أغول غايمش خاتون، حتى تم انتخاب خان جديد. وكان لهذه المرأة دور سياسى نشط، فى الحكم والإدارة(٢).

وفى غضون ذلك برزت فى إمبراطورية المغول امرأة أدت دورا كبيرا فى الحياتين السياسية والاجتماعية فى البلاد، وهى فاطمة خاتون، فحين استولى المغول على مشهد على الرضا، وقعت فاطمة أسيرة فى أيدى المغول، وأتوا بها إلى قراقورم ـ حاضرة المغول ـ وبيعت بواسطة الدلالين فى السوق إلى توراكينا، وأحبتها لذكائها ودهائها، واتخذتها مستشارة ونديمة لها، وازداد نفوذ فاطمة، وتقربت إلى جغتاى بن جنكيزخان، وقدرها ورفع من مكانتها، وسيطرت على عقل الأمير جغتاى، فتقرب الناس إليها. وكان المسلمون فى الدولة المغولية يتقربون إليها لنسبها العريق. ولكن رجلا علويا يسمى شيره، حقد عليها، واتهمها باستخدام جمالها وجاذبيتها فى تحقيق أغراضها عند قادة المغول، ودبر هذا العلوى الدسائس لفاطمة واتهمها بتدبير موت كيوك، ونفت التهمة الموجهة إليها، وتخلت توراكينا عن فاطمة، بل طلب من هذا السمرقندى العلوى أن

(١) عصام الفقى: الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق.

(٢) عطا ملك جوينى: تاريخ جها نشكاى ص٢٢٢، ٢٢٤.

يحاكم فاطمة التى نفت التهم الموجهة إليهـا، فأمرها بخلع ملابسها، وتركها عارية دون طعام أو شراب، وألحق بها ألوان التعذيب، فاعترفت بتهم لم ترتكبها، فأمر بقتلها[١].

وكان لهـولاكو خان ذرارى ونسـاء كثيـرات، وامرأته العظمى دوقـوز خاتون من أصل عريق ـ من قبيلة كرايت ـ وكانت زوجـة لأبيه، لذلك كانت مفضلة على زوجاته الأخريات، ولم يكـن أبوه تولوى قد دخل بها، وكـانت تتمـتع بمنزلة كبـيرة فى الدولة المغولية، و لما كانت مسيحية الأصل، فـقد سعت إلى مؤازرة المسيحيين فى دولة المغول، وقوى حـال المسيحيـين فى عهدها، وكـان هولاكو يرعاهم إكـراما لها، لذلك أقـيمت الكنائس فى كل الولايات، وتوفيـت بعد هولاكو بعدة شـهور، ومنح أباقاخان قـصرها لابنة أخيه توقيتى خاتون ـ وكانت محظية لهولاكو ـ[٢].

وبعد وفاة قوبيلايقا آن، أرسلت الزوجة الكبرى كوكجين خاتون إلى ابنها تيمور، ليجلـس على عرش أبيه، ونـازعه إخوته على الـعرش، ولكن الأم أصرت علـى تولية تيمور، لأنه أكفأ وأكثر مـقدرة. وازداد نفوذ زوجات المغول، وحكمن الإمبراطورية فى غياب الخان، وغفلة أزواجهـن، وحكمت ساتى بك إمبراطورية المغول ـ وهى أخت أبى سعيد وزرج جويان[٣] ـ وعند المغـول يتزوج الرجل من زوجـات أبيه إلا أمـه، والزنى عندهم فاحشة مـروعة، لذلك قل انتشاره جدا، وتعدد الزوجـات شائع عندهم وكذلك المخطيات. ونلاحظ وفاء الزوجة لزوجها والزوج لزوجته، وتعدد الزوجات قد يصل إلى عشـرة أو عشرين، ويسود بين زوجـات الرجل الواحد الوئام والانسجـام، والمرأة تهتم بأولادها وبيتها بشكل يدعو إلى التقدير. واحتـفالات الزواج عندهم رائعة وفخمة، كما وصفها ماركبولو[٤].

وخيام المغـول مصنوعة من قضبان مـغطاة باللباد، ويمكنهم بسهولة جمـعها فى حزمة واحدة، وحمـلها معهم فى أسفارهم على عربة لها أربع عـجلات، وإذا نصبوها أقاموا واجهة مدخلها نحو الجنوب، وعندهم مـركبات ممتازة لها عجلتان، بحيث تحمى من يركبـها من المطر، وتجرها الثيـران أو الجمال، ويحـملون عليها زوجـاتهم وأطفالهم

(١) عطا ملك جوينى: المصدر السابق ص٢٢٦.

(٢) رشيد الدين فضل الله الهمذانى: جامع التواريخ ص٢٢٢.

(٣) فؤاد الصياد: المشرق الإسلامى فى عهد الدولة الإيلخانية ص٥١٠.

(٤) ماركبولو: الرحلة جـ١ ص١٤٠.

وجميع أمتعتهم ومؤنهم، والنساء يقمن بالشئون التجارية من بيع وشراء، ويزودون أزواجهن وأولادهن بما يحتاجون من ملابس ومؤن؛ وذلك لأن وقت الرجال موجه كله للحرب والقتال والصيد. وخيام المغول تتجه نحو الجنوب للاحتياط من شر الرياح الشمالية(١).

وما دمنا قد تكلمنا بإسهاب عن نساء القصور، فلا بد أن نتكلم عن النساء من عامة الشعب؛ لأنهن شاركن فى الحياة الاجتماعية مشاركة فعالة، فالمرأة تعيش فى البيت، وتخدم أسرتها، وتحتجب نهائيا عن الناس، ولكن نظام الرق قلل من شأنها كزوجة، فالأسرة المتوسطة تضم الكثير من الجوارى الجميلات التركيات، وانصرف الزوج فى كثير من الحالات عن زوجته، وفضل الجوارى عليها.

وشاهد بعض الرحالة النساء يشاركن أزواجهن فى أعمالهم اليومية فى الزراعة أو صناعة الآلات والسكاكين والمقصات، ويشتغلن بالإبرة فى التطريز ونسج الملابس(٢). وشهد المشرق بعض أهل العلم من النساء مثل شهدة بنت الأبرى بن دينور، مدرسة واعظة، كاتبة ـ أديبة، لها مجلس علم، توفيت سنة ٥٧٤هـ.

رغب الإسلام فى الزواج، حتى يستمر النسل؛ لأن النسل قد يتضمن الولد الصالح الذى يدعو لأبيه ويحمل ذكراه ويطلب له الشفاعة، ويشترط فى عقد الزواج الولى، وإذا لم يوجد، فوليها السلطان أو من ينوب عنه، ولابد من رضا المرأة بالزواج وحضور شاهدين ظاهرى العدالة، ثم الرضا والقبول، ولا يجوز عقد زواج الكافرة المشركة، أو عقد زواج امرأة طلقها زوجها أو مات عنها قبل العدة المحددة فى الشرع. ويجب التأكد من أن المرأة ليست مجوسية أو وثنية أو زنديقة، ولا تكون الزوجة قريبة للرجل القرابة التى حددها الشرع مثل العمة، أو الخالة أو الأخت أو زوجة الأب أو الأخت فى الرضاعة إلى آخر ما حُدد فى الشرع(٣).

* * *

(١) المصدر السابق جـ١ ص١٣٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص٤٧٨.

(٣) الغزالى: إحياء علوم الدين جـ٢ ص٣٦.

المناسبات الدينية والاجتماعية

اهتم أهل المشرق بالاحتفال بالأعياد الدينية، مثل عيد الفطر وعيدالأضحى، وكذلك الأعياد الفارسية، مثل النيروز والمهرجان. والنيروز هو عيد الربيع. وفى هذا اليوم يتساوى الليل والنهار، ويحتفل الناس بهذا اليوم؛ لأنه بداية فصل جديد، يعتدل فيه المناخ، ويرشون الأماكن بالماء، اعتقادا منهم أن ذلك يلطف حرارة الجو، وفى هذا اليوم يتبادل الناس الهدايا والزيارات ويخرج الناس إلى المتنزهات والحدائق العامة.

أما عيد المهرجان، فهو أول أيام الشتاء، ويأتى بعد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوما، والناس يحتفلون به ويتبادلون الهدايا، وفى هذا اليوم تخلع ملابس الشتاء على موظفى الدولة، ويغيّر العامة فيه الملابس والفرش والآلات والملابس. وفى هذا العيد يقدم الناس الهدايا إلى السلطان، ويخلع السلطان فيه ملابس الشتاء على كبار موظفى الدولة.

وكان السلطان يجلس فى قصره فى هذا اليوم يقدم رؤساء المدن الهدايا إلى السلطان عن طريق وكلائهم فى القصر، ويقدم السلطان لهم الهدايا فى المقابل، وينشد الشعراء قصائدهم ويقدم المطربون والمغنون ألوان الغناء، ويصل السلطان الحاضرين بأجمل الصلات، وأحيانا يقام عرض للجيش(١).

ومن احتفالات أهل المشرق، الاحتفال بيوم عاشوراء وهو يوم حزن وحداد عند الشيعة فى المشرق لأنه يوافق اليوم العاشر من المحرم، ذكرى مقتل الحسين بن على ابن أبى طالب، على أن يوم عاشوراء عند السنة يوم عبادة، يصومون كما صام الرسول فى هذا اليوم، ويقضونه فى العبادة وقراءة القرآن الكريم.

ويسمى الفرس عيد الربيع، ركوب الكوسج. وفى هذا اليوم يُركبون أمرد حصانا قويا، ويرتدى هذا الرجل ثوبا ويلبس عمامة، ويحمل مروحة فى يده، ليروح بها على نفسه، ويربط بعضا من صور الشتاء بحبل على وسطه، وهو يشير بذلك إلى انتهاء البرودة(٢).

---

(١) تاريخ البيهقى ص٣٠٣ - ٣١٧.

(٢) الكرديزى: زين الأخبار ص٤١٤.

وعند الفرس عيد خاص بالنساء، حيث كن يخدمن الرجل وفق مرادهن، ويكتبون فى هذا اليوم على الرقاع، تعاويذ تزيل الحشرات والآفات الضارة(١).

وكانت حفلات الزواج تتم بشكل يتجلى فيه الترف والثراء، فحين زفت ابنة أبى كاليجار ـ والى طبرستان ـ إلى السلطان مسعود الغزنوى، زُفت إليه على سرير كأنه البستان، به ثلاث أشجار من الذهب، أوراقها من الزمرد والفيروز، وثمارها من أنواع اليواقيت، ويحيط بهذه الأشجار الثلاث عشرون من آنية النرجس وأصناف الورد والرياحين، كلها من الذهب والفضة مملوءة بالعنبر والكافور(٢).

ولما تزوجت ابنة السلطان ملكشاه - تركان خاتون - من الخليفة العباسى المقتدى فى بغداد، أنفُق فى حفل عرسها قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، فنقل جهاز العروس على مائة وثلاثين جملا مزينة بالديباج الرومى، وكان أكثر الأحمال ذهبا وفضة وعلى ستة منها اثنى عشر صندوقا من الفضة، لا يقدر ما فيها من الحلى والجواهر، ويتضمن الجهاز مراكب من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر، وقدم نظام الملك ورجال الدولة السلجوقية ونساء قصر الخليفة هدايا للعروسين لا تقدر بثمن وألقيت على الحاضرين الدنانير والدراهم. ولم توفق تركان خاتون فى زواجها، فقد أعرض عنها الخليفة، لأن القصر مليء بالجوارى من كل جنس، وانصرف عن زوجته هذه إلى الجوارى فأرسلت تشكو إلى أبيها السلطان، فاستدعاها إليه، وعادت إلى أبيها حيث توفيت كمدا وحزنا(٣).

المجالس الاجتماعية

حرص أهل المشرق على استغلال أوقات فراغهم فى جوانب اجتماعية هامة مثل الخروج للصيد والمبارزة، وحمل الأحجار الثقيلة، حتى يتعودوا على النشاط، ومواجهة الصعاب بخفة ويسر، وكان بعض الأمراء فى المشرق، يبارزون الأسود، وكان مسعود الغزنوى يخرج للصيد على ظهر الفيل، وكان الصيد يتم أحيانا بواسطة الفهود والكلاب والصقور.

(١) المصدر السابق ص٤٠٨.

(٢) تاريخ البيهقى ص٤٢٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٨٠.

ومن وسائل التسلية ركوب سفن فى الأنهار، يصطحبون فيها العلماء والندماء والمطربين، وكان السلطان مسعود الغزنوى، يتخذ عاملا له، يشرف على الصولجان والسلاح والحراب ورمى السهام والرياضات الأخرى.

وكانت فى مدن المشرق مطربات، يذهب الناس إليهن لاستماع الغناء، ومن أشهرهن فى غزنة ستى زرين(١).

ومن أهم المجالس الاجتماعية فى مدن المشرق، مجالس الوعظ والقصص، وتجلت فى هذه المجالس القصص المؤثرة فى نفوس العوام والنساء - رواد هذه المجالس - وتدور حول قصص الأنبياء والصالحين، وقصص خيالية من الإسرائيليات وعذاب القبر وأهوال يوم القيامة، والحديث عن أهل الزهد والتقوى وكراماتهم، والحديث عن محن آل بيت الرسول ﷺ. وبعض هؤلاء الوعاظ كان ضعيف المستوى فى الدين واللغة، لذلك تصدت الدولة من خلال المحتسب لمنع هؤلاء الجهلة من ممارسة نشاطهم، وكان بعض الوعاظ والقصاص شديد التأثير فى حديثه، فكان الرجال والنساء يبكون لهول ما يسمعون، وبعض النساء تصرخ والرجال يتنابهم الإغماء والتشنج. لذلك وجدت هذه المجالس رواجا كبيرا وإقبالا شديدا من العوام.

وشهد المشرق الإسلامى وعاظا أثروا فى الناس بعلمهم الغزير فى الفقه والأصول والحديث وأشعار الصوفية والمقدرة الخطابية، ومنهم أحمد بن محمد بن أحمد الطوسى - أخو الغزالى - وكان حسن المظهر ورعا درس فى النظامية بعد أخيه، واختصر كتاب أخيه «إحياء علوم الدين» ومن كتبه «الذخيرة فى علم البصيرة» ت٥٢٠هـ(٢).

ومن أهم وسائل التسلية الصيد والرماية ولعب الشطرنج

الصيد حلال للملوك من أجل الرياضة والنزهة. وليتمتعوا به ويلتمسوا به طعاما حلالا؛ فإن الناس كانوا يشترون صيد حصان عربى، حتى يأكلوه حلالا طيبا. وكل حيوان يدرب على الصيد، فيكون ما اصطاده حلالا، وتدريب الحيوانات على الصيد موكول هناك لرجال الصنعة حتى يقرروا أن هذه الحيوانات صارت مدربة.

(١) العتبى: تاريخ اليمنى ص٢٩١ - ٢٩٩.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص٩٤.

ويجب ألا يتوقف الصياد وحيوانات الصيد عن السعى فى إثر الصيد وذبحه إذا أمكن. وإذا مات الصيد قبل أن يصل إليه الصياد، فإن هذا الصيد يكون حلالا، بشرط ألا ينشغل الصياد بشىء آخر غير الصيد، وبشرط ألا يسقط الصيد من أعلا إلى أسفل، وألا يسقط فى الماء، ويستثنى من ذلك كل ما أكلت جوارح الصيد من لحمه فإنه لا يحل(١).

السباق والرماية

وأجاز العلماء للناس أن يلهوا بالشىء الذى فيه المصلحة، مثل الرماية وسباق الخيل، فهما حلال لأنهما من وسائل غزو الكفار والجهاد، فأحلهما الرسول ﷺ وقال: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به. والممد به اركبوا، ولأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا. كل ما يلهو به الرجل إلا رمية بقوسه، أو تأديبه فرسه أو ملاعبته أهله، فإنه من الحق. ومن علم الرمى ثم تركه فهى نعمة كفرها»(٢).

ويجب على الشخص إذا تعلم الرمى أو ركوب الخيل أن ينوى أن يتعلم ذلك ليحارب الكفار وأعداء الله عز وجل، فإنه ينال ثواب هذه النية(٣).

ويجوز شرعا وضع رهان على الرمى بالسهام أو سباق الخيل، كأن يخرج الواحد عشرة سهام ليرميها أو يعين حصانا ويقول: «أنت خصمى، إذا أصبت الهدف بهذه السهام العشرة، فهذا المال لك، وإذا أصبته فهولى، فكل من يوفى الشرط يكون المال ماله، وإذا أصاب الاثنان الهدف أو أخطأه معا يكون المال ملكا لله. ويجب أن يبين عدد السهام والمسافة بين الشخص والهدف حتى تصح المباراة.

وأما إذا قال شخص لآخر: إذا أصبت الهدف فسوف أعطيك قدرا من الدنانير، وإذا أصبته أنا فسوف آخذ منك هذا القدر من الدنانير، عد ذلك ميسرا وكان محرما.

وكذا الحال فى سباق الخيل إذا كان هناك رهان من جانب واحد، كان ذلك جائزا. أما إذا كان من الطرفين عد غير مستساغ إلا إذا جاء بينهما محلل، وكان مثالهما فى الفروسية والركوب. ويجب أن تعين المسافة والميدان.

(١) الراوندى: راحة الصدور ص٥٩٦.

(٢) الراوندى: راحة الصدور ص٥٩٢.

(٣) المصدر السابق ص٥٩٣.

ويجب على الشخص الذى يلعب الشطرنج، أن يجعل نصب عينيه قتل الملك فيجد فى كل مرة حتى يلعب أحسن من سابقتها، وعليه كذلك أن يراقب كل أنواع اللعب، وينظر بإمعان إلى جميع المربعات ليتقن إصابة الأهداف.

والشطرنج هو لعبة الحكماء وأرباب الفهم وذوى الخواطر السريعة، فينبغى فيها الجهد لكى يتقنها اللاعب؛ لأن من يلعب رديئا ليس له عذر قط إلا العجز والإقرار بأنه لعب رديئا وقد رووا أن الخليفة المأمون كان يقول: «إذا لعبت النرد وخسرت فإننى أقول: إن الحظ لم يكن مواتيا، أما إذا لعبت الشطرنج وخسرت فما عساى أن أقول غير أننى عجزت عن أن ألعب جيدا فلعبت رديئا.

أرض مربعة حمراء من أدم ... ما بين شخصين موصوفين بالكرم

تذكرا الحرب فاحتالا لها شبها ... من غير أن يعبثا فيها بسفك دم

هذا يغير على هذا وذاك على ... هذا يغير وعين الحرب لم تنم

فانظر إلى خيل جاشت بها همم ... من عسكرين بلا طبل ولا عَلَمِ(١)

المؤسسات الاجتماعية

انتشرت المؤسسات الاجتماعية فى المشرق الإسلامى، وفى المدن بصفة خاصة، مثل المساجد للصلاة والعبادة وطلب العلم، يجتمع فيها الطلاب بشيوخهم فى أوقات معينة لدراسة مختلف فروع العلم، ويجتمع فيها الطلاب لحفظ القرآن الكريم، وبالمدن المشرقية بيمارستانات لعلاج المرضى، وتدريس علم الطب عمليا ونظريا للطلاب، وبها دور الأيتام لرعايتهم وتعليمهم، وانتشرت الحمامات فى المدن للرجال والنساء، وكانت النساء تجد تسلية كبيرة يوم ذهابهن إلى الحمام، فمن ناحية يجتمعن أمام الحمام للحديث ورواية الأخبار، وتتعرف كل واحدة على الأخرى ومن خلال هذه المعرفة، يشاهد النساء، البنات، وتختار من البنات من يلائم أولادهن الشباب للزواج، يضاف إلى ذلك أن الحمام فرصة تنظف المرأة جسدها وتتعطر، وتنسق شعرها بعد تنظيفه، وتعود إلى بيتها فى أجمل صورة. وهناك محظورات فى استعمال الحمام ذكرها الغزالى منها: كشف العورات والنظر إليها، ومنها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنظيف الجسد، ولا يجوز للدلاك أن يضع يده فى داخل الإزار عند التدليك، حتى لا يمس العورة، فإن مس العورة حرام كالنظر إليها ولا يجوز غسل الماء والثياب فى ماء الحموم؛

(١) الراوندى: راحة الصدور ص ٥٧٦ ، ٥٧٧.

لأن هذا الماء نجس ويجب غسل الحمام جيدا وباستمرار وإزالة آثار الصابون فيه، لأنه قد يسبب فى زحلقة المارين بالحمام، وقد يؤدى إلى كسر بعض أعضائهم[1].

وتقضى عادات المغول ألا يستحم الإنسان فى الربيع والصيف نهارا، ولا يغسل ثيابه فى الغدير، ولا يحمل الماء فى أوانى الذهب والفضة، ولا ينشر الملابس المغسولة فى الصحراء؛ لأن ذلك يسبب فى زعمهم زيادة العواصف والرعود، وبقيت هذه العادات عند المغول حتى بعد إسلامهم.

ويوجد بمدن المشرق الإسلامى الخانات، ويقيم فيها الغرباء نظير أجر، والتجار الغرباء، وتتضمن مخازن لبضائعهم، ودكاكين لإعداد الخبز والطعام، ودكاكين لعرض بضائعهم، وللخان له أبواب حديد وحراسة مشددة.

وتوافرت مياه الشرب فى المدن المشرقية، ووجدت السبل التى تتضمن أوانى مياه لشرب المارين من الناس، وانتشرت الأسبلة، حتى أن ابن حوقل يذكر أن بسمرقند أكثر من ألفى سبيل، والسبل أقيمت على الطرق العامة، لتيسير شرب الماء للواردين والمارين. وكان هناك السقاء الذى يضع المياه فى قربة من الجلد، ويدور فى الأسواق وحول المساجد وفى الأماكن العامة والطرقات، لإمداد الناس بالماء وهناك مجارى ماء وآبار معدة لشرب الحيوانات على حافة المدن وفى داخل شوارع المدينة.

وضمت المدن الإسلامية الخنقاوات والرباطات ويقيم فيها المتصوفة، وقضى الإمام الغزالى أيامه الأخيرة فى رباط ببلدته، ومن الملاحظ أن الوقف انتشر فى المشرق الإسلامى وهو وقف مبلغ من المال على أعمال البر والخير؛ لأن الدولة الإسلامية لا صلة لها بتنظيم شئون الأفراد ورعايتهم، وإنما اقتصرت سياستها نحو الرعية على تحصيل الضرائب، لذلك قام أهل الخير من الأفراد بوقف قدر من المال على الأعمال الخيرية، مثل رعاية طلاب العلم، والإنفاق على إدارة البيمارستان وتقديم الطعام والدواء للمرضى وأجور العمال والأطباء، والإنفاق على إدارة المساجد مثل تأثيثها، ورواتب عمالها من وعاظ وشيوخ وعمال وحراس. كذلك الإنفاق على السبل ودور الأيتام ورعاية الفقراء والرباطات والخنقاوات، والإنفاق على من فيها من الصوفية إلى غير ذلك من أعمال البر والخير.

ويبدأ اليوم فى المدينة الإسلامية فى المشرق مع بداية صلاة الفجر، وبعد الصلاة يذهب كل رجل إلى عمله، الصانع والتاجر وموظف الديوان والشرطى والحارس،

---

(١) إحياء علوم جـ٢ ص٤٨٢.

وتنشط الحياة فى المدينة حتى المساء، وتزدحم الأسواق بالناس، وفى السوق وفى المسجد يلتقى الناس مع بعضهم البعض للحديث عن كل أحوال المدينة. وما قد يطرأ فيها من أحداث سياسية وعلمية واجتماعية واقتصادية، وتظل المدينة فى نشاط مستمر حتى انتهاء صلاة العشاء، ويذهب الناس إلى بيوتهم، ويخيم على المدينة ظلام دامس وتغلق أبواب المدينة، ويقف الحراس أمام الأبواب أو على أبراج فوق الباب أو السور، لمراقبة من قد يحاول دخول المدينة من الجواسيس واللصوص والأعداء.

وهناك تناقضات كبيرة فى مجتمع المشرق الإسلامى، فهناك المسلمون ـ وهم الغالبية العظمى - والمسيحيون واليهود والمجوس، والمسلمون مختلفون عن بعضهم البعض، فالمسلمون الشيعة، والشيعة فرق، والسنة مذاهب، وكل هذه المذاهب السنية أو الشيعية فى مجادلات وانقسامات كثيرة بسبب الخلاف فى المذهب، وتكفر كل طائفة الطائفة الأخرى. كذلك تفشت البوذية فى أقصى المشرق وآمن بها المغول، ووفدت عليهم من الهند والصين، ولكن بمرور الوقت اعتنق أغلب المغول الإسلام، وأهل المشرق يختلفون عن بعضهم البعض من الناحية الطبقية، فهناك طبقة أرستقراطية واسعة الثراء، وتتمثل فى الجهاز الحاكم والجهاز السياسى من السلطان والأمراء، ومن يدور فى فلكهم، وتجار الحرير، وأصحاب القوافل التجارية التى تنقل الركاب والمسافرين والبضائع من مكان لآخر. وهناك الطبقة الجليلة القدر فى المجتمع وهم المثقفون من الأدباء والفقهاء والشعراء والوعاظ وغيرهم. والطبقة الدنيا المثقلة بالمشاكل، التى تحصل على العيش بصعوبة، ومنهم اللصوص وقطاع الطرق الذين عاشوا على حافة المدن، يعبرون عن حقدهم الطبقى بالسرقة وقطع الطريق. وهناك طبقة بائسة ناقمة على سلبها لوضعها الآدمى، وهم الرقيق الذين لا ذنب لهم فى الوضع الذى نشأوا عليه. وهناك الصوفية هربوا من مشاكل المجتمع وانعزلوا فى الأربطة، يناجون ربهم، وينصرفون عن الدنيا إلى العشق الإلهى.

وتكلم أهل المشرق بلغات متعددة، فتكلموا اللغات العربية والفارسية والتركية. وأهل الثقافة الرفيعة يعرفون جيدا اللغتين العربية والفارسية.

❋ ❋ ❋

الباب الخامس

الحياة الفكرية فى المشرق

أولا: العلوم الدينية والأدبية:

١ - أسباب تقدم الحياة الفكرية فى المشرق

٢ - تقدم الدراسات الدينية فى المشرق

٣ - ازدهار العلوم الأدبية واللغوية فى المشرق

ثانيا: العلوم اللغوية والأدبية الشعر - المقامات

٤ - التاريخ - الجغرافيا

٥ - علوم الكلام والتصوف والفلسفة

٦ - علم الطب

٧ - علوم الفيزياء والحيل والكيمياء

٨ - علوم الفلك والرياضيات والحيوان والنبات والموسيقى

لما فتح العرب المسلمون بلاد العراق وفارس وخراسان وماوراء النهر، أى الإمبراطورية الفارسية القديمة، أقبل أهلها بسرعة على اعتناق الإسلام، لأنهم كانوا يدينون بالوثنية، والوثنية تهتز بسرعة أمام الإسلام الذى يدعو الى التوحيد ومكارم الأخلاق، ومن الطبيعى أن تزدهر الحياة الفكرية فى المشرق الإسلامى لعدة عوامل هى:

. . أن الإسلام دين علم وفكر، دعا المسلمين إلى العلم ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ...﴾ وقال تعالى: ﴿... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ...﴾ وقال تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ وقال أبو الأسود: ليس شىء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك. والخاصية التى تميز الناس عن الحيوان، هى العلم، وغذاء القلب العلم والحكمة، وبهما حياته، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم، ولا يشعر به؛ لأن حب الدنيا وشغله بها، أبطل إحساسه، وقيل: عليك بالعلم فإن افتقرت كان لك مالا، وإن استغنيت كان لك جمالا. وقال حكيم يوصى ابنه بالعلم: يابنى جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه وتعالى يحيى القلوب بنور الحكمة، وإذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء، والطير فى الهواء (١)، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقال عليه الصلاة والسلام: «العلم خزائن مفاتيحها السؤال، ألا فاسألو، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والعالم والمستمع والمحب لهم» (٢).

والإسلام يوجه العقل البشرى إلى النظر فى الكون، واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ومعرفة الأسباب والمسببات، ليصل بذلك أن للكون صانعا واجد الوجود، عالما حكيما قديرا، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان، ونبه العقل البشرى إلى التأمل فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار إلى غير ذلك من مظاهر قدرة الله. والإسلام يدعو الناس إلى

---

(١) الغزالى: إحياء علوم الدين جـ١ ص١٧.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص١٩.

التفكر فى قدرة الله ليصل بقدر ما يستطيع إلى معرفة أسرار الكون، ومن ذلك نرى أن الإسلام دعا الناس إلى العلم والفكر، فالإسلام من أهم أسباب ازدهار الحياة الفكرية فى المشرق الإسلامى.

ومن أهم عوامل ازدهار الحركة الفكرية فى المشرق الإسلامى، أن الفرس أصحاب حضارة عريقة ولهم تراث فكرى كبير، وهم أهل فكر وعلم، عندهم الاستعداد الكافى للإسهام فى حركة الفكر، وقد أمدهم الإسلام وما يتضمنه من القرآن الكريم والحديث النبوى بمادة علمية غزيرة، فجرت طاقاتهم العلمية الرائعة، وعبروا عنها بما ساهموا به فى كل مجالات العلم والفكر، فدرسوا اللغة العربية وآدابها وتاريخ وفلسفة الإسلام وعلوم الطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات، وبرز منهم علماء أجلاء أضافوا إلى الفكر الإسلامى كتبا قيمة وبحوثا رائعة، وساهمت مساهمة رئيسية فى تقدم الفكر الإسلامى وعلوم الإسلام.

ومن أسباب ازدهار الحركة الفكرية فى المشرق، توافر استعمال الورق فى الكتابة، بعد أن دخلت سمرقند فى حوزة الدولة الإسلامية، وتاخمت حدود المسلمين، بلاد الصين، حيث ينمو **شجر الكاغد** الذى يستخدم منه الورق، وانتشرت مصانع الورق فى الدولة الإسلامية، وأدى ذلك إلى تيسير مهمة المؤلف، حيث يجد الورق الكافى للكتابة والتأليف.

وأدى اتصال العلماء بعضهم ببعض عن طريق الرحلة أو مجالس المناظرة، إلى تبادل المعرفة بينهم، واستفادة كل عالم من زملائه، وأدى تبادل الكتب والزيارات والمناقشات إلى النهوض بالحركة الفكرية وازدهارها، ووحدة المعرفة والثقافة فى المشرق الإسلامى(١).

وأدى قيام الدول الإسلامية المستقلة فى المشرق إلى تنافس أمرائها وسلاطينها على تزيين حواضر دولهم بالعلماء ورجال الفكر، وأصبحت هذه الحواضر مراكز فكرية هامة مثل الرى وغزنة ونيسابور وأصفهان وخوارزم وبخارى وسمرقند

ونضيف إلى ذلك ترجمة التراث اليونانى والهندى إلى العربية، واستفاد منه العلماء المسلمون فى مجالات العلم المختلفة، كما أن رحلة الطلاب بين المدن الإسلامية لطلب العلم، أتاح للطلاب الاستفادة من العلماء ومجالس المناظرة التى عقدها أمراء

(١) عصام الدين الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص١٧٨.

وسلاطين المشرق فى قصورهم أو المناظرة فى المساجد ودكاكين الوراقين كل ذلك أدى إلى ازدهار الحركة الفكرية(١).

المراحل التعليمية

انقسم التعليم فى المشرق الإسلامى إلى مرحلتين، المرحلة الأولى وهى أشبه بالتعليم الابتدائى، ومقرها الكُتَّاب، يتعلم فيه التلاميذ القراءة والكتابة والحساب، بعد حفظ القرآن الكريم، ودراسة قدر من الفقه وحفظ الأشعار والحديث وبعض سير ملوك الفرس وحكم حكمائهم . ويتولى التعليم فى الكتاب، معلم الصبيان، ويتقاضى من أولياء الأمور أجرا نظير مهمته(٢).

ويذكر الغزالى أن المعلم يجب أن يطهر نفسه من الخبائث ولا يتكبر على العلم، ويجب عليه أن يبث فى المتعلم الروح الدينية ويهديه إلى مكارم الأخلاق، وعلى المتعلم أن يذعن لنصيحة معلمه كالمريض أمام الطبيب، ويجب أن يتواضع لمعلمه، فلا ينال إلا العلم بالتواضع وإصغاء السمع . ويجب على المتعلم تحلية باطنه بالفضيلة . والمعلم عليه بالشفقة على المتعلمين، ويعاملهم كبنيه، وعلى المعلم أن يقتدى بالرسول ﷺ ويعلم لوجه الله، وطلبا للتقرب إليه. وعلى المعلم أن يمنع المتعلم من التشاغل بغير ما لا هو بصدده، ولا يمنحه من التقدير مالا يستحق، وألا يعلم الطالب ما يتجاوز قدر فهمه، ولايلقى إليه ما لا يبلغه عقله. ويجب على المعلم أن يكون قدوة لتلاميذه، وأن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله؛ لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر(٣).

والتعليم فى الكُتَّاب لأبناء العامة أما أبناء الطبقة الأرستقراطية فلهم تعليم خاص، إذ كان آباؤهم يعهدون إلى بعض الأدباء والعلماء بتعليمهم، فكان نظام الملك يعلم ملكشاه، ولما ولى الأخير السلطنة أطلق عليه لقب أتابك أى الأمير الوالد(٤).

إن المرحلة الأولى فى التعليم، هى الكُتَّاب كما قلنا - وكان السواد الأعظم من الصبية يكتفى بهذا القدر من التعليم، وينصرفون إلى العمل ومشاغل الحياة، ولكن

---

(١) المصدر السابق ص١٨٠.

(٢) الغزالى: المصدر السابق جـ١ ص٧٧.

(٣) المصدر السابق جـ١ ص٨٠ وما بعدها.

(٤) عصام الدين الفقى: الدول الإسلامية المستقلة ص٢١٧.

بعض هؤلاء الصبية رغب فى الاستزادة من العلم، وكانت المساجد الجامعة فى المدن هى المقر الرئيسى لهذا النوع من التعليم العالى، وضمت المساجد حلقات دراسية، يقوم بالتدريس فيها شيخ متخصص فى فرع من فروع العلم ويعقد مجلسه العلمى فى وقت معين من اليوم، ويحيط به الطلبة، ولا يقبل الشيخ فى حلقته إلا الطالب الذى يطمئن إليه، ولمس فيه المقدرة العلمية والجدية على الانتظام فى حلقته . ومن هنا كانت المساجد أشبه بالجامعات، تدرس فيها دراسات مختلفة . فهناك حلقة للفقه وحلقة للتفسير، وحلقة للحديث . والطالب يرتبط بالحلقة التى تناسبه. والدولة لا تتدخل فى هذه الدراسة ما دامت لا تتعارض مع الدين وسياسة الدولة . والشيخ قد يؤدى واجبه ابتغاء مرضاة الله، ويعمل ويدرس، والطالب يعمل ويتعلم كذلك(١).

وهذه الحلقات يدور معظمها حول علوم الدين واللغة، وإذا أخذ الطالب من شيخه العلم الذى يدرسه وأراد أن يستزيد من العلم، رحل إلى بلدة أخرى بها شيخ أكثر علما.

وأثبتت حلقات العلم، وما يدور فيها من مناقشات حرية الفكر الذى عاش فى كنفه العلماء والطلاب . وخصوصا أن العلماء والطلاب فى المشرق الإسلامى يميلون إلى حرية الفكر والفلسفة والمنطق والقياس والاجتهاد، ومعظم شيوخ المشرق كانوا من المعتزلة والشيعة والمتكلمين، وفجرت هذه الحلقات القضايا التى اختلف فيها العلماء: الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة وأوجدت آراء واجتهادات . كل هذه الخلافات أثرت الحياة الفكرية عند المسلمين .

وكان العلماء وطلاب العلم يتنقلون بين المدن الإسلامية طلبا للعلم، حتى إذا استقر بهم المقام فى بلد ما، صنفوا المصنفات القيمة . وقد شغف بعض طلاب العلم بلقاء شيوخ العلم والاستفادة منهم، حتى قضوا سنوات طويلة فى التنقل بين المدن لطلب العلم، والاستفادة بأكبر قدر من العلم من شيوخه، وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى من رجال القرن الثالث الهجرى، ظل ثلاثا وثلاثين سنة يتنقل بين المدن الإسلامية للاستماع إلى شيوخ العلم، حتى أنه استمع إلى ألف شيخ(٢).

لما كان التعليم فى المساجد، وانعقاد حلقات الدرس طوال اليوم، وما يجرى فى الحلقات من مناقشات ومحاضرات، قد تزعج المصلين والعاكفين، والمتفرغين لقراءة

(١) خواندمير: دستور الوزراء ص٢٦٠ .

(٢) عصام الفقى: المصدر السابق ص١٨٤ .

القرآن الكريم؛ لذلك أسس الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فى بغداد وفى نيسابور، وعلى غرار النظامية أسست مدارس فى المشرق الإسلامى فى بلخ وأصفهان. وهذه المدارس تقوم بمهمة التعليم العالى، بمعنى أن الطالب الذى يسمح له بدخولها قد نال حظا من العلم، وقد خصصت حجرات فى هذه المدارس لإقامة الطلاب. ولهذه المدارس وقف ينفق منه على احتياجات المدرسة، ورواتب الأساتذة والوعاظ وأمين المكتبة والعمال والأثاث والنظافة وطعام الطلاب والأساتذة والفراشين والطباخين، وكانت تدرس فى هذه المدارس علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والأدب والصرف، وكل نظامية بها مكتبة كبيرة يشرف عليها خازن الكتب، وهو المشرف على المكتبة، وتضم المدرسة معلمين ينقسمون إلى ثلاث فئات، فئة المدرسين، وفئة المعيدين، الذين يعيدون إلقاء وشرح الدروس للطلاب، وفئة ثالثة بمثابة الوعاظ، ويأتى فى قمة هذه الفئات الشيخ وهو الأستاذ، ويرتدى عمامة سوداء وقباءً أسود ويجلس على كرسى مرتفع وحوله الطلاب(1). ومن هنا كان الروب الجامعى الأسود، وظهور منصب أستاذ كرسى.

وهناك حرص شديد على حسن اختيار أساتذة النظامية، لذلك تخرج منها علماء أجلاء. ونبغ أساتذتها فى فروع العلم.

الكتب والمكتبات

أدت معرفة الورق المستخرج من شجر الكاغد، وانتشار مصانع الورق فى مدن المشرق الإسلامى إلى توافر الورق، وتمكن المؤلفون من التأليف وانتشرت دكاكين الوراقين فى مدن المشرق الإسلامى، والوراق يقوم بنسخ وتجليد الكتب وعرضها للبيع، والوراقون من رجال الفكر بعضهم شعراء وأدباء، ولكل مؤلف وراق ينسخ له وينشر كتبه. وهناك دلال الكتب وسماسرة الكتب، وبعض الوراقين عرف عنه الغش والتزوير، كأن ينسب الكتاب لغير صاحبه أو لمؤلف مشهور، حتى يضمن رواج الكتاب، وتعقد عادة المناظرات العلمية واللقاءات الأدبية فى دكاكين الوراقين. وفى استطاعة عشاق الكتب قضاء ليلة فى دكان الوراق نظير أجر. وفى استطاعة من لا يستطيع شراء أمهات الكتب أن ينسخها بيده، أو يعهد لأحد الناسخين بنسخها (2).

---

(1) سعيد نفيس: المدرسة النظامية ص٧٩، ٨١-٨٣.

(2) أحمد أمين: ظهور الإسلام جـ٢ ص٢٢٦.

ويرتبط بازدهار الفكر الإسلامى فى المشرق الحرص على اقتناء الكتب، وتكوين المكتبات الخاصة فى البيوت، والتى تضم مئات بل آلاف المجلدات، وقضى أصحابها أيامهم بين الكتب، يقرأونها ويطلعون عليها. وجدير بالذكر أن محمد بن عمرو الواقدى، خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا، كل قمطر به حمل جملين من الكتب، وكان له غلامان يكتبان له الليل والنهار، وحينما زار ابن سينا نوح بن نصر السامانى لعلاجه وجد عنده مكتبة تضم كتبا بلغات متعددة، وتشمل المكتبة عدة حجرات مليئة بصناديق الكتب، والكتب تشمل موضوعات متعددة. وتضم المكتبة فهارس توضح نوع الكتاب ومادته ومكانه(١).

ومن المكتبات الكبيرة، مكتبة الوزير ابن العميد، وكان يعتز بها، ويزودها بكل كتاب جديد فى كل علم وفن، وكان خازنها والمشرف عليها، ابن مسكويه(٢). وضمت المكتبة كتبا فى أنواع المعرفة، وكانت تحُمل على مائة جمل.

وقد أخذ الصاحب إسماعيل بن عباد عن أستاذه ابن العميد حب اقتناء الكتب، والشغف بالقراءة والاطلاع، وكانت خزانة كتبه تحُمل على أربعمائة جمل، وكان لا يفارق الكتب فى حله وترحاله(٣).

وكان لعضد الدولة البويهى، مكتبة فى شيراز، طار صيتها فى الآفاق، وجمع فيها كتبا فى مختلف العلوم، والمكتبة مؤسسة بأفضل أنواع الأثاث، والكتب مصنفة. بها ثلاثة خزان، يتناوبون الإشراف عليها، وفهرسة كتبها وتصنيفها، وتزويدها بكل جديد فى العلم. وبكل خزانة فهرس، ييسر للقارئ مهمة الحصول على الكتاب الذى يريد الاطلاع عليه. وعلى أبواب الخزائن بوابون، لا يأذنون إلا لخاصة القوم بالدخول والاطلاع(٤). وفى كل من الرئ ونيسابور مكتبة عامة. ويسُمح بالاطلاع على كتبها لطلاب العلم دون استثناء.

وشاهد ياقوت الحموى فى رحلاته فى خراسان، مكتبات هائلة وخصوصا فى مرو، شجعته على الاستقرار فيها للقراءة والاطلاع، منها مكتبة ملحقة بالمسجد، تسمى

(١) ياقوت: معجم الأدباء جـ٦ ص٢٨٥.
(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٤٤٩.
(٣) عصام الدين الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص١٩٣.
(٤) العتبى: تاريخ اليمينى جـ٢ ص٢٩٢، ٢٩٣.

العزيزية، نسبة إلى عزيز الدين أبوبكر الزنجانى ـ قاضى السلطان سنجر ـ وتضم المكتبة اثنى عشر ألف مجلد، وأشاد ياقوت بمكتبة الوزير نظام الملك وقال عنها: «وكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنسانى حبها كل بلد، وألهانى عن الأهل والولد» وقد جمع مادته العلمية عن مؤلفاته من هذه المكتبة: وشاهد ياقوت فى ساوة مكتبة عظيمة، وأنشأ أبو على بن سوار ـ أحد غلمان عضد الدولة البويهى ـ مكتبة عظيمة، وجعل أجرا لكل من يتردد عليها، حتى يشجع طلاب العلم على القراءة والاطلاع(١).

ولما فتح السلطان محمود الغزنوى مدينة الرى، استولى على مكتبة مجد الدولة البويهى وتضم آلاف المجلدات، وأحرق مافيها من كتب الإسماعيلية والمعتزلة والفلسفة والنجوم، وألحق السلطان محمود الغزنوى بالمسجد الجامع فى حاضرة ملكه، مدرسة تضم حجراتها من بساط الأرض إلى سقوفها، تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين من خزائن الملوك السابقين(٢).

وشيد الحسن بن الصباح، مكتبة فى آلموت تضم آلاف الكتب ودمرها هولاكو ـ وهو زاحف إلى بغداد.

وتحدث عطا ملك جوينى الذى رافق هولاكو أثناء تدميره قلاع الإسماعيلية، وذكر أنه أقنع هولاكو بعدم حرق المكتبة، وتضم المصاحف ونفائس الكتب، وكتبا فى التاريخ والفقه والنجوم والفلك والطب والحديث والتفسير، وأمر هولاكو بحرق كتب المذهب الإسماعيلى والأفكار النزارية وسير شيوخهم، ومن أهمها كتاب «سر كزشب سيدنا» الذى يتضمن شرحا لأقوال الحسن بن الصباح وخلفائه(٣).

وضمت المساجد والرباطات والبيمارستانات، مكتبات يطلع عليها أهل العلم.

وأوقف بعض كبار رجال الدولة كتبهم لطلاب العلم بعد وفاتهم مثل عضد الدولة البويهى ونظام الملك.

وتعرضت الكثير من المكتبات الخاصة للتلف والحريق، وبعض العلماء كان يحرق كتبه حتى لا تشغله عن ذكر الله، وبعضهم أحرقها حتى لا ينتفع بها أحد بعدهم. ومن

(١) تاريخ جهانشكاى جـ٢ ص١٠٠.

(٢) عصام الدين الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص١٩٧.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء جـ١٥ ص٢١-٢٣.

هؤلاء أبو حيان التوحيدى، وأحرق بعض الحكام كتب الإسماعيلية والجهمية والمعتزلة والمشبهة وغيرهم، وأحرق السلطان محمود الغزنوى كتب الفرق المضادة لأهل السنة والجماعة(١)، كما أن المغول فى غزواتهم المدمرة للمشرق الإسلامى أحرقوا كل ما صادفوه من كتب ومكتبات. وذكر أبو حيان التوحيدى أسباب حرقه لكتبه، ومما كتبه يدل على أن بعض العلماء أقدم على هذا العمل. قال: إن أبا داود الطائى ـ من الفقهاء العابدين ـ ألقى بكتبه فى البحر وقال: أذلنا العلم فى أول الأمر، وكاد يضلنا فى الثانى، وفعل ذلك أبو سليمان الدارائى وسفيان الثورى، مزق ألف جزء، وطيرها مع الريح، وأبو سعيد السيرافى ـ شيخ العلماء ـ أوصى ابنه بإحراقها إذا أضلته عن دينه(٢).

وبذلك فُقدت الكتب والمجلدات التى ملأت مكتبات المشرق الإسلامى. ومع هذا الكم الكبير الذى فُقد، بقى من تراث المشرق الإسلامى ألوف المجلدات.

ازدهار علوم الدين فى المشرق

أولا - التفسير:

شارك علماء المشرق الإسلامى فى دراسة علوم الدين، وصنفوا فى هذه العلوم، الكتب القيمة، فدرسوا علوم القرآن مثل القراءات والتوحيد والتجويد والفرائض، ومن علماء التفسير فى المشرق أبو مسلم بحر الأصفهانى (ت ٣٢٢هـ) ويقع تفسيره فى أربعة عشر مجلدا ويتجلى فى تفسيره آراء المعتزلة(٣). ومن المفسرين ابن جرير الأسدى ت٣٨٧هـ، وعبدالسلام ـ القزوينى ت ٤٥٣هـ، فسر القرآن الكريم تفسيرا مطولا، وفسر الفاتحة فى سبعة مجلدات. ويرجع السبب فى عدم تداول تفسيره بين الناس إلى ضخامته ومخالفته لأفكار السنة فى كثير من الموضوعات(٤). ومن تفسير العلويين تفسير الإمام علم الهدى المرتضى أبى القاسم على بن الطاهر ت ٤٣٦هـ وتتجلى فى تفسيره آراء المعتزلة(٥).

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى جـ٣ ص٣٤٣.

(٢) جولد تسيهر: المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص١١١.

(٣) المصدر السابق ص٧١٨.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص١٦٨-١٧٠.

(٥) براون: تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص٢٠٢.

واهتم خلف بن أحمد أمير سجستان بالتفسير، وجمع العلماء ففسروا القرآن الكريم وصنفوه، لم يغادروا فيه حرفا من أقوال المفسرين أو تأويل المتأولين، وأتبعوا ذلك بوجوه القراءات، وعلل النحو والصرف وعلامات التذكير والتأنيث وأثبت بما رواه الثقات من الحديث، وأنفق عليهم مدة عملهم هذا عشرين ألف دينار، ويقع هذا التفسير فى مائة مجلد، وأمر خلف بن أحمد بإيداع نسخ من الكتاب فى المدرسة الصابونية(١).

ومن كبار علماء التفسير فى المشرق: أبو القاسم محمد بن عمر الخوارزمى الزمخشرى، وهو من أئمة المعتزلة، وهذا واضح فى تفسيره، وهو إمام عصره فى التفسير والحديث واللغة، رحل إليه الطلاب من جميع البلاد للتزود بالعلم. ومن مؤلفاته كتاب «الكشاف» فى تفسير القرآن الكريم(٢). ومن أعظم علماء التفسير شأنا، الفخر الرازى، ت٦٠٦هـ فسر القرآن الكريم فى عدة مجلدات.

اعتمد أهل المشرق الإسلامى على الفقهاء الأربعة فى دراساتهم المستفيضة فى علم الفقه، وانتشر المذهب الشافعى فى المشرق، وصنف فقهاء المشرق كتبا فى هذا المذهب، ومن أبرز شيوخ الشافعية فى نيسابور، أحمد بن حسين البيهقى (ت ٤٨٥هـ) صنف ما يقرب من ألف كتاب، وهو أول من جمع تصانيف الشافعى فى عشر مجلدات. ومن أهم مؤلفاته «السنن الكبير» و«السنن الصغير» و «دلائل النبوة» و«السنن والآثار» ومناقب الشافعى» وكان من أهل الزهد، وقيل ما من شافعى إلا والشافعى عليه فضل، إلا أحمد والبيهقى فإن له على الشافعى مكرمة. إذ كان من أكثر الناس دراسة وشرحا وتحليلا للمذهب الشافعى(٣). كما صنف علماء الأحناف المشارقة كتبا فى الفقه الحنفى.

وللشيعة آراؤهم فى الفقه، وهى تختلف تماما عن آراء أهل السنة؛ لأنهم يعتمدون على آراء الأئمة من آل البيت ويرفضون آراء أهل السنة.

ومن علماء الفقه وأصوله أبو المعالى عبد الملك بن الشيخ أبى محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى الفقيه الشافعى، الملقب ضياء الدين، المعروف بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعى، أجمع الفقهاء على إمامته فى الفروع

---

(١) عصام الدين الفقى: اليمن فى ظل الإسلام ص٢٨٤.

(٢، ٣) المصدر السابق ص٢٨٤، ٢٨٥.

والأصول والأدب، ورُزق من التوسع فى العبارة، ما لا يعهد من غيره، وكان يلقى دروسا، يقع الواحد منها فى عدة أوراق، ولا يتلعثم فى كلمة منها، وتفقه فى صباه على والده أبى محمد، وكان يعجب بعلمه وتحصيله وجودة قريحته، وما يظهر عليه من علامات الذكاء، قرأ جميع مصنفات والده، وحققها، وأضاف إليها وفسرها، ولما توفى والده عقد مكانه للتدريس، ثم مضى إلى أبى القاسم الإسكافى الإسفراينيى بمدرسة البيهقى حتى حصّل عليه علم الأصول، ثم سافر إلى بغداد، والتقى فيها بجماعة من العلماء، ثم رحل إلى الحجاز وجاور بها أربع سنين وبالمدينة يدرّس ويفتى، ويجمع طرق المذهب لذلك لُقب «إمام الحرمين وعاد إلى نيسابور، ولما شيد الوزير نظام الملك، المدرسة النظامية، تولى الخطابة فيها.

وكان يجلس للوعظ والمناظرة، وظهرت تصانيفه، وحضر كبار الأئمة دروسه، واعترف الفقهاء فى نيسابور بأستاذيته، وإمامته، وأُسندت إليه أمور الأوقاف، وبقى ينشر علمه ويصنف الكتب ويعلم طلابه مدة ثلاثين سنة بدون منازع، سُلّم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة.

ومن أهم كتبه «نهاية المطلب فى دراية المذهب» ومن تصانيفه «الشامل فى أصول الدين» والبرهان فى أصول الفقه، وتلخيص التقريب و«الإرشاد» و«العقيدة النظامية، ومدارك العقول» إلى غير ذلك من الكتب التى لم يتم بعضها. وكان يبكى تلاميذه الصوفية، حين شرح لهم الأحوال وأقوال الصوفية. وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازى يقول لإمام الحرمين: «يا مفيد أهل المشرق والمغرب، أنت اليوم إمام الأئمة، وتوفى سنة ٤٧٨هـ، وقد حزن أهل نيسابور لموته، ورثاه الشعراء

قلوب العالمين على المقالى وأيام الورى شبه الليالى(١)

أيثمر غصن أهل العلم يوما وقد مات الإمام أبو المعالى

وللشيعة آراؤهم فى الفقه، وهى تختلف عن آراء أهل السنة، وهم لا يعتمدون على آراء أهل السنة، إنما يعتمدون على آراء أهل البيت والأئمة العلويين.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص١٦٨ - ١٧٠.

ومن المذاهب التى انتشرت فى المشرق الإسلامى، المذهب الزيدى، انتشر بصفة خاصة فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم. والزيدية تعتقد ـ كما يعتقد الشيعة ـ بانفراد آل البيت بعلم مكتوم يأخذه بعضهم عن بعض، وهم يرفضون التقية(١).

ومذهب الزيدية فى الفقه، يعتبر مذهبا خامسا بعد المذاهب الأربعة، يجب أن تتوافر فى الإمام النسب إلى فاطمة الزهراء، وأن يخرج الإمام شاهرا سيفه، مطالبا بحق آل البيت فى الحكم.

وتقول الزيدية: يجب أن يطاع المفضول مع وجود الأفضل، لتبرير شرعية خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على بن أبى طالب، وترفض الزيدية فكرة الإمام المهدى المستور؛ لأن الإمام يجب أن يخرج شاهرا سيفه، مطالبا بحق آل البيت فى الإمامة. ويجب أن يكون الإمام واسع العلم، لذلك كثرت مؤلفات الأئمة الزيدية. وفقه الزيدية متأثر بآراء المعتزلة والشافعية.

وكثرت المجادلات الفقهية بين أنصار فقهاء السنة الأربعة وبين الشيعة، واشتد الجدل بين أصحاب هذه المذاهب حتى كفر بعضهم بعضا، واعتدى بعضهم على بعض. وهذا الاختلاف بين الفقهاء رغم ما صاحبه من اعتداءات ـ أثرى الحياة الفكرية.

ثانيا - الحديث:

تعرض الحديث النبوى للتحريف، وأضيف إليه أحاديث غير صحيحة، بسبب تعدد المذاهب الدينية، والفكرية، وانقسام المسلمين إلى شيعة وسنة، وظهور الطوائف الصوفية، وانتشار الزندقة. وانقسام المسلمين إلى شعوب متباينة فى أفكارها ومختلفة فى قومياتها وتكويناتها، وتأخر تدوين الحديث، وكثرة المجادلات الدينية، وشُغف بعض الناس باختراع أحاديث لتبرير وجهات نظرهم؛ لذلك ظهرت الحاجة إلى جمع الحديث الصحيح، بعد أن اشتدت شكوك الناس فى الحديث، وكثرت المجادلات بين الناس حول الحديث الصحيح، وكذب الناس بعضهم بعضا، وأدى تأخر جمع الحديث وتدوينه، إلى زيادة التحريف فيه، وظهور أحاديث مشكوك فيها.

وفى القرن الثالث الهجرى، تقدمت وسائل التدوين وانتشرت صناعة الورق، وتوافر فى الأسواق، وشجع ذلك علماء الحديث على جمع الحديث الصحيح بأسلوب علمى وتدوينه، وحرص العلماء على تمييز الحديث الصحيح من الحديث غير الصحيح

(١) المؤلف: الدول الإسلامية فى الشرق.

وذلك بالاهتمام برواة الحديث، وتمييز بعضهم عن بعض وتجريح المشكوك فيهم. وبذلك ظهر علم الجرح والتعديل الذى يوضح حال الرواة من حيث الثقة فى رواياتهم أو الرواة غير الموثوق بهم، واستطاع العلماء بذلك أن يميزوا بين الأحاديث، من حيث الصحة أو عدمها. وبذلك ظهر علم مصطلح الحديث، وعلم غريب الحديث، وعلم مختلف الحديث وقسموا الأحاديث إلى متواترة وغير متواترة، وأحاديث حسنة وأخرى ضعيفة من حيث اتصال السند أو عدم اتصاله؛ لذلك تبنى الأئمة الستة جمع الحديث وتدوينه وتصحيحه لدراسة الحديث حتى تكونت عند هم المقدرة على الحفظ والتمييز بين الحديث. الإمام البخارى ت ٢٥٦هـ إمام المحدثين وشيخ الحفاظ وألهمه الله حفظ الحديث وهو ابن عشر سنين، وقد ظهر الحديث الصحيح والحديث السقيم، وقد ظهرت قدراتهم الكبيرة فى علم الحديث فى المجالس والمناظرات العلمية التى شهدتها المدن الإسلامية، ونال تقدير علماء عصره وفضلوه عى أنفسهم، وكان يتجنب مجالس السلاطين وترك علما نافعا.

ومن أهم مؤلفاته: قضايا الصحابة والتابعين - التاريخ الكبير - التاريخ الأوسط- التاريخ الصغير - الجامع الكبير - والمسند الكبير - وكتاب الجامع الصحيح وهو من أجل كتبه نفعا وأعلاها قدرا .

ألف البخارى صحيحه بعد أن روى دواوين السنة التى أُلفت فى عصره وقبل عصره، جامعة بين الصحيح والحسن والضعيف، وكان أهل الحديث يروون الأحاديث على علاتها دون دراسة، وليس عندهم المقدرة على التحقيق، لذلك انتشرت وذاعت الأحاديث الضعيفة بين الناس، لذلك جمع البخارى الأحاديث الصحيحة ورتبها على أبواب الفقه، ومكث فى تصنيف هذا الكتاب ستة عشر عاما وجمع ٢٦٠٢ من ستمائة ألف حديث، ولم يخرج فيه إلا ما صح عن الرسول بالسند المتصل الذى توافر فى رجاله العدالة والضبط، وعرض كتابه على كبار علماء عصره مثل أحمد بن حنبل فاستحسنوه وعدد رواته تسعون ألفا. ويتميز صحيح البخارى بأن أحاديثه متصلة بدون انقطاع.

والإمام مسلم بن حجاج القشيرى النيسابورى رحل فى طلب العلم إلى كثير من المدن الإسلامية، وتأثر بشيخه البخارى، وعُرف عنه الحفظ للحديث ودراسة سير الرواة وصنف فى علم الحديث كتبا كثيرة منها كتابه الصحيح وكتاب المسند الكبير على أسماء

الرجال، وكتاب الجامع الكبير على الأبواب، وكتاب العلل وكتاب أوهام المحدثين (ت٢٦١ هـ)[١].

والنسائى: أحمد بن شعيب بن على بن بحر النسائى، أحد أئمة الحديث، إمام أهل عصره وقدوتهم فى علم الحديث وخصوصا فى معرفة الجرح والتعديل، رحل إلى كثير من البلدان لجمع الحديث ومعرفة أخبار الرواة، وقد ذكرشيوخ الحديث أن سنن النسائى صحيحة تماما لا يوجد فيها حديث ضعيف (ت٣٠٣هـ)[٢].

أما أبو داود: فهو سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأسدى السجستانى رحل فى طلب العلم، وأخذ عن أهل العراق والشام ومصر وخراسان[٣]، وأخذ الحديث عن مشايخه البخارى ومسلم وغيرهما، ونال تقدير العلماء، ووصفوه بالحفظ التام والعلم الغزير والفهم الدقيق للحديث،واستطاع جمع أحاديث الأحكام، وتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥هـ [٤].

والترمذى: محمد بن عيسى بن موسى بن الضحاك السلمى، وهو صاحب الجامع. نال ثقة معاصريه، وروى عنه الحديث الكثير من العلماء، وتوفى سنة٢٧٩هـ.

والسنن لابن ماجه تدل على علمه وعمله، وتبحره واطلاعه، ويوجد الحديث المتواتر، أى الذى رواه عدد كبير من الصحابة والتابعين يصعب حصرهم ولكنهم معروفون بالصدق، وأكثر ما يكون الحديث المتواتر فى الأمور العلمية كبيان كيفية الصلاة والحج ونصاب الزكاة وأحاديث الآحاد وهى الخبر المشهور الذى روى فى القرن الأول، ثم رواه بعد ذلك قوم لا يحصى عددهم ولا يمكن نسبة الكذب إليهم[٥].

ولكل من كتب الحديث الستة ميزة لها قدرها، فمن أراد التفقه فعليه بصحيح البخارى، ومن أراد قلة التعليقات فعليه بصحيح مسلم، ومن رغب فى زيادة معلوماته فى فن الحديث فعليه بجامع الترمذى، ومن قصد إلى حصر أحاديث الأحكام فبغيته

---

(١) الذهبى: العبر فى أخبار من غبر، جـ١ ص٣٧٥. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢ ص٣٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١١ ص٣٤-٣٦.

(٣) اليافعى: مرآة الجنان جـ٢ ص٢٤٠-٢٤١.

(٤) المرجع السابق جـ٢ ص٢٤٣.

(٥) البغدادى: تاريخ بغداد جـ٩ ص٥٥-٥٩.

أبو داود فى سننه[1]، ومن كان يعنيه حسن التبويب فى الفـقه فابن ماجه، أما النسائى فقد توافرت لديه أكثر هذه الشروط[2].

ونشيـر هنا إلى مسـند الإمام أحمـد بن حنبل الذى جمـع الكثير مـن الأحاديث الصحيـحة، وسلك فى جمعه مـسلك شيوخ الحديث، إذ يذكر الصـحابى وما رواه من أحاديث، غيـر ناظر إلى ترتيبها حسب مـوضوعاتها، وجمع الإمـام أحمد ثلاثين ألف حديث.

والجوامع من كتب الحديث تشتمل على جـميع أبواب الحديث مثل باب العقائد - باب الرقاق - باب آداب الطعام والشـراب - باب التفسير والتاريخ والسـير - باب السفر والقيام والقعود - باب الفتن - باب المناقب والمثالب.

والمسانيد جمع مـسند، وهو ما تذكر فيه الأحاديث على أسمـاء الصحابة حسب تاريخهم أو تبعا للأنساب، مثل مسند الإمام أحمد بن حنبل. وعلماء الحديث يراجعون متن الحديث، ويتـأكدون من صحته، ويـدرسون سير رواة الحديث من حـيث وجودهم الحقيـقى، وحسن سيرهم، والاطمئنان إلى تقـواهم وورعهم ودقتهم وعدم خـضوعهم للأهواء والأحزاب السـياسـية والمذاهب الدينيـة، حتى يصل السند إلى الصـحابى الذى روى عن الرسول ﷺ مباشرة، فإذا ما توافرت هذه الشروط: صحة المتن والسند، اعتُبر الحديث صحيحا [3].

ولا صحة لما يعتقده البعض من أن الأحاديث التى جمعها الأئمة الستة خالية تماما من الخطأ والوضع؛ لأن معناها يوضح عدم صحتـها، مثل حديث البخارى الذى يروى فيه بأن الذبابة التى تقع فى إناء يجب وضعها ثانية فى نفس الإناء والشرب منه؛ لأن فى أحد جناحيها داء وفى الآخـر الدواء، فالمعروف أن الذبابة لا تعيش إلا فى القاذورات، وهى ناقلة للمـيكروبات، وفى حديث للبخـارى ومسلم يصفـان خلق الله للكون على مراحل استمرت سبعة أيام، وهذا يتعارض مع ما جاء فى القرآن الكريم من أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام.

---

(١) ابن الجوزى: المنتظم جـ١٢ ص٢٦٨-٢٧٠.

(٢) الذهبى: سير أعلام النبلاء جـ١٣ ص٢٠٣-٢٢١.

(٣) على حسن عبد القادر: نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص٤٣.

هما فى ستة أيام.

وهذا لا يقلل من أهمية الجهود التى بذلها العلماء الستة فى جمع الحديث وتدوينه بشكل سليم وصحيح.

والخلاصة: أن علماء القرن الثالث الهجرى جمعوا الحديث الصحيح وبوَّبوه حسب الرواة أوحسب أبواب الفقه، وقسموا الحديث إلى درجات حسب الاطمئنان إليه، وهى الصالح والحسن والضعيف والمتروك والمكذوب، وصُنفت أحاديث وفقا لطرق الإسناد متواتر ومشهور وآحاد وغريب.

وفى القرن الخامس الهجرى وما بعده اقتصر هَمٌّ علماء الحديث فى جمع ما تفرق من كتب الأولين أو اختصارها بحذف الأسانيد وترتيبها وتهذيبها، غير أن كثيرا منهم انتهج منهج السابقين وكان لهم فى رواية الحديث باع طويل.

العلوم اللغوية والأدبية

لما دخلت فارس فى حوزة الدولة الإسلامية الكبرى، أقبل الفرس على اعتناق الإسلام، ودراسة قواعده وأسسه، فدرسوا اللغة العربية وهجروا لغتهم الفارسية، ولما كان الفرس - كما قلنا - أهل علم وفكر، فقد درسوا علوم الدين واللغة العربية، وصنفوا الكتب القيمة فى الفقه والحديث والتفسير والقراءات والنحو والصرف والبلاغة والعروض، وكانت مصنفاتهم باللغة العربية، بعد أن أهملوا لغتهم الفارسية ذات الحروف البهلوية، وتركوا تراثا إسلاميا دسما(١).

وظل الحال على ذلك حتى ظهرت الدول الإسلامية المستقلة - التى نحن بصدد دراستها - فأحيت هذه الدول تاريخها العريق، وأحيت ضمن هذه السياسة دراسة اللغة الفارسية بحروف عربية، وكتب المؤلفين الفرس من القرن الثالث الهجرى مؤلفاتهم باللغة الفارسية، وبها العديد من الكلمات والمصطلحات العربية.

على أن العلماء الفرس استخدموا مادة دراستهم من التراث العربى،فمثلا فى علوم وثقافة الإسلام، وتراث العرب وأشعارهم الخالدة ضموا إلى هذا التراث، خلاصة تاريخهم العريق، والحكم والأمثال الفارسية وسير الأبطال، وأقوال الحكماء، مثل

(١) فؤاد الصياد: القواعد والنصوص الفارسية ص ٧ وما يليها والمقدمة.

ردوسى فى الشاهنامة التى هى إحياء لأمجاد الفرس، وقصص البطولة والفروسية وا عشق، ورباعيات عمر الخيام، والصوفى جلال الدين الرومى، ومنظومتيه الخالدتين عن مناجاة الله والابتهال إليه والمحبة الإلهية والوجد والاتحاد بالله ورسم المثل العليا لل ياة الإنسانية فى هذا الكون (١). يضا

ف إلى ذلك العديد من كتب الشعر والنثر فى مختلف العلوم والفنون وا آداب. ونرى أن بعض علماء الفرس يترجم الكتب العربية القيمة إلى الفارسية، حتى يت سر للمثقفين الفرس الاستفادة منها، فالبلعمى يترجم كتاب «تاريخ الأمم والملوك» لل برى إلى الفارسية. وترجم القباوى تاريخ بخارى للنرشخى إلى الفارسية ت سنة٥٢٢هـ-١١٢٨م(٢).

نفر الفرس من اللغة الفارسية ذات الخط البهلوى، لارتباطها بالديانات القديمة كالزرادشتية والمانويه، ولتعقيدها، وفضلوا الكتابة باللغة الفارسية التى تطورت بفضل الاحتكاك بالعرب - وكتبوها بالخط العربى، وارتبطت اللغتان الفارسية والعربية ارتباطا وثيقا وقويا، وظهرت ألفاظ ومصطلحات عربية كثيرة فى اللغة الفارسية، واستخدم الفرس أوزان الشعر العربى وقوافيه. ومنذ القرن الخامس الهجرى وضع الفرس معاجم للغتهم متأثرة بالعربية، ونلاحظ أن كبار علماء الفرس يكتب بالعربية مثل ابن سينا والفارابى والغزالى والبيرونى الذى يقول بأن العربية أسلس فى التأليف من الفارسية لكثرة مفرداتها.

شهدت مدرستا البصرة والكوفة فى أواخر عهد بنى أمية، وأوائل العصر العباسى، نشاطا كبيرا فى دراسة النحو واللغة، وبعد أن اختلط العرب بالأعاجم، فقد العرب فطرتهم اللغوية، وتعرض اللسان العربى للخطأ، وامتدت الحاجة إلى دراسة علوم اللغة والنحو، ووضع القواعد الثابتة لها، فجمع علماء البصرة والكوفة ألفاظ اللغة وأشعارها، حتى لا تفنى العربية فى لغات الشعوب المستعربة، وقنن علماء البصرة والكوفة قواعد اللغة والشعر، وانضم إليهم علماء من المشرق الإسلامى تخصصوا فى دراسة اللغة والنحو، وساهموا بنصيب كبير فى دراسة النحو واللغة والأدب، وعمل المعاجم، وصنفوا فى ذلك مصنفات قيمة، أفادت طلاب العربية من المشرق، كما أفادت طلاب المغرب بل والعرب أيضا.

(١) المصدر السابق ص٨، ٩.

(٢) أحمد بن نصر من بلدة قُبا فى فرغانه.

ووضع أبو الأسود الدؤلى قواعد وأسس علم النحو، وجاء بعده الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ) وهو الواضع الحقيقى لعلم النحو فى صورته النهائية، التى نقلها بعده تلميذه سيبويه فى مصنفه «الكتاب» وهوالغاية فى استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس فيه، واستنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد قبله أو بعده.

ولأهمية هذا الكتاب سماه الناس «قرآن النحو» وكتابه ثمار جهوده وجهود علماء النحو قبله، والكتاب جامع لأصول النحو وفروعه، فأقبل العلماء على شرحه والتعليق عليه، وسيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر وهو من إصطخر فى فارس، وأبرز تلاميذ الخليل بن أحمد، وأخذ عنه اللغة والنحو(١).

ووضع الخليل بن أحمد أول معجم لغوى، ولكن فيه صعوبة لأن الكلمات تخلو من التنقيط، ورتبه حسب مخارج الحروف.

جاء بعده الجوهرى - أبو نصر إسماعيل بن صحار، وهو من فاراب ببلاد ما وراد النهر، وخطه جميل أشبه بخط ابن مقلة، وتخصص فى دراسة اللغة، سافر فى رحلات كثيرة فى طلب العلم، وعاش بين البدو لدراسة اللغة من مصادرها الأصلية وأقام فى نيسابور، يدرس، ويؤلف، ويعلم الخط الجميل وكتابة المصاحف. وله كتاب الصحاح فى اللغة، وفيه النمط الذى جرى عليه فيما بعد، «القاموس المحيط» و«لسان العرب» وغيرها من المعاجم الكبيرة، وهو من أهل القرن الرابع الهجرى(٢). وللأزهرى من هراة كتاب «غريب الألفاظ» يستدل منه الفقهاء على الألفاظ الغريبة ت٣٧٠هـ.

ومن علماء النحو الكبار، أبو سعيد السيرافى، من كبار علماء النحو البصريين، شرح كتاب سيبويه، فأجاد فيه، وله كتاب«ألفا الوصل والقطع» وكتاب «أخبار النحويين والبصريين» - «الوصف والابتداء» - «صفة الشعر والبلاغة» - «شرح نحو ابن دريد» وله مؤلفات كثيرة فى النحو والعروض ت٣٦٨هـ(٣).

وهو من أعلم الناس بالعربية، وهو عالم فى القرآن والحديث والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر، وكان يميل إلى الاعتزال وكان بيته مقصد

(١) كتاب سيبويه جـ١ ص٤.

(٢) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ٤ ص٤٦٨.

(٣) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ٤ ص٣٣٤.

الطلاب والعلماء، ومن أشهر تلاميذه أبـو حيان الوحيدى ت ٣٦٨ هـ. وكان بينه وبين أبو فرج الأصفهانى مناقشة شديدة، حتى قال عنه أبو فرج:

لست صدرا ولا قرآت على صدر «ولا علـمك الـبكى بـشـــــاف
لعن اللـــه كـل نحـــو وشـعـــر وعروض يجىء من سـيراف»(١).

ومن علماء النحـو والصرف، أبو على الفـارسى، دخل فى خدمة عـضد الدولة البويهى، له كتاب «التكملة والإيضاح فى النحو» وله كتاب «الحجة فى القراءات» وتنقل فى كـثـيـر من البلدان، وكـتب عن المناظرات التى حـضـرها فى كل بلد، وأسـمـاها البغداديات، الحلبيات، الشيرازيات... إلخ، وهى عظيـمة القيمة ت ٣٧٧هـ ومؤلفات العلماء الذين ذكرناهم بسطت علمي النحو والصرف وأضـافت إليه الكثير من المعلومات القيمة.

ومن أشهر علماء خراسان، أبو زيدالبلخى وأبو القاسم الكعبى، والأول فيلسوف وفقيه، جمع بين الحكمة والشريعـة، وبلغ من علو مكانته أن قيل له «جاحظ خراسان» ومن مؤلفاتـه كتاب «أقسام العلوم» وشـرائع الأديان، وكتاب السيـاسة الكبير والصـغير وحدود الفلسفـة، وما يصح من أحكام النجوم، وكتاب الرد على عبـدة الأوثان وكتاب أخلاق الأمم ت٣٢٢. وألف كتابا هاما فى الجغرافيا، يسمى صور الأقاليم، وهو خرائط ملونة، شرح تفاصيلها. ومن مميزاته عدم التعصب، فكان لا يفضل بعض الصحابة على بعض، ولا مذهبا على مذهب، ولا يفضل العرب على العجم(٢). ت٣١٧هـ.

ومن علمـاء الكلام عبـد الله بن أحمـد الكعبى، وله مـذهب خاص مشـتق من المعتزلة، وسمى أنصاره بالكعبية.

ومن علماء المشـرق فى اللغة، محـمد بن أحمـد الأزهرى من هراة، صنف فى اللغة، كتـاب التهذيب فى عشر مـجلدات، تتلمذ على ابن دريد ت٣٧٠هـ، وهو وابن سيده مهدا لظهور قواميس اللغة بدراسـاتهم اللغوية العميقة. ومن علماء اللغة الجوهرى صاحب الصحاح، وكذلك إسماعيل بن حماد، من فاراب ت٣٩٨هـ(٣).

(١) المصدر السابق ص٢٤٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٦٢، ١٦٣.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام ص٢٦٧.

ومن علماء اللغة الزوزنى ت٣٧٤، وقد شرح المعلقات السبع[1]. نشأ فى زوزون التى ازدهرت فيهـا العلوم الأدبية والدينية واللغوية. وظهـر العديد من العلماء والأدباء، من كل العباسيين الذين استوطنت فى المشرق وآل ميكال وغيرهم، ولهم مؤلفات قيمة.

ومن الأدباد الذين نشأوا فى المشـرق، أبو فرج الأصفـهانى، درس العلم والأدب والتـاريخ على ابن دريد والطبرى والأنـبارى، وتفـوق فى الأنساب والشـعر والأغـانى والأخبار، وكان ملما بآلات الطرب، صنف كتابه الأغانى فى خمسين عاما، وقد شغف بكتاب الأغانى عضد الدولة البويهى ولا يفارقه فى سفره ولا حضره[2].

ومن علمـاء الأدب، أبو بكر محـمد بن دريد الأزدى، تنقل فى بـلاد الإسلام، ومنها فارس، وهو من أكبر علماء اللغـة والأدب، ومن أشهر تلاميذه، أبو على القالى وأبو سعيد السيرافى ت٣٢١هـ.

وروى القالى عن شيخه قـصصا أدبية رائعة، استفاد منها الهـمذانى فى مقاماته، وهو شاعر قصاص وعالم فى النحو واللغة، ومن أشهر تلاميذه أبو على القالى صاحب كـتاب الأمـالى الذى انتشـر فى الأندلس، وأبو الفـرج الأصفـهانى، صـاحب كتـاب الأغانى[3].

ومن الصعب الفصـل بين علماء النحو واللغة والأدب فى المشـرق لأنهم يكتبون فى كل هذه المجالات، دون تخـصص فى مجال واحد، ومن أدباء المشـرق الإسلامى، ابن المقفع، شـاعر فصـيح بليغ ترجم من الفارسيـة إلى العربية، وترجم كـتاب «كليلة ودمنة» الذى هو ترجمة فارسية للأقاصيص، كـتبت باللغة الهندية المعروفة بالسنسكريتية ويعد هذا الكتاب من أقدم كـته النثر الأدبية التى ويمتاز بقوة الأسلوب ومـتانة العبارة، وله كتـاب «مزدك» وكتاب «سـيرة أنوشروان» وكـتاب الأدب الكبيـر، واتهم ابن المقفع بالزندقة، وقتل بسبب ذلك سنة ١٤٢هـ، ونسب إليه أنه نقل كتبـا فارسية، تتجلى فيها العقائد المجوسية، من أجل تعريف الناس بالعقائد الوثنية، وتضليلهم تبعا لذلك. وعلى الرغم من هذه الاتهامـات، كان ابن المقفع مـفكرا واسع العلم والثقافـة دارسا لثقـافات الهند والفرس واليونان [4].

(١) ياقوت: معجم الأدباء جـ١٥ ٤, ٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص٣٠٧.

(٣) أحمد أمين: المصدر السابق ص٢٤٠-٢٤٢.

(٤) ابن النديم: الفهرست ص١٧٩-١٨٠.

ابن المقفع وكتابه «كليلة ودمنة»

ابن المقفع هو روزبة بن دازوية ويكنى أبا عمرو، ولد فى البصرة سنة ١٠٦هـ - ٧٢٤م، وهو فارسى الأصل. وبعد أن اجتاز ابن المقفع فترة تلقى العلم ظهرت عليه مخايل النجابة والعقل والذكاء؛ ولعل ذلك هو السبب الذى جعل الأمويين ثم العباسيين يتخذونه كاتبا لديهم. وكان من هؤلاء العباسيين عيسى بن على والذى دخل ابن المقفع فى الإسلام على يديه وتسمى بـ«عبد الله». وقد اختتمت حياة ابن المقفع بقتله على يد سفيان بن معاوية والى البصرة وذلك بإيعاز من الخليفة العباسى المنصور بعد أن غضب الأخير بسبب بعض الكتابات السياسية لابن المقفع، وكان مقتل ابن المقفع سنة ١٤٢هـ-٧٥٩م(١).

وقد خلف ابن المقفع العديد من الكتب منها ما هو مؤلف ومنها ما هو مترجم؛ فمن المؤلفات: الأدب الكبير، والأدب الصغير، ورسالة الصحابة، واليتيمة. ومن مترجماته: عهد أردشير، وتوقيعات كسرى، والتاج... وأشهر كتبه الكتاب الخالد «كليلة ودمنة»(٢).

وكليلة ودمنة اثنين من حيوانات «ابن آوى» ورد ذكرهما بالكتاب. وقد اختلفت الآراء قديمًا حول أصل كتاب كليلة ودمنة؛ إلا أن الثابت اليوم بين الباحثين أن الكتاب هندى الأصل، ثم لما اتصل الفرس بالهند وحكمتها جمعوا بعض حكمتها والتى وضعها الحكيم الهندى «بيدبا» وأسموها «كليلة ودمنة»، ثم قام ابن المقفع بترجمة النص الفارسى إلى اللغة العربية.

والكتاب عبارة عن قصص وحكايات على ألسنة الطيور والحيوانات، تعد فى معظمها نوع من أنواع الأدب السياسى والاجتماعى الهادف إلى إعطاء إرشادات وتوجيهات بأسلوب الرمز والمواربة حتى لا تكون تلك الإرشادات مجرد نصائح مباشرة وجافة تجعل الحاكم السياسى أو المصلح الاجتماعى أو الإنسان طالب المعرفة يحيد عنها.

ولعل الذى دفع ابن المقفع إلى ترجمة هذا الكتاب هو أنه كان ميالا إلى الإصلاح والتوجيه، هادفًا إلى إصلاح الراعى والرعية فى عهده، أو على الأقل هادفا إلى النفع العام(٣).

(١) راجع ترجمة ابن المقفع عند / ابن حجر: لسان الميزان ٣/ ٣٦٦؛ الزركلى: الأعلام ٤/ ١٤٠.
(٢) انظر مؤلفات ابن المقفع / ابن النديم: الفهرست ص١٣٢.
(٣) حنا الفاخورى: ابن المقفع ص٣٤.

والطريف أن الأصل الفارسى لكتاب «كليلة ودمنة» قد فُقد، وأصبحت النسخة العربية هى الأصل الوحيد لهذا الكتاب الهام؛ والذى قام المترجمون على اختلاف أجناسهم بنقله إلى لغاتهم نظرا للشهرة العظيمة التى حظى بها هذا الكتاب.

والكتاب كما ذكرنا سلفا أصله الهندى ثابت، إلا أنه مع ترجمته إلى الفارسية أضيفت إليه حكايات من التراث الفارسى القديم «كحكايات برزويه الطبيب»[(1)]. ويذهب بعض النقاد إلى الأصل العربى لبعض أبواب الكتاب كباب «مقدمة الكتاب»[(2)]، وباب «عرض الكتاب»[(3)]. كما أن هناك الكثير من الباحثين يذهب إلى أن باب «الفحص عن أمر دمنة»[(4)] هو من تأليف ابن المقفع نفسه؛ وذلك لغلبة الروح الإسلامية على هذا الباب.

ومما سبق يتبين أن ابن المقفع ضرب بترجمته لكتاب كليلة ودمنة نموذجًا للمترجم المبتكر الذى لا يقوم بالترجمة الحرفية للنصوص بل يعمل جاهدًا على أن يمزج بين ما يترجمه وبين روح العصر الذى يعيش فيه.

وُضع كتاب «كليلة ودمنة» فى عصر ملك الهند ديشليم، والذى صنفه بيدبا - أحد حكماء الهند، وجعله أمثالا يتعظ بها الناس، ويتأدبون بها، ويتضمن الباب الأول، السلطان الذى يتعظ به البغاة من خاصته ورفاقه، وما يجب عليه من التريث فى اتخاذ القرار، والتثبت من كل خير يصل إليه، والحذر من الدس والوشايات، وهو باب الأسد والثور.

والباب الثانى، باب فحص الأمور التى تعرض عليه، حتى لا يتخذ قرارا غاشما ظالما للناس، وهو باب الفحص من خبر دمنة.

الباث الثالث: باب التحرز من الأعداء والحذر منهم، والحيلة لهم، وتجنب المواقف العدوانية، ومداراة العدو وانتهاز الفرص للتمكن منهم، وهو باب البوم والغربان.

(1) كليلة ودمنة ص٥٣ وما بعدها.

(2) المصدر السابق ص١١ إلى ٣٣.

(3) نفس المصدر السابق ص٤٣ إلى ٥٣.

(4) المصدر نفسه ص ١١٣ إلى ١٣١.

والباب الرابع: باب مشاورة العلماء، والاستعانة بأهل الحزم والأمانة، وإفشاء الأمور إلى العقلاء وهو باب بلاذ(١).

والباب الخامس: باب المعروف، وإلى من يصطنع، وكيف يفسده سوء الخلق وحفاوة النفوس ووضاعتها، إذا وُضع فى غير موضعه؛ ومحله الذى يستحقه، وكيف يؤتى أثره عند الذين يستحقونه، وهو باب السلحفاء والقرد والنجار.

والباب السادس: باب الظفر بالأمر، وإضاعته، بعد إمكانه، والعجز عن حفظه بعد القدرة عليه، وهو باب القرد والغيلم.

والباب السادس: باب المداراة، ومصانعة أهل الشأن واجتذاب مودتهم، واستمالة أهل الانحراف للتخلص من أذاهم، وهو باب السنّور والجذر.

والباب الثامن: باب معرفة السلطان بأعوانه وأقربائه وإرضاء من نالته جفوته منهم، والاستعانة بأهل العفاف والإصلاح بأموره، وتفقد أحوال أعوانه وحاشيته، ومكافأة المحسن، ومعاقبة المسىء، وهو باب الأسد وابن آوى(٢).

والباب التاسع: باب الأخوان والأصدقاء الموثوق بإخلاصهم ومودتهم، والانتفاع بهم وقت الشدة وهو باب الحمامة المطوقة.

والباب العاشر، باب طلب نفع الناس بضر النفس والتفكر فى العاقبة. وهو باب اللبؤة والإسوار.

وكان فى حاشية كسرى، طبيب حاذق، ورث الكثير من العلوم، موسوم بالعقل الكامل، وسعة المعرفة وغزارة العلم يسمى برزويه، فأخبر كسرى أنو شروان، أن أحد راجانات الهند لديه كتب قيمة، يجب الاطلاع عليها والانتفاع بها، فأرسل أنو شروان بعثة إلى راجا الهند تحمل الهدايا النفيسة، وتطلب من الراى تزويد البعثة بروائع ما عنده من كتب، فأهدى الراجا الملك كسرى كتبا، منها كتاب «كليلة ودمنة» ونقل الكتاب إلي

(١) تاريخ اليعقوبى جـ١ ص٨٨.

(٢) المصدر السابق ص٨٨-٨٩.

- السنور: حيوان أليف يشبه القطط.
- الجذر: الفأر الكبير.
- الغيلم: السلحفاء الذكر.
- ابن آوى: حيوان: أصغر حجما من الذئب. الأسوار: الفارس أو القائد.

الفارسية أو البهلوية، وأمر الخليفة المنصور، ابن المقفع بنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وأمر نصر بن أحمد بن إسماعيل السامانى، وزيره البلعمى، بنقل الكتاب إلى الفارسية نثرا، ثم أمر الرودكى الشاعر، فنظمه أراجيزا باللغة الفارسية(١).

وبقى الكتاب باللغة الفارسية القديمة حتى أمر السلطان إبراهيم الغزنوى، فأمر أبا المعالى نصر الله بن محمد بن عبد الحميد الكاتب العزنوى، فحرره بألفاظه الزاهرة وعباراته الباهرة، ورصعه باستعارات جميلة، ومزجه بأشعار العرب وأمثالهم الفصيحة حتى صار الكتاب درة من درر الأدب العربى والأدب الفارس، وتعددت بعد ذلك نسخ الكتاب بالعربية والفارسية نثرا وشعرا(٢).

وقد أفادت الترجمات من الفارسية إلى العربية فى الأدب والسياسة والأخلاق، وترجمت عهود الملوك إلى خلفائهم، وتتضمن توجيهات سياسية قيمة وتأثرت بها الكتب العربية، فهى تحاكى الكتب الفارسية فيما تتناوله من حكم، مثل كتاب المحاسن والأضداد، وكتاب المحاسن لابن قتيبة والمحاسن والمساوئ للبيهقى، والمحاسن والأضداد للجاحظ، وكتاب خداى نامه، أى سير الملوك وكتاب «أخبار ملوك الفرس» للثعالبى.

ومن أدباء ذلك العصر، ابن قتيبة الدينورى [ت٢٧٦هـ] وهو من كبار الأدباء وحجة فى اللغة والأخبار وأيام الناس وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، كثير التصنيف، وقد أجمع العلماء على تقدير قيمة مصنفاته، وهى عظيمة القدر جليلة النفع. وأشهر مؤلفاته «عيون الأخبار» - «طبقات الشعراء» - «المعارف» - «تاريخ ابن قتيبة»... إلخ(٣).

وكتب حمزة الأصفهانى تاريخا للفرس، ونبغ من الكتاب العرب عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وغيرهما.

الشعر

الشعر أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية عند الأمم المتحضرة، والشعراء هم قادة الفكر فى هذه الأمم، ونبغ شعراء فى المشرق، كما وفد على المشرق شعراء من الدولة العباسية لمدح أمراء الدول المستقلة، مثل البحترى وابن الرومى، وكل من رغب فى تعلم الشعر فى المشرق، كان يفد إلى البصرة لتعلم الشعر، مثل أبو نواس ـ الفارسى

(١) الفردوسى: الشاهنامه جـ٢ ص١٥٥-١٥٦.

(٢) الشاهنامه جـ٢ ص ١٥٦.

(٣) انظر كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.

الأصيل ـ وأجاد فى جميع أنواع الشعر، وخصوصا الخمر والغزل والأطلال، ويتجلى فى شعره الخلاعة والمجون بحكم البيئة التى عاش فيها(١).

من أشهر شعراء الطاهريين والصفاريين، حنظلة البادغيسى وأبو شكور البلخى، وفى عهد السامانين، كان الشعر ينظم بالفارسية وأصبحت اللغة العربية غريبة على الناس، وصدرت مؤلفات بالفارسية كتاب «الأبنية فى حقائق الأدوية» للإمام موفق الدين الهروى، على أن كبار علماء المشرق كتبوا مؤلفاتهم القيمة بالعربية مثل أبو بكر الرازى، وابن سينا والبيرونى، وأصدر مؤلفون كتبا بالفارسية مثل البيهقى والكرديزى، وصاحب تاريخ سيستان، وكتاب قاموس نامه، والتفهيم وكشف المحجوب، أى أن العصرين السامانى والغزنوى، كان التأليف فيهما بالعربية والفارسية، وكان طلاب العلم فى المشرق يعرفون اللغتين، وفى العصر الخوارزمى أصبح التأليف بالفارسية، وطلب العلم بالفارسية، وقل الاهتمام باللغة العربية فى العصر المغولى، وساد استعمال اللغة الفارسية فى المشرق، وصنفت الكتب القيمة بالفارسية، مثل كتاب تاريخ جهانكشاى للجوينى وجامع التواريخ لرشيد الدين. ورسالات نصير الدين الطوس(٢).

ومن شعراء طبرستان أبو العلاء السبروى ومن قوله

مردنا على الروض الذى قد تبسمت ... ذراه وأوداج الأبارق تُسفك
فلم نر شيئا كان أحسن منظرا ... من الروض يجرى دمعه وهو يضحك

ومن قوله

وغردت خطبا والطير ساجعة ... على المنابر من ورد ومن آس

ومن الشعراء أبو هاشم العلوى الطبرى

ومن قوله:

أبا هاشم يد الشرف ... مادحه آمن من السّرف
هل من المجد فى أواسطه ... وخلف العالمين فى طرف(٣)

ومن الشعراء «أبو الطيب الطاهرى» من أشعر أهل خراسان، ومن أجمعهم بين كرم النسب، ومزية الأدب إلا أنه كان كثير الهجاء، ورد إليه ميراثه من الطاهرية فى

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٢٣٩.

(٢) مرتض براوندى: الأدب الإيرانى بعد الإسلام ص٤٠ وما بعدها.

(٣) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ٤ ص٥٦.

بخارى، وكان يخدم آل سامان جهرا ويهجوهم سرا، وكان يذم آل سامان ووزراءهم وعمالهم، ومدينة بخارى كذلك(١).

لو الفرس العتيق اتى بخارى   لصار بطبعه فيها حمارا

وقال أبو منصور الطاهرى:

بكيت لفقد الوالدين ومن يعش   لفقدهما تصغر المصائب(٢)

فعزيت نفسى موقنا بذهابها   وكيف بقاء الفرع والأصل ذاهب

وأخرجت بلخ أربعة من الأدباء، أبا القاسم الكعبى فى علم الكلام وأبا زيد البلخى فى البلاغة والتأليف، وسهل بن الحسن فى الشعر الفارسى، ومحمد بن موسى فى شعر العربية(٣).

وكان على بن محمد الإسكافى، تأدب فى نيسابور عند الأديب والمعلم، الحسن ابن المهرجان، وتدرج فى العمل فى الدواوين السلطانية(١).

أبو النصر الهزيمى المعافى بن هزيم.

أديب أبيورد وشاعرها، وله كتاب «محاسن الشعر» و«أحاسن المحاسن» وكان يكثر المقام فى بخارى، ويخدم فضلاء رؤسائها.

أبو القاسم الدينورى، من رؤساء الدواوين، ورءوس الكتاب، ووجوه العمال بخراسان، وله شعر كثير(٥).

ومن علماء خراسان، أحمد بن محمد البغوى، ولى ديوان الرسائل وله كتاب فى الشعر ومحاسن الأخبار ولطائف الآداب ونتائج الألباب، ويقع فى عدة مجلدات(٦).

ومن الأعيان فى علوم اللغة والنحو، أبو إسحاق إبراهيم بن على الفارسى، وله ديوان شعر وكتب فى الآداب.

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص٧٩.

(٢) المصدر السابق جـ٤ ص٨٤.

(٣) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ٤ ص٩٧.

(٤) المصدر السابق جـ٤ ص١٠٥.

(٥) المصدر السابق جـ٤ ص١٥٥.

(٦) المصدر السابق جـ٤ ص١٦٢.

ومن علماء نيسابور فى الشعر والآداب، محمد بن الحسين الفارسى - نصر بن يعقوب - سهل بن المرزبان - محمد بن عبد الجبار العتبى - محمد بن الحسين القمى - على بن الحسين العلوى - عبد الله محمد بن البستى - طاهر بن حسين بن أسد - محمد ابن على الإسماعيلى الجوينى - محمد بن أحمد المأمونى، ويذكر الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر العديد من شعراء وأدباء وكتاب المشرق من خراسان وطبرستان وجرجان وبلاد ما وراء النهر وسيستان وقارس، ويذكر مؤلفاتهم بالعربية أو الفارسية وهذا يوضح مدى ازدهار الحياة الأدبية فى المشرق(١).

وظهر من نيسابور علماء أجلاء منهم عبد الله بن يوسف الجوينى - والد إمام الحرمين فقيه شافعى، إمام فى الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب، تخرج على يديه خلق كثير، وله عدة مصنفات فى اللغة والأدب والفقه والتفسير والأصول وخلفه فى مجلس علمه ابنه، إمام الحرمين، كان عالما فى علوم الدين والأدب، حقق كتب والده وفسرها وعلق عليها، جلس مكان والده للتدريس، تولى التدريس والوعظ والخطابة فى المدرسة النظامية فى نيسابور التى شيدها نظام الملك، وصنف فى كل من«نهاية المطلب فى دراسة المذهب» وجاور فى الحجاز أربع سنين ينشر علمه،لذلك سمى إمام الحرمين. ومن تلاميذه الغزالى وغيرهم من كبار العلماء.

ظهرت غزنة فى القرن الرابع الهجرى كمركز إشعاع فكرى كبير، آل إليه كل علماء مدن المشرق مثل بخارى وسمرقند والرى وأصفهان وطبرستان وجرجان وخوارزم، ومما زاد فى مكانة غزنة تشجيع السلاطين الغزنويين لرجال العلم والأدب.

وجدير بالذكر أن السلطان محمود الغزنوى، أرسل إلى مأمون بن مأمون - أمير خوارزم - يقول: لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم، ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعا إلى قصرى، حتى يتشرفوا بلقائى، فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم... ولما كان هذا الأمير يخشى بأس السلطان محمود الغزنوى فقد أمر رجال العلم فى بلاده بالتوجه إلى غزنة، فوفد عليه البيرونى وغيره، وفر ابن سينا إلى طبرستان، وجدَّ السلطان محمود فى البحث عنه، ولكن أمير طبرستان لم يمكن رجال السلطان محمود الغزنوى من ابن سينا، بعد أن أفاد منه فوائد جمة فى مجالات الطب وغيره من فروع العلم(٢).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص٤٧، ٩٤.

(٢) بروان: تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص١١١.

ويذكر البيهقى[1] أن السلطان محمود الغزنوى، كان يستدعى إلى بلاطه كل من له سعة فى العلم. ومن هؤلاء أبو صالح النباتى والإمام أبو صادق، ولما توفى الرجلان، أرسل محمود إلى نيسابور يسأل عمن يليهما فى فقه أبى حنيفة، وكان أبو صادق آية فى العلم والكمال، ولى قضاء طوس ونسا، وبرزت مقدرته العلمية فى مجالسه ومناظراته العديدة، حتى أن السلطان محمود الغزنوى، عهد إلى بالإشراف على المدارس الدينية فى تلك النواحى[2].

ومن رجال العلم فى الدولة الغزنوية، خلف بن أحمد الذى كون فريق عمل لتفسير القرآن الكريم، وعنده مكتبة كبيرة، تضم فروع العلم، وجذب إليه الشعراء، ومدحوه «بما سائر وذكره فى الآفاق طائر»[3].

ومن علماء نيسابور المشهورين، أحمد بن الحسين البيهقى، رحل فى طلب الحديث فى الحجاز والعراق والجبال، وسمع من علماء خراسان وعلماء المشرق عموما، وبلغت مصنفاته ألف جزء، وجمع تصانيف للإمام الشافعى فى عشر مجلدات، وأخذ عنه الحديث جماعة من طلاب العلم، وتوفى فى سنة ٤٨٥هـ - ١٠٩٢م[4].

وكان البستى كاتب محمود، موضع سره ومستشاره فى أمره أديبا كبيرا له شعر جيد، ونثر جيد، فأما شعره فأكثره مقطوعات يعمد فيها إلى المعنى الرقيق، فيصوغه فى لفظ رشيق، وأما نثره فواضح جميل فيه السجع والإزدواة على طريقة عصره وهو فى نثره يكثر من الأمثال،و يتجلى لنا من قصائده وكتاباته التى وصلت إلينا، مدى معرفته بأنواع العلوم، وخاصة علم النجوم[5].

كذلك اهتم السلطان محمود بالشعر،وكان شاعرا بطبعه، ونُسب إليه ست قصائد فى الشعر، وقرب إليه الشعراء. ومن أشهر شعرائه، عنصرى وهو يلى الفردوسى فى المرتبة، وبلغ من علمه وفضله أن لُقب بالحكيم وقُدر عدد شعراء السلطان محمود بأربعمائة شاعر، يقرون للعنصرى بالأستاذية،وكان نديما وشاعرا للسلطان محمود الغزنوى، وظل يسجل نظما مقامات تتعلق بغزوات السلطان وحروبه وفتوحه، حتى أن السلطان لقبه «أمير الشعراء» فى مملكته، وأمر كل شاعر فى مملكته بعرض شعره على

(١) تاريخ البيهقى ص٢٥٥.

(٢) تاريخ البيهقى ص٢٥٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص ٥٧ ، ٥٨.

(٤) عصام الفقى: الدول الإسلامية المستقلة ص١٨٦.

(٥) براون: تاريخ الأدب الفارس جـ٢ ص٢٣٩.

الأستاذ العنصرى، حتى يميز بين غثه وثمينه، ثم يُعرَض بعد ذلك على السلطان. وأصبح مجلس السلطان محمود، مقصد الشعراء(١).

الرودكى السمرقندى

هو عبد الله جعفر بن محمد الرودكى، وُلد ناحية رودك من أعمال سمرقند، وهو من أكبر وأعظم شعراء إيران، وقد أمر مؤرخو الطبقات بأستاذيته فى الشعر على معاصريه وسابقيه، ويبدو فى شعره طابع البساطة والقوة والسلاسة.

والشاعر الفذ، العنصرى اعترف بفضل الرودكى فى الغزل ومدحه بهذين البيتين:

لقد كان للرودكى غزل جيد   لا يدنو غزلى من غزله

إلى أن تعلقت بخيوط الوهم   فليس لى مدخل وراء ستاره

ويقر العلماء والحكماء بمقدرة الرودكى الشعرية، وقال الوزير البلعمى: ليس فى العرب والعجم أمثال الرودكى كالقصائد وكان للرودكى مهارة بفنون الشعر.

والرباعيات والمثنويات والقطع والغزليات، وقد اكتسب شهرة فى كل منها، وخاصة فى فن القصيدة فقد كان فيها أوحد زمانه ولم يكن الرودكى إماما فى اختيار الكلمات، وتناسب الألفاظ فقط، بل كان حريصا وموهوبا فى اختيار المعانى الدقيقة، وله حِكَم مفيده فى أشعاره.

زودنى الزمان بغالى النصائح   وحين تنظر للزمان فكله نصائح

ومن خلال أشعاره يدعو الناس إلى احتمال مصائب الدهر والمحن ومتاعب الأيام، وعلى الإنسان أن يواجه هذه المصاعب والشدائد بقوة وعزيمة لا تلين، وألا يفكر فى الحوادث التى تنتابه حتى لا يعكر صفو حياته.

ويبدو من قصائده التى قالها فى عمره الطويل، أنه عاش سعيدا، وتشير الكثير من الروايات إلى أنه كان أعمى، إلا أن خفة روحه وقوة عزيمته قد قهرت الظلام الذى يعيش فيه، وكان له ولع بالموسيقى، ويغنى بشعره بألحان من وصنعه على الربابة.

ويروى أن الأمير نصر بن أحمد السامانى كره بخارى، ونمادرها، ولم يوافق حاشية على العودة إليها، فتوسلوا إلى الرودكي ليقنع الأمير بالعودة إلى بخارى. وفى الصباح قدم الرودكى على الأمير وهو يحمل ربابه وغناه القصيدة التى مطلعها:

---

(١) براون: تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ، ص٢٣٩.

هبت علينا نسمات نهر موليان وهباء تنا محملة بذكريات الخلان

فتأثر الأمير من هذه القصيده، وأمر رجاله بالعودة إلى بخارى.

ومن الآثار التى خلدت ذكرى الرودكى نظمه لكليلة ودمنه، ولم يصلنا منها إلا النزر اليسير. وكان الرودكى مجددا فى اللفظ والمعنى، وتجردت كتاباته من الالفاظ العربية. وتقع أشعاره فى مائة دفتر صناع معظمها وتوفى سنة ٣٢٩هـ.

أبو جعفر الرودكى - أقدم شعراء الفرس العظام (ت٣٢٩هـ) نظم كليلة ودمنة بالفارسية.

والعنصرى (ت ٤٣١هـ) شاعر السلطان محمود الغزنوى - نظم قصة وامق وعذراء وأربع منظومات أخرى، وقد نظمها على نمط الشاهنامه، وأبو عبدالله الأنصارى الشاعر الصوفى المتوفى فى هراة (سنة ٤٨١هـ)، كتب قصة يوسف وزليخا - ،وفخرى الجرجانى - شاعر السلطان السلجوقى طغرل - نظّم ويس ورامين. ونظامى الكنجوى (ت ٦٠٠هـ). نظم خمس قصص، عرفت باسم خمسة نظامى، منها ليلى والمجنون، والأمير خسرو الدهلوى، وقصص أخرى.

منظومة مثنوى لجلال الدين الرومى، هى موسوعة رائعة من الأقاصيص والمحاورات الصوفية ،وجاء دور القصة بعد الأساطير القومية، ومن أهم القصص التى نُظمت بالفارسية قصة يوسف وامرأة العزيز، وكتب نظامى (ت١٢٠٢) خمسا من الملاحم، وأدى الجمع بين الشعر والقصص والملاحم إلى مولد مجموعة من الكتب التى يتجلى فيها الإبداع، وقد نظم سنائى والعطار المثنويات ذات الموضوعات الصوفية قبل جلال الدين الرومى، وقد كتب سنائى أيضا كوميديا إلهية صغيرة، ثم ظهرت المنظوة الخلقية والتهذيبية، ومن أشهرها بستان سعدى

ومن تلاميذ العنصرى، الشاعر العسجدى والشاعر فرخى، وللفرخى كتاب فى فنون الشعر يسمى «ترجمان البلاغة» ويقال: إن الفرخى لدى الفرس، بمثابة المتنبى لدى العرب، وقد التحق الفرخى بخدمة بعض الأمراء، وارتفع شأنه، ثم التحق بخدمة السلطان محمود الغزنوى، فلما رآه على هذا الحال من الرفعة والجاه والعظمة، أكرمه ورفع منزلته، وأمر أن يتبعه إذا ركب عشرون غلاما يتمنطقون بمناطق من الفضة الخالصة وقال(٢): «ما أكثر القصور التى شيدها محمود، وأقامها بالبناء فجعلها فى رفعتها تطاول

(١) بروان: تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص٢٣٩.

(٢) المصدر السابق ص١٤٣.

محمد موسى هنداوى: تاريخ الأدب الفارسى ص٢٩-٣١.

أقمار السمـاء، ولكنك لن تجد أجرة واحدة منها قائمة فى مكانها. وكل ما بقى هو ما أقامه له العنصرى من ثناء».

ومن أشهر شعراء المشرق الفردوسى، شُغل بالعلم منذ نعومة أظفاره، وبقراءة الكتب، وفاق أقرانه.

ويقال: إنه سمع الدقيقى الشاعر، ينظم الشاهنامه، وقُتل، وأن السلطان محمود يود أن ينظم الكتاب، وكان الفردوسى يتطلع إلى نظمه، حتى يبلغ المكانة الرفيعة، وحصل على ما نظمه الدقيقى من أشعار وواصل ما انتهى إليه الدقيقى، فذاع صيته، حتى أن السلطان محمود الغزنوى استدعاه إلى بلاطه، وأمره بأن يكمل الشاهنامه واستحسنها السلطان، وكافأه على نظمها - والمعروف أن اهتمام الفردوسى بالشاهنامه، كان وهو فى سن يتجاوز الأربعين عاما. وأمضى خمسا وثلاثين سنة فى نظم الكتاب، وأن سنه حين ختم الكتاب سنة ٤٠٠هـ كان يقارب الثمانين، وتوفى الفردوسى سنة ٤١١هـ فى بلدته طوس، وكانت عنده مزرعة، يعيش من دخلها وإن كان لا يكفيه وتكفل صديق له بحاجاته حتى يتفرغ لنظم الشاهنامه. والمعروف أن الفردوسى نظم الشاهنامه بعد وفاة الدقيقى سنة ٣٦٥هـ. وواضح أن السلطان محمود الغزنوى لم يكافئ الفردوسى المكافأة المناسبة فخاب ظن الفردوسى، وثارت ثائرته، وقسم المال بين بعض الناس ازدراء، ثم غادر غزنة مغاضبا، وهرب إلى مازندران(١). وحمل الشهنامه، وسار إلى طبرستان إلى شهريار - ملك طبرستان، وكتب فى ديباجة الشاهنامه مائة بيت فى هجاء السلطان محمود الغزنوى، وقرأها للملك، وقال سأحول الشاهنامه من اسم محمود إلى اسمك، فإن هذا الكتاب فيه أخبار أجدادك ومآثرهم. فمنح الملك شهريار مائة ألف درهم مكافأة للفردوسى، وحذف منها المائة بيت هجاء الخاصة بالسلطان محمود الغزنوى(٢).

والشاهنامه تجمع معظم أخبار وتاريخ وأساطير الفرس من أقدم عهودهم حتى الفتح الإسلامى، وهى مرتبة ترتيبا تاريخيا وتذكر الأسرة الحاكمة وأخبار كل ملك من ملوكها، وتناوب على حكم الفرس أربع دول على مدى ٣٧٨٤سنة وآخر دولة هى

(١) الفرودوسى: الشاهنامه جـ١ ص٥٨.

(٢) الفردوسى: الشاهنامه جـ١ ص٥٩.

الدولة الساسانية، و مدتها فى الشاهنامه ٥٠١ سنة، وعدد ملوكها ٢٩ ملكا وأحيت هذه الدولة المجد الفارسى والدين الزرادشتى(١).

ويقول نولدكه: الفردوسى شاعر مطبوع يجذب القارئ إليه بفكره الواسع وأسلوبه المتميز، ويبعث فى القصة التافهة حياة متدفقة، بما أضفاه على أبطالها من مقدرة على الحوار وقوة فى الأداء، وحتى تكتمل القصة وتأخذ شكلا رائعا، يختلق أحداثا يضيفها إلى القصة فتكسبها قوةً وجمالا، ويعطى لأبطال الرواية مواقف تكسب القصة قوة وجاذبية، وتجعل أحداث القصة قوية. والوصف الإنسانى جيد جدا، ونغمة البطولة واضحة فى القصة، مع إبراز عظمة الزمان ومثله وقيمه - والوصف. وتتضمن الشاهنامه خليطا من أحاديث الحرب والحب والعشق. ويحبب صاحب الشاهنامه القارئ بكل ما يرويه من عاطفة الأبوة وحنان الأمومة والقرابة مع جمال الوصف، ويصف على لسان الأبطال نكد الزمان وسوء الحظ وتقلب الإنسان بين السعادة والبؤس والغنى والفقر، وقهر الزمان وجمال الأيام والصحة والمرض، ومواجهة رفاق السوء ورفاق الصدق والإخلاص وجمال الشباب وبؤس الشيخوخة(٢).

أصل كتاب «ألف ليلة وليلة»

البحث عن أصل كتاب ألف ليلة وليلة من الأمور الشاقة، وقد أشارت الدكتورة سهير القلماوى فى كتابها «ألف ليلة وليلة» - الذى هو فى الأصل رسالتها التى حصلت بها على الدكتوراه - إلى هذه الحقيقة بقولها: «الكلام فى تاريخ الليالى رجم بالغيب فى أكثر الأحيان».

وتعد إشارة المسعودى (المتوفى ٣٤٦هـ - ٩٥٦م) فى كتابه مروج الذهب (ج٤ ص ٨٩ - ٩٠ طبعة مينارد Meynard) هى أقدم إشارة لكتاب ألف ليلة وليلة فى المصادر العربية ويقول فيها: إن الكتاب مترجم عن أصله الفارسى، وتلت إشارة المسعودى إشارة النديم (المتوفى ٤٣٨هـ - ١٠٧٤م) فى كتابه الفهرست (ص٣٠٤ طبعة فلوجل Flugel وذلك عند حديثه عن الخرافات فى المقالة الثامنة من الجزء الثامن).

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص٧٣، ٧٤.

(٢) نولدكه: ص١٠٩ وما بعدها.

وهاتان الإشارتان لم تكفيا للدلالة على أصل الليالى الحقيقية؛ ولذلك عمد الكثير من الباحثين - وخاصة الأوربيين - إلى البحث عن هذا الأصل، فقال بعضهم: إن أصل كتاب ألف ليلة وليلة هو كتاب فارسى له أصوله الهندية سمى «هذارأفسان» أى الألف خرافة، وأن هذا الكتاب ترجم للعربية ثم أضيفت إليه إضافات فى عصر الخليفة العباسى المنصور وإضافات أخرى فيما تلاه من عصور حتى عصر سلاطين المماليك بمصر.

والمتفق عليه بين الباحثين الآن أن ألف ليلة وليلة تختلف أصولها من حيث الوطن والعصر والمؤلف، فالكتاب ليس له مؤلف واحد ولم يكتب فى بلد واحد أو زمن واحد، والكتاب يرجع فى أصوله إلى ثلاثة شعوب هى الهندية ثم الفارسية ثم العربية. وبالكتاب العديد من الحكايات التى ترجع لهذه الشعوب الثلاثة، وبالنسبة للحكايات العربية فهى موزعة بدورها إلى حكايات بغدادية ودمشقية ومصرية، إلا أن الروح المصرية تظهر قوية فى كتاب ألف ليلة وليلة؛ وذلك لأن مصر كانت هى المحطة الأخيرة لليالى حيث تم فيها وضع الكتاب بشكله النهائى من حيث الصياغة والقصص المضافة.

والخلاصة أن كتاب ألف ليلة وليلة عبارة عن قصص شعبى له أصوله الهندية والفارسية إلا أنه عاش فى البلاد الإسلامية فتأثر بحضارتها وبيئاتها.

ومن أدباء ذلك العصر، ابن قتيبة الدينورى (ت٢٧٦هـ).

وظهر فى ذلك العصر ثالث الكتب المنثورة، وأعنى به الترجمة الفارسية التى قام بها نظام الدين أبو المعالى نصر الله للنسخة المشهورة من كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع، وقد قام أبو المعالى بهذه الترجمة الفارسية امتثالا لأمر السلطان الغزنوى بهرام شاه ثم أهداها إليه، وقد نالت هذه الترجمة كثيرا من الإعجاب فى فارس إذ كانت مثالا فى الفصاحة والبلاغة، ولاتبلغ سائر المنثورات الفارسية مبلغها من حيث الجودة وحسن السبك(١).

واشتهر من رجال الفلسفة فى المشرق ابن الخمار، كان نصرانيا نقل كتبا كثيرة من السريانية إلى العربية، وصنف فى الطب، كما ألف فى المنطق والإلهيات(٢).

(١) براون: تاريخ الأدب الفارسى جـ٢ ص٤٤٣.

(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ٢ ص٢٥١.

المقامات

المقامة هى حديث أدبى بليغ وليست قصة، وهى عبارة عن حيلة توضح حادثة معينة، وغايتها التعليم. والخليط الذى تعرض له الحيلة تطلعنا على حادثة معينة بأساليب أنيقة ممتازة، والغاية فيها الأسلوب واللفظ وليس المعنى. ومن هنا فإن المقامة تُعرض فى لغة سليمة ولفظ قوى، فالجوهر فيها ليس أساسا، وإنما الأساس حسن العرض وجمال اللفظ. لذلك واجهت المقامة حبا من الأدباء الذين زادت ثرواتهم اللفظية، وفضلوا اللفظ على المعنى فى كتاباتهم وكان السجع كل ما أحبوه من جمال فى اللغة وأساليبها[١].

المعروف أن بديع الزمانى الهمذانى هو الذى أرسى قواعد المقامات، وهو: أبوالفضل الحسين بن يحيى، الملقب بلقب بديع الزمان، ولد فى همذان سنة ٣٥٨هـ، تلقى العلم على علماء وشيوخ بلده، ودرس الكثير من علوم الأدب والشعر واللغة، ثم شرع فى الرحلة كعادة شباب عصره، فرحل إلى الرى، ووفد على الصاحب إسماعيل ابن عباد ـ الوزير البويهى، وقصره مقصد العلماء والأدباء ورجال الفكر.

وتقرب بديع الزمان إلى الصاحب بمدحه ببعض القصائد الشعرية فأعجب به الصاحب، وخصوصا أنه كان يترجم ما يطلب منه من الأشعار الفارسية إلى العربية فى إبداع وإسراع، وغادر الرى، وقصد جرجان، وغضب عليه أمير جرجان، فغادرها إلى نيسابور وفى طريقه، اعترضه اللصوص وسلبوه كل ما يمتلك، ووصل إلى نيسابور صفر اليدين[٢].

وفى نيسابور مارس الهمذانى نشاطه الأدبى، وناظر أبا بكر الخوارزمى، وأثبت فى مناظرته مقدرة علمية وتفوقا أدبيا وذاع صيته عقب ذلك، وألف مقاماته على أثر ذلك[٣]. على أنه لم يمكث أكثر من عام فى نيسابور، تمتع خلالها برعاية بنى ميكال، وغادرها سنة ٣٨٣هـ وظل يتنقل بين مدن نيسابور، ونظرا للاضطرابات التى شهدتها خراسان فى أواخر عهد السامانيين، لجأ إلى سجستان[٣]. وفى طريقه إلى سجستان

(١) شوقى ضيف: المقامة ١٠-١٢.

(٢) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ٤ ص٢٩٢.

(٣) الثعالبى: يتيمة الدهر جـ٤ ص٢٩٣ وما بعدها.

تعرض للصوص الذين سلبوه كل ما معه، ولجأ فى سجستان إلى أميرها خلف بن أحمد الذى أكرم وفادته. وألف فيه ست مقامات، نوّه فيها بفضله، إلا أنه نفر منه، فغادر سجستان، ولجأ إلى هراة[1]. واستقر فى هراة، وكوّن بها ثروة كبيرة تتضمن عقارا وضياعا. وأنشد قصائد مدح فى السلطان محمود الغزنوى، فأغدق عليه الأموال، وتوفى سنة ٣٩٨هـ[2].

وقد كتب الهمذانى أربعمائة مقامة، لم يصلنا منها سوى خمسون فقط، وتبعه فى كتابة المقامات بعض تلاميذه، مثل الحريرى والزمخشرى.

ويجدر بنا الإشارة إلى إحدى مقامات الهمذانى نشرها الإمام الشيخ محمد عبده وقدم لها جمال الغيطانى.

المقامة الموصلية

حدثنا عيسى بن هشام قال: لما قفلنا من الموصل. وهممنا بالمنزل. وملكت علينا القافلة. وأخذ منا الرحل والراحلة. جرت بى الحشاشة إلى بعض قراها ومعى الإسكندرى أبو الفتح، فقلت: أين نحن من الحيلة. فقال: يكفى الله. ودفعنا إلى دار قد مات صاحبها وقامت نوادبها. واحتفلت بقوم قد كوى الجزع قلوبهم. وشقت الفجيعة جيوبهم. ونساء قد نشرن شعورهن يضربن صدورهن وجددن عقودهن. يلطمن خدودهن. فقال الإسكندرى: لنا فى هذا السواد نخلة. وفى هذا القطيع سخلة. ودخل الدار ينظر إلى الميت وقد شدت عصابته لينقل. وسخن ماؤه ليغسل. وهيِّئ تابوته ليحمل وخُيطت أثوابه ليكفن. وحفرت حفُرته ليدفن. فلما رآه الإسكندرى أخذ حَلْقَهُ فجس عِرْقه. فقال: يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه فهو حى وإنما عرته بهتة. وعلته سكنة. وأنا أسلِّمه مفتوح العينين. بعد يومين. فقالوا: من أين لك ذلك. فقال: إن الرجل إذا مات برد إبطه وهذا الرجل قد لمسته فعلمت أنه حى. فجعلوا أيديهم فى إبطه. فقالوا: الأمر على ما ذكر. فافعلوا كما أمر. وقام الإسكندرى إلى الميت. فنزع ثيابه ثم شد له العمائم. وعلق عليه تمائم. وألعقه الزيت. وأخلى له البيت. وقال دعوه. ولا تردعوه.

(١) شوقى ضيف: المقامة ص١٥.

(٢) الثعالبى: المصدر السابق ص-٤ ، ٣٩٨.

وإن سمعتم له أنينا فلا تجيبوه. وخرج من عنده وقد شاع الخبر وانتشر بأن الميت قد نُشِرَ. وأخذتنا المبار من كل دار. وانثالت علينا الهدايا من كل جار. حتى ورم كيسنا فضة وتبرا. وامتلأ رحلنا أقطا وثمرا. وجهدنا أن ننتهز فرصة فى الهرب فلم نجدها حتى حل الأجل المضروب واستنجز الوعد المكذوب. فقال الإسكندرى: هل سمعتم لهذا العليل ركزا. أو رأيتم منه رمزا. فقالوا: لا، فقال: إن لم يكن صوت مذ فارقته. فلم يجئ بعد وقته. دعوه إلى غد فإنكم إذا سمعتم صوته. أمنتم موته. ثم عرفونى لأحتال فى علاجه. وإصلاح ما فسد من مزاجه. فقالوا: لا تؤخر ذلك عن غد. قال: لا. فلما ابتسم ثغر الصبح. وانتشر جناح الضوء فى أفق الجو. جاءه الرجال أفواجا. والنساء أزواجا. وقالوا: نحب أن نشفى العليل. وتدع القال والقيل. فقال الإسكندرى: قوموا بنا إليه ثم حضر التمائم عن يده. وحل العمائم عن جسده. وقال أنيموه على وجهه فأنيم، ثم قال: أقيموه على رجليه فأقيم. ثم قال: خلوا عن يديه فسقط راسيا وطن الإسكندرى بفيه. قال: هو ميت كيف أحييه. فأخذه الجف. وملكته الأكف. وصار إذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى، ثم تشاغلوا بتجهيز الميت فانسللنا هاربين حتى أتينا قرية على شفير واد السيل يطرفها. والماء يتحيفها. وأهلها مغتمون لا يملكهم غمض الليل. من خشية السيل، فقال الإسكندرى: يا قوم أنا أكفيكم هذا الماء ومعرته. وأرد عن هذه القرية مضرته فأطيعونى. ولا تبرموا أمرا دونى. قالوا: وما أمرك؟ فقال: اذبحوا فى مجرى هذا الماء بقرة صفراء. وآتونى بجارية عذراء. وصلوا خلفى ركعتين ينن الله عنكم عنان هذا الماء. إلى هذا الصحراء. فإن لم ينثن الماء فدمى عليكم حلال. قالوا: نفعل ذلك. فذبحوا البقرة. وزوجوه الجارية. وقام إلى الركعتين يصليها وقال: يا قوم احفظوا أنفسكم لا يقع منكم فى القيام كبو. أو فى الركوع هفو. أو فى السجود سهو. أو فى القعود لغو. فمتى سهونا خرج أملنا عاطلا. وذهب علمنا باطلا.....

✲ ✲ ✲

التاريخ والمؤرخون

اهتم علماء المشرق بدراسة التاريخ، ونبغ منهم مؤرخون، كتبوا كتبا قيمة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، وأتيحت لهم مادة غزيرة عبروا بها فى كتبهم، وأتيحت لهم المصادر الأصلية، مثل الوثائق والمراسم والمعاهدات الرسمية والمراسلات السياسية والبيانات الإحصائية من الدواوين وحقائق المعلومات التى أفادتهم فى التراجم عن الوزراء والقواد والأمراء والشيوخ والقضاة والولاة، وعندهم المقدرة على وصف الحروب والخطط العسكرية والأساليب القتالية، والأسلحة المستعملة فى الحروب وأخبار الثغور والعواصم[١].

وساعد على التدوين ازدهار صناعة الورق الذى توفر للتأليف، وأدت الترجمة من اليونانية والفارسية إلى العربية، وإنشاء بيت الحكمة، وانتشار المكتبات، التى تتضمن نسخا من الكتب المترجمة، كل ذلك أعطى للمؤلف مادة غزيرة عن الأمم الغابرة كاليونان والفرس والهنود والسريان وغيرهم:

ومن أشهر مؤرخى الإسلام من أهل المشرق: محمد بن جرير الطبرى صاحب كتاب «تاريخ الأمم والملوك».

ومسكويه صاحب كتاب «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» هو أبو على أحمد بن أحمد بن يعقوب الخازن المعروف بـ «مسكويه»، ولد فى الرى على دين المجوسية، ثم دخل فى الإسلام وصحب «ابن العميد» وعظم شأنه فى العهد البويهى[٢]. وذلك لإلمامه بعلوم مختلفة فى عصره.

وقد اشتغل مسكويه بعلوم مختلفة كالكيمياء[٣] والطب[٤] والأدب والتاريخ والفلسفة، وهذا يدل على تنوع ثقافته وشموليتها لأبرز العلوم فى عصره. وترك مسكويه مؤلفات متعددة[٥] من أهمها: «الفوز الأكبر» و«الفوز الأصغر»، و«كتاب الأشربة»،

---

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٢٤٠.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء جـ٢ ص٣,٤.

(٣) ياقوت: المصدر السابق، نفس الجزء ص٣.

(٤) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ١ ص٢٤٥.

(٥) عن مؤلف ابن مسكويه انظر بالإضافة إلى المصدرين السابقين: حاجى خليفة. كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ١ ص٣٤٤، جـ٢ ص٣٠٣.

و«كتاب الطبيخ» و كتاب «تهذيب الأخلاق»، و«تدريب العادات»، و«تجارب الأمم».. وغيرها. ونتيجة لثقافة مسكويه الواسعة شهد له العديد من العلماء منهم:

- «الثعالبى» الذى قال عن مسكويه: «كان فى الذروة العليا من الفضل والأدب»(١).

«ياقوت»وقال عنه: «كان عارفا بعلوم الأوائل معرفة جيدة»(١).

«ابن أبى أصيبعة» وقال عنه: «فاضل فى العلوم الحكمية متميز فيها، خبير بصناعة الطب جيد فى أصولها وفرعها»(٢).

توفى مسكويه سنة ٤٢١ هـ - ١٠٣٠م(٣).

كتاب «تجارب الأمم».

من أهم كتب مسكويه كتاب «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» حيث يعتبر من مصادر التاريخ الإسلامى التى لا غنى عنها للمؤرخ.

بدأ مسكويه الكتاب بأحداث ما بعد الطوفان ثم تناول التاريخ الإسلامى بداية من عصر الرسول ﷺ إلى سنة ٣٧٢هـ مرورا بعصور الراشدين والأمويين والعباسيين. وقد جعل مسكويه كتابه مرتبا وفقا لنظام الحوليات التاريخية، أى بذكر أحداث كل سنة منفصلة عن أحداث السنوات الأخرى.

وقد نشر هذا الكتاب المستشرق آمدروز AMEDROZ سنة ١٩١٣، وهذه الطبعة هى الموجودة بين أيدينا إلى يومنا هذا.

هلال بن المحسن صاحب كتاب «تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء»

هو أبو الحسن هلال بن المُحَسِّن بن إبراهيم بن هلال، الصابئ الحرانى(٤).

وقد سأله الخطيب البغدادى عن سنة مولده فذكر له أنها سنة تسع وخمسين وثلاثمائه(٥) (٣٥٩هـ - ٩٧٠م) ونقل ذلك كل المؤرخين الذين ترجموا لهلال الصابى.

---

(١) ياقوت: المصدر السابق جـ٢ ص٤.

(٢) نفسه. المصدر السابق جـ٢ ص٦.

(٣) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ١ ص٢٤٥.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء جـ٢ ص٣، حاجى خليفة: كشف الظنون جـ١ ص٣٤٤.

(٥) المصدر السابق.

وكان جده أبو إسحاق ـ صاحب الرسائل ـ صابئيا، كما كان أبوه المحسّن صابئا أيضا. أما هلال بن المحسن فقد ظل على الكفر فترة من حياته طلب فيها الأدب على يده مجموعة من الشيوخ ثم دخل فى الإسلام متأخرا، ولعل تعلمه على أيديهم كان سببا فى إسلامه على ما ذكره ابن كثير نقلا عن ابن الجوزى(١). ومن أهم الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم هلال: أبو على الفارسى، وعلى بن عيسى الرمانى، وأبو بكر محمد بن الجراح الخراز وغيرهم(٢).

أما عن نشاطه العلمى فهو أديب ومؤرخ، وقد أهلته ثقافته الأدبية والتاريخية لأن يصدر العديد من المؤلفات(٣) منها: «غرر البلاغة» وبه طائفه من رسائله، وكتاب «الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان» ومن أهم كتبه التاريخية كتاب «تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء» وهو يعد ذيلا على كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشيارى، وقد جمع فيه هلال الصابئ أخبار الوزراء، و كتاب تحفة الأمراء طبعه المستشرق آمدروز AMEDROZ، ثم طبعه مرة أخرى عبدالستار فراج، إلا أن هاتين الطبعتين للكتاب غير كاملتين؛ لأن جزءا من الكتاب قد ضاع ضمن ما ضاع من كتب فى تراثنا الإسلامى.

ولقد شهد لهلال الصابئ كثير من المؤرخين ومن ذلك:

الخطيب البغدادى يقول عنه: «كتبنا عنه وكان صدوقا»(٤).

ابن كثير يقول عنه: «أسلم وحسن إسلامه وكان صدوقا»(٥).

أبو المحاسن يقول عنه: «نقلنا عنه كثيرا من التاريخ»(٦).

ويقصد كتابه «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة».

وتتفق المصادر على أن هلال الصابئ توفى سنة ٤٤٨هـ ـ ١٠٥٦م بعد حياة علمية حافلة دامت تسعين عاما تقريبا.

---

(١) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، ج١٤ ص٧٦؛ ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج١٦ ص١٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦ ص٧٦.

(٢) الخطيب البغدادى: المصدر السابق، ج١٤ ص٧٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ٧٤.

(٤) الخطيب البغدادى: نفس المصدر السابق الجزء والصفحة؛ ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج٦ ص١٠١؛ ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج٣ ص٢٧٨.

(٥) ينظر أسماء مؤلفاته فى مصادر ترجمته.

(٦) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، ج١٤ ص٧٦.

ومن كتب التاريخ التى تهتم بالدولة الغزنوية، كتاب اليمينى لأبى نصر محمد بن عبدالجبار العتبى (ت ٤٨٢هـ) دخل فى خدمة السلطان سبكتكين ثم السلطان محمود الغزنوى، وأرخ للسلطان كتاب «تاريخ اليمينى» وأبرز الوقائع والأحداث التى وقعت فى أيامه، وصاغه فى أسلوب أدبى مسجوع، وتأتى أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه العتبى عاصر الأحداث التى كتب عنها، كما أنه كان يعمل فى دواوين الدولة(١)، لذلك تجمعت لديه مصادر هامة لمادته التاريخية.

ومن مؤرخى الدولة الغزنوية أبو الفضل محمد بن حسين البيهقى، (ت٤٧٠هـ)، وهو من بيهق فى خراسان، تثقف فى نيسابور ثقافة واسعة دينية وأدبية، اشتملت على علوم الحديث والقرآن والآداب العربية، وارتبط بروابط وثيقة برجال العلم والأدب، ومن أبرز كتبه كتابه الذى وضعه عن تاريخ الدولة الغزنوية فى عهد السلطان مسعود ويسمى «تاريخ البيهقى» وهو من أهم مصادر هذه الدولة فى عهد السلطان مسعود، ويشهد هذا الكتاب بسعة اطلاع مؤلفه وعمق ثقافته وإحاطته الكاملة باللغتين العربية والفارسية.

التحق البيهقى بالعمل فى ديوان الرسائل، واعتزل عمله فى آخر عهد السلطان عبدالرشيد (٤٤٠ ـ ٤٤٤هـ) واعتكف على القراءة والتأليف حتى وفاته، وكتاب «تاريخ البيهقى» له نمط خاص، فهو ليس سردا لأحداث التاريخ فقط، وإنما توضيح النظم السياسية والإدارية والمالية ورسوم قصر السلطان، ووصف للحياة الاجتماعية فى الدولة الغزنوية من عادات وتقاليد ومجالس اجتماعية ووصف للسفارات الدبلوماسية فى أيامه، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن البيهقى عاصر الأحداث وعمل فى دواوين الدولة، وكان لا يتوقف عند المادة التاريخية، وإنما يبدى رأيه، ورأى الوزير ورئيس الديوان، وينقل صدى الأحداث بالنسبة للرأى العام فى الدولة الغزنوية، ودون الرسائل والوثائق الرسمية للدولة ونقلها فى كتابه. وتعتبر من أهم الرسائل السياسية فى التاريخ الإسلامى. وكان يدون ما يسمعه من الوزير أو من كبار رجال الدولة، ونقل كل هذا فى كتابه؛ لذلك فإن تاريخه يعطى صورة صادقة عما جرى فى البلاط الغزنوى أيام السلطان مسعود، وعن نظم الحكم فى الدولة الغزنوية والسياسة الداخلية والخارجية لهذه الدولة(٢)، وترجم هذا الكتاب القيم من الفارسية إلى العربية الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٧٤.

(٢) أبو المحاسن بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٥ ص٦٠.

ومن مؤرخى المشرق، أبو بكر محمد بن جعفر النرشخى الذى عاصر قيام الدولة السامانية، وامتدت حياته حتى عهد الأمير نوح بن نصر، وانتهى من تأليفه سنة ٣٢٢هـ- ٩٤٢م، وكتب النرشخى كتابه بالعربية، ثم قام أحمد بن نصر القباوى بترجمة الكتاب إلى الفارسية سنة ٥٢٢هـ -١١٢٨.

وتأتى أهمية الكتاب إلى أنه يلقى الضوء على تاريخ بلد كان قديما جزءا من تركستان، وغدا بعد الفتح الإسلامى حاضرة لدولة كبيرة وهى الدولة السامانية. ويتناول هذا الكتاب تاريخ السامانيين، وخطط بخارى وأوضاعها الاقتصادية والحياة الاجتماعية والثقافية فيها، ويذكر حكامها وقضاتها وأخبار فتحها، وانتشار الإسلام فيها ولكن المؤلف حين يكتب عن بخارى قبل الإسلام يذكر الكثير من الأساطير(١).

ومن مؤرخى المشرق، الكرديزى، وهو عبدالحى بن محمود، وسمى بالكرديزى، نسبة إلى كرديز بالقرب من كابل، وعاش فى غزنة، وصنف فيها كتابه «زين الأخبار» تيمنا باسم السلطان زين الملة عبدالرشيد، وتوفى سنة ٤٤٢ ـ ٤٤٣هـ. ويتضمن هذا الكتاب تاريخ ملوك الفرس قبل الإسلام ثم خلفاء وملوك الإسلام، ثم أمراء خراسان، ويكتب عن الدولة الطاهرية والصفارية والسامانية والغزنوية، ثم يكتب عن تواريخ الأمم وأعياد اليهود والمسيحيين والهنود والأمم الأخرى ثم يكتب عن بعض الشعوب التى لها صلة بالمسلمين، كالغز والترك والروس وغيرهم وفى معارف اليونان والهنود، ومن هنا فالكتاب عظيم القيمة عن تاريخ المشرق وبعض مظاهر الحضارة فيه(٢).

ومن أبرز مؤرخى المشرق، الحسينى، صاحب كتاب «أخبار الدولة السلجوقية» والقزوينى صاحب كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد»، ومحمد بن خواند شاه بن محمود، صاحب كتاب «روضة الصفا»، والراوندى صاحب كتاب «راحة الصدور وآية السرور»، وهو مصدر هام لتاريخ السلاجقة وحضارتهم.

ومن كبار مؤرخى المشرق الإسلامى، حمد الله مستوفى قزوينى، وكتابه «تاريخ كزيده» ويتضمن فصولا رائعة عن الطاهريين والصفاريين والسامانيين والغزنويين والسلاجقة والخوارزميين والمغول.

---

(١) الذهبى: أعلام النبلاء ج٢٢ ص٣٠٩.

(٢) النرشخى: تاريخ بخارى ص٥ - ٧.

ومن مؤرخى المشرق، البندارى، قوام الدين أبو الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى، نشأ فى أصفهان وتربى بها، وقدم الشام ونال تقدير الأمراء وأهل العلم ولم يتخذ الشام دار إقامة، وتطلع إلى العودة إلى أصفهان لترجمة الشاهنامه، والحصول على هبة السلطان محمود الغزنوى، وقد قاسى فى رحلاته الكثير من الأهوال، فكان يأكل ورق الشجر، وينام فى العراء. ولا يأكل إلا اليسير مما يتيسر له(١).

والبندارى أديب وشاعر وفقيه، اختصر كتاب السلاجقة الذى ألف العماد الأصفهانى بالفارسية، واختصر كتاب «البرق الشامى» للعماد الأصفهانى(٢).

ومن مؤرخى الدولة الخوارزمية الكبار، محمد النسوى الذى كتب عن «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى» وهذا الكتاب مصدر هام لأنه عاصر هذه الفترة المضطربة، وشارك فى بعض الأعمال الرسمية كالسفارة وغيرها.

تقلد آل الجوينى، بعض المناصب الرئيسية فى المشرق الإسلامى، وتوارثوا بعض المناصب فى خدمة الأمراء والسلاطين.

ولد عطا ملك جوينى سنة ٦٢٣هـ، ورافق هولاكو فى رحلته لغزو طوائف الإسماعيلية وبغداد، وأصبح كاتب هولاكو بالعربية والفارسية ومستشاره ومدير أموره، وعينه هولاكو رئيسا لحكومة العراق سنة ٦٥٧هـ وزاد نفوذه بعد تولى أحمد تكودار - المغولى المسلم سلطنة الدولة الإلخانية، وظل كذلك حتى وفاته سنة ٦٨١هـ فى تبريز(٣).

وقد كتب لنا تاريخا مفيدا عن المغول ونظمهم وجيوشهم وعاداتهم وتقاليدهم وأساليبهم فى الحرب والقتال، وشاهد كل الأحداث التى كتب عنها، ولذلك فإن الكتاب من المصادر الأساسية لتاريخ المغول، كتبها مؤرخ معاصر وهو عطا ملك جوينى، واطلع على مكتبة الإسماعيلية، بعد استيلاء هولاكو على قلاعهم، وأحرق معظم ما فيها من كتب، وهذا خطأ شديد وقع فيه فى حق العلم. وقد شاهد عطاالله ملك جوينى بنفسه الدمار الذى لحق بالمسلمين من غزوات المغول، ويخفى عن التاريخ ذكر ما شاهده وذكر الخراب والدمار الذى حل بمدن الإسلام. ويمدح المغول بما لا يستحقون. ولعله كان معجبا بهم ولكنه تخلى بذلك عن قوميته وعقيدته وارتكب خيانة كبرى حين

(١) انظر الكرديزى: زين الأخبار.

(٢) الفردوسى: الشاهنامه جـ١ ص٩٨.

(٣) الجوينى: تاريخ جهانشكاى جـ١ ص١٥.

شهد بعينيه دماء المسلمين وهى تنهمر(١)، وممتلكاتهم وهى تبدد، ومع ذلك يمدح أسياده المغول. دخل فى خدمة هولاكو ثلاثين سنة أى نصف عمره، وشارك هولاكو فى فتوحه، مدينة مدينة، وكان كاتبه فى المصادرات والمراسلات والمفاوضات، وأحد الحكام البارزين فى بغداد طوال حكم أباقا بن هولاكو [٦٦٣ - ٦٨٠هـ].

والكتاب تاريخ فاتح العالم جهانكشاى لعطا ملك جوينى، يتضمن تاريخ المغول والإيلخانيين حتى سنة ٦٨١هـ، وتاريخ الدولة الخوارزمية وقلاع الإسماعيلية والصراع بين المغول والخوارزميين، وغزو المغول للعراق وفارس والشام.

ومن مؤرخى المغول، رشيد الدين فضل الله الهمذانى، دخل فى خدمة المغول، ثم الإيلخانيين، وعمل وزيرا، وقد نكب وقتل بعد المؤامرات التى دُبرت ضده، وكتابه مصدر هام من مصادر تاريخ المغول، وخصوصا أنه عاصر خانات الدولة الإيلخانية، وبرزت شخصيته فى هذه الدولة كرجل من رجال السياسة والمكانة الرفيعة فى الدولة(٢).

بدأ رشيد الدين فضل الله الهمذانى حياته عطارا ثم طبيبا، وارتفع شأنه حتى برز فى الدولة الإلخانية، فأسند إليه منصب الوزارة، وأصبح صاحب الأمر والنهى فى الدولة الإيلخانية، وجمع ثروة هائلة من عمله، وصنف الكتب القيمة، حتى حيكت المؤامرات ضده واتهمُ، بأنه دس سما للسلطان أولجايتو أثناء مرضه، ومات بسبب ذلك، فأمر ابنه وخليفته على العرش - جويان بقتل الوزير الهرم وابنه الشاب، وقُتل الابن أمام أبيه، ثم قُتل الشيخ الهرم رشيد الدين وشطر جسمه إلى قسمين وقطُع جسده، وأُرسلت كل قطعة فى مكان، وكان ذلك فى تبريز سنة ٧١٧ هـ وقبل وفاته نظم هذه الأبيات.

سنوات عديدة من الفرح والسرور لم يكن لخاطرى اكتراث بالقيل والقال ولم يكن ليوم سعادتى وهنائى زوال.

كان الفلك يريد أن يحدث ضررا لكن لم يكن له جرأة على ذلك

وأخيرا كل ما أراده قد عمله

بطريق لم يكن فى الحسبان

وصودرت كل أملاكه.

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص١٧.

(٢) فؤاد الصياد: المشرق الإسلامى فى عهد الإليخاميين ص٤١٩.

ومادمنا بصدد الكلام عن رشيد الدين، فيجب أن نذكر أنه صنف الكتب فى الطب والكيمياء والأدب والدين والاقتصاد الزراعى، بالإضافة إلى كتابه التاريخى الكبير «جامع التواريخ» وقد شجعه على تصنيف هذا الكتاب القيم الخان أو لجايتو وحثه على الانتهاء منه، وكان قد بدأه فى عهد غازان(١).

ويشكل هذا الكتاب أهمية كبيرة فى الأدب الفارسى، ويوضح منهج الكتابة التاريخية فى عصره، وهو من أهم المصادر التاريخية عن الفترة التى يكتب عنها وهى فترة العصور الإسلامية المتأخرة، حيث الغزو المغولى، وقيام الدولة الإيلخانية ودول المغول فى آسيا، والكتاب سجل لتاريخ الأمم المعاصرة له.

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه اهتم بالتصوير، فاستقدم المصورين والفنانين، ورسموا له على مخطوطه رسوم أباطرة المغول وأمراءهم مع عائلاتهم أو فى رحلات الصيد أو فى ساحة القتال، كذلك استعان بكبار الخطاطين والمغلفين والمشتغلين بالتذهيب لنسخ كتبه فى أجمل الصور الفنية، ومزينة بالصور التى ذكرناها(٢). وقد أنفق رشيد الدين على زخرفة ونسخ وتصوير وتجليد الكتاب ٦٠ ألف دينار، لذلك فإن كتاب «جامع التواريخ» بالإضافة إلى قيمته العلمية، فهو ذو قيمة فنية، والكتاب سجل حافل عن عصر الإيلخانيين.

وهذه الصور، تطور كبير فى إخراج الكتب عند المسلمين الذين كرهوا التصوير، وأخرجوا كتبهم على شكل أوراق مكتوبة فقط. وقد تطور التصوير عند المغول بفضل التأثيرين الفارسى والصينى(٣).

الجغرافيا

يرجع الاهتمام بالجغرافيا فى دولة الإسلام، والمشرق بصفة خاصة إلى اهتمام المسلمين بالأراضى الأجنبية، الذى أثاره التجار والملاحون المسلمون الذين جابوا أطراف العالم، وكانت كتب بطلميوس من أهم المصادر التى حرص المسلمون على الاستفادة منها، وترجمها الكندى وغيره إلى العربية، واستخدم الخوارزمى(من المشرق) هذه المادة لإجراء أبحاثه، وأخرج بدوره كتابه الكبير«وجه الأرض»(٤).

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢٠.

(٢) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين ص٤٠٢.

(٣) المصدر السابق ص٤٠٣.

(٤) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٢٨٤.

وفى أوائل القرن الثالث ظهر الرحالة، ويبدأ الشغف بالرحلة من بلد إلى بلد، إما للحج وزيارة قبر الرسول ﷺ، أو لطلب العلم لدى الشيوخ فى المساجد، ونشأ جيل من الرحالة، يقضى معظم أوقاته متنقلا بين البلاد، ويصف البلاد التى مر بها وصفا دقيقا، وهو يدرك مهمته جيدا، ويصحب معه فى رحلاته أوراقه وأقلامه لتدوين ما يراه، ويتحمل مشاق الطريق وأهوال السفر، وينام فى الزوايا والأربطة والمساجد، ويصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والطرق والبحار والأنهار وخطط المدن وحياة الناس عموما وعاداتهم وتقاليدهم، وكتبوا عن الملوك والقادة والحكام الذين التقوا بهم(١).

ومن الرحالة المسلمين فى المشرق، ابن خرداذبة، الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى، كتب كتاب «المسالك والممالك»، ويعتبر من أقدم الكتب العربية فى الجغرافيا، وهو دليل يستفيد منه المسافرون فى الاهتداء إلى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب دجلة عند الابلة، ويصل إلى الهند والصين(٢).

ابن خرداذبة هو أبو القاسم عبدالله بن عبدالله بن خرداذبة فارسى الأصل، كان أبوه حاكما على طبرستان، شُغف بالموسيقا وتتلمذ على المغنى الكبير إسحاق الموصلى. وله العديد من المؤلفات تصل إلى عشرة، وتظهر شعوبيته فى كتاباته. وهذا واضح فى كتابه «جمهرة أنساب الفرس» وله كتب فى الترفيه لأهل الهوى مثل كتبه«الشراب» - «الملاهى والأسمار»(٣).

تولى ابن خرداذبة وظيفة صاحب البريد فى بلاد الجبل، ومن أهم كتبه، كتاب«المسالك والممالك» يبدأ كتابه بوصف الأرض، ويذكر قبلة كل بلد، وتكلم عن سواد العراق، وذكر التقسيم الإدارى للبلاد التى وصفها من خلال دراسة ضرائبها ويكتب عن ملوك الفرس والروم والترك والصين(٤).

والقسم الثانى من الكتاب، يصف الطرق، ويبدأ بالطرق التى تخرج من بغداد شمالا إلى آسيا الوسطى وجنوبا إلى الهند، ويصف الطرق، ويستشهد بالشعر، ويكتب عن الجزر والبحار تفصيلا(٥).

(١، ٢) مقدمة كتاب المسالك والممالك.

(٣) ابن النديم : الفهرست ص١٦٥ .

(٤) تاريخ الأدب الجغرافى جـ١ ص١٥٥ .

(٥) ياقوت: معجم الأدباء، ج٤ ص١٩٩ ويذكر النديم فى الفهرست أنه «الهمدانى» بالدال: (الفهرست، ص١٧١) ولعل ذلك تصحيف من النساخ أو المحقق.

ابن الفقيه الهمذانى وكتابه
«مختصر كتاب البلدان»

هو أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذانى[1] المعروف بابن الفقيه الهمذانى. الأديب والجغرافى.

يكتنف الغموض حياة ابن الفقيه الهمذانى، فلا تذكر المصادر لا سنة ميلاده ولاسنة وفاته ولا تقدم لنا إلا معلومات ضئيلة جدا عن الرجل، ولعل هذا النزر القليل عن ابن الفقيه وحياته كان أيضا يمثل مشكلة بالنسبة للقدماء، فها هو النديم بعد أن يذكر اسم ابن الفقيه وأنه من أهل الأدب يقول: «ولا نعرف من أمره أكثر من هذا»[٢].

وبالرغم من هذه المشكلة إلا أنه أيا كان الأمر فإن الباحث يرى - بترجيح أقرب إلى التأكيد - أن ابن الفقيه كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى(العاشر الميلادى) ودليل ذلك ماذكره ياقوت فى معجم البلدان[٣] فى مادة بيرة أن ابن الفقيه كان حيا سنة ٣٤٠هـ - ٩٥١م، كما يذكر فى معجمه الآخر عن الأدباء أن ابن إسحاق ذكر ابن الفقيه فى كتابه الذى ألفه سنة ٣٧٧هـ- ٩٨٧م.

ويذكر لابن الفقيه كتابين هما: كتاب البلدان، وكتاب ذكر الشعراء والمحدثين والبلغاء منهم والمفحمين، وقد ضاع هذان الكتابان ولم يبق من آثار ابن الفقيه إلا مختصر لكتابه البلدان.

وقبل أن نتناول كتاب «مختصر كتاب البلدان» بالدراسة نريد أن نشير إلى أن ابن النديم وياقوت قد اتهما ابن الفقيه بأن كتابه البلدان «أخذه من كتب الناس، وسلخ كتاب الجيهانى»[٤]، أى أنهما يقولان أن ابن الفقيه الهمذانى كان يتصف بعدم التجديد والابتكار، وأن طريقته ومنهجه فى التأليف لم يكن يعتمد إلا على النقل والاقتباس والسطو على مؤلفات الآخرين. وهذه التهمة هى أقصى وأقسى تهمة قد توجه لأحد من الكتاب والمؤلفين؛ وبالرغم من ذلك فإن كتاب ابن الفقيه - البلدان أو مختصره - يبقى من أهم الكتب التى حفظت لنا مادة جغرافية وتاريخية وأدبية كان من الجائز ألا نجدها وأن تضيع فيما ضاع من المعارف الإسلامية. والكتاب الذى بين أيدينا الآن لابن الفقيه

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص١٧١.

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج١ ص٥٢٦.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء، ج٢ ص١٩٩.

(٤) النديم: الفهرست، ص ١٧١.

وهو «مختصر كتاب البلدان» يؤكد هذه الحقيقة فهو يحوى معلومات هامة تفيد دارسى التاريخ الإسلامى وجغرافية الأقاليم الإسلامية وباحثى الأدب العربى.

والكتاب يبدأ بالحديث عن خلق الأرض والبحار، ثم الفرق بين بلاد الصين وبلاد الهند، ثم القول فى بلاد الجزيرة العربية، ثم القول فى مصر والنيل، وبعدها يعرج إلى القول فى بلاد المغرب، ثم يتحدث عن بلاد الشام والروم، ومنها ينتقل إلى العراق وبلاده، وأخيرا يخص بلاد المشرق الإسلامى بنصيب كبير فيتحدث عن فارس وكرمان وأصبهان وطبرستان وخراسان وغيرها. وفى وسط هذا النسيج الجغرافى للكتاب نجد الهمذانى يخصص فصولا لموضوعات أدبية مثل : تصريف الجد إلى الهزل والهزل إلى الجد، ومدح الغربة والاغتراب، ومدح البناء وذمه، وذكر حب الأوطان وغيرها. وقد عنى المستشرق الهولندى دى غويه، (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩) بطبع كتاب «مختصر كتاب البلدان» وطبعه بالفعل فى مطبعة بريل بمدينة ليدن بهولندا سنة ١٣٠٢هـ، وهى الطبعة التى يعتمد عليها الباحثون حتى الآن. وقد خدم هذا المستشرق نص الكتاب فضبطه وحققه، ثم وضع له فهرسين أحدهما للأماكن والأمم والآخر للرجال والقبائل.

ويصف الطريق البحرى إلى الهند والصين، ويصف الفيل ووحيد القرن، ويتحدث عن البوذية عند ملوك أهل جاوه، وعن الطبقات فى الهند ويروى الأساطير المتداولة عند أهل الشرق الأقصى، ويصف الطريق إلى القوقاز وأذربيجان، ووصف الطريق إلى الأندلس، ويصف الطرق إلى مكة والمدينة وسائر الجزيرة العربية. ويصف طريق التجار الروس إلى الجنوب، وهو الذى يمر بالفولجا إلى بحر قزوين متجها إلى الجنوب(١).

أما اليعقوبى أحمد بن يعقوب بن جعفر بن واضح من موالى المنصور أبوه وجده من كبار عمال البريد، شغل جده وظيفة حاكم أرمينية فنشأ اليعقوبى الجغرافى والمؤرخ فى بغداد، وغادرها إلى أرمينية وخراسان، حيث أقام هناك فترة، وزار الهند وفلسطين، وتمتع برعاية الطولونيين أثناء إقامته فى مصر والمغرب، ووصف البلاد التى مر بها فى كتابه «البلدان».

ويطنب اليعقوبى فى كتابه «البلدان» فى وصف بغداد وسامرا، وحدد فى كتابه الجهات الأصلية الأربع وكتب عن إيران وتركستان وأفغانستان مع تخصيص فصول وصف فيها خراسان وحكامهم وكذلك سجستان ويشمل غربى العراق وغربى وجنوبى الجزيرة العربية، والثالث يشمل المناطق الجنوبية والشرقية من العراق وشرق الجزيرة

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى جـ١ ص١٥٥ - ١٥٧.

العربية والهند والصين، وكتب عن بيزنطة ومصر والنوبة وشمال أفريقيا. واهتم بوصف طرق المواصلات وفى كتابه معلومات عن الخراج والصناعات[١].

ونلاحظ أن اليعقوبى يتجنب سرد الخرافات والنوادر، ووصفه لخطط بغداد وسامرا من أهم مصادرنا عن هذا الموضوع، ووصف إفريقيا وصفا مبسطا ودقيقا قبل انفصالهما عن الفاطميين، وأوردا أخبارا قيمة عن الأندلس وغارات التورمان، ووصفه للبلدان يحتل أهمية كبيرة لأنه يرشد الموظفين عن أحوال ومواقع البلدان قبل قدومهم عليها ، وأسلوبه فى كتابه سهل ومبسط وواضح وأقل جفاء من كتاب ابن خرداذبة «المسالك والممالك».

وقد روى اليعقوبى فى مقدمته أنه كان يسأل أهل العلم وأهل الفضل عن أحوال كل بلد وتاريخها ورجال العلم فيها وتمصيرها ودخولها فى الإسلام ومساجدها ومرافقها والطرق المؤدية لها وخراجها وأحوال حكامها وعادات وتقاليد شعوبها وأحوالها الاقتصادية، ودون ذلك فى أوراق كثيرة، وقام بتهذيبها واختصارها فى كتابه «البلدان»[٢].

ومن الرحاله المسلمين، **ناصر خسرو**، رحل فى العالم الإسلامى قبل ابن جبير بمائة عام، جال صاحبنا مبتدءا بإيران من مرو مارا بأذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر، وأقام فى مصر أكثر من ثلاث سنوات وحظى بمكانة مرموقة فى مصر الفاطمية لتشيعه، وأُعجب بما رآه من سلطان الفاطميين، ووصف رحلته فى مصر وصفا دقيقا ممتعا، ووصفه لمصر يشغل ثلث كتابه تقريبا«سفرنامه».

عاش ناصر خسرو فى مرحلة شك فى دينه ورغبة فى الوصول إلى الحقيقة إلى أن هداه الله إلى الإيمان فقرر الرحلة إلى بيت المقدس والمسجد الأقصى وزيارة قبر الرسول ﷺ حتى يرى المكان الذى قضى الرسول فيه حياته داعيا إلى دين الله، وهناك يجد ما يبعده عن شكوكه، ويقرأ القرآن فى هذه البقعة المقدسة الطاهرة حتى يهديه الله إلى دينه[٣].

---

(١) مقدمة كتاب اليعقوبى.

(٢) المقدمة كتاب البلدان لليعقوبى.

(٣) كتاب «سفرنامه» لناصر خسرو.

وناصر خسرو مفكر فى علل الكون وحقائق الوجود، اعتزم الرحلة ليخلص نفسه من الوهم والضلال، وغادر بلده فى صحبة أخيه وغلام هندى، وكان يجد صعوبة فى الحصول على القوت فى البلاد التى يحل بها. وحظى بتقدير العلماء والأمراء الذين يعرفون قدره كمفكر وعالم. وكانوا يسهلون له الإقامة والعيش.

وكان فى جولاته يجمع المعلومات عن الأقاليم التى يمر بها فى أوراقه، ونقحها وهذبها جميعا فى كتابه«سفر نامه» بعد عودته إلى خراسان(١).

وقد وجد صعوبات فى حياته فى خراسان التى كان يحكمها السلاجقة السنيين، وتلاحق الشيعة الإسماعيلية. لذلك اختفى عن أعين السلاجقة فى الجبال والبوادى وقد تنكر له أخوه وهجره، وتنكر له أهله.

بدأ رحلته الأولى من خراسان إلى مكة والشام ومصر وكان يصاحب العلماء فى رحلته من خراسان، ويعقد المناظرات وذهب إلى مصر ليتزود بحقيقة المذهب الإسماعيلى بناء على دعوة من الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، ووصف ناصر خسرو مصر وشعبها وحياة الناس وصفا يعتمد عليه فى دراسة جوانب حضارية هامة من تاريخ مصر(٢).

وذهب إلى بلاد الحجاز، وأدى فريضة الحج، وتنقل بين أرجاء الإحساء حيث القرامطة والأعراب لنشر الدعوة الإسماعيلية وعاد إلى خراسان سنة ٤٤٤هـ، وطاف بها داعيا لأنه عين حجة عليها من قبل الفاطميين، وثار عليه معارضو مذهبه، فهاجر إلى أماكن منعزلة يكتب كتبا ورسائل تتضمن فلسفة مذهبه(٣).

وزار الشام وفلسطين وجزيرة العرب والعراق وإيران وتكلم عن زيارته لمصر وذكر أن الحاكم بأمر الله يمنع النساء من الخروج من بيوتهن، ويحرم على الناس شرب الخمر ويمنع تجفيف العنب حتى لا يصنع منه خمر ويجلب ماء للشرب إلى القاهرة من النيل والآبار ينقله السقاءون على الجمال، وفى القاهرة بساتين وأشجار بين القصور تُسقى من ماء الآبار. وكانت بيوت القاهرة عدة طوابق ومن النظافة بحيث تقول: «أنها بُنيت من الجواهر الثمينة لا من الحصى والآجر والحجارة» وهى بعيدة عن بعضها البعض، فلا

(١) المصدر السابق.

(٢) يحيى الخشاب: مقدمة كتاب سفرنامه.

(٣) يحيى الخشاب: مقدمة كتاب سفرنامه.

تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر. وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة وبيوت مكونة من سبعة طوابق، ويؤجرون الحجرات لمن يشاء[1].

ومن الجغرافيين ابن رسته، وهو من أصل فارسى صنف كتاب «الأعلاق النفسية».

ويهتم ابن رسته بالفلك والجغرافيا، ففى مجال الجغرافيا، وصف مكة والمدينة والحرمين الشريفين، ووصف العجائب النباتية والحيوانية، ووصف البحار والأنهار والأقاليم الستة ومافيها من المدن المشهورة، ويصف إيران وبلاد العرب الجنوبية ومدينة صنعاء وبغداد، ويصف العراق ومصر، ويصف بيزنطة وبلاد الروم والهند. ويتضمن الكتاب قصصا ونوادر كثيرة.

والمقدسى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (ت ٣٨٧هـ) وقال: رأيت أن أؤلف كتابا عن حياة الناس وكل ما فيها، وصفات البلاد والمدن والطرق والأنهار والبحار والمسالك والجبال والسهول، وأتم كتابه بعد أن جال فى البلاد والدخول فى الأقاليم الإسلامية ولقاء العلماء وخدمة الملوك ومجالسة القضاة والدراسة من الفقهاء والأدباء والقراء وعلماء الحديث[2] ومخالطة الزهاد والمتصوفة وحضور مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة فى كل بلد والمعاشرة مع كل أحد، ودار على التخوم حتى عرفها جيدا ودرس المذاهب واللغات واللهجات وعرف مقادير الخراج فى كل بلد، وصبر على الذل والغربة وقال: إنه خدم أهل العلم والدين وأنفق الجهد الكبير فى الوصول إلى حقيقة ما أراد من وصف البلدان، وقد وصف المقدسى المنهج الذى اتبعه وتحرى الحقيقة من الثقات، أو من المشاهدة، وترك الروايات المشكوك فيها أو التى لا يقبلها العقل، وتجنب النقل من كتب السابقين، وقرأ الأوراق والبيانات الموجودة فى الخزائن، واستفاد منها فى معرفة سياسة الدول وأنظمتها[3]، وذكر أنه تحمل المشاق والأهوال فى أسفاره وتعرض للسلب والنهب والقتل، وعمل حمالا وخطيبا ومؤذنا فى المساجد، ونساخا ومجلدا للكتب وتاجرا. وكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسى عظيم

---

(١) الرحلة ١١٤ - ١١٦.

(٢) الزركلى: الأعلام جـ٥ ص٣١٢.

(٣)انظر كتاب التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى.

القيمة، يتضمن معلومات على جانب كبير من الأهمية عن البلاد التى زارها فى مصر والحجاز والشام والمشرق الإسلامى.

يبدأ المقدسى بمقدمة طويلة ثم يذكر البحار والأنهار ويذكر الأشخاص واختلافها ثم الخصائص فى الأقاليم والمذاهب والأئمة والفقهاء ثم جزيرة العرب وإقليم العراق وإقليم الشام وإقليم مصر والمغرب وبلاد المشرق، أى خراسان وبلاد ما وراء النهر(١). وأفادتنا رحلاته إلى المشرق بمعلومات قيمة رغم أنه شامى.

وقد اتسع مجال أسفاره ولم يسبقه أحد فى هذا المجال. ويبدو من كتابه عمق ملاحظته والدقة العلمية لمعلوماته.

وقسم الإصطخرى العالم الإسلامى إلى عشرين إقليما، كمناطق جغرافية واسعة، ويركز على الربع المعمور وأبعاده عن البحار، وصف جزيرة العرب وبحر فارس والأندلس وصقلية ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وإيران والهند وأرمينية(٢) وأذربيجان وبحر الخزر وبلاد ما وراء النهر، وفى كل قطر يصف المدن والمساحات والحدود والثروة الزراعية والصناعية والنشاط التجارى والعملة وعادات الناس وتقاليدهم(٣).

ويتبع ابن حوقل منهج الجغرافيين السابقين له، فقد وصف بلاد الإسلام إقليما إقليما، ووصف بلاد الحجاز ووصف الأندلس والمغرب والشام ومصر ووصف بحر الروم وما فيه من جزر، والمدن التى تقع عليه وبلاد السند والهند وأذربيجان وجزر بحر الأرخبيل وآسيا الصغرى، ورسم خريطة لذلك أوضح فيها الطرق والمسالك والصحارى والأنهار والجبال.

وتطورت الكتابة الجغرافية من وصف المشاهدات، أى عمل معاجم لوصف البلدان على حروف المعجم، وهذا واضح فى كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ)(٤).

---

(١) انظر كتاب: أحسن التقاسيم.

(٢) زكى حسن: رحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٦.

(٣) زكى حسن: المصدر السابق ص٣٦٧.

(٤) الزركلى: الأعلام جـ٦ ص١١١.

وياقوت الحموى رومى وقع فى أسر المسلمين واشتراه عسكر الحموى فى بغداد ونسب إليه، واشتغل فى تجارة سيده فى رحلات تجارية كبيرة، ولما أعتقه سيده اشتغل وراقا، ومن المال الذى منحه له سيده، اشتغل فى تجارة الكتب، وطاف فى بلاد الشام والعراق والجزيرة وخراسان ومصر وبلاد ما وراء النهر، وشاهد غزو التتار لبعض البلاد الإسلامية، وفقد ثروته أكثر من مرة ولم يطب له المقام فى دمشق؛ لأنه ناظر الناس وتكلم عن على بن أبى طالب كلاما غير مستساغ، وساعدته رحلاته الكثيرة فى البلاد الإسلامية إلى الالتقاء بالعديد من شيوخ العلم والاستزادة منهم، ونسخ الكتب العديدة واشتغل ببيعها، واطلع على الكثير من الكتب، واتسعت معارفه.

وعاش فى خوارزم وشاهد غزو المغول، وكتب إلى أحد أصدقائه يصف غزواتهم المدمرة، وله كتابان «معجم البلدان» و «معجم الأدباء» والأول وصف البلاد وصفا جغرافيا، وفى الثانى كتب عن علماء الإسلام ومؤلفاتهم.

وكتاب «معجم البلدان» حرص المؤلف فيه على الإلمام بأخبار البلدان وعمرانها وأحوالها ومرافقها وعاداتها وأخلاق أهلها، ومن خرج منها من المشاهير، وما فيها من كل مفيد.

وقد ذكر أنه استفاد من مكتبات مدينة مرو، وقال: إنها كانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد وأكثر بغير وهن. . واقتبس من فوائدها. وكان لا يود مفارقتها لولا الغزو المغولى، وجمع مادة غزيرة من خزائن مرو ومن الرجال الثقات(١).

ورسم المسلمون فى المشرق الخرائط الجغرافية مثل ابن خرداذبة وتحدثوا عن كروية الأرض، وعرفوا نصف الكرة الشمالى ونصف الكرة الجنوبى، إذا كان فى الأول نهار يكون فى الثانى ليل. وهذا يدل على دوران الأرض حول الشمس.

---

(١) كرد على: أعلام الإسلام ص٣٢٤.

علم الكلام

ازدهر علم الكلام فى المشرق الإسلامى؛ لأن هذا العلم الذى يقوم على إبراز القضايا الإيمانية بالنقل، والدليل المنطقى يلائم عقلية أهل المشرق، لذلك انتشرت آراء المعتزلة بينهم فى الإلهيات والطبيعيات والسياسيات، وعموما آراء المتكلمين، وكانت عندهم مقدرة على الجدال والإقناع والحوار[1]. وارتفعت مكانة المتكلمين فى الدولة الإسلامية فى عهد الخليفة المأمون الذى اعتقد فى صحة آراء المعتزلة متأثرا بالفرس الذين نشأ بينهم.

وظهرت فرقة الأشاعرة وهى وسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة، وانتشرت فرق أخرى فى الدولة الإسلامية مثل الجهمية - أصحاب جهم بن صفوان - عاش فى ترمذ، وقُتل فى أواخر العهد الأموى، وافق المعتزلة فى أشياء، وزاد عليهم وقال: لا يجوز وصف الله بصفة يوصف بها خلقه.

والكرامية أصحاب أبو عبد الله محمد بن كرام[2] قالوا بالتشبيه والتجسيم، وقالوا: إن صفات الله كصفات البشر. مثل يد الله هى كيد البشر، وتصدى المعتزلة والأشاعرة لهذه الفرق الضالة عن الدين، الجاهلة بحقيقته، وتصدى لهم بكل قوة وشجاعة الفخر الرازى.

تتضمن العقائد الإسماعيلية، العبادة العملية أى علم الظاهر، ويتصل بالفرائض الدينية، والتكاليف الشرعية، أما العبادة العلمية أى علم الباطن، تتضمن التأويل، لذلك من الخطأ القول بأن طائفة الإسماعيلية تؤمن بالباطن فقط، ولكنها تؤمن بالظاهر أيضا، لذا كانت تسميتهم الباطنية خطأ، وقع فيه القدماء. على أن طائفة الإسماعيلية كانت تختلف فى آرائها من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر، حسب ظروف الدعاة ورجال المذهب.

على أن طوائف الإسماعيلية على اختلاف أفكارها كانت تؤمن بوجود الإمام المعصوم من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وطاعة الإمام ركن أساسى من

(١) ابن النديم: الفهرست ص١٣١.

(٢) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ٣١٧.

أركان معتـقداتهم. إذا أدى الإنسان أركان الدين كلها، ولم يطع الإمام، فـهو كافر لأن بالإمام يعبد الله وبه يطاع الله، وأخـفى الإسماعيلية صفات ألهوا بهـا أئمتهم. فالإمام وجـه الله ويد الله وجنب الله، وهو الذى يحـاسب الناس يوم القـيـامة وهو الصـراط المستقيم والذكر الحكيم والقرآن الكريم، وأوَّلوا تفسير بعض آيات الله لتبرير ضلالهم(١).

ويلى الإمام مباشرة داعى الدعاة، ويعمل تحت إمرته عدد من الدعاة، يوكل لكل واحد منهم أمر ولاية من الولايات أو مقاطعة من المقاطعات. ويأتى بعد الدعاة الكبار، الدعـاة العاديون وكلهم علـى علم تام بأصول وفلسـفـة المذهب، يلى الدعاة، الرقـيق واللاصق وهو الذى أخذ البيعة للإمام دون أن يتعـرف على ما تتضمنه الدعوة من أعباء وواجبات ومهام، ومرتبة الفدائى، وهم الموكلون بالثأر والانتقام والأعمال الفدائية(٢).

والباطن الذى آمن به الإسـماعيلية ينص على أن الله جعل كـل معانى الدين فى المخلوقات التى تحيط بالإنسان، لذلك من السهل فهم حقيقة الدين من الظواهر الطبيعية وما على وجه الأرض. والمخلوقات نوعان: ظاهر على الأرض، وهى واضحة للناس كل الوضوح، والثـانى باطن مجهول، فـالظاهر يدل على الباطن، فجسم الإنسان ظاهر، وباطنه النفس، فما ظهـر من بطون الدين من العبادة العمليـة، وما جاء فى ظاهر آيات الله، هى معان يعرفها العامة، وينطق بهـا علماء السنة والفرق الشيعية الأخرى، ولكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنا، لايعرفه إلا الأئمة وكبار الدعاة، وخصوا على بن أبى طالب والأئمة من بعده ثم حجة الدعاه أو داعى الدعاة بالتأويل.

والشـهادة فى تأويلهم، هى مـعرفـة الله عن طريق الإمـام، أما الطهـارة هى أن يتجـاوز الإنسان عن قواعد السنة، ويعـتبر كل مـا يقوله الإمام حقـا، والصلاة هى ألا يغفل الإنسان عن طاعة الله ورسوله وخليفته أى الإمام، والصوم إنذار أعضاء الجسد فى الظاهر والباطن لأمر الله، والجهاد، جهاد النفس والتغلب على هواها، والحج هو طلب الدار الآخره والزهد فـى الحياة الدنيـا الفانيـة، والوضوء هو الرجوع إلـى علم الإمام، وبالغوا فى شأن على بن أبى طالب وسلمان الفارسى، وجعلوهما بابا من أبواب الجنة.

---

(١) الشهرستانى جـ٢ ص٥ وما بعدها.

(٢) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص١٥٦.

والترك ليسوا من بنى الإنسان وخصوصا[1] السلاجقة وهم من الجن والشياطين. والوضوء تخلص من علم الظاهر والتطهر فيه، آراء الإسماعيلية آراء ضالة منحرفة تماما عن الدين، وتتجلى فيها صفات الإلحاد وتقديس الأشخاص التى هى عين الكفر والضلال.

فالله سبحانه وتعالى آكد على بشرية رسوله إلى العالمين ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ...﴾ [الكهف: ١١٠].

والشيعة انتشرت آراؤهم وأفكارهم فى المشرق الإسلامى ومنهم الاثنى عشرية والإسماعيلية النزازية - أتباع الحسن الصباح - وخلاصة آرائهم أن الإمامة يجب أن تنحصر فى آل بيت رسول الله ﷺ. وواجهت أفكار الإسماعيلية معارضة شديدة من أهل السنه وخصوصا آراءهم فى الظاهر والباطن[2].

وانتشر التصوف فى المشرق الإسلامى كتطور للزهد، واختلف الصوفى عن غيره بورعه وفقره وزهده عن زخارف الدنيا وزينتها وإغراء المال، وأقبلوا على تصفية النفس والتنزه بأرواحهم عن ملاذ الدنيا، وأقبلوا على مجاهدات النفس والارتفاع بها عن الدنايا حتى يتدرجوا فى المقامات التى توصلهم إلى الله، وحينئذ تصدر منهم الكرامات، واتخذ الصوفية فرقا لهم ورفضوا العلم من الكتب؛ لأن العلم نابع من الروح.

ومن أبرز الصوفية فى المشرق وأهم مؤلفاتهم:

١- يحيى بن معاذ الرازى«كتاب المريدين».

٢ - ابن الجنيد: كتاب «المحبة» و«كتاب» «الخوف» وكتاب «الورع».

٣ - حسين بن منصور الحلاج: كتاب «علم البقاء والفناء» كتاب «اليقين» - كتاب «التوحيد».

٤ - فريد الدين العطار: «تذكرة الأولياء».

---

(١) المصدر السابق ص١٥٦.

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل ص٧-١٠.

الغزالى

هو الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى حجة الإسلام والدين. ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ، وكان والده يغزل الصوف، ويبيعه فى دكان بطوس، وقبل وفاته أوصى أحد الصوفية برعاية ابنه، وأخذ عن أبيه حضور مجالس العلم والتزود بالعلوم المختلفة(١).

قرأ شيخنا الفقه على أحد العلماء، ثم سافر إلى جرجان، وتعلم على أحد فقهائها، وكتب ما تعلمه فى أوراق، وضعها فى مخلاة، وعاد إلى بلده طوس، وفى الطريق اعترضه اللصوص، فسألهم أن يردوا عليه فقط المخلاة التى بها أوراقه، فردوها إليه، ثم قدم نيسابور، ولازم إمام الحرمين، وجد واجتهد حتى برع فى الفقه والخلاف وعلم الكلام والمنطق، ودرس الحكمة والفلسفة، وصنف كتبا فى علوم الدين والفلسفة والكلام والمنطق، وكان شديد الذكاء، مفرط الإدراك، بعيد الغور، غواصا على المعانى الدقيقة، وأُعجب به شيخه إمام الحرمين، وقال: الغزالى بحر مغرق. وأقام على التدريس وتعليم العلم، وكانت تشد إليه الرحال، وأدى فريضة الحج، وذهب إلى دمشق، واعتكف فى زاوية بالمسجد الأموى، ولا تزال تحمل اسمه «الغزالية»(٢).

لبس الغزالى الملابس الخشنة، وقل طعامه وشرابه، وصار يطوف المشاهد، ويزور القبور والمساجد، ويأوى إلى القفار، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار، ويكلفها مشاق العبادات، وتوفى بطوس سنة ٥٠٥هـ.

كتب الغزالى عن التصوف، وقال: علم المكاشفة، هو علم الباطن وهو غاية العلوم، وهو نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، ويؤدى إلى انكشاف أمور الناس، توصلهم إلى الحقيقة بذات الله، وبصفاته الباقيات، وحكمته فى خلق الدنيا والآخرة، والمعرفة بمعنى النبوة والنبى ومعنى الوحى والملائكة، ومعنى الشياطين، ومعرفة ملكوت السماوات والأرض، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط المستقيم، ومعنى حصول السعادة باليوم الآخر، مرافقة الملأ الأعلى، والمقارنة بين الأنبياء والملائكة، ويعرف أهل الجنة بعضهم بعضا(٣).

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٨.

(٢) المصدر السابق ص٨٧.

(٣) الشهرستانى: الملل والنحل ص٨٧.

معنى المكاشفة إذن أن يرتفع الغطاء حتى تتضح للمؤمن حقيقة كل شيء، وهذا ممكن للإنسان إذا صفت نفسه من قاذورات الدنيا وخبثها وصدئها، هذا القلب يقترب من الله إذا نظف تماما بحيث ينكشف للإنسان حقيقة الله والوجود؛ لأن الخبائث هى الحجاب بين الفرد وربه.

وعلم المعاملة، هو علم أحوال القلب، كالصبر والخوف والشكر والرضا والزهد والقناعة والرجاء والتقوى والسخاء والإحسان وحسن الظن، وحسن الخلق وحسن المعاشرة، والصدق والإخلاص، وهذه صفات طيبة تقرب بين العبد وربه. وأما الصفات السيئة، فهى خوف الفقر، والسخط على المعذور والغل والحقد والحسد والغش والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبذخ، وتعظيم الأغنياء، واحتقار الفقراء، والفخر والخيلاء، والخيانة والغدر والقسوة والفظاعة وقلة الحياء، فتجنب هذه الصفات فيه سعادة الفرد، وقربة إلى الله(١).

إن محبة الله واجبة، ومحبة رسوله ﷺ محمودة؛ لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأتقياء؛ لأن محبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب، وجمال صفات الصديقين الذين تحبهم النفوس ترجع إلى علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه، وقدرتهم على إصلاح أنفسهم وغيرهم بالوعظ والإرشاد، وتنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات، تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يادينى ودنياى وهجره أعظم من ناره، ووصله أطيب من جنته، وما أرادوا بذلك إلا إيثار لذة القلب فى معرفة الله على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، وأما القلب فلذته فى لقاء الله فقط(٢).

وإن أسعد الناس فى الآخرة، أكثرهم حبا لله، فإن الآخرة معناها حب لقاء الله والسعادة بلقائه، وما أسعد اللحظات للمحب، إذ أقدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ومكدر. وكل محبوب يتشوق إلى رؤية حبيبه، ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية، ولكنه يعلم أن له أعضاء جميلة، وإن كان لا يدرك تفصيل جمالها بالرؤية، فيشتاق إلى أن يُكشف له ما لم يره أحد.

---

(١) انظر تاريخ الفكر الإسلامى.

(٢) الغزالى: إحياء علوم الدين جـ١ ص٣٥، ٣٦.

فإذن محبـة الله تقربه من نفسه بدفع الشواغل والمعـاصى عنه، وتطهير باطنه عن مشاغل الدنيا ورذائلها ورفع الحجاب عن قلبه، حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه. وإذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإذا أحبه الحب البـالغ اقتناه، وقد يحرمه من أهله وماله، ولكنه صابر ومؤمن بما قسم الله له(١).

رفض الغزالى الإقـامة فى بغداد رغم العروض السخية من المناصب الهـامة التى تدر عليه مـالا كثيـرا، وكره المال والخوض فى اخـتلاف العلمـاء ومقصـد بلاد الشام، وانعزل عن الناس فى بغداد، وانشغل بالرياضة والمجاهدة لتهذيب نفسه وتزكية أخلاقه، وتصفـية القلب لذكر الله تعـالى ـ كما تعلم من الصـوفية ـ وكـان يعتكف فى مسـجد دمشق، ويصعد منارة المسجد طوال النهار، ويغلق بابها على نفسه، ثم اضطر إلى العودة إلى بلده، وكان لايقطع خلوته بربه سوى انشغـاله بأمور عياله، ورأى بعض العلماء فى البرية، وعليـه مرقعة وبيده عكاز وركـوة، وقال لأحد مريديه: لما بزغ بـدر السعادة فى فلك الإرادة، وظهرت شموس الوصل، قلت:

تركـت هوى ليلى وسعدى بمنزل   وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونـادتـنـى الأشـواق مهـلا فـهـذه   منـازل مـن تهوى رويدك فانزل

والغزالى واضع أسس وأصول التـصوف السنى، وحدد طرقه ووسـائله فى كتاب «إحياء علوم الدين» واعتمد عليه المتصوفون المـتأخرون، ورغم دراساته العميقة للفلسفة وعلم الكلام، إلا أنه يقول بأن علم القلوب لازم لزوم علم المرئيـات والملموسات؛ لأن هناك عالمين عـالم ظاهر وعالم باطن، أما الظاهر فـهو الذى نتناوله بالدراسة، ونعـرفه بالتجربة والمشاهدة والملاحظة، وعالم الباطن نعرفه بالصفاء والحب الإلـهى. ويقول: إن التقشف والزهد والفضـائل العملية، سبيل إدراك الحقائق الخفـية والإلهامات التى تجاوز عالم السمع والبصر.

فالمعرفة إذن هى غـاية التصوف السامية، وأنكر نظرية اتحاد العـبد مع الرب فهذه قضية غير مـقبولة عقلا(٢). لذلك لم يسـتطع أحـد أن يوفق بين التـصـوف والدين الإسلامى مـثل الغزالـى، وأضفى على العـرفان صـفة المذهب. وكـتاب «إحيـاء علوم الدين»، ينقسم إلى أربعة أقسام: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات.

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص٤٤٠.

(٢) الغزالى: إحياء علوم الدين جـ١ ص٣٥، ٣٦.

وقد راعى الغزالى فى كل ما كتب طريقة التوفيق بين الشرع والعرفان(١)، ورفض نظرية الحلول، التى نادى بها الحلاج، وقد أثيرت نظرية السعادة عند الفارابى فى الصوفية.

وسيطر الغزالى على الحياة الروحية فى عصره، إذ كان تصوفه يقوم على كتاب الله والسنة، وينفر من مناهج العقل التى دعا إليها الفلاسفة والمتكلمون، واتخذ من التصوف طريقا إلى الخلوة والعبادة ومعرفة الله، وبعد تطهير النفس وتنقيتها من ماديات الحياة، وعلائق البدن، وسبيلا إلى السعادة الحقيقية، ورحب بذلك كله أهل السنة(٢).

وحينما درس الغزالى كتابه «المنقذ من الضلال» ذكر أنه درس الفلسفة، فلم يعرف منها ما تصبو إليه نفسه من كشف للحقيقة، ومعرفة لليقين، وقد وقع فى شك وحيرة، ودرس علم الكلام، ولكنه وجد فى التصوف الذى يعتمد على القلب فى إدراك الحقائق الإلهية، تصفية للنفس وانطلاقا منها إلى الحصول على السعادة والمعرفة عن طريق الكشف، ويحصل الإنسان على إلهامات، لا يدرى الإنسان مصدرها فتصل نفسه إلى السعادة والمعرفة(٣).

شهد جلال الدين الرومى حصار جلال الدين لسمرقند سنة ٦٠٤هـ، والاستيلاء عليها. وفى تلك الغزوة كانت بلخ مركزا هاما من مراكز التصوف الإسلامى، وكان الصوفية يتعرضون لبعض المتاعب من الخوارزميين بتحريض من عالم الشافعية الشهير، فخر الدين الرازى ونتيجة لاضطهاد جلال الدين منكبرتى للصوفية فى بلخ، اضطرت أسرة جلال الدين الرومى إلى ترك بلخ، والهجرة منها إلى نيسابور، حيث التقى جلال الدين الرومى بالصوفى الكبير، فريد الدين العطار الذى أهداه نسخة من منظومته «أسرار نامه». وفى كل بلد يهاجر فيها مولانا جلال الدين الرومى، يتزود بما فيها من علوم، وتزوج بفتاة سمرقندية، تدعى جواهر خاتون، وأنجب علاء الدين وسلطان، وهذا الأخير هو كاتب سيرته، وواضع أسس الطريقة المولوية وتقاليدها وشعائرها. وانتهى به المطاف مع أسرته فى قونية بآسيا الصغرى بعيدا عن الصراع مع المغول. وهناك مارس نشاطه كواعظ وعارف وعالم وأستاذ. وفى كتابه المعارف ما يدل على تناسق رائع بين الشريعة والطريقة والحقيقة، ويقدم بعض المعارف الصوفية بلغة مليئة بالوجد(٤).

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص٣٦.

(٢) الغزالى: المصدر السابق جـ٤ ص٤٤٠.

(٣) المصدر السابق جـ٤ ص٤٤٦.

(٤) المصدر السابق جـ٢ ص٤٥٤.

وفى لقائه مع شيخه التبريزى، وضع أساس المثنوى، وقد توفى شيخه التبريزى، فأثر ذلك فى نفس مولانا. وفى كل بيت من أبيات المثنوى عند طلوع الشمس وعند غروبها، عند ذكر شمس الحقيقة الأزلية عند ذكره الفراق والشوق والطلب، يتغنى بشيخه شمس الدين، وتوفى الشيخ سنة ٦٧٢هـ -١٢٧٣م.

وفى صباح اليوم التالى حُمل جثمانه الطاهر، وكان زحام اضطر معه العسس إلى استخدام السيوف والهراوات، كان القوم من كل صنف ومن كل جنس ومن كل ملة ومن كل دين[١].

واستدعى صدر الدين القونوى لصلاة الجنازة، فغاب عن الوعى برهة ثم أفاق وأدى واجبه، وعندما ووري الجثمان التراب كانت الشمس تغرب والأفق مخضبا بالدم، وانتهت حياة مولانا جلال الدين، محمد بن محمد بهاء الدين الخطيبى البكرى، حياة عشق وفن وموسيقى ورأفة بالخلق، وتمجيد للإنسان، ومحاولة للنهوض به من سجن الطين والشهوات للتحليق فى مقامات لا يسمو إليها إدراك الملائكة.

وبعد وفاته بفترة بنى علم الدين قيصر مسجده المسمى بالقبة الخضراء (بالعربية حتى عند الفرس والأتراك) وعلى مزاره نقش غزل له بالكامل عن الموت:

فى يوم وفاتى عندما يسيرون بنعشى	لاتظن أنى متألم لفراق هذا العالم
فلا تبك من أجلى ولا تقل وا أسفاه وا أسفاه	فوقوعك فى مخيض الشيطان مدعاة للأسف
وعندما ترى نعشى لا تصرخ: الفراق	فوصالى هو فى هذا الزمان ولقائى
وحين أودع القبر لا تقل الوداع الوداع	فالقبر هو حجاب على مجمع الجنان[٢]

ويستهل مولانا جلال الدين الرومى أشعاره بالآتى:

- استمع إلى هذا الناى يأخذ فى الشكاية، ومن الفرقات يمضى فى الحكاية.
- منذ أن كان من الغاب اقتلاعى، ضج الرجال والنساء فى صوت التياعى.
- أبتغى صدرا يمزقه الفراق، كى أبث شرح آلام الاشتياق.
- كل من يبقى بعيدا عن أصوله، لا يزال يروم أيام وصاله.
- نائحا صرت على كل شهود، وقرينا للشقى وللسعيد.

(١) المصدر السابق جـ٥ ص٢٧٧.

(٢) وقدمه جلال الدين الرومى.

ـ ظن كل امرئ أن صار رفيقى، لكنه لم يبحث من داخلى عن أسرارى.
ـ وليس سرى ببعيد عن نواحى، لكن العين والأذن قد حرمتا هذا النور.
ـ وليس الجسد مستورا عن الروح ولا الروح مستورة عن الجسد، لكن أحدا لم يؤذن له بمعاينة الروح.
ـ وإن هذا الأنين نار وليس هواء، وكل من ليست لديه هذه النار ليكن هباء[1].
١٠ـ ونار العشق هى التى نشبت فى الناى، وغليان العشق هو الذى سرى فى الخمر.

ويقول فى العشق الإلهى:

إياك أوثر على كل ما فى الوجود
فهل يرضيك قعودى على الهم والألم؟
وقلبى فى يديك كالقلم.
فأنت علة أفراحى وأحزانى.
ماذا عسى أن أريد غير ما تريد؟
وماذا عساى أن أرى غير ذلك الذى ترينى؟
لو قضيت بأن أكون كيت لكنت كيت.
ولو أردت أن أكون كذا لكنت كذا.

ويقول:

هلم هلم فإنك غير واجد صديقا مثالى.
وأين بمثلى حبيبا فى جميع الوجود؟
هلم هلم ولاتقض العمر فى حيرة.
فليس لمالك سوق غير ذاك!.
كأنك واد مقفر ماحل وكأننى المطر.
بل كأنك بلد خراب، وكأننى البناء.
لولا عبادة الإنسان إياى ما أحس للسعادة طعما[2].
فإن العبادة مطلع شمس السعادة[3].

(١) علمت وقت تحرير هذه السطور بوفاة زميلنا الفاضل د. إبراهيم شتا، الذى ترجم المثنوى. وله المصنفات القيمة، ولقد ترك علما ينتفع به، واعتمدنا على ترجمته للمثنوى فى هذه السطور التى نكتبها الآن.
(٢) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى ص١٥٣، ١٥٥، وما بعدها.
(٣) إبراهيم مدكور: تاريخ الفلسفة الإسلامية جـ٦٣.

كان من نتيجة ازدهار حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية فى العصر العباسى، أن أصبحت فلسفة اليونان فى متناول رجال الفكر المسلمين. لذلك فإن الفلسفة عند المسلمين هى اقتباس من فلسفة اليونان، ومحاولة الاستفادة من علومهم.

وكثر علماء الفلسفة المسلمين، وأقبلوا على دراستها والتأليف فيها. ومن فلاسفة المسلمين، الكندى فيلسوف العرب كما يقولون عهد إليه المأمون بترجمة كتب أرسطو، وعكف على طلب الحكمة، ينظر فيها التماسا لكمال نفسه.

ومن أقواله: العاقل من يظن أن فوقه علما؛ لأن العلم بحر واسع، كلما سعى إليه الناس، أدرك حاجته إلى المزيد.

ومن أشهر علماء الفلسفة المسلمين: الفارابى وابن سينا وابن رشد. والفارابى هو محمد بن طرخان بن فاراب، نشأ فى بلاد ما وراء النهر، وقد أطلق عليه المعلم الثانى للبشرية، على اعتبار أن أرسطو المعلم الأول، انتقل إلى حلب، وأقام فى رعاية سيف الدولة يعلم طلابه الحكمة فى الحدائق المحيطة بحلب، وقد صحب سيف الدولة عند فتحه دمشق، وتوفى بها سنة(٣٣٩هـ)، والفارابى من أسبق المفكرين المسلمين الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعاليم الإسلام، وله عدة رسائل فى علم النفس والمنطق والأخلاق والسياسة المدنية، وآراء أهل المدينة الفاضلة، كما ألف أيضا فى الموسيقا والفلك[١].

رسم الفارابى نموذجا للمدينة الفاضلة، لها رئيس لا يرأسه إنسان آخر وهو الإمام، وهو رئيس الأمة الفاضلة، ومن صفاته سلامة الأعضاء،ولا بد أن يكون جيد الفهم، جيد الفطنه ذكيا، طلق اللسان، محبا للعلم، مقدرا للعلماء يبغض اللذات، متعاليا على الأمور التافهة، معتزا بكرامته، ولا يتكالب على المال، عادلا، منصفا، يقدر أهل العدل، ويبغض الظلم، وأهل الجور، وينصف المظلوم من الظالم، ويعطى كل ذى حق حقه، لا يكون طموحا يتطلع إلى الحسن والجميل، يصعب حمله على الجور والقبيح، يقدم على اتخاذ القرارات الرئيسية بحزم وبلا تردد[٢].

وعلى رئيس أهل المدينة الفاضلة أن يتحلى بهذه الشروط والتى يكتسبها منذ صباه، وهى الحكمة والعلم بالشرائع والسنة ويجب أن يسير سيرة السلف الصالح، وأن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٦٣.

يجتهد، ويدبر ما فيه صلاح الرعية، ويستنبط من الشريعة والسنة ما فيه صلاح الرعية، ويحسن توجيههم وإرشادهم، وعليه تقديم الموعظة للناس التى تنفعهم فى الدنيا والآخرة، يتقن أساليب الحرب والقتال، وقيادة الجيوش، ووضع الخطط والاستعدادات التى تكفل له ولأهله النصر على الأعداء، ودرء خطرهم وإذا لم تتوافر هذه الشروط فى واحد، وتوفر شرط الحكمة فى واحد آخر كان الاثنان حاكمى المدينة.

والمدينة الفاضلة يقابلها المدن الجاهلة والفاسقة والضالة. والجاهلة التى لم يعرف أهلها السعادة. وهذه المدينة تتفشى فيها الرذيلة والبؤس والفقر والحرمان، والمدينة الفاسقة التى تعرف خصائص أهل المدينة الفاضلة ولكن أهلها يعيشون فى جهل وجهالة(١).

والمدينة الضالة، كانت تعيش فى سعادة، وتعتقد فى الله واليوم الآخر، بشكل خاطئ وبخيالات غير صحيحة وركب رئيسها الغرور والتعالى، واعتقد أنه يوحى إليه. وملوك المدن الجاهلية والضالة والفاسقة أعداء لملك المدينة الفاضلة، وأهل المدينة الفاضلة أعداء لأهل المدن الفاسقة والضالة والجاهلة، وأهل المدينة الفاضلة اكتسبوا صفات حاكمهم، واكتسب كل واحد منهم من أفعاله صورة نفسية جيدة فاضلة، وكلما داوم عليها أكثر، صارت هيئته أقوى وأفضل، وتزايدت قوتها وفضيلتها، وتزيد قوتها وفضيلتها باستمرار أفعالها السليمة، وتلك حال التى ينال بها أهلها السعادة، وتتجه بنفوس هؤلاء الناس إلى الكمال. وتتصل الأنفس الطاهرة بعضها ببعض، الحاضر منها والماضى، فتجد هذه النفوس فى ذلك لذة ومتعة(٢).

وأما سائر المدن أصحاب الأفعال الرديئة، أكسبتهم خصائص نفسانية رديئة. وأحوالهم النفسانية مريضة، ويستلذون بالرزائل. ويتأذون بالأشياء الجميلة الفاضلة أو لا يتخيلونها أصلا. ورغم أمراضهم النفسية، فإنهم لا يشعرون بها، ولكن يشعرون بأنهم فضلاء أصحاء(٣).

ويذكر الفارابى أن الإنسان لا يصل أبلغ كمالاته إلا فى المجتمع وأفضل المجتمعات الإنسانية التى تنتظم فى المدينة الفاضلة، وهى تشبه الجسم الكامل الذى

---

(١) محمد سيد كيلانى: كتاب الملل والنحل (المحقق).

(٢) السبكى: طبقات الشافعية جـ٨ ص٨٤.

(٣) الفارابى: المدينة الفاضلة أو آراء أهل المدينة الفاضلة..

تتعاون أجزاؤه لتحقيق الحياة الكريمة والمحافظة عليها. وكما أن أجزاء الجسم تخضع لجزء واحد وهو القلب، فهو أول ما يتكون فى الجسم، يليه سائر الأعضاء ويديرها القلب. كذلك رئيس المدينة، هو إنسان تحققت فيه كل الصفات الفاضلة للإنسان(١).

والإنسان إرادة حرة بجانب العقل، وظيفته تحصيل السعادة له بواسطة أعماله العاقلة. والسعادة البشرية هى أن تبلغ النفس درجة من الكمال تجعلها تقوم بدون مادة فتصبح جوهر أفكارها، وأنفس أهل المدينة الفاضلة تكتسب الخلود، وتخلد فى السعادة، أما أهل المدينة الضالة والفاسقة والجاهلة، فمصيرها البؤس والشقاء والزوال.

وسعادة الأنفس بتأملها للحقائق، وتتصل أنفس أهل المدينة الفاضلة بعضها ببعض، وتصير كنفس واحدة، وكلما اتصلت الأنفس الفاضلة بعضها ببعض، تصير كنفس واحدة وزادت سعادتها، وأما إذا جهلت هذه الحقيقة، يكون مصيرها الزوال، وسعادة الأنفس يكون بتأملها الحقائق الأزلية وهى سعادة عقلية محضة(٢).

واستفاد الفارابى من أفلاطون ومن الفلسفة اليونانية ومن آراء الإسماعيلية التى تقول بالإمام المعصوم.

كان الفارابى يعيش فى عالم العقل، ويقنع بالقليل من الدنيا ويحب التأمل فى جمال الطبيعة وعظمة الكون، ولم تكن فلسفته ترمى إلى إشباع الرغبات المادية، وكان يعارض الخيالات التى تقع بين الحس والعقل، والتى تظهر فى الفنون. أجلَّ الفارابى تلاميذه من عشاق الفلسفة، بينما كفره رجال الدين لما يظهر من آراء فلسفية تتمشى مع نظرية وحدة الوجود، والفارابى يفترض فى رئيس المدينة الفاضلة أن يتصل بربه ليلهمه الحكمة وفصل الخطاب، ويجب عليه أن يندمج فى عالم الروح ويحيا بروحه أكثر مما يحيا بجسمه، وبهذا الاتصال يجب عليه أن يجذب مرءوسيه نحوه بحكم اتصاله بالله، ويقوم على تهذيب أرواحهم، ويصعد بهم إلى مستوى النور والإشراق، فنحن إذن أمام مدينة سكانها قديسون، ورئيسها نبى ملهم(٣)، وهى مدينة لا يمكن أن يتحقق وجودها، لأنها تتناقض مع طبائع النفوس البشرية التى تختلف تماما من شخص إلى آخر ولا يمكن لحاكم أن تتوافر فيه هذه الصفات، لأن الكمال لله وحده، والحاكم حتى ولو كان فاضلا، فلا يستطيع أن يحقق الفضل والحكمة والفضيلة لأهل مدينته؛ لاختلاف طبائع النفوس بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة. وهذه المدينة لا يمكن تحقيقها إلا فى خيال الفارابى نفسه.

---

(١) الفارابى: المدينة الفاضلة.

(٢) السبكى: طبقات الشافعية جـ٨ ص٨٧.

(٣) ابن النديم: الفهرست ص٤١٧-٤١٩.

ويقول العقاد: إن فلسفة الفارابى فلسفة إسلامية لم ير فيها جمهور المسلمين من الباحثين فى الفكر الإسلامى حرجا ولا موضع ريبة، ولا تغضب المسلم المتمسك بدينه.

ينتمى الفارابى إلى أسرة غنية، نشأ فى فاراب ببلاد ما وراء النهر، واشتغل بالقضاء وكانت نفسه تتطلع إلى معرفة الحقيقة والكشف عن المجهول فى هذه الدنيا، ورحل إلى بغداد - ملتقى الثقافة والفكر - وتعلم بها الفلسفة، وكان يعرف أكثر من لغة، العربية والفارسية والتركية. وكان يخرج إلى الأماكن التى بها أشجار وبساتين وزروع، ليقرأ ويعزف الموسيقا، ودرس فلسفة أرسطو وأفلاطون وجالينوس(١).

بلغت مؤلفات الفارابى ١١٧مؤلفا فى المنطق وعلوم التربية والعلم الطبيعى والعلم الإلهى والأخلاق والفلسفة والحساب والهندسة والمناظر والنجوم والرياضيات والطب وغيرها، من أهم موسوعاته الجامعية «إحصاء العلوم»وهى من الموسوعات العربية فى هذا المجال. ومن مؤلفاته الفلسفية «الجمع بين الحكيمين أفلاطون وأرسطو» - «السياسات المدنية» «آراء أهل المدينة الفاضلة» - «الأخلاق والسياسة» «التنبيه على سبيل السعادة» - «الموسيقى الكبير» وهو من أفضل كتب الموسيقا العربية - «كلام فى الموسيقا»(٢).

ابن سينا

كانت مشكلة القضاء والقدر مثارة فى أيام ابن سينا، وتجلى ذلك فى رسائله، ووضح فيها عدة رسائل، وتجلى فى ذلك معاناته فى السجن والعزل، والطرد من الوظائف، والهرب من بطش الحكام. لذلك جاءت رسائله قطعا أدبية رائعة فى الخيال، وهو يسلم بأن للعبد إرادة.

وفلسفة ابن سينا إما نظرية أو عملية، وتشمل الأولى الطبيعيات والإلهيات والرياضيات وفروعها. وتشمل الثانية، الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل. وتأثر بفلسفة أرسطو وأفلاطون. وحاول التوفيق بين فلسفة أرسطو والعقيدة الإسلامية.

يقول: المادة مكان الوجود، والخلق توالى الوجود وتحققه بالفعل بعد أن كان بالقول، وليست الماهية والوجود شيئا واحدا إلا فى الله، أما فيما هو خارج عنه، فالوجود عارض على ماهيته، ويسمى توال هذا الوجود«خلقا» وهذا الخلق قديم. والله واجد الوجود، وهو الخلود.

كانت الفلسفة الأرسطية المصطبغة بالفلسفة الأفلاطونية معروفة عند الشرقيين فى الصورة التى عرضها ابن سينا. وفى سنة(٥٤٤هـ) أمر الخليفة العباسى المستنجد بإحراق

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء.

(٢) القفطى: أخبار العلماء ص١٧٩-١٨١.

كتب ابن سينا، لما تتضمنه من كتب فلسفية، اعتبرها خارجة عن الدين، وكانت عند أحد القضاة[1].

وظل فلاسفة المسلمين يخوضون فى أبحاثهم عن الله والوجود وقدم العالم والنفس الإنسانية وما وراء الطبيعة، إلى أن ظهر **الغزالى** ودرس الفلسفة، وتعمق فيها ووضع كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» هاجم الفلسفة والفلاسفة، وعرض بدقة وموضوعية آراء الفلاسفة، وفند آراءهم حجة حجة، وجملة المسائل التى عالجها عشرين مسألة أثنى عليهم فى سبعة عشر وكفرهم فى ثلاثة، ورد على المسائل التى تناقض مذهبهم، لذلك تصدى ابن رشد ـ الفيلسوف الأندلسى ـ فى الرد عليه، وقال: لاشك أن هذا الرجل أخطأ فى الشريعة كما أخطأ فى الحكمة، ثم فند آراءه.

وتعرض الغزالى للشكوك، ولبريق الدنيا، ولكن طموحه كان أكبر من الدنيا، وفى مرض أصابه أدرك قوة الله وقدرته فانعزل عن الدنيا، ونصب نفسه مدافعا عن الإسلام، مصلحا للدين من الآراء والأفكار التى داخلته، وقضى الفترة الأخيرة من حياته متنقلا بين المدن الإسلامية. وفى هذه الفترة كتب معظم مؤلفاته، مثل كتاب «إحياء علوم الدين» وقضى أواخر أيامه فى العبادة ومجالسة أرباب القلوب، ومجالسة أهل العلم[2].

درس ابن رشد فلسفة أرسطو، ورد على الغزالى فى كتابه «تهافت التهافت» أورد فيه المسائل التى كتب عنها الغزالى، ويأتى بالمسألة، ويرد عليها، مبرئا الفلاسفة والفلسفة من الاتهامات التى وجهها الغزالى ضدهم، وكانت مهمة ابن رشد صعبة؛ لأن المسلمين درسوا فلسفة الغزالى واقتنعوا بالحجج التى دافع بها عن الدين، وتجنبوا المسائل التى تبعدهم عن الدين؛ لذلك كان عليه أن يلتزم بالحذر الشديد فى دفاعه عن الفلسفة.

وقد ألحق ابن رشد فى كتابه التهافت، كتابين آخرين، هما «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» «الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة».

والمسائل التى كفر فيها الغزالى الفلاسفة، أقوالهم فى قدم العالم ـ علم الله للكليات دون الجزئيات فقط[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٤١٨.

(٣) خواندمير: دستور الوزراء ص٢٢٦.

عمر الخيام

ولد ونشأ عمـر بن الخيام فى نيسـابور، وذاع صيته فى عهـد السلطان السلجوقى ملكشـاه، وتوفى سنة٥١٧هـ-١١٢٣م فى عـهد السلطان سنـجر، درس الفـقه واللغـة والتاريخ والحكمة، وكان يحفظ الكتب ويمليها على الطلاب وذاع صيته حتى أن السلطان ملكشاه جعله أحد ندمائه، وكان الخاقـان التركى فى بخارى، يجلسه على سريره، وقد وقف الصوفية على أشـعاره فتدارسوها ورددوها فى مجالسـهم، وكان عديم القرين فى العلم والحكمـة والنجوم، وله آراء فى الحكمـة اعتـبرها البـعض خروجـا على الدين، وأساءت إلى سمعته[1].

عاش عـمر الخـيام مـحبـا للحيـاة، عالما يزيد قـدره على مر الأيام، يأنس إلـيه العلماء، ويجالس العظمـاء والحكام، درس العلوم الإلهية والفلسفـة والمنطق والفيزياء، ودرس الطب والرياضيات[2].

وتبدو فى شعره نزعة تشاؤم مثل قـوله: «ما أسعد الرجل الذى لا يعرفه أحد» - «ما أهنأ الإنسان الذى لم يهبط إلى الوجود» - «لما خلقت وكيف لا أستطيع الرحيل متى أردت، ليس لنا إرادة فى الحياة».

وقادته آراؤه هذه إلى النقـمة على القدر، وعاش فى حيـرة، وتساءل: لماذا يفنى العالم، إذا كـان قد خُلق كامـلا، ولماذا يظهر فيه الفـساد، وفى الإمكان خلقه خـيرا - وكيف نعاقب، وكـتب علينا فى الغيب ما نرتكبه من الخطايا والشـرور وينقم على قصر الحياة الـتى تنتهى بالإنسان إلى التراب وتـتساوى فيه رءوس الملوك بأقـدام العوام. ومن رأيه أن الإنسان مـا دام سيهلك فى هذه الدنيـا ولن يعود، فـيجب أن ينتهز كل فـرصة للاستـمتاع بما فى الدنيـا من مباهج ومـسرات، ويقول: لا تهـتم بأمس ولا بغد، نادم الكأس فى مجلس الحـبيب ليلا فى ضوء القمـر، وسحرا عند طلوع الفجـر ومساء عند غـروب الشـمس على نغم الناى والربـاب فى الربيع على ضـفـاف الغـدير بين الزهور والرياحين. ويقول: ارض نفسك قبل أن ترضى الناس[3]. لذلك اغتنم الخيام كل فرصة للتخلص من حيـرته، والاستمتاع بالدنيـا قبل الرحيل عنها، وكان يقـضى كل وقته مع

(١) خواندمير: دستور الوزراء ٢٢٧.

(٢) رامى: رباعيات الخيام ص١٤ [illegible]

(٣) المصدر السابق.

أصحـابه فى الليالى القمـرية أو هائما معـهم فى حدائق نيسـابور الوارفة الظلال. وفى خلال ذلك كان ينشد رباعيته، ودونها تلاميذه، ولم تكن مسلسلة، وإنما متفرقة.

وأبرز ما تتمـيز به الرباعيات، النغمـة والحزن على قصر الحيـاة، وضرورة النهاية إلى الموت، وهو ينشد رباعياته بين مـتفائل ومتشائم، وتقى ومستـهتر، ويأس من الحياة وسخرية منهـا، إلى حد الضحك من كل شىء فى الوجود، وتوضح الـرباعيات بشكل عام نفسه الحائرة الباحثة عن الحقيقة.

والخيـام صوفى له شطحـاته الصوفيـة فى أقواله عن الفناء فـى الله والاتحاد به، ويتمثل فى قوله: إذا كان الله قد خلق الإنسان فى أحسن صورة ففيم يكون موته وخرابه على هذه الصورة؛ ودعا إلى تطهير الحركـات البدنية لتنزيه النفس الإنسانية، وقد وقف المتصوفون المتأخرون على شىء من ظواهر شعـره، فنقلوها إلى طريقتهم، وتحاضروا بها فى مجالسهم وخلواتهم «وبواطنها حيات للشريعة لواسع، ومجامع للأغلال جوامع».

ولما كشف أهل زمانه عن عـقيدته، وتصدوا له، خشى على نفـسه، وأمسك من عنان لسانه. واعتكف على العبادة، وكتم آراءه عن الناس(١).

وفى أواخر حيـاته زهد فى الدنيا، وتقرب إلى الله، وأبدى الاعـتقاد أنه لا شىء مع الله، ولا يعلم إلا هو، وكـان كالفانى عن نفـسه، الباقى مع الله، وآخـر كلماته: اللهم إنى عرفتك على مبلغ علمى، فاغفر لى، فإن معرفتى إياك، وسيلتى إليك(٢).

وقد اقتبسنا بعض أشعار عمر الخيام لتوضيح آرائه وأفكاره، وهى تمثل وجهة نظره فقط:

عـلام تشقى فـى سبيل الألم ... مـا دمـت تدرى أنك ابن العـدم
الدهر لا تجـرى مـقـاديره ... بأمـرنا فـارض بما قـد حكم

* * *

أبدعت فـينا بينات العـبـر ... وصـغـتنا يـارب شـتى الصـور
فـهل أطيق اليـوم محـو الذى ... تركـتـه فـى خلقـتى مـن أثر؟

* * *

---

(١) أحمد رامى: رباعيات الخيام ص١٤-١٦.

(٢) المصدر السابق.

لن يرجع المقدار فيما حكم وحملك الهم يزيد الألم
ولو حزنت العمر لن ينمحى ما خطه فى اللوح مر القلم

فى طريقة علاج الهم:

لا تدع الهم يعتريك ولا
يضيق بك العيش واطرح كمدك
ولازم الروض والمياه وطب
من قبل أن يعصر الثرى جسدك

وفى الضحك والبكاء حولا:

قالت الوردة لا خَدّ كخدى فى البهاء
فإلى م الظلم ممن يبتغى عصر المائى
فأجاب البلبل الغريد فى لحن الغناء
من يكن يضحك يوما يقض حولا بالبكاء

وهو لا يدرى متى انتهاء العالم:

ليس يدرى بمنطق وقياس
أى وقت دارت به الزرقاء
أو متى تصبح السماء خرابا
فتداعت وانهد منها البناء

رب متى أرحل عن هذه الدنيا فإنى قد أطلت المقام
لم أدر ما لجمى ولكنه مذ كان فى النحس جرى واستقام

* * *

والخير ممزوجان ما افترقا فكل شهد عليه الصاب مذرور(١)

والخواطر التى تدور فى ذهن الخيام قد تدور فى ذهن أى شخص، ولكنه أحسن وأتقن التعبير عنها، فالإنسان يعيش فى هذه الدنيا حائرا، لا يدرى مصيره ولا غده،

---

(١) الحفنى: الخيام والرباعيات جـ١١٤، ١٢٠، ١٢٦. وما بعدها.

ولا مبدأ حياته، وهذا يوقعه فى حيرة، قد يعمل ويبحث عن المال والشهوات ويدافع عن نفسه، ويحمى جسده من كل سوء، ويحرص على تنظيف جسده وتعطيره وتحقيق رغباته، وتجنب ما يضر بهذا الجسد الفانى، وإذا فكر قليلا سيجد أن هذا الجسد الملازم له طوال حياته سيتحول إلى جيفة قذرة تُلقى فى التراب. أين الملوك والسلاطين والسلف، ولكن يجب أن يتوقف الإنسان عن هذا التفكير الذى لا نتيجة له. إنه القدر المحتوم واليوم الموعود. فعلينا أن نسلم بالأمر الواقع، وهو الإيمان بقضاء الله وقدره، والتطلع إلى الآخرة التى ستحل مشكلة الإنسان الحائر.

الشهرستانى

هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشافعى المتكلم والمؤلف المشهور، وُلد فى بلدة شهرستان بشمال خراسان، وبها نشأ وتلقى العلوم على شيوخ عصره، وظهر ميله إلى التحصيل وتلقى العلم وامتاز بجودة الفهم والاستقصاء فى البحث، والتعمق فى تناول الموضوعات، والبعد عن الهوى، والاعتدال فى إصدار الأحكام وصحة المنهج الذى يتبعه فى بحوثه، والإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، رحل فى طلب العلم إلى مدن خراسان وخوارزم وبغداد، واستمع إلى الكثير من العلماء، وقام بالتدريس فى المدرسة النظامية. وصنف كتابه «الملل والنحل» درس فيه الأديان والفرق، والأفكار الفلسفية المعروفة فى عصره، والديانات غير الإسلامية ومذاهبها، وأفاد هذا الكتاب الدارسين للأديان والمذاهب والعقائد، وهو أشبه بالقاموس المحيط بكل المعتقدات السماوية وغير السماوية.

وللشهرستانى مؤلفات كثيرة، نذكر منها«المصارعة» «نهاية الأقدام فى الكلام» - «الإرشاد إلى عقائد العباد» «شبهات أرسطوطاليس وابن سينا ونقضهما» وتوفى سنة ٥٤٨هـ(١).

الفخر الرازى

إمام المتكلمين، نبغ فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والفلسفية، رد على الشيعة الغلاة وعلى طوائف المبتدعة والمعتزلة، وأدحض حججهم ومزاعمهم، وفند آراءهم، وأظهر ما فيها من أباطيل وادعاءات، ورد على فرق الخوارج، والقدرية

---

(١) مقدمة كتاب الملل والنحل.

والكيسانية والمشبهة والكرامية بالأدلة القاطعة، التى أضعفت أفكارهم أمام الناس، وأصبحت الباطنية تأخذ أقواله، وحاور اليهود والنصارى وأظهر وضوح الإسلام، حقيقة وبطلان معتقداتهم حتى دخل فى الإسلام وعقيدته الصحيحة الكثير من الناس(١).

كذلك برع فى علوم الحكمة والتفسير والفقه وأصوله.

وُلدَ الفخر الرازى سنة ٥٤٣هـ وتتلمذ على علماء عصره فى الكلام والحكمة والفقه والتفسير وخصوصا إمام الحرمين، وبدأ حياته فقيرا، وقصده أهل العلم من كل أنحاء العالم الإسلامى، وكان له اليد الطولى فى الوعظ باللغتين العربية والفارسية. وعرف عنه التصوف والتفقه فى الدين، وهذا واضح فى تفسيره المشهور(٢).

رحل إلى خوارزم، وجرت بينه وبين المعتزلة مناظرات، أدت إلى معارضة وعداوة الناس له، فغادرها إلى بلاد ما وراء النهر، وحدث نفس الشىء، فعاد إلى بلاد ما وراء النهر، ونال تقدير السلطان شهاب الدين الغورى والسلطان الخوارزمى محمد شاه، ووضع الكثير من المصنفات التى نالت تقدير الناس وأقبلوا على قراءتها، واشتدت حملاته على الكرامية، وسفه آراءهم، واستقر به المقام فى هراة، ولُقب شيخ الإسلام، وكان إذا ركب يمشى حوله ثلاثمائة من الفقهاء وطلاب العلم، وهو مهاب بين أصحابه ومريديه. ومن تصانيفه: «التفسير» ـ «المطالب العالية» ـ «نهاية العقول الأربعين» ـ «المحصل» ـ «البيان» ـ «البرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان» ـ «عيون المسائل» ـ «أجوبة المسائل البخارية» «عيون الحكمة» «شرح الإشارات» ـ «شرح الأسماء الحسنى» «شرح محصل الزمخشرى فى النحو» ـ «جيز الغزالى فى الفقه» «سقط الزند لأبى العلاء» ـ «مناقب الشافعى»(٣).

تقدم علم الطب فى المشرق

ازدهر الطب فى بلاد الإسلام بعد ازدهار حركة الترجمة وأصبحت كتب اليونان فى الطب فى متناول الأطباء المسلمين، يدرسونها، ويستفيدون منها، ويضيفون إليها خلاصة تجاربهم وأفكارهم، وظهر منذ بداية القرن الثالث الهجرى فى المشرق أطباء رفعوا من شأن المهنة، ومستوى الأداء وتوصلوا إلى أساليب جديدة وصحيحة فى علاج المرض، وصنفوا الكتب القيمة فى هذا المجال.

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية جـ١ ص٨٣.

(٢) المصدر السابق جـ٨ ص٨٦.

(٣) حنين بن إسحاق: المسائل فى الطب ص٢٤.

ومن أبرز الأطباء المسلمين أبو بكر زكريا الرازى، ولد فى الرى بالقرب من طهران سنة (٣١١هـ)، وهو طبيب وصيدلى وكيماوى. ومن كتبه (سر الأسرار) يتضمن تجارب توصل إليها، وتوصل إلى معرفة واختراع بعض العقاقير، وطريقة ومبررات استعمالها، واستفاد المسلمون فى دراستهم عن العقاقير من فلاسفة اليونان أمثال ديسقوريدس وجالينوس.

يعتبر الرازى - بحق - شيخ أطباء المسلمين، وقيل: إن الطب كان مجهولا حتى أحياه جالينوس، ومتفرقا حتى جمعه الرازى، وناقصا حتى أكمله ابن سينا. واعتمدت أوربا على دراسات الرازى فى الطب حتى القرن السابع عشر.

اعتمد الرازى على التجربة، واستنبط من تجاربه حقائق علمية جديدة، وأثبت البحث الحديث صحة ما توصل إليه. وقد اختاره عضد الدولة رئيسا للبيمارستان الذى أقامه فى المدينة ضمن امتحان أجرى لخمسين طبيبا، وعهد إليه الأمير ببناء بيمارستان، فاختار منطقة صحيحة بتجارب أجراها فى أنحاء بغداد، ووضع قطعة لحم فى كل ناحية من نواحى بغداد، والقطعة التى لم تفسد، تأكد من صحة هوائها وعدم تلوثه. لذلك اختار هذه المنطقة، لتكون بيمارستانا.

وكان الرازى يجلس إلى تلاميذه يعلمهم بإخلاص، ويقدم المعونات للمحتاجين منهم(١).

نبغ الرازى فى الطب الباطنى والنفسى، ودرس أسباب كل مرض وأعراضه، وطرق علاجه واحتمالات العلاج، وميز بين الحميات وحدد أعراض كل منها، وميز بين التهاب القولون والمغص الكلوى، وحدد أعراض الحصبة، وميزها عن الجدرى. ووضع فى وصف الجدرى والحصبة رسالة من ١٤ فصلا، وهى ذات قيمة علمية كبيرة(٢).

والرازى أول من استخدم مركبات الرصاص فى صنع المراهم ونبه إلى ضرورة فحص القلب والنبض والتنفس عند الكشف على المريض، واستخدم خيطا من أمعاء الحيوان فى خياطة الأنسجة فى العمليات الجراحية، وأجرى تجارب على الحيوان، واستخدم الجبس فى تجبير الكسور.

١ - ومن أهم مؤلفات الرازى «الحاوى فى الطب والتداوى» وينقسم إلى قسمين: القسم الأول، خاص بتركيب الأدوية(٣) ويقابلها اليوم Farmcoloyy. والقسم الثانى مجرد ملاحظات جمعها تلاميذه من سجلات المستشفى العضدى، ومن تذكراته ويقع

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص٤١٧-٤١٩.

(٢) القفطى: أخبار العلماء: ص١٧٨.

(٣) المصدر السابق: ١٧٩-١٨١.

الحاوى فى ١٠ أجزاء و٢٤ مقالا[1]، وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، فرج بن سالم اليهودى سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م وأصبح هذا الكتاب فى متناول الأوربيين.

٢ـ رسالة فى الجدرى والحصبة، وهى أفضل ما كتب فى الطب العربى، وتُرجمت إلى اللاتينية وبعض اللغات الأوربية.

٣ ـ الكاتب المنصورى، كتبه الرازى للأمير منصور حاكم خراسان ـ وهو عشرة أقسام، أكثر توضيحا وترتيبا من كتاب الحاوى. وبقى هذا الكتاب، الكتاب المدرسى لطلاب الطب فى أوربا حتى القرن السابع عشر، وطُبع عدة طبعات إلى اللغات الأوربية.

٥ ـ الكتاب الجامع، جمع فيه الرازى العلوم الطبية قديمها وحديثها، مضافا إليها خبرته وتجاربه الواسعة.

٦ ـ كتاب طب الفقراء، هو خاص بالإسعافات العاجلة ولمن يستطيع الاتصال بالطبيب، وأدويته متوافرة مثل حالات الزكام.

٧ ـ الفصول، وتتضمن خلاصة آراء الرازى التى يقدمها للمرضى وآراء طبية دقيقة.

٨ ـ المجريات، ألفه فى بداية حياته فى بغداد.

٩ ـ المرشد، عرض فيه لآراء أبقراط.

تتلمذ الرازى على البلخى، ودرس الطب على أبى الحسن الطبرى ونبغ فى الطب وذاع صيته، حتى أصبح رئيسا لبيمارستان الرى ثم انتقل إلى بغداد، وآلت إليه رئاسة البيمارستان العضدى (ت ٣٢١هـ - ٩٢٤م)[2].

صنف الرازى بالإضافة إلى الطب، كتبا فى المنطق والفلسفة والفيزياء والفلك والرياضيات، أهمها كتاب الحاوى، وهو كتاب ضخم شامل، جمع فيه بين دراسات الهنود فى الطب ودراسات اليونان، ثم أضاف إليها تجاربه وملاحظاته.

وصف الرازى أمراض الرأس كالسكتة والفالج وأوجاع العصب وأمراضه، ووصف الصرع والكابوس والتشنج وأمراض العيون والأنف والأذن والأسنان. ويصف أعراض كل مرض والعلاج المناسب له، ويؤكد صحة علاجه بأمثلة كثيرة من تجاربه. وكتاب المنصور الذى أشرنا إليه موجز لكتاب الحاوى.

ويحذر الرازى من استخدام المسكنات للألم، ولكن يجب علاج الألم بدقة؛ لأن تسكين الألم لا يعنى ذهابه عن المريض، ويحذر العوام من استعمال الأدوية المسكنة التى

---

(١) ابن أبى أصيبعة جـ٢ ص١٣٨.

(٢) القفطى: ص٧٩.

يصفها بعض الأطباء. وينصح الطبيب بالتخفيف من شأن المرض وآلامه بالنسبة للمريض حتى لا يتوهم شرا؛ لأن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس. ويجب على المريض أن يعالج عند طبيب واحد، ولا يتردد على عدد من الأطباء لأن أوصافهم للمرض والعلاج قد تتضارب وتتناقض، مما يؤثر على صحة المريض(١).

والرازى أول من نادى باستقلال الصيدلة عن الطب ونصح بعدم اللجوء إلى الأدوية المركبة، وأكد أهمية التجربة فى تركيب الأدوية والمراهم، وجرب الأدوية على الحيوانات وعلى نفسه، قبل إقرارها.

ومن مؤلفات الرازى«منافع الأغذية» ويقع فى تسعة عشر بابا بحث فيه منافع ومضار الخبز والماء والأشربة المسكرة، وغير المسكرة، وألف الرازى فى الطب الروحانى رسالة أهداها إلى حاكم الرى، المنصور بن إسحاق(٢).

وكان الطبيب المسلم يفحص المريض فحصا دقيقا، فينظر إلى وجه المريض وإلى عينيه وأظافره ولسانه، ويجس النبض، ويفحص البول، واستعملوا البنج فى العمليات الجراحية، أى إعطاء المريض مادة مخدرة قبل العملية الجراحية، وعرف الأطباء المسلمون شكل الأظافر للمسلولين، واستخدموا الكى فى الجراحة واستعملوا الأفيون فى معالجة المجانين، وأشاروا إلى عملية تفتيت الحصاه، وأقاموا مستشفيات لعلاج المجذومين مع عزلهم فيها منعا للعدوى، وأول من أقام مستشفى لعلاج المجذومين الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك.

وعرف المسلمون التخصص فى الطب، فمنهم الجراحون والكحالون، أى أطباء العيون، وأطباء الأسنان والمجبرون لعلاج الكسور فى العظام، ومن أهم الأطباء الجراحين، ويسمى الواحد منهم جرائحى. ويجب على الجراح أن يكون عالما بوظائف الأعضاء ومواضعها، ليتجنب عند العملية الجراحية، قطع الأعصاب أو الأوردة والشرايين، أو إصابة أعضاء أخرى.

كان طلاب العلم يفدون إليه من كل مكان، وتضم حلقات دروسه تلاميذه، وتلاميذ تلميذه، وكان كريما يجرى الجرايات على الفقراء ويعالجهم بالمجان، وله العديد من الكتب، ذكرنا بعضها، ونضيف إليها، كتبا عن أسباب جهل الأطباء، وله كتاب فى أسباب جهل الطبيب.

---

(١) ابن النديم: الفهرست جـ٤١٧-٤١٩.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٤١٨.

وقد أُصيب الرازى بالعمى فى أواخر أيامه، بسبب المياه البيضاء، ومع أنه كان يجرى عملية إزالة المياه البيضاء إلا أنه رفض عروض تلاميذه بإجراء هذه العملية له، وظل على هذا الحال حتى وفاته.

وضع على بن عيسى المجوسى(ت٣٨٣هـ)(١) كتابا فى الطب يتضمن عشرين مقالا فى الطب النظرى. والبعض الآخر فى الطب العملى، وتكلم عن المواد التى تدخل فى تركيب الأدوية وعن الولادة وحركة الجسم أثناءها، وأوضح أهمية قياس النبض لمعرفة الأمراض.

وعرف الكحالون أمراض العين، وأجروا العمليات الجراحية فى العين كالمياه البيضاء والمياه الزرقاء، ووصف الكحالون العين وتركيبها، وعرف أطباء الأسنان، تركيب الأسنان وتنظيفها وخلعها، وإزالة التسوس عنها.

وكان عمار بن على الموصلى (ت ٣٨٦هـ) كحالا فى مصر أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى، كان يعمل عمليات العين كالمياه البيضاء والمياه الزرقاء.

ومن أشهر الكحالين المسلمين، حنين بن إسحاق، وتلميذه على بن عيسى، صنف كتابا فى علاج العين، وعمار الموصلى مؤلف كتاب«طب العيون» وفيه تشريح مفصلى للعين وأمراضها، والشاذلى وابن عزوز المراكشى، صاحب كتاب «أمراض العيون»(٢).

أخذ الأطباء منذ أيام الرازى يفحصون المريض جيدا، ويعرفون تاريخ المرض والعلاج الذى يأخذه، ونشأت مدارس للطب فى الدول الإسلامية، تتبع منهجين: النظرى، وفيه يدرس الطلاب وظائف الأعضاء وتركيبها، والأمراض وأعراضها وأساليب علاجها، والعملى، وفيه يدرس الطلاب عمليا علاج الأمراض ويتعلمون من أساتذتهم علاج المرض، فإذا أتموا دراستهم حصلوا على شهادة تجيز لهم ممارسة الطب تحت إشراف رئيس الأطباء فى المدينة التى يقيمون فيها(٣).

وحرصت الدولة على الرفع من مستوى مهنة الطب، فقد عالج طبيب رجلا مات بين يديه، فأمر الخليفة المقتدر بإجراء امتحان للأطباء، ومن يرسب فى الامتحان يُمنع من ممارسة المهنة. والطبيب قبل أن يمارس المهنة، يقسم بأن يلتزم بعهد أبقراط فى الطب، وهى الأمانة فى معالجة المريض، وإنقاذه والتخفيف عن آلامه، ومتابعة حالته حتى الشفاء.

---

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٣٥٥.

(٢) المصدر السابق ص٢٢.
(٣) ابن النديم: الفهرست ص٤٢٠.

ومن أشهر الأطباء المسلمين أبو على الحسن بن عبد الله بن سينا، وُلد فى قرية فى فارس سنة (٣٧٠هـ)، وتوفى سنة (٤٢٧هـ)، حفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه وعلوم الدين، وشغف بدراسة الطب، وانتهى من دراسته وهو فى السادسة عشرة من عمره ثم درس عددا من العلوم كالفلسفة والرياضيات والفيزياء والموسيقا، واشتغل بتحصيل الكتب من النصوص والشرح حتى درس معظم علوم عصره، وحاول فهم كتاب «ما وراء الطبيعة» لأرسطو فقرأه أربعين مرة، ولم يفهمه إلا بعد قراءة كتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو، ونال شهرة كبيرة فى الطب بعد أن عالج نوح بن منصور - أمير الدولة السامانية - وسمح له بالاطلاع والقراءة فى مكتبته الكبيرة، ولما اضطربت الدولة السامانية، انتقل ابن سينا إلى خوارزم، ونسب أعداء ابن سينا إليه إحراق المكتبة الكبيرة، والتحق ابن سينا ببلاط على بن مأمون - حاكمها - والتقى هناك بأبى ريحان البيرونى، وبعض العلماء، وقد دس حساد ابن سينا إلى السلطان محمود الغزنوى، بأن ابن سينا شيعى، وكان محمود الغزنوى يحارب الشيعة وأعداء السنة، فطلب من الأمير الخوارزمى بأن يرسل إليه ابن سينا،فهرب ابن سينا فى رحلة شاقة، واجتاز الصحراء - التى بين خوارزم وأبيدور - وتوجه إلى جرجان وعالج ابن أخت قابوس بن وشمكير - حاكم الإقليم - وبعد فحصه علم أن قضيته هى العشق فتجول مع المريض فى أحياء المدينة، واضعا يده على نبض المريض وزاد نبض المريض أمام بيت معين، فقص له المريض قصة عشقه لفتاة فى هذا البيت، ويريد أن يتزوجها ولا يستطيع مفاتحة السلطان فى هذا الموضوع(١). وتدخل ابن سينا لدى السلطان لعلاج المريض بواسطة زواج الفتاة، ولما تزوجها شفى المريض، عظمت مكانة ابن سينا عند قابوس بن وشمكير، وظل موضع رعايته، حتى ساءت الأحوال الاقتصادية فى جرجان، فرحل إلى بغداد، وفى طريقه إليها توقف فى الرى لعلاج مجد الدولة البويهى - أميرها - من مرض شديد ألم به - وعالجه وشفى على يديه.

انتقل الشيخ من الرى إلى قزوين إلى همدان، حيث عالج شمس الدين بن مجد الدولة من مرض الالتهاب الكبدى، وولاه الوزارة، ولكن الجند، قاموا بثورة كبيرة، واعتزموا قتل ابن سينا، فاختفى عن الأنظار، ولما تم القضاء على ثورة الجند، عاد إلى الوزارة ثانية(٢).

كان ابن سينا يكتب فى كل يوم خمسين صفحة، بل كان يملى كتبه على مرافقه الجوزجانى أثناء رحيله من الذاكرة، وكان يضع خطة لكتابه قبل إملائه.

---

(١) خوندمير: دستور الوزراء ص٢٢٦.

(٢) ابن سينا: القانون فى الطب جـ٢ ص٨٠.

ونجح فيما أخفق فيه أطباء بخارى، وهو أول من توصل إلى الطب النفسى، وربط بين أمراض المعدة وبعض الأمراض العضوية، وبين المتاعب النفسية. وتوصل كذلك إلى حقيقة الدورة الدموية. وهو أول من اكتشف مرض الإنكلستوما، وأجرى جراحات لعلاج الأمراض الخبيثة، وأثبت أن المريض إذا اكتشف مرضه فى أوله يمكن شفاؤه. ومن أهم مؤلفات ابن سينا:

«القانون فى الطب» اعتمد فى تأليفه على خلاصة ما توصل إليه اليونان فى الطب، بالإضافة إلى تجاربه الخاصة، ويتضمن الكتاب الأمراض المستعصية، من حيث أسبابها وطرق علاجها، ووصف النباتات الطبية، واستخداماتها فى العلاج، ووصف أمراض الرئة والمعدة، والأمراض الجنسية، ودرس أمراض الحميات، وأساليب الجراحة، وتحدث عن العناية بالشعر والجلد وكتب عن تركيب ٧٦ عقارا.

بدأ ابن سينا كتابه «القانون» بدراسة مستفيضة عن الأدوية، بدأها بالقوانين الطبيعية للأدوية، وتتضمن هذه الدراسة أمزجة الأدوية المفردة، والتعرف على أمزجتها بالتجربة والقياس، وفى تعرف قوى أمزجة الأدوية وفى التقاط الأدوية من الخارج.

ورتب الأدوية المفردة ترتيبا أبجديا، ثم تناول بالدراسة الأمراض المختلفة وعلاج كل منها. وكتب عن أمراض الرأس والدماغ وأسباب الصداع الكائن من سوء المزاج، والصداع الذى سببه ورم فى الدماغ، وتكلم عن أمراض الرأس وأورامها، وأمراض الدماغ التى تؤثر فى حركة الإنسان الإرادية، وتتسبب فى الدوار والكابوس، والصرع والسكتة والاستعداد لها(١).

وكتب عن الأمراض العصبية، وما تسببه من الفالج والتشنج وكتب عن العين وتشريحها وأمراضها كالرمد، وينصح ابن سينا بتقليل الغذاء، والاعتدال فيه، وتجنب الغبار والدخان والأهوية الباردة والحارة ورياح السموم. ويجب على الإنسان أن يتجنب كثرة البكاء، ولا يطيل النوم على القفاء، ويجب عدم الإكثار من الجماع؛ لأن ذلك يضر العين. ويجب عدم الإكثار من تناول السكريات. والمأكولات التى تسبب الغازات كالكرنب والعدس. وكثرة النوم والسهر يضران العين، وكذلك الملح الكثيف فى الطعام(٢).

وكتب ابن سينا عن أحوال الجفن وما يليه، والأذن والأنف والأسنان واللثة والحلق والرئة والصدر والتنفس والسعال وأمراض القلب وتشريحه وأمراضه، والمرىء

---

(١) ابن سينا: القانون فى الطب جـ٢ ص٨٠٠.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٨٠٢.

والمعدة، وأمراض الثدى والرحم، وأمراض الكبد وأورامه، والمرارة والطحال وأمراض الأمعاء، وأمراض الكلى والبواسير، والحصو فى الكلى والمرارة، وأمراض البول، وحصوة المثانة، وتحدث عن البول الطبيعى، وآفات البول من حيث الحرقة والقلة، واحتباس البول. وكتب عن الأمراض التناسلية وعلاجها، وكتب عن الأدوية المركبة، وطرق استعمالها، وأسباب استخدامها.

وأمراض الدماغ كما ذكرها ابن سينا ـ تكون لأسباب خلقية، فإما أن يكون حجم الدماغ أكبر أو أقل من الواجب، وإما أن يكون شكله متغيرا عن المجرى الطبيعى، فيعرض عن ذلك آفة فى أفعاله وتكون مجاريه وأوعيته منسدة، والسدد إما فى البطن المقدم، وإما فى البطن المؤخر، وإما البطنين معا، وإما فى الأوردة والشرايين، وإما فى منابت الأعصاب، وإما أن تنخلع رباطات حجبه، أو يقع افتراق بين جزءين، ويتعرض مثل هذا الدماغ للأورام[1]. أو السكته الدماغية، لتأثر بعض الأعضاء بهذا المرض، وورم الدماغ يضعف العين ويؤثر ذلك على الإبصار، وتشوش الرؤية، ويتخيل المريض ما ليس له وجود من خيالات مثل الدخان، فإن لم تكن من العين فلابد وأن تكون من الدماغ. وكذلك يضعف السمع، ويسمع المريض ما ليس له وجود ويؤثر فى الشم ويشم روائح لا وجود لها، بسبب خلط محتبس فى مقدمة الدماغ، ويؤثر ذلك على الذوق واللمس[2].

وتحدث ابن سينا عن أمراض العين، ومنها المياه البيضاء، وهى رطوبة تتجمع على عدسة العين، فتشوش الرؤية، وربما تكثر حتى تسد عدسة العين، فيبصر المريض درجة أقل من إبصاره الطبيعى، وربما أكثر، وربما لا يبصر شيئا، وقد يرى من كل شىء جوانبه وبعضه رقيق صافى لا يحجب الضوء والشمس، وبعضه غليظ وفى لون الرؤية، وبعضه رقيق صافى اللون أو لؤلؤى، أو يميل إلى الزرقة، وبعضه أصفر، وبعضه أغبر، والأبيض يمكن علاجه وتوضع على العين قطنة، وينفخ فيها نفخا شديدا[3].

ويقول عن فقدان البصر، بأن سببه الضعف الشديد، ويصيب العين الجفاف أو الورم.

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٨٠٩.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٨١٠.

(٣) المصدر السابق جـ٢ ص١٥٦٨.

ويقول ابن سينا: قد يخرج الدم كثيرا من الفم أو القصبة أو من المرىء أو فم المعدة، أو المعدة أو الكبد، وقد يخرج بسبب السعال. والذى من الصدر ليس فيه خوف، والذى من الرئة يدل على وجود قرح فيها. والجراحة هى الحل، وقد يكون بسبب إسهال حاد أو أغذية حادة كالثوم والبصل أو خوف وغم، وقد يكون بسبب كثرة الأغذية وعدم الرياضة وعسر الهضم تبعا لذلك أو بسبب البواسير أو احتباس وقطع عضو. وإذا تعرض الإنسان لامتلاء دموى فلابد أن تقذفه الطبيعة، وإذا كانت العروق قوية احتبس الدم ومات الإنسان.

والسبب فى أمراض القلب سوء المزاجات، وقد يتعرض لأورام وانسداد فى بعض شرايينه، والورم الحار الحاد للقلب قاتل، والبارد يؤدى إلى حدوث رخوة فى بعض عضلات القلب وفى غلافه[1].

ووصف ابن سينا حقنة تقوى الكلية.

وحرقة البول بسبب مزاجى أو اختلاط البول بالأملاح أو الرطوبة التى قد تخرج من مجرى البول بسبب كثرة الجماع، وقد يختلط البول بالدم بسبب قرح فى المثانة. وقلة البول بسبب الإسهال وقلة الشرب أو لضعف الكلية عن الجذب والكلية عن التمييز[2]. ويؤدى إلى عسر البول واحتباسه، وكتب عن الأدوية المركبة، وطرق وأسباب استعمالها.

وعلى ذلك فإن كتاب «القانون فى الطب» فيه تشريح لجميع أعضاء البدن، ووصف لوظائف الأعضاء، ووصف أقسام العظام والعضلات، وبعد أن تدرب على دراسة عظام وعضلات الحيوان ووصف الأمراض وعلاجها بدقة علمية، أثبت العلم الحديث صحة الكثير منها، ووصف مرض السل ومراحله الثلاث، ووصف العلاج. ويفضل لبن الأم لغذاء الطفل عن غيره، وإذا لم يتيسر يجب البحث عن مرضعة.

ومن كتب ابن سينا الطبية كتاب «الأدوية» وكتاب «دفع المضار الكلية من الأبدان الإنسانية» وله رسائل فى السياسة البدن و «فضائل الشراب» ورسالة فى تشريح الأعضاء ورسالة فى الأغذية والأدوية.

كان ابن سينا يقضى جزءا من الليل فى التدريس والاطلاع والتأليف، وفى آخر الليل يقضى الوقت بين الموسيقيين والمغنيين.

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٣٦٠.

(٢) المصدر السابق.

حامت حول ابن سينا الشبهات بالاتصال بعلاء الدولة كاكوية - أمير أصفهان - فزج فى السجن. وفى السجن كتب أهم مؤلفاته «القانون» و«الشفاء» و«منطق الشفاء».

يتضمن الشفاء موضوعات فى الطبيعيات والإلهيات ولما تم الإفراج عنه، رحل إلى أصفهان، وأكرم علاء الدولة كاكوية - أميرها - وفادته، وأنزله فى بيت فخم. وهنا أكمل كتابه «الشفاء» ولما هاجم محمود الغزنوى أصفهان، لجأ الشيخ إلى نيسابور(١).

وبذلك كانت حياة ابن سينا فيها الكثير من المعاناة، بسبب اتصاله بحكام مختلفين مع بعضهم البعض، وانعكس ذلك عليه، فتعرض للسجن والاضطهاد.

واشتد المرض بالشيخ، وكان يعالج نفسه، ويصف الأدوية لعلاجه، ولما يئس من الشفاء، أوقف العلاج وتصدق بكل أمواله، وأعتق غلمانه، وظل يقرأ القرآن ثلاثة أيام متوالية حتى وفاته سنة (٤٢٧هـ)(٢).

يعتبر ابن سينا أول من اخترع التخدير فى الجراحة، واخترع العلاج بالحقن، وابتكر أول جراحة للأعصاب المقطوعة وميز بين شلل الوجه وشلل الدماغ، ووصف الأمراض العضوية التى تنجم عن التوتر العصبى.

ينصح ابن سينا الطبيب بحسن معاملة المريض ومراعاة حالته النفسية، وأن يبتسم فى وجه المريض، ويرفع من روحه المعنوية، وأن يبشره بالصحه والشفاء «فإن للعوامل النفسية تأثيرات عظيمة»، ويفرد فصلا فى كتاب القانون عن تراكيب الأدوية يشرح كيفية إعداد الأقراص والمعجونات والحبوب والسوائل.

أشار ابن سينا إلى علاج الأمراض الفصلية كالإنفلونزا ويوصى بتهوية البيوت، وتجديد الهواء والنظافة وتجنب مخالطة المريض، ويوصى بعلاج الأعضاء المريضة؛ لأنه الطريق إلى علاج البدن، ويوصى بتجنب التلوث. وهو أول من وضع المصطلحات الطبية.

يقول ابن سينا عن نفسه: ثم رغبت فى علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب، يقرءون على علم الطب، وتعهدت المرضى، فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف. ويقول: كنت أقضى الليل ساهرا بين الكتب وأمامى السراج وأتغلب على النوم بشتى الطرق(٣).

---

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٣٦٠.

(٢) خوندمير: دستور الوزراء ص٢٢٧.

(٣) المصدر السابق ص٢٢٨.

صنف ابن سينا كتبا فى مختلف العلوم، منها الفلسفة والمنطق والطب والنفس وما وراء الطبيعة والأخلاق والفلك والكيمياء وتزيد مؤلفاته على المائة، جمع فيها خلاصة ما توصل إليه العلماء فى الحكمة ومختلف العلوم، وأضاف إليها إضافات قيمة، لذلك لقبه العلماء بألقاب مختلفة، منها أرسطو الإسلام.

ويرى دانتى أنه وسيط بين جالينوس وأبقراط؛ لأنه ساهم مساهمة فعالة فى العلوم النفسية والفلسفية والطبية، ويقول سارتون: «ابن سينا من أعظم علماء الإسلام ومن أشهر مشاهير علماء العالم». ويقول دى بور[1]: ويعد ابن سينا عند أهل المشرق - أمير الفلاسفة - وكان تأثيره فى أوربا واسع النطاق وقد جعله دانتى بين أبقراط وجالينوس، والبعض يرى أنه قرين جالينوس فى الطب، وأنه أعلى منه قدرا فى الحكمة».

أقيمت البيمارستانات فى مدن المشرق لعلاج المرضى، وأقدم بيمارستان فى الشرق عموما، بيمارستان جنديسابور ، وأشرف عليه فى العصر العباسى الأول، آل بختيشوع، ثم التحق بعضهم بخدمة الخلفاء العباسيين، وأقيمت البيمارستانات فى مدن المشرق الإسلامى والعلاج فيها بالمجان، وهناك مستشفيات للرجال وأخرى للنساء ومستشفيات لعلاج الأمراض العقلية، وهناك مستشفيات متنقلة بين القرى والمدن التى ليس فيها بيمارستانات، يقدمون الدواء للمرضى بالمجان، ويدرس طلاب الطب الدراسة العملية فى البيمارستانات، والدراسة النظرية فى أماكن أخرى للمحاضرات. وهناك مستشفيات عسكرية تتنقل مع الجيش لعلاج الجرحى والمرضى من الجند، وأوصى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله بإنشاء البيمارستانات لعلاج المرضى وقال: وانصب لمرضى المسلمين دورا تقيهم، وقواما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم[2].

وانتشرت المارستانات فى مدن المشرق، مثل بخارى وسمرقند والرى وأصفهان ونيسابور وشيراز. والمارستان به خزائن للأدوية والطعام وحديقة لزراعة الخضراوات والحبوب، وله وقف ينفق عليه وعلى أطبائه وعماله وأثاثه وفرشه[3].

(١) المصدر السابق ص٢٢٩.

(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص٢٧٢.

(٣) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأدباء.

الصيدلة عند المسلمين

كان الطبيب فى فجر الإسلام صيدليا فى نفس الوقت، يصف الدواء ويعطيه للمريض، ثم تطورت العلوم وتنوعت الدراسات، وأصبح الطبيب يختلف عن الصيدلى، واقتضى التوسع فى دراسة الصيدلة، دراسة النباتات والمعادن والحيوان والكيمياء؛ لأن الأدوية نباتية أو معدنية أو حيوانية، وتحتاج إلى نسب فى التركيب، ونقل إسحاق بن حنين (ت ٢٦٠هـ) كتاب ديسقوريدس فى الأدوية المفردة، أى النباتات التى تستعمل دواء، وبرع المسلمون فى تركيب الأدوية بنسب معينة، وكان الطبيب يأخذ ثمن الدواء من المريض، وتطوع بعض الصيادلة بتقديم الدواء مجانا لمرضاهم.

ومن أقدم الصيادلة فى الدولة الإسلامية، سرجون اليهودى، الذى صنف كتاب «قوى العقاقير ومنافعها ومضارها»[1]. ومن أبرز علماء الصيدلة، كوهين العطار اليهودى الذى وضع كتاب الصيدلة، شرح فيه العقاقير شرحا وافيا، وأوضح طريقة المشروبات والجرعات والمساحيق والحبوب وغيرها.

يقسم الرازى الأدوية إلى نباتية ومعدنية وحيوانية، النباتية ستة أنواع من الغازات، الزئبق والنشادر والكبريت والزرنيخ، ثم أجساد معادن كالفضة والذهب والنحاس والحديد، ثم حجارة كالكحل والزجاج، ثم زاجات أملاح كالزجاج الأسود والزجاج الأصفر والشب، ثم الأملاح بأنواعها.

وأشار البيرونى إلى الأدوية ووضعها بين السموم والأغذية، وقال: ما يطعم به الإنسان، مقسم إلى أطعمة وسموم، والأدوية بين الاثنين، وحدد نسبها الأطباء حتى تخلو من السموم الضارة بالإنسان.

والأدوية المفردة هى العقاقير الأصلية سواء أكانت نباتية أم معدنية أم حيوانية، فإذا ما جمعنا عقارين أو أكثر، حصلنا على الأدوية المركبة التى سماها العلماء المسلمون الأقراباذين وقالوا: إنها أكثر فائدة للإنسان، وصنفوا منها المراهم والشراب والمعاجين والحبوب وغيرها.

والصيدلانى هو المسموح له بصنع الأدوية، مفردة أو مركبة، ووُضعت كتب فى تصنيف الأدوية، تسمى «الدستور البيمارستانى»، ويتضمن هذا الدستور عدم السماح للصيدلانى بوصف دواء إلا بتذكرة من الطبيب أى روشتة، وأول من ألف فى الأدوية المفردة فى دولة الإسلام، يوحنا بن ماسويه، ثم سابور بن سهل من مستشفى

(١) القفطى: المصدر السابق ص٢١٣.

جنديسابور، ثم ابن التلميذ ـ عميد أطباء بغداد ومؤلف الأقراباذين الكبير، وتعرض لهذا البحث أكثر الأطباء المسلمين مثل على بن ريحان الطبرى (ت ٢٤٦هـ) فى كتابه «فردوس الحكمة» والرازى فى كتابه «الحاوى»، وابن سينا فى كتابه «القانون».

وأوجد المسلمون طرق التقطير والترشيح والتحويل والتبخير والتذويب والتبلور، وهم الذين اكتشفوا الكحول والقلويات والنشادر وملح البارود والزرنيخ والزاج (حامض الكبريتيك) والبوتاس وروح النوشادر(١).

واكتشف العرب أدوية جديدة مثل الكافور والمسك والمر والتمر هندى والحنظل وجوز الهند والقرفة، وهم الذين اخترعوا الأتربة والكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية واستعملوا الأفيون وبعض النباتات المخدرة فى التخدير.

والصيادلة كالأطباء لا يمارسون المهنة إلا بعد اجتياز اختبار والحصول على إجازة الممارسة للمهنة، ولهم رئيس يتفقد أعمالهم.

ومن كتب الصيدلة الهامة، كتاب البيرونى الذى ذكر فيه أنواع الأدوية وخصائصها، واختلاف آراء المتقدمين فيها وآراء الأطباء فى هذه الأدوية، وهو مرتب على حروف المعجم(٢).

أطلق المسلمون على العقاقير، تعبير «عجائب المخلوقات» ويقصدون بذلك أن الله الذى وسعت قدرته كل شيء، قد خلق هذه العقاقير ليستعملها الإنسان، وتعود عليه بالنفع والخير، وعلى الطبيب أن يعرف طرقها وكيف تشفى من العلل، وكيف تعالج.

أخذ المسلمون فن العقاقير من ديسقوريدس وجالينوس وأضافوا خلاصة تجاربهم إلى ما اقتبسوه.

ومن أشهر الصيادلة المسلمين، ابن الرومية (ت ٥٦٢هـ)، درس النباتات، وتجول فى دراستها حول البحرين الأحمر والأبيض، ورحل إلى الشام ومصر والعراق، وتتلمذ على يديه الكثير، من بينهم ابن البيطار، ومن مؤلفاته «أسماء الأدوية المفردة» وله مقالات فى تركيب الأدوية، وله دراسة فى الرحلة النباتية تضم الكثير مما قابله من نباتات فى رحلاته.

---

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص ٣٧٣.

(٢) القفطى: ص ١٤١.

وضع ابن البيطار كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية وهو معجم علاج طبى حسب حروف الهجاء، ذكر فيه أسماء الأدوية ومنافعها وطرق استعمالها، وذكر أكثر من ألف وأربعمائة دواء، بين معدنى ونباتى وحيوانى، بينها أكثر من ثلاثمائة دواء جديد، لذلك يعرف فى أوربا «أبو علم النبات» (ت ٦٤٦هـ)(١).

اتبع المسلمون المنهج العلمى فى الدراسة، كالوصف والتعريف والاعتماد على التجربة والقياس، والملاحظة والمشاهدة لبيان آثارها ومفعولها. وأخذ الأوربيون الكثير من الأدوية والتراكيب الدوائية من المسلمين، ويحمل بعضها اسما عربيا، بلغت ثمانين دواء!

برع المسلمون فى معرفة الأدوية وخصائصها وتركيبها ونسبها وطريقة استعمالها، ومراقبة مفعولها، ومدى استجابة المريض لها، ومدى التأثير الذى يحدثه الدواء فى جسم المريض من مضاعفات جانبية وغيرها، وأجروا التجارب على الأدوية فى الحيوانات وفى القرود وعلى أنفسهم قبل إعطائها للمرضى.

وأضافوا إلى الأدوية العسل والسكر حتى يصبح طعمها مقبولا ، وغالبا ما جعلوا الأدوية المكونة من الحبوب مغلفة لإخفاء رائحتها، حتى لا يعافها المريض. ومن هذه الأدوية القرفة والكافور والمسك والعنبر والتمر هندى والصندل.

وعرف الأطباء والصيادلة أن الدواء سلاح ذو حدين، لذلك قرروا أن العلاج بالأغذية أفضل من الأدوية، وطالبوا بالاستغناء عن الأدوية بالأغذية، وعند الضرورة الأدوية البسيطة، وقالوا بعدم الاستمرار فى تعاطى دواء لمدة طويلة، فيبطل مفعوله، وتألفه طبيعة الجسم. وإذا لم يكن العلاج بالأدوية المفردة، فالأدوية المركبة، ونصح الرازى بذلك، وطالب ابن سينا بأنه إذا كان ولابد من الأدوية المركبة فبنسبة قليلة.

ومن الصيادلة المسلمين، الغافقى (ت ٦٨٤هـ)، من مؤلفاته كتاب «الأدوية والمفردات» ـ «كتاب الأعشاب والنباتات الطبية» ويتضمن ٣٨٠ رسما ملونا لنباتات وعقاقير وحيوانات ومعادن طبية، ونبأ عنها.

سمى علماء المسلمين تراكيب الأدوية بالأقراباذين، وحذرت بيع العقاقير والسموم الضارة، فقد كان بعض الصيادلة يغشون الأدوية.

---

(١) عصام الفقى: الهند فى العصر الإسلامى ص٢٨٣.

وبلغ من اهتمام السلطان محمود بن سبكتكين بتشجيع الحركة العلمية أن بعث فى طلب جماعة من رجال العلم والفلسفة، فكان من بين الذين وفدوا إليه أبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى (٣٦٢ ـ ٤٤٠هـ)[١]. . . وقضى البيرونى بداية حياته فى خوارزم حيث ولد فيها وقربه إليه أميرها، ونبغ فى كثير من العلوم وبخاصة الرياضة والفلك، وزار حوالى سنة ٣٩٠ هـ بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير ـ أمير طبرستان ـ الذى عُرف بتشجيع العلم وأهله، وألف له «الآثار الباقية فى القرون الخالية» ويبحث هذا الكتاب فى التواريخ التى كانت تستعملها الأمم، والاختلاف فى الشهور والسنين والتقاويم عند الأمم، ونظم الطوائف والجماعات المختلفة، والاحتفال بالأعياد القومية، ولما اتصل البيرونى بالسلطان محمود الغزنوى، استفاد من فتوحاته فى بلاد الهند فائدة علمية كبيرة، وجعل ثروة الهند العلمية الكبيرة فى الرياضة والفلسفة والإلهيات فى يد المسلمين، والفرنج بما ألفه فى ذلك من كتب لا تزال خير مرجع لكل من كتب عن الهند، وكان البيرونى فى هذا درة فى الدولة الغزنوية كابن سينا فى الدولة السامانية[٢].

نشأ البيرونى فى كيفا[٣]، ويقال إنه لا يعرف نسبه ولا أباه ولا جده ومعنى كلمة بيرون بالفارسية ـ الخارج، بمعنى أنه يقيم وأهله خارج أسوار المدينة، تجنبا لدفع الضرائب وتمشيا مع حياة التجوال والتنقل الذى كان يعيش فيها.

نبغ البيرونى فى كثير من العلوم، وخاصة الرياضة والفلك، وجدير بالذكر أنه كان يزهد فى المال إلا ما يكفيه حاجته، وأهدى كتابه «القانون المسعودى» للسلطان مسعود وهو كتاب يبحث فى الرياضة والفلك وفلسفة الهند، فأجازه السلطان بأموال كثيرة فردها معتذرا بعدم حاجته إليها، وقيل عن البيرونى: إن القلم لم يكد يفارق يده، وعينه ونظره، وقلبه الفكر إلا فى الأعياد، لا يمل الاستزادة من العلم، وقد تعلم عدة لغات، ففى كتبه عن العقاقير والجواهر اسم الشىء بالعربية واليونانية والسريانية والفارسية والتركية، ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة، فيمدح اللغة العربية بحسن أدائها للمعانى ويفضلها على الفارسية.

---

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٣٩٩.

(٢) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص٧٩-٨١.

(3) Tladid: Sultan Mahmud. P.25.

ومن أشهر كتب البيرونى «الجماهر فى الجواهر» وكتاب «تاريخ الهند» وتعلم اللغة السنسكريتية، وأخذ ينقل منها إلى العربية، ومن العربية إليها فنقل إلى السنسكريتية نظريات إقليدس وغيره عن الفلك، ونقل إلى العربية من السنسكريتية بعض المصنفات القيمة. ومن أبرزها « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» قارن فيها بين رياضة الهند وفلسفة اليونان.

وكان للبيرونى علم تام بمدارس بغداد والبصرة العلمية، إلا أن نظريات أولئك العلماء كانت متأخرة بالقياس إليه، وظل مؤمنا بالتنجيم، مشاركا معاصريه فى ذلك، وقد أدرك البيرونى أن المعتقدات الدينية ترجع إلى أسباب واحدة فى كل مكان، وكان يهتم بالفارق الكبير بين الخواص والعوام فى كل موضع، فهو لا يعترض ولا ينقد مطلقا، حينما يشرح العقائد الدينية، وإذا قارن دينا بدين آخر، فإنما يقارن مقارنة علمية محضة، وعلى ذلك يمكن القول بأن منتجات البيرونى العلمية تحتل مكانة ممتازة من حيث وفرة عددها، وما فيها من الاعتناء بتطبيق الأصول العلمية. على أن البيرونى كتب مؤلفات بلغة عسيرة جدا. ويقول البيرونى أنه ألف كتبه للعلماء لا للعوام(١).

ولقد أطال البيرونى فى وصف الفلسفة الدينية للهند من الاعتقاد بالله والموجودات العقلية والحسية، وتعلق النفس بالمادة، والأرواح وتناسخها، ومواضع الجزاء من الجنة والنار وكيفية الخلاص من الدنيا، وقارن بين عقائد الهند والإسلام والصوفية والنصرانية(٢). ويذكر البيرونى أن التناسخ من أهم معتقدات الهنود، وأن الأرواح تنتقل من بدن إلى بدن، وفى كل بدن تستفيد معلومات وخبرات، وتنتقل من الأرذل إلى الأفضل، وقد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ، فقالوا: إن الأرواح الشريرة تتردد فى النبات ومرذول الطير والهوام إلى أن تستحق الثواب، فتنجو من الشدة، وتنتقل إلى ما هو أرقى.

وقال البيرونى: إنه رأى فلكيي الهند لا يبحثون فى العلل وكان على علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن يقتبس هذا العلم من الهنود، وقد قال فى هذا الصدد: كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتى فيما بينهم، وقصورى عما هم فيه، فلما اهتديت قليلا أخذت أوقفهم على العلل وأشير إلى شىء من البراهين، وألوح لهم

(١) البيرونى: تاريخ الهند ص٢٤.

(٢) المصدر السابق ٣٢.

بالطرق الحقيقية فى الحسابات فانثالوا على مستعجبين وعلى الاستفادة متهافتين، وكادوا ينسبون إلى السحر.

والبيـرونى تتلمذ على أساتذة كبـار، منهم الفلكى المشهود أبو نصـر المنصور بن على بن العراق، الذى تنبه إلى نبوغه ودربه، ونشأت بعد ذلك مودة بين الرجلين.

نشأ الـبيرونى - كـما قلنا - فى خـوارزم. وفى هذا الإقليم نشـاط علمى كبـير، ترعرع فـيه الكثـير من العلماء وصنفـوا فيـها المصنفات القـيمة، وبلـغ من شغف أهله بالعلم، أنهم كانوا يتناظرون فى الأسواق والمساجد والبيوت فى مسائل جدلية كثيرة.

لما اضطربت الأحوال السياسية فى خوارزم لجأ البيرونى إلى الرى، وكان فى بؤس وفقر مدقع، ثم دعاه الأمـير البويهى - فخر الدولة - إلى خدمته، وبنـى له مزولة كبيرة على جبل مشرف على الرى، وسماها باسم الأمير. وفى هذه الفترة عمل فى بلاد كثيرة حول بحر قزوين.

ولما توفى محـمد بن مـأمون - حاكم خـوارزم - الذى هرب منه البيـرونى بسبب اضطهاده له، استدعاه أخوه على بن مأمون، وألحقه بخدمة أخيه أبى العباس مأمون.

ولم يلبث أن ولى أبو العبـاس مأمون حكم خوارزم فقويـت الصلة بين البيرونى والأمير الجـديد، فعينه مستـشارا سياسيا لـه، وأسند إليه مهنة السفارة، لرجـاحة عقله وطلاقة لسانه، وقوة حجته فى الإقناع، وكان ذلك على حساب مجهوداته العلمية، فقد أهمل أرصاده وتجاربه ودراساته، ومجالس العلم، ولما استولى السلطان محمود الغزنوى على خوارزم، وسقطت دولة مأمون أظلمت الحـياة فى وجه البيرونى - على أن السلطان محمود الغزنوى كان حريصا على تزيين بلاطه بالعلماء فاستدعى البيرونى إلى خدمته.

وعاصر الـبيرونى علماء كـبار، استفـاد منهم كثيرا، مـثل العالم ابن يونس (ت ١٠٠٩م) وكذلك حـساب المثلثات، وعـاصر عالم الريـاضيات والفـيزياء وواضع علم البصريات والعدسات الحسن بن الهيـثم، وكذلك على بن عيسى - أشهر جراح فى طب العيون - يضاف إلى ذلك الشيخ الرئيس - ابن سينا - نابغـة عصره وفيلسوف زمانه، وله مراسلات مع ابن سينا، ووجـدت عند ابن سينا أجوبة سأله عنها البـيرونى تحتوى على معلومات مفيدة وعظيمة القيمة فى الحكمة[1].

---

(١) عصام الفقى: بلاد الهند ص٢٧٩.

وذكر البيرونى كتبه ومن أهمها «تحديد الأماكن لتصحيح مسافات المساكن»، والكتاب سفر قيم لقياس خطوط الطول والعرض، ووجه اهتماما خاصا بالهند والأقاليم الشرقية من العالم الإسلامى، وقد اعتمد على المصادر اليونانية فضلا عن خبرة علماء العرب. والمسلمين وقد نال هذا الكتاب تقدير العلماء المسلمين. واعتمدوا عليه فى دراساتهم(١).

وكتاب البيرونى المسمى «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم». يفهم من عنوان الكتاب أنه كتاب فى التنجيم. والحقيقة غير ذلك، فالبيرونى لا يؤمن بالتنجيم بل يسخر منه. والكتاب موسوعه تعرض لمسائل فنية ومصطلحات هندسية ومعلومات فى الحساب والفلك، ويضم إلى ذلك الجغرافيا وحساب الأوقات، ووصف للأجهزة الفلكية. وفى الكتاب معالجة لتوزيع البحار على الأرض وضبط العروض والأطوال وخطوط الاستواء وارتفاع الشمس، وأفرد فصلا عما يوجد من البلاد فى كل إقليم ووزع البحار على خرائط من صنعه. وأهدى هذا الكتاب للأميرة ريحانة الخوارزمية. والكتاب موسوعة ميسرة من علوم عصره، وأقبل عليه العلماء، ونال تقديرهم بدليل كثرة المخطوطات التى تضمنت هذا الكتاب(٢).

أما كتابه «تاريخ الهند» فهو كتاب فريد من نوعه درس فيه جغرافية الهند ـ الموقع والأنهار والجبال والسهول .... إلخ، ويتكلم عن ديانات الهند ومعتقداتهم وفلسفتهم وحياتهم الفكرية. ويتضمن الكتاب معلومات موثوق بصحتها، ويقدم أول توقيت مفصل عند اليهود.

ويعتبر مؤرخو العلم البيرونى أعظم شخصية علمية عاشت فى منتصف القرن الحادى عشر، وأطلقوا على هذه الفترة «عصر البيرونى» وما تزال شخصيته العلمية آخذة فى النمو، وأثبتت دراسته التى تضمنت الجديد وسبق فيها عصره أنه جدير بكل ما ناله من تقدير وإجلال.

لقد استفاد البيرونى من رحلاته فى طلب العلم والاستزادة من العلماء الذين التقى بهم، ومنهم عالم يونانى عرَّفه بالكثير من أسماء النباتات باليونانية.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى جـ١ ص٢٥٤.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص٢٥٦.

ويقارن معتقدات الهنود بمعتقدات اليونان والروم والمسلمين والإيرانيين مضيفا إلى ذلك ملاحظاته. والكتاب من أهم الكتب التى تتضمن معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية والثقافية لأهل الهند، ويقال: إن الإنجليز استقوا معلوماتهم عن الهند من هذا الكتاب قبل استعمارها. أما كتابه «الجماهر فى معرفة الجواهر» الذى أهداه إلى السلطان مودود الغزنوى، فقد درس فيه الأحجار الكريمة، ويفرد خمسين فصلا لكل نوع من الأحجار الكريمة، وواضح فى الكتاب الجهد الكبير الذى بذله المؤلف فى تحليل عناصر كل معدن.

وآخر كتاب له كتاب الصيدلة فى الطب، يتجلى فيه عمق التفكير ومتانة منهجه، ويقول فى هذا الكتاب أنه يدرس الصيدلة، لعدم تخصصه فى الطب. وفى هذا الكتاب استقصاء لماهيات الأدوية وخصائصها وأهميتها ورتبها حسب حروف المعجم.

والبيرونى عالم موسوعى، فعلى الرغم من دراساته العلمية والتجريبية إلا أنه لم يفضل العلوم الأدبية فقد كتب فى الشعر، وله كتاب فى شرح شعر أبى تمام. ويستشهد بالشعر فى مؤلفاته.

ولم يمنع انتماء البيرونى إلى إيران من تقديره للغة العربية وتفضيلها على سائر اللغات بما فيها لغته الفارسية. وفى ذلك يقول: وإلى لسان العرب نقلت العلوم فى أقطار العالم، فازدانت وحلت إلى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة،وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها، واستعملتها فى مآربها، وأقيس هذا بنفسى ـ وهى مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاتستغرب استغراب البعير . . والهجو باللغة العربية أحب إلى من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسية كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية.

وهذا القول فيه مغالاة، ويتسم بروح الحماس الشديد للغة العربية على حساب اللغات الأخرى.

وينهى البيرونى كتبه بقوله: ينبغى عليك أن تعلم فيما عددته من كتب بما عملته فى حداثتى، وازدادت المعرفة بفنه بعد ذلك فلم أطرحه أو أسترذله فإنها جميعا أبنائى والأكثر بابنه وشعره المفتون.

ويقول إنه تجاوز الثمانين من العمر، ويذكر كتبه ويذكر ضعف بصره وسمعه،

وفى فلسفة التاريخ سبق البيرونى فيها ابن خلدون وقال: لابد من تحكيم العقل فيما رواه القدماء وعدم التصديق برواياتهم إلا ما يتمشى مع العقل والمنطق؛ لأن أخبارهم قد دخلها الكثير من العبث والفساد، ويرى أن الطبيعة تجرى على سنن واحدة وقانون لا يتحول، فإذا روى الإسرائيليون أن بعض البحار تجف يوم السبت، ولا يجرى فيه الماء، فإن هذا القول لا يمكن ترديده لأنه ضد قوانين الطبيعة.

ويذكر مؤرخو العلوم أن البيرونى أعظم شخصية عاشت فى القرن الحادى عشر الميلادى، ونال تقديرا علميا كبيرا، فترجمت كتبه إلى اللغات الأوربية، وقال أحد مؤرخى العلوم بأن البيرونى أعظم رجل فى التاريخ. وقال آخرون بأنه من أعظم وأبرز رجال الحضارة الإسلامية، وأسمت روسيا جامعة حديثة باسمه، وأقيم له تمثال فى جامعة موسكو، وأصدر اليونسكو وبعض الجامعات الأمريكية والألمانية فهارس بأعماله.

عالم الرياضيات

استمر استعمال الأسماء اللغوية للأعداد فترة طويلة من الزمن فى كتب الحساب والجبر والطبيعة وغير ذلك من العلوم.

وكان أبرز تطور فى اتجاه التدوين الرمزى للأعداد استخدام العرب الحروف الأبجدية للتعبير عن الأعداد، ولتوضيح ذلك نبدأ أولا بالحروف الأبجدية المفردة وما يناظرها من الأعداد ثم نبين بأمثلة أخرى طريقة التعبير عن الأعداد بحرفين أو أكثر.

آحاد	أ	ب	جـ	د	هـ	و	ز	ح	ط
	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
عشرات	ى	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠
مئات	ى	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠
ألوف	غ								
	١٠٠٠								

مثال: م جـ تعنى ٤٣، س ز تعنى ٦٧، خ ع تعنى ٦٧٠، خ هـ تعنى ٦٠٥.

مثال: ض س ح تعنى ٨٦٨، غ ذ غ ط تعنى ١٧٧٩.

أما عن الجبر فبمطالعة تاريخ الجبر والحساب نجد أن للعلماء العرب دورا بارزا فى إرساء دعائم هذين العلمين، وكما اقترنت الهندسة باسم إقليدس، فمن الضرورى أن يقترن الحساب والجبر باسم محمد بن موسى الخوارزمى؛ لأنه أول من نظم المعرفة الحسابية والجبرية بطريقة منطقية، كما فعل إقليدس بالنسبة لعلم الهندسة، وابتكر الأساليب الجديدة فى الوصول إلى المجهول بدلالة العلوم ليحقق طريقة ثابتة وعامة لحل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية، إلا أن طريقة الخوارزمى فى العرض تختلف عن الطريقة التى وصل لها علم الجبر حاليا فى التعبير عن المعادلات بالطريقة الرمزية. وسنذكر هنا بعض القواعد الجبرية الموجودة فى كتاب الجبر والمقابلة لمحمد بن موسى الخوارزمى(١).

قاعدة التوزيع فى الضرب

يقول الخوارزمى: «إذا كانت عقود ومعها آحاد أو مستثنى منها آحاد فلابد من ضربها أربع مرات، العقود فى العقود، والعقود فى الآحاد، والآحاد فى العقود، والآحاد فى الآحاد» ولتوضيح هذه العبارة فإننا إذا أردنا أن نضرب على سبيل المثال ١٢+١١ فإن كل عدد منها يتحلل بالنسبة للخوارزمى إلى عقود وآحاد ويضرب بالطريقة الآتية:

(١٠+٢) (١٠+١) = ١٠ + ١٠+١ +٢ + ١٠ + ١+٢

ولم يقتصر تطبيق هذه القاعدة على الحساب بل عمل على تطبيقها على عمليات الجبر.

ولدراسة العمليات الرياضية عند العرب ارجع إلى كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى.

أخذنا من الهند الأعداد ١، ٢، ٣. . . إلخ كما ذكرنا سابقا، بينما أخذ العرب من الهنود الأعداد المسماه بالغبارية، وهى إلخ 4 - 3 - 2 - 1 ولم يستعملوها،

---

(١) محمد بن موسى الخوارزمى: كتاب الجبر والمقابلة.

ولكنها استعملت فى المغرب والأندلس، وانتقلت إلى أوروبا، وتسمى الأرقام العربية. ويسرت هذه الأرقام للعرب والأوربيين العمليات الحسابية، وكانت العمليات الحسابية معقدة كل التعقيد، وقابلة للخطأ الشديد لصعوبة الأرقام وتعقيدها، وخصوصا الأرقام الرومانية فاستفاد العرب والأوربيون من تقدم الهنود فى الرياضيات(١) بسبب جهود علماء المشرق.

كان أبو يعقوب بن إسحاق الكندى من قبيلة كندة العربية ولقب فيلسوف العرب، تمييزا له عن أقرانه من المتوفرين على دراسة الحكمة من غير العرب. ولقد درس الكندى الثقافة الفارسية واليونانية فى البصرة وبغداد، وبعض مدن العراق واشتغل بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية، وتهذيب ما ترجمه غيره، وكان له تلاميذ يترجمون تحت إشرافه، واشتغل فى قصر الخلافة منجما. وكان الكندى واسع الاطلاع على جميع العلوم؛ لذلك صنف فى عدة علوم مثل الجغرافيا والتاريخ والطب وعلم الكلام الذى يظهر فيه ميله إلى المعتزلة، وكان ملما بالمذاهب والملل المختلفة، لذلك برع فى مقارنة بعضها ببعض(٢).

على أن الكندى قد نبغ فى الدرجة الأولى فى الرياضيات والفلسفة والطبيعة. ويرى أن الإنسان لا يكون فيلسوفا إلا إذا درس الرياضيات المركبة. وللكندى نظريات فلسفية تتعلق بالله والنفس والعقل والعالم، فيرى أن كل ما يقع فى الكون يرتبط بعضه ببعض علة بمعلول. والعقل مرد كل شىء، والمادة تتخذ الصورة التى يشاء العقل إقامتها(٣).

عنى المسلمون بالهندسة، وترجم فى عهد المنصور كتاب إقليدس المسمى «الأصول» وكتاب الأركان، ويشتمل على خمسة عشر مقال، منها أربعة فى السطوح وثلاثة فى العدد وخمسة فى المجسمات، وقد ألف العرب كتبا على نسقه، وأدخلوا تمارين جديدة لم يعرفها القدماء، والهندسة اهتم بها المسلمون لأنها تفيد أصحابها إضاءة عقلية، واستقامة فى فكره. ولأن براهينها كلها بينة الانتظام، جليلة الترتيب، لا يكاد يدخل

(١) الخوارزمى: الجبر والمقابلة ص٢٠٢.

(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلامى ص١٣٨-١٤٢.

(٣) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم عند العرب ص٩٢-٩٣.

الغلط أقيستها لترتيبها وانتظامها، على كل حال وضع المسلمون أسس الهندسة التحليلية، ومهدوا لنشأة علم التفاضل والتكامل[1].

ومن أبرز علماء الرياضة المسلمين أبناء موسى بن شاكر ولهم أبحاث فى الميكانيكا، وألفوا فى مراكز الثقل، وكتبوا فى الآلات[2].

أدخل المسلمون الخط المماس على حساب المثلثات، وتوصلوا إلى حل المعادلات المكعبة، وأنشأوا النظريات الأساسية لحل مثلثات الأضلاع، واخترع المسلمون الكسور، وتعرفوا على الكسور التربيعية والتكعيبية، وأحلوا الأرقام الهندسية محل الحروف لبساطتها.

ومن أشهر علماء الرياضيات البيرونى الذى توصل إلى تقدير الوزن النوعى بدقة، وتوصل إلى الرقم العشرى الرابع.

ويعتبر البتانى من أشهر علماء المسلمين فى الرياضيات.

ووضع ثابت بن قرة كتبا عديدة فى الرياضيات، ومن أشهر كتبه «حساب الأهلة» «استخراج الهندسة».

ومن الرياضيين المسلمين، محمد بن عنبسة وسنان بن ثابت والحسن بن الهيثم وغيرهم.

ونبغ المسلمون فى علم الميكانيكا، وهم أول من طبق الرقاص على الساعة، وابتكروا الساعة المائية الدقاقة التى تسقط كرة نحاسية على قرص معدنى كل ساعة لتوضيح الوقت، وأسمى المسلمون علم الميكانيكا (الحيل) وقسموه إلى قسمين: أحدهما فى آلات الحركات وصناعة الأوانى، وثانيهما فى رفع الأثقال بالقوة، ودرسوا فى هذا العلم الكثير من الأدوات الميكانيكية كالرافعة.

ووضع البيرونى قاعدة رياضية لحساب طول محيط الأرض ونصف قطرها سميت «قاعدة البيرونى» وألف الدينورى «البحث فى حساب الهند»[3].

---

(١) عبد الحليم منتصر: المصدرالسابق ص٢٩-٩٣.

(٢) عصام الفقى: تاريخ الهند ص٢٨٠.

(٣) المصدر السابق ص٢٨٣.

ووضع الحسن بن الهيثم كتاب «تحليل المسائل الهندسية» و«المساحة والأشكال الهلالية» وأورد براهين على الأصول الهندسية، استمدها من المحسوسات وبذلك خلد نابغة المشرق الإسلامى اسمه، بأبحاثه القيمة التى نالت تقدير علماء الشرق والمغرب.

وكتب أبو الوفا البوزجانى كتبا قيمة، تحدث فيها عن المساحات وأصول الرسم الهندسى بالآلات ومهد بذلك إلى ظهور الهندسة التحليلية.

وتوصل الرياضيون المسلمون إلى تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام وحساب نسبة محيط الدائرة إلى قطرها، ووضعوا أصولا لرسم المضلعات المنتظمة.

وبذلك أضاف علماء المشرق الإسلامى إضافات كثيرة إلى علم الرياضيات، وأفادوا المشرق والمغرب بل وأوربا أيضا.

ولقد نال كتاب «المناظر» لابن الهيثم شهرة فائقة فى أوربا فى العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة فقد ترجم إلى اللاتينية، وسمى «كنز البصريات».

ولابن الهيثم رسائل كثيرة فى الضوء، مثل رسالة فى الشفق - رسالة فى ضوء قوس قزح والذى يحدث بسببه انكسار فى الضوء بموجاته المختلفة بسبب قطرات الماء فى الجو(١).

وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات، وتبلغ مؤلفاته ٢٠٠، لم يبق منها سوى خمسون، والباقى اندثر.

مضى زمن طويل لم يعرف العالم فيه مؤلفات ابن الهيثم فى الضوء، ثم تنبه إليها قطب الدين محمود الشيرازى (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، وعلل نشأة قوس قزح تعليلا دقيقا بقوله: ينشأ قوس قزح من سقوط وقوع أشعة الشمس على قطيرات ماء فى الجو.

وكمال الدين بن الحسن الفارسى - تلميذ الشيرازى - شرح كتاب المناظرة، واختصره، وشرح انعكاس الضوء وانكساره عند ملاقاته لجسم كروى، ومنها تعليله لقوس قزح، ومنها الغرفة المظلمة السوداء.

عنى الحسن بن الهيثم بالتحصيل والفلسفة فى علوم عصره، ونقل ما استطاع نقله من علوم الإغريق فى الطبيعيات والرياضيات والفلك إلى العربية، ويقول: سأظل طوال

(١) عفيفى: تطور الفكر العلمى عند المسلمين ص١٣٢.

حياتى باذلا جهدى، ومستفرغا قوتى؛ لأفيد طلاب الحق والمعرفة فى حياتى وبعد مماتى، وجعلت العلم والتحصيل ارتياضا لى فى إثبات ما أتصوره وأتقنه فكرى، وهذا التحصيل ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم.

بلغت مؤلفات ابن الهيثم فى الفلسفة والعلم الطبيعى ثلاثة وأربعين كتابا. وبذلك أعد نفسه إعدادا كاملا لتأليف كتبه القيمة، وبذلك أحيا علماء المشرق دراسات ابن الهيثم وشرحوها، ونقلوها إلى الدول الإسلامية والأوربية.

علم الحيل:

عنى المسلمون بصناعة المزاول لمعرفة المواقيت، وخصوصا مواقيت الصلاة، ووضع فى ذلك الكندى كتاب «استخراج الساعات على نصف كرة بالهندسة» وصنف ثابت بن قرة كتاب «آلات الساعات التى تسمى رخامات» وكتاب «المخروط المكافئ» وهذا يدل على أن ثابت بن قرة كان يصنع المزاول من قطوع المخروط(١).

وفى القرن السابع الهجرى يصنع أبو الحسن على الساعات الشمسية التى يسرت تحديد الوقت، ووضع التقاويم الفلكية. ابتكر العرب الساعة الشمسية الدقاقة، أى ذات الرقاص الدقاق (البندول) والبندول سبق العرب فيه جاليليو الإيطالى، وعلى وجه التحديد أول من اخترعه ابن يونس فى مصر، واستعمل المسلمون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد(٢).

وأسهم نصير الدين الطوسى بدور كبير فى هذا المجال، فابتكر المحلقة ذات الخمس حلقات، الأولى تشير إلى خط الطول، والثانية إلى خط الاستواء، والثالثة إلى الخط الإمليلجى، والرابعة تشير إلى خط العرض، والخامسة تشير إلى دائرة الانقلاب الشتوى والصيفى. ومن مبتكراته إحداث ثقب فى قبة المرصد، تنفذ منه أشعة الشمس بحيث يعرف منها حركتها اليومية، ودقائقها وارتفاعها فى مختلف فصول السنة، وتعاقب الساعات.

وتوصل المسلمون إلى الثقل النوعى، وقدروا بعض الأجسام تقديرا دقيقا،

(١) عفيفى: المصدر السابق ص١٣٣.

(٢) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص ٣٨٧.

وتوصلوا إلى النسب الحقيقية بين وزن الأجسام المعدنية المختلفة وبين وزن الماء، ووضعوا لذلك جداول دقيقة لبعض المعادن والأحجار الكريمة.

ومن العلماء المسلمين الذين ساهموا فى العمل أبو الطيب سند بن على (ت٨١٢هـ) وأبو سهل الكوهى، وللخازن كتاب «ميزان الحكمة» بحث فيه وزن الهواء وكثافته، والضغط الذى يحدثه. وبحث العلماء المسلمون فى الروافع والجاذبية، وكان لدى المسلمين عدد من الروافع[١].

الكيمياء

عرف المسلمون الكيمياء منذ فجر تاريخهم، وينسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية فى القرن الأول الهجرى، اهتمامه بعلم الكيمياء، وقد استعان براهب من دمشق يدعى مريانس فى تصنيف كتبه فى الكيمياء[٢].

كما أن جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) كان مولعا بدراسة الكيمياء وازدهرت دراسة الكيمياء فى العصر العباسى الأول، ومن أشهر علماء الكيمياء، جابر بن حيان، وُلد بخراسان سنة (١٢٠هـ)، درس الكيمياء على يد أستاذه جعفر الصادق، وأقام فى بغداد، واتصل بالبرامكة ونال حظوة عندهم، وغادر بغداد بعد نكبة البرامكة. ويعتبر جابر بحق واضع علم الكيمياء، اعتمد على التجربة فى وضع نظرياته وتحقيق ما كُتب، وألف كتبا فى الرياضة والفلسفة والفلك بالإضافة إلى ذلك[٣].

وقد توصل جابر من خلال أبحاثه إلى تكوين الزئبق والكبريت، وله أبحاث فى التفاعلات الكيميائية والمعادلات، فمثلا حدد العناصر التى تكون الذهب. وكان جابر ينصح تلاميذه دائما بالتجربة، وعدم الاعتماد على الدراسات النظرية مع التدقيق فى الملاحظة والاحتياط والتأنى فى الاستنتاج؛ لأن التجربة طريق المعرفة، ولقد عرف جابر الكثير من النظريات الكيميائية كالتبخير والتقطير والترشيح والتبلور والتصعيد والإذابة، وحَضَّر الكثير من المواد الكيماوية، وعرف خواصها مثل نترات الفضة وحامض

(١) ابن النديم: الفهرست ص٣٥٤.

(٢) منتصر: تاريخ العلم عند العرب ص١١٢.

(٣) عصام الفقى: الحوافز الإسلامية ص٢٨٦.

الآزوتيك، وهو أول من لاحظ أن محلول نترات الفضة يكون مع محلول ملح الطعام راسبا أبيض، وأن النحاس يكسب اللهب لونا أخضر، وميز بين التقطير والترشيح[1].

ونظرية جابر فى طبيعة المعادن تشير إلى أنه كان أكثر تقدما من نظريات اليونان العلمية، ومن نظريات مدرسة الإسكندرية، فالمعادن عنده مقومان دخان أرضى وبخار مائى، وتكثيف هذه الأبخرة فى الأرض ينتج الكبريت والزئبق، واجتماع هذين يكوّن المعادن. والفروق بين المعادن الأساسية، يرجع إلى الفروق فى النسب التى يدخل فيها الكبريت إلى الزئبق نسبة تعادل بين هذين العنصرين، وفى الفضة يكون العنصران متساويين فى الوزن، أما النحاس ففيه من العنصر الأرضى أكثر مما فى الفضة والحديد والرصاص، والقصدير فيه من ذلك العنصر أقل مما فى الفضة. ولما كانت المعادن مكونة من مقومات مشتركة، فإن تحويل بعضها إلى بعض يصبح أمرا مستطاعا، وعندما يقوم الكيميائى بهذا التحويل، فإنه يؤدى فى وقت قصير ما تؤديه الطبيعة فى وقت طويل[2].

ولقد توصل جابر إلى نظريات تثبت عبقريته، منها النظرية التى تقول بأن الاتحاد الكيميائى يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة مع بعضها البعض، ونظرية جابر هذه لا تختلف كثيرا عن النظريات الذرية التى وضعت بعد ذلك بألف عام.

لقد تُرجمت كتب جابر إلى اللاتينية، وظلت أهم مرجع فى علم الكيمياء زهاء ألف عام، وكانت مصنفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، ومنهم من أنصف جابر، وأشاد بأعماله، ومنهم من أثار الشك والريبة حول جهوده، بل أنكر وجوده أصلا، وقالوا: لا يمكن أن تكون كتب جابر وما تحويه من معلومات قيمة من وضع رجل عاش فى القرن الثانى الهجرى[3].

والحق أن جابر - كيميائى العرب الأول - فهو أول من بحث فى علم الكيمياء، ونال التقدير والمكانة اللائقة به وبعلمه وقال عنه القفطى: كان متقدما فى العلوم الطبيعية

(١) منتصر: المصدر السابق ص١٦٣-١٦٤.

(٢) زكى بخيب محمود: جابر بن حيان ص٤٥-٤٦.

(٣) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٢٢٣.

بارعا فيها وفى صناعة الكيمياء. وله فيها تآليف كثيرة، ومصنفات مشهورة لا يقبل تعليم أحد الكيمياء إلا إذا اطمأن إليه اطمئنانا كاملا على مقدرته العلمية وحسن استعداده، وعلى حد قوله: اعلم أن من المفترض علينا كتمان هذا العلم، وتحريم إذاعته لغير المستحق من بنى نوعنا؛ وألا نكتمه عن أهله[١]؛ لأن وضع الأشياء فى مجالها من الأمور الواجبة، ولأن فى إذاعته خراب العالم وفى كتمانه تضييعا له. ويذكرون أن الكيمياء عناء الدهر[٢].

وينسب إلى جابر بن حيان عدد كبير جدا من الكتب والرسائل يدور كثير منها حول الكيمياء والرسائل التى يستطيع بها الكيمياوى أن يبدل طبائع الأشياء تبديلا يحولها بعضها إلى بعض. وذلك إما بحذف بعض خصائصها أو بإضافة خصائص جديدة إليها، لأنه إن كانت الأشياء كلها ترتد إلى أصل واحد، كان تنوعا راجعا إلى اختلاط فى نسب المقادير التى دخلت فى تكوينها، فليس الذهب مثلا يختلف عن الفضة فى الأساس والجوهر، بل هما مختلفان فى نسبة المزج، فإما زيادة هنا أو نقصان هناك. وواجب الكيميائى تحليل كل منهما تحليلا يهديه إلى تلك النسبة، كما هى قائمة فى كل منهما[٣].

وكان ابن حيان يرى أن العالم فى استطاعته أن يجاوز الطبيعة إلى ما وراءها بالبحث العلمى المجرد، وهذا ييسر له استخراج كوامن الطبيعة، ففى وسع الباحث العلمى أن يلتمس طريقه إلى تحقيق غايته فى الوصول إلى الحقيقة العلمية.

والواقع أن جابر ينفرد أو يسبق غيره فى المنهج العلمى، فهو حريص على أن يقصر نفسه على مشاهداته المستندة إلى التجربة التى تثبت صحتها، وكان لا يعتمد على أقوال الغير إلا إذا كانوا معتمدين على التجارب العلمية، أو مشهودا لهم بالأمانة العلمية.

ويرى جابر أن العالم يجب أن يكون مثابرا فى جهوده العلمية التى تهدف إلى

(١) المصدر السابق ص٢٢٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص٢٢٣.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة جابر بن حيان.

الكشف عن الحقيقة مهما كلفه هذا البحث من عناء وجهد، ويؤكد ابن حيان أنه لا نجاح فى عمل علمى إلا إذا كان مسبوقا بعلم يتبعه التجربة ثم التطبيق(١).

ويرى جابر أن أول ما كان فى الأزل، هو العناصر الأولية الأربعة: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، فهذه هى أوائل الأمهات البسائط، كما يسميها، ثم طرأت على هذه البسائط حركة وسكون، فتكوّن منها تراكيب منوعة، ولولا الحركة والسكون لظلت تلك الأصول الأولى مستقلا بعضها عن بعض، كل منها خالص لنفسه.

ومن هذه الأصول الأربعة الأولى الحرارة واليبوسة والبرودة والرطوبة، نشأت أربعة عناصر، وذلك باجتماع تلك الأصول بعضها ببعض، اثنين اثنين. اجتماع الحار واليابس تنشأ النار، واجتماع الحار والرطب ينشأ الهواء، واجتماع البارد واليابس تنشأ الأرض، واجتماع البارد والرطب ينشأ الماء. وفصول السنة أربعة تقابل تلك العناصر الأربعة، فالصيف يقابله النار، والربيع يقابل الهواء، والشتاء يقابل الماء، والخريف يقابل الأرض(٢).

وجابر بن حيان ميوله الشيعية ظاهرة فى مؤلفاته، فيشير إلى أن مفاتيح العالم اليونانى فى أيدى الأئمة المعصومين من ذرية على بن أبى طالب.

وبعد دراسته لتاريخ الدين يتناول الكيمياء ثم الطب ثم الفلك ثم السحر (الطلمسات) وعلم الخواص، أى القوى الباطنة فى بطون الأشياء الطبيعية، وعلم الكون، أى تكوين الأحياء بطرق صناعية.

وترجع أهمية كتب جابر إلى أنه يأخذ من كتب علماء اليونان التى اندثرت مثل أفلاطون وأرسطو وجالينوس وإقليدس وبطليموس وأرشميدس وغيرهم، ويأخذ عن ترجمات حنين بن إسحاق وأبوه وتلاميذهما.

وفى أسواق بغداد كان جابر يملى على تلاميذه ما يجب للأستاذ على التلميذ، وهو أن يكون التلميذ لينا متقبلا لجميع أقواله من جميع جوانبه، لا يعترض فى أمر من الأمور، فإن ذخائرالأستاذ العالم لا يظهرها للتلميذ إلا عند السكون إليه، ولست أريد

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص ٤٠٠.

(٢) القفطى: مصدر سابق ص ٧٤.

بطاعة التلميذ للأستاذ أن تكون فى شئون الحياة الجارية، بل أريدها طاعة فى قبول تعلم الدرس.

وما يجب على التلميذ للأستاذ أن يمتحن الأستاذ توجيه المتعلم، أى جوهر المتعلم الذى طُبع عليه، ومقدار ما فيه من القبول والإصغاء، وقدرته على حفظ ما تعلمه، فإذا وجد الأستاذ من التلميذ قبولا أخذ يسقيه أوائل العلوم التى تتناسب مع قدراته على القبول ومع سنه، وكلما احتمل الزيادة زادت مع امتحانه فيما كان قد تعلمه، فإذا بلغ التلميذ مرتبة الأستاذ أصبح من واجبه أن يعلمه، فإذا لم يفعل ذكر أستاذه ويقول: ويجب أن نذكر فى كتبنا خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو ما قيل لنا وقرأناه بعد أن امتحناه وجربناه، فما صح أوردناه، وما بطل رفضناه.

وكان الكيميائى صيدلانيا، ولكن جابر تخصص فى الكيمياء فقط وهو الواضع للقواعد العلمية لعلم الكيمياء، وله تلاميذ عديدون، كتبوا كل أقواله فى كتب، ونسبوها إليه ومن نصائحه:

تجنب المستحيل وما لا فائدة منه.

اختر للتجربة الوقت الملائم.

كن صبورا ومثابرا ومتحفظا وصامتا.

لا تصدق إلا من تثق به.

لا تغتر بالظواهر التى قد تؤدى إلى فشل تجاربك.

من أهم كتب جابر «نهاية الإتقان ـ الرحمة ـ التجريد ـ الميزان ـ رسالة فى الأقران»(١).

ويعتقد جابر أن لكل عنصر روح كالإنسان والحيوان والنبات، وأن طبائع العنصر قابلة للتبديل، وإذا كان العنصر أقل صفاء، كلما كان أقل تأثيرا، وكذلك يمكن جعل العنصر قوى التأثير بتصفيته من العناصر الممزوجة به، ويرى أن الذهب والفضة من أصفى المعادن، لذلك عندما تستخرج روح أى منهما، وتعالج بها أى معدن آخر، ينقلب هذا المعدن إلى ذهب أو فضة.

---

(١) رسائل إخوان الصفا جـ٢ ص٨٧.

ومن الكيميائيين المسلمين، أبو بكر الرازى الذى قسم المواد الكيماوية إلى أربعة أقسام أساسية، هى المواد المعدنية والمواد النباتية والمواد الحيوانية، والمواد المشتقة،كما قسم المعادن إلى ست طوائف هى الأرواح، وهى المواد المتبخرة والأجساد وهى الفلزات والأحجار وهى الشب والجص والزجاج وغيرها، والزاجات مثل الزجاج، والبوارق وهى النطرون وأخيرا الأملاح، وتكلم عن خواص هذه المواد وتفاعلاتها مع بعضها البعض. وهو أول من قال: إن زيت الزاج يستخرج بتقطير كبريت الحديد، وأن الكحول يستخرج بتقطير المواد السكرية أو اللبنية المختمرة.

وكان لا كتشاف الزاج (حامض الكبريتيك) والكحول أثر كبير فى تقدم علم الكيمياء، بل وفى الصناعة كلها؛ لأنه لا غنى عن الواحدة للأخرى. ومن كتبه «الأسرار» واختصره فى كتاب «سر الأسرار».

علوم الفلك والحيوان والنبات والموسيقا

ينظر علم الفلك فى حركات الكواكب الثابتة والمتحركة، ويستدل من ذلك الحركات على أشكال وأوضاع الأفلاك، لزمت منها الحركات المحسوسة بطرق هندسية، وكان اليونان يعنون بالرصد كثيرا، ويتخذون منه الآلات التى توضع، لترصد بها حركات الكواكب، بقصد معرفة عملها، والبرهنة على مطابقة حركاتها بحركة الفلك(١).

عنى أهل المشرق برصد الكواكب والنجوم، وتُرجم منذ بداية العصر العباسى الأول كتب الفلك من السريانية واليونانية إلى العربية وترجم كتاب «السند هند» إلى العربية، وظل هذا الكتاب، مصدرا هاما لعلماء الفلك فى المشرق، واختصره الخوارزمى، وأضاف إليه إضافات من مصادر فارسية ويونانية، وضم إليه فصولا مفيدة، واعتمد علماء الفلك فى المشرق على دراسات بطلميوس فى النجوم وأحكامها، وشُغف الناس بمعرفة الأخبار عن طريق النجوم(٢).

---

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٤٠٠-٤٠١.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٢٨٣.

صحح المسلمون الكثير من المعلومات الإغريقية، وقالوا بدوران الشمس والقمر والنجوم حول الأرض، وأن القمر أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض، ويليه الكواكب الأخرى، كما قاسوا أجرام الشمس والقمر والنجوم بطرق هندسية، وأُجريت حسابات دقيقة فى الفلك، وتتضمن المراصد آلات الإسطرلاب الذى يقيس ارتفاعات الكواكب من الأفق، وتغيير الزمن، وحل كثير من المسائل الفلكية، ووضعوا الجداول الفلكية، وتشمل قوانين رياضية فيما يختص بكل كوكب(١).

ومن علماء الفلك فى المشرق، جابر بن حيان، اهتم بدراسة الفلك، وتوصل إلى أن الكواكب السبعة تختلف، فى مقدار الحرارة التى تستمدها من الشمس، باختلاف قربها أو بعدها عنها، فالشمس هى التى تمد الكواكب كلها بالحرارة والنور، والشمس وسط بين الكواكب، لذلك تصل حرارتها إلى الكواكب كلها، وعلى قدر القرب أو البعد من الشمس، تكون حرارة الكوكب، ودرس جابر بن حيان كل كوكب من حيث ظواهره الطبيعية وخصائصه، كما درس خصائص النجوم (٢).

وصنف الخوارزمى فى كتابين فى الإسطرلاب، تناول فيهما مسائل فى التنجيم، وأعد مجموعة من صور السماوات والعالم، ومن هذه الصور صورة الأرض.

ومن علماء الفلك فى المشرق جعفر بن عمر البلخى، ومن كتبه «إثبات العلوم»- و«هيئة الفلك».

وأقام أمراء وسلاطين المشرق الإسلامى، المراصد الفلكية، وساعدت هذه المراصد، علماء الفلك على دراسة موضوعاتهم، وتمكن علماء الفلك من ضبط الأبعاد، وتحديد حركات النجوم بدرجة دقيقة ولاتزال معظم مجموعات النجوم، تحتفظ بأسمائها العربية، وتوصل علماء الفلك إلى معرفة محيط الكرة الأرضية ونصف قطرها وعرفوا مقياس خط النهار، وكشفوا الاختلاف الثالث فى سير القمر واستدركوا الكثير من الأخطاء التى وقع فيها اليونان، وقاس ثابت بن قرة، محيط الكرة الأرضية.

والزيج، أى الجدول الفلكى الذى وصفه ابن يونس - من أهل القرن الرابع الهجرى - كان من أهم الجداول الفلكية التى اعتمد عليه الفلكيون والزيج جداول فلكية،

(١) عصام الفقى: الحواضر الإسلامية ص٣٨٨.

(٢) الفندى: الله والكون ص٩٣.

يستدل بها على حركة الكواكب السيارة، واتخذت أرصاده أساسا لتحديد جاذبية الأرض والظواهر الفلكية كالخسوف والكسوف، وهو الذى اخترع بندول الساعة الدقاقة[١].

ومن علماء الفلك، محمد بن جابر البتانى (ت ٣١٩هـ)، وضع الزيج الصابى، الذى أثبت فيه الكواكب الثابتة، ومن أشهر كتبه «معرفة مطالع البروج فيما بين أزياج الفلك»[٢].

واتخذ كل أمير وسلطان فى المشرق منجم خاص يخبره بأيام السعد والنحس ويتنبأ له بالأحداث، على الرغم من كذب المنجمين ولو صدقوا. ولكن الإنسان بطبعه يتطلع إلى معرفة المجهول؛ لأنه غامض بالنسبة له.

ومن أشهر المنجمين فى الدولة الإسلامية، عمر الخيام، وهو واضع الزيج الجلالى، نسبة إلى السلطان السلجوقى ملكشاه الذى كان نديما له وذاع صيته فى المشرق الإسلامى. وعلى الرغم من تنبؤات عمر الخيام عن طريق النجوم، إلا أنه كان لا يؤمن بالتنجيم. ولا ينبغى للمنجم أن يمعن فى التنجيم. وهناك فرق بين دراسة الفلك والتنجيم، الفلك دراسة علمية، والتنجيم لا يقوم على أساس علمى[٣].

وجه السلطان السلجوقى ملكشاه الدعوة إلى عدد من علماء الفلك برئاسة عمر الخيام ودعاهم إلى إصلاح التقويم، فأخرجوا التقويم الجلالى، الذى يبدأ من يوم النيروز، ١٦ مارس ١٠٧٩م - ١٠ رمضان ٤٧١هـ، ولا يزال مبدأ هذا التقويم عيدا عند الفرس إلى يومنا هذا.

وارتفعت مكانة المنجمين فى قصور الأمراء والسلاطين، يخبرونهم بالأحداث الهامة، فكان قتلمش السلجوقى فى حروبه مع منافسيه يستطلع آراء المنجمين وتنبؤاتهم، ولا يخرج فى الحروب أيام النحس، وكان الوزير نظام الملك يثق فى عمر الخيام، واستطلع هولاكو رأى المنجمين، حين شرع فى غزو بغداد، وحين اعتزم المسير إلى مصر. حيث نشبت معركة عين جالوت بين المصريين والمغول[٤] سنة ٦٥٨هـ. ومن أبرز

(١) العروضى السمرقندى: جهاد مقاله ص٧٠.

(٢) القفطى: المصدر السابق ص٢١٣.

(٣) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٣٩٤.

(٤) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٥٠١.

علمـاء الفلك فى عصـر المغـول، نصيـر الدين الطوسى (ت ٦٧٥هـ) وهو من علمـاء الفلسفة والحكمة، كان له مرصد فى مـراغة، وله تلاميذ يلازمونه، لتعلم الفلك وفروع الحكمة، وكان يتولى الإشراف على الأوقاف فى إمبـراطورية المغول، وله تصانيف كثيرة فى الفيزياء والطب والأخلاق والفلك والحكيـمين أفلاطون وأرسطو، وفى مؤلفاته ينقد آراء الفلاسفة الأوائل(١).

كذلك درس أهل المشرق علم الفـيزياء، واستفادوا من دراسـات اليونان وقد تأثر ابن سينا بأقوال إخوان الصفا فى الفيزياء.

وقال بأن العلم الطبـيعى، يتكون من الأجسام الموجـودة، من حيث هى متـغيرة ومتـحركـة، ويقول بأن وجود الأجـسام ناتج من تلازم المادة والصـورة. واستـفاد أهل المشرق من دراسات ابن الهيثم فى البصريات والضوء. ولم يعرف أهل المشرق ابن الهيثم فى الضوء إلا بفضل دراسات قطب الدين بن مسعود الشيرازى (ت ٧١١ هـ-١٣١١م)، وعلل نشأة قـوس قزح تعليلا دقـيقا، وقـال بأنه ينشأ من سـقوط أشعـة الشمس على قطيرات ماء فى الجو، كـما أن كمال الدين بن الحسن الفارسى تلميـذ الشيرازى، شرح كتاب المناظر لابن الهيثم واختصـره، وشرح انعكاس الضوء وانكساره عند ملاقاته لجسم كروى، ومنها تعليله لقوس قزح، ومنها الغرفة المظلمة السوداء.

كـذلك درس المسلمون فى المشـرق علوم الحـيوان والنبـات، ومن علماء النبـات والحيوان، زكريا بن مـحمد بن محمود القزوينى، نشـأ فى قزوين وهو من أصل عربى من سـلالة الإمـام مالك بن أنـس، وتوفى سنة٦٨٢هـ وهو عـالم فى التـاريخ والفلك والنبات والحيوان. ومن كتبه «عجـائب المخلوقات». وصـف فيه الحيوانات، واستدل من وصفها على قدرة الله(٢). وكتب أبو حنيفـة الدينورى كتابا جامعا شـاملا عن النبات، وذكر فيه عددا من النباتات باللغات الآرامية والفـارسية والعربية، وذكر أوصافها وبعض النباتات فى بعض البلدان وأوضح خصـائصها وفوائدها، وما قيل عنهـا وكُتب عنها فى كتب اللغـة. وقد اعتـمد الأطبـاء والعشابون على هذا الكـتاب فى تركيـبات الأدوية، واعتمد عليه علماء اللغه(٣).

(١) عصام الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى ص٣٨٢.

(٢) زكى نجيب محمود: المصدر السابق ص١٨٧.

(٣) القفطى: المصدر السابق ص٢٢٥.

ودرس جابر بن حيان، الحيوان والنبات، وقسم الحيوان إلى أربعة أقسام، نفس وجوهر وحرارة وبرودة ورطوبة محصورة، كلها فى مكان وزمان، والإنسان يزيد عن أنواع الحيوانات الأخرى بما خصه الله من عقل[1].

ويقول جابر بن الحيان عن النبات: إنه يختلف عن الحيوان فى شيئين هما العقل والنفس، ويقارن بين الحيوان من حيث تركيب كل منهما، ويوازن بين الحيوان والنبات من حيث الطبائع.

ويقول القزوينى فى كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»: مامن حيوان صغير أو كبير إلا فيه من العجائب مالا يحصى، وما فى هذا الكتاب، إما عجائب من صنع البارى من محسوس أو معقول لا ميل فيها ولا خلل، وإما خواص غريبة لايمكن معرفتها بسهولة، وتكلم عن خصائص النباتات وأصنافها وأوصافها.

ولعلماء المشرق دراسات متعددة ومتنوعة فى فروع العلم، ومن الكتب القيمة التى صدرت فى القرن الرابع الهجرى، كتاب «مفاتيح العلوم» لمحمد بن أحمد الخوارزمى، كتب فيه عن منهج دراسة العلوم المختلفة، الدينية واللغوية، والعلمية والتجريبية، والنقاط التى يتضمنها كل علم من العلوم، وأهمية كل علم من العلوم. وعلى دارسى كل علم - فى رأيه - أن يضيف جديدا من خلال دراسته، ويجدد دراسة السابقين له.

الموسيقا

اهتم أهل المشرق بالموسيقا، ونقلوها إلى سائر الدول الإسلامية، وساعد على ازدهار انتشار الجوارى اللاتى يتقن الغناء بأطيب الألحان، وألف ابن خرداذبة كتابا فى اللهو والأغانى، وألف الفارابى كتاب الموسيقا الكبير، وكذلك ابن سينا، وتعددت كتب الموسيقا فى المشرق، ووضع إبراهيم الموصلى، وابنه إسحاق الموصلى كتبا قيمة فى الموسيقا.

وكثرت المناقشات فى الموسيقا والإيقاعات واستعمال الآلات والأصابع على الآلات، وابتداع الألحان وتطبيقها، وشاع استعمال الأعواد والطنبور والمزامير والطبل والدف[2].

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأدباء ص٦٠٢.

(٢) فارمر: تاريخ الموسيقا العربية ص١٢٧-١٢٨-١٤٢.

وأقبل النـاس على استمـاع الغناء حتى أصبح من الضرورات اليـوميـة، وكانت الجوارى تتعـلم الألحان على كبار الموسـيقيين. وتقام الاحـتفالات الغنائية فى مـناسبات الزواج والأعياد والحفـلات الخاصة والعامة، وكانت الجـوارى اللاتى يتقن الغناء بأحسن الألحان، تباع بأغلى ثمن.

والخلاصة: إن أهل المشرق الإسلامى أقبلوا على دراسة العلوم بشغف شديد، ولم يتركوا علما إلا وتدارسوه، وأقبل الطلاب على طلب العلم، والناس على اقتناء الكتب، وقام العلماء بالتدريس فى المساجد والمدارس، وصنفوا المصنفات القيمة فى مختلف فروع العلم، فى علوم الدين والأدب واللغـة والتاريخ والجـغرافـيا والفلسفـة والكلام والطب والرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والموسيقى وغير ذلك. ولا يمكن حصر المؤلفات التى كتبـها علماء المشرق لكثرتها، وبعض هذه المصنفـات بالعربية وبعضها بـالفارسية. والتراث الإسـلامى الذى تركه لنا علماء الإسـلام، يتضمن فى أغلبـه كتبـا من المشرق الإسلامى الذى أفاد الثقافة الإنسانية، وأضاف إلـيها إضافات هامة جدا. وانتقل التراث المشرقى الإسلامى إلى العـراق، ومن العراق إلى مصر، وعـبر المغرب والأندلس. ومن الأندلس إلى أوربا، حـيث أقام الأوربيـون نهـضتـهم الحديثـه مـتأثرين بكتب المشـرق الإسلامى، وكتب الإسلام الأخرى. ظلت كتب الرازى وابن سينا وابن الهيثم وجابر بن حـيان تدرس فى الجـامعـات الأوربية طوال العـصور الوسطى، وترجـمهـا الأوربيون ودرسوها وقدروها، واتخذوها أساسا لنهضتهم الثقافية.

ومما يجدر ذكره أن ثقافة وعلوم المشرق، كانت تنقل بسرعة إلى المغرب الإسلامى (شمـال إفريقيـا والأندلس)، فضلا عن مـصر والشـام والعراق واليمن والحـجاز، لأن القوافل التـجارية كانت تتـضمن كتبـا تحمل من المشرق إلى المغـرب، ومن المغرب إلى المشرق، وهذا أدى إلى وحدة الثقافة الإسلامية، فالعلماء والطلاب، يجدون فى دكاكين الوراقين كتب المشـرق والمغرب، والدليل على ذلك أن كتب الغزالى عـرفت فى المغرب والأندلس، وكتـاب الأغانى عـرف فى المغرب والأندلس، وكتـاب العقـد الفريد لابن عبدربه، عرف فى المشـرق، وظهر فى مكتبات الرى ونيسابور. وكـتب الطب والكيمياء والفلك والفيزياء التى صُنفت فى المشرق، ظهـرت فى مكتبات المغرب والأندلس والشام ومصر والعراق، أى أن علوم الإسلام انتـقلت إلى بلاد الإسلام، ودرسها المسلمون فى كل بلد.

✲ ✲ ✲

لعب المشرق الإسلامى دورا هاما ورئيسيا فى تبادل الحضارات مثل الهند والصين ودولة الإسلام الكبرى، فعن طريق بلاد ما وراء النهر، انتقلت الديانة البوذيه من الهند إلى الصين، وانتقل الإسلام عن طريق المشرق الإسلامى إلى الهند، وإلى الصين، وحدث تبادل بين هذ الحضارات فالصناعة الصينية والفن الصينى، انتقلا إلى بلاد الإسلام عن طريق المشرق، خصوصا الفنون الصينية المزدهرة، وبضائع وسلع الهند الرئيسية التى يحتاج إليها العالم انتقلت إلى دولة الإسلام عبر المشرق الإسلامى، ومن دول الإسلام إلى الصين، وبعض السلع الرئيسية مثل الورق والحرير والمعادن، انتقلت من الصين إلى بلاد الإسلام عن طريق المشرق.

وتكلم أهل المشرق باللغات العربية والفارسية والتركية، وعن طريق المشرق ازدهر الأدب التركى فى البلاد التركية وصُنف لخان كاشغر كتاب باللغة التركية يسمى «قوتار نحو بيليك» ومعناه طريق السعادة، ووُجدت أشعار هذا المؤلف، منقوشة على زهرية.

على أن المثقفين الترك فى آسيا الصغرى وفى تركستان اعتمدوا على الأدب التركى المشتق من الأدب الفارسى، ورغب الترك في المشرق الإسلامى فى دراسة الشاهنامه للفردوس.

وتبادل الحضارات والثقافات بين الهند والصين وبلاد الإسلام فى المشرق، كان له أثره فى تقوية الثقافات الإسلامية المشرقية، وبالتالى الثقافة الإسلامية، لأن الحضارة أخذ وعطاء، والحضارات يمكن أن تكمِّل بعضها، وتعوِّض ما قد فات عليها، ومن هنا كانت حضارة المشرق الإسلامى، خلاصة حضارات الهند والصين والعرب والفرس والترك.

✲ ✲ ✲

الملاحق:

الجداول

المصادر والمراجع

خلفاء العصر العباسى الثانى

(٢٣٢ - ٤٤٧/٨٤٧-١٠٥٥)

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١- المتوكل	٢٣٢	٨٤٧	٢٨- المستظهر	٤٨٧	١٠٩٤
٢- المنتصر	٢٤٧	٨٦١	٢٩- المسترشد	٥١٢	١١١٨
٣- المستعين	٢٤٨	٨٦٢	٣٠- الراشد	٥٢٩	١١٣٥
٤- المعتز	٢٥٢	٨٦٦	٣١- المقتفى	٥٣٠	١١٣٦
٥- المهتدى	٢٥٥	٨٦٩	٣٢- المستنجد	٥٥٥	١١٦٠
٦- المعتمد	٢٥٦	٨٧٠	٣٣- المستضىء	٥٦٦	١١٧٠
٧- المعتضد	٢٧٩	٨٩٢	٣٤- الناصر	٥٧٥	١١٨٠
٨- المكتفى	٢٨٩	٩٠٢	٣٥- الظاهر	٦٢٢	١٢٢٥
٩- المقتدر	٢٩٥	٩٠٨	٣٦- المستنصر	٦٢٣	١٢٢٦
١٠- القاهر	٣٢٠	٩٣٢	٣٧- المستعصم	٦٤٠/	١٢٤٢/
١١- الراضى	٣٢٢	٩٣٤		٦٥٦هـ	١٢٥٨
١٢- المتقى	٣٢٩	٩٤٠			
١٣- المستكفى	٣٣٣	٩٤٤			
١٤- المطيع	٣٣٤	٩٤٦			
١٥- الطائع	٣٦٣	٩٧٤			
١٦- القادر	٣٨١	٩٩١			
١٧- القائم	٤٢٢	١٠٣١			
١٨- المقتدى	٤٦٧	١٠٧٥			

الدولة الطاهرية

١ طاهر بن الحسين ٢٠٥ هـ ٨٢١م

٢ طلحة بن طاهر ٢٠٧ هـ ٨٢٢م

٣ عبدالله بن طاهر بن الحسين ٢١٣هـ ٨٢٨م

٤ طاهر بن عبدالله ٢٣٠هـ ٨٤٤م

٥ محمد بن طاهر ٢٤٨٠ ـ ٢٥٩ هـ ٨٦٢ ـ ٨٧٣م

الصفاريون

١ ـ يعقوب بن الليث ٢٥٤هـ ٨٦٨م

٢ ـ عمرو بن الليث ٢٦٥هـ ٨٧٩م

٣- طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ٢٨٧ ـ ٢٩٦هـ ٩٠٠ ـ ٩٠٨م

العلويون فى طبرستان وبلاد الديلم

١ ـ الحسن بن زيد ٢٥٠هـ ـ ٨٦٤م

٢ ـ محمد بن زيد ٢٧٠هـ ٨٨٤م

٣ ـ الناصر حسن بن الأطروش ٣٠١هـ ـ ٩١٣م

٤ ـ الحسن بن القاسم ٣٠٤ ـ ٣٦٦هـ ٩١٦ ـ ٩٧٦م

١ - فى فارس

	هجرية	ميلادية
١- عماد الدولة (أبو الحسن على)	٣٢٠	٩٣٢
٢- عضد الدولة (أبو شجاع خسرو)	٣٣٨	٩٤٦
٣- شرف الدولة (أبو الفوارس شيرزاد)	٣٧٢	٩٨٢
٤- صمصام (أبو كالينجار المرزبان)	٣٧٩	٩٨٩
٥- بهاء الدولة (العراق)	٣٨٨	٩٩٨
٦- سلطان الدولة (أبو شجاع)	٤٠٣	١٠١٢
٧- عماد الدولة (أبو كاليجار المزربان)	٤١٥	١٠٢٤
٨- أبو نصر خسرو (فيروز الرحيم)	٤٤٠ - ٤٤٧	١٠٤٨ - ١٠٥٥

* (هذه العلامة تدل على أنه كان يحكم بلاد العراق أيضا)

٢ - فى العراق والأهواز وكرمان

	هجرية	ميلادية
١- معز الدولة (أبو الحسن أحمد)	٣٢٠	٩٣٢
٢- عز الدولة (بختيار)	٣٥٦	٩٦٧
٣- عضد الدولة (فى فارس)	٣٦٧	٩٧٧
٤- شرف الدولة (فى فارس)	٣٧٢	٩٨٢
٥- بهاء الدولة أبو نصر (فيروز)	٣٧٩	٩٨٩
٦- سلطان الدولة (فارس)	٤٠٣	١٠١٢

السامانيون

نصر الأول بن أحمد	٢٦١هـ- ٨٧٤م
إسماعيل بن أحمد	٢٧٩هـ- ٨٩٢م
أحمد بن إسماعيل	٢٩٥هـ - ٩٠٧م

نصر الثانى بن أحمد	٣٠١هـ - ٩١٣م
نوح الأول بن نصر	٣٣١هـ - ٩٤٣م
عبدالملك الأول بن نوح	٣٤٣هـ - ٩٥٤م
منصور الأول بن نوح	٣٥٠هـ - ٩٦١م
نوح الثانى بن منصور	٣٦٦هـ - ٩٧٧م
منصور الثانى ابن نوح الثانى	٣٨٧هـ - ٩٩٧م
عبدالملك الثانى بن نوح الثانى	٣٨٩هـ - ٩٩٩م

(ثم ولى خانات تركستات والغزنومون)

الغزنويون

بنو ألب تكين

ألب تكين	٣٥١هـ - ٩٦٢م
إسحاق (أبو إسحاق)	٣٥٢هـ - ٩٦٣م
بلكاتكين	٣٥٥ هـ- ٩٦٦م
بيرى	٩٦٢هـ - ٩٧٢م

بنو سبكتكين

ناصر الدين سبكتكين	٣٦٦هـ - ٩٧٧م
إسماعيل	٣٨٧هـ - ٩٩٧م
يمين الدولة محمود	٣٨٧هـ - ٩٩٧م
جلال الدولة محمد	٤٢١هـ - ١٠٣٠م
نصير الدولة مسعود الأول	٤٢١هـ - ١٠٣٠م
جلال الدولة محمد (مرة ثانية)	٤٣٢هـ - ١٠٤٠م
شهاب الدولة مودود	٤٣٢هـ - ١٠٤١م
مسعود الثانى	٤٤١هـ - ١٠٤٩م
بهاء الدولة على أبو الحسن	٤٤١هـ - ١٠٤٩م

مجد الدولة عبدالرشيد	٤٤١هـ - ١٠٤٩م
طغرل (مغتصب)	٤٤٤هـ - ١٠٥٢م
سيف الدولة فرخزاد	٤٤٤هـ - ١٠٥٣م
ظهير الدولة إبراهيم	٤٥١هـ - ١٠٥٩م
علاء الدولة مسعود الثالث	٤٩٢هـ - ١٠٩٩م
كمال الدولة شيرزاد	٥٠٨هـ - ١١١٤م
سلطان الدولة أرسلان شاه	٥٠٩ ـ ٥١٢هـ- ١١١٥-١١١٨م
يمين الدولة بهرام شاه	٥١١هـ - ١١١٨م
معز الدولة خسروشاه	٥٤٧هـ - ١١٥٢م
تاج الدولة خسرو ملك (أو ملكشاه)	٥٥٥ ـ ٥٧٩هـ - ١١٦٠م

[ثم ولى الغوريون]

١٠٨. سلاجقة خراسان

٤٣٢ ـ ٥٥٢هـ السلاجقة العظام ١٠٤٠ ـ ١١٥٧م

ركن الدين أبو طالب طغرل بك(١)	٤٣٢هـ - ١٠٤٠
عضد الدين أبو شجاع ألب آرسلان	٤٥٥هـ- ١٠٦٣
جلال الدين أبو الفتح ملكشاه الأول	٤٦٥هـ - ١٠٧٢
ناصر الدين محمود	٤٨٥هـ - ١٠٩٢
ركن الدين أبو المظفر بركيارق	٤٨٧هـ - ١٠٩٤
جلال الدولة ملكشاه الثانى	٤٩٨هـ - ١١٠٤
غياث الدين أبو شجاع محمد(٢)	٤٩٨هـ - ١١٠٥
معز الدين أبو الحارث سنجر	٥١١ ـ ٥٥٢هـ - ١١١٧ ـ ١١٥٧

[ثم ولى الخوارزمشاهيون]

١٠٩ - سلاجقة كرمان

٤٣٣ ـ ٥٨٣هـ ١٠٤١ ـ ١١٨٧م

عماد الدين قرا أرسلان قاورت (أوقاورد) بك ٤٣٣هـ - ١٠٤١م

كرمان شاه(٣) ٤٦٥هـ - ١٠٧٣م

حسين ٤٦٧هـ - ١٠٧٤م

ركن الدين سلطان شاه ٤٦٧هـ - ١٠٧٤م

عماد الدولة توران شاه (٤) ٤٧٧هـ - ١٠٨٥م

بهاء الدولة إيران شاه ٤٩٠هـ - ١٠٩٧م

أرسلان شاه الأول ٤٩٤هـ - ١١٠١م

مغيث الدين أبو الفوارس محمد الأول ٥٣٧هـ - ١١٤٢م

محيي الدين طغرل شاه(١) ٥٥١ ـ ٥٦٥هـ - ١١٥٦ ـ ١١٦٩م

بهرام شاه

٥٦٥ أرسلان شاه الثانى ١١٦٩

توران شاه الثانى(٢) كانوا متنافسين

٥٨٣ محمد الثانى(٣) ١١٨٧

[ثم استولى تركمان الغز]

١١٠ ـ سلاجقة الشام أو (سورية)

٤٨٧ ـ ٥١١ هـ ١٠٩٤ ـ ١١١٧م

تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان(٤) ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م

رضوان بن تتش ٤٨٨هـ- ١٠٩٥م

(دقاق بن تتش فى دمشق ٤٨٨هـ ـ ٤٩٧م)

ألب أرسلان الأخرس بن رضوان ٥٠٧هـ - ١١١٣م

سلطان شاه بن رضوان ٥٠٨ ـ ٥١١هـ - ١١١٤ ـ ١١١٧م

[ثم ولى البوريون وبنو أرتق]

١١١. سلاجقة العراق

٥١١ _ ٥٩٠ هـ ١١١٧ _ ١١٩٤م

مغيث الدين محمود	٥١١هـ	١١١٧
غياث الدين داود	٥٢٥هـ	١١٣١
غياث الدين مسعود	٥٢٦هـ	١١٣٢
ركن الدين طغرل الأول	٥٢٦هـ	١١٣٢م
غياث الدين مسعود (مرة ثانية)	٥٢٩هـ	١١٣٥
معين الدين ملكشاه	٥٤٧هـ	١١٥٢
سلمان شاه	٥٥٤هـ	١١٥٩
أرسلان شاه	٥٥٦هـ	١١٦١
طغرل الثانى	٥٧٣ _ ٥٩٠هـ	١١٧٧ _ ١١٩٤

(ثم ولى الخوارزمشاهيون)

١١٢. سلاجقة الأناضول

٤٨٠ _ ٨٠٨ هـ ١٠٧٧ _ ١٣٠٨م

سليمان بن قتلمش	٤٧٠هـ	١٠٧٧م
شغور (داود بن سليمان) (١)	٤٧٩هـ	١٠٨٦م
قليج أرسلان الأول	٤٨٥هـ	١٠٩٢م
ملكشاه	٥٠٠؟	١١٠٧م
ركن الدين مسعود الأول	٥١٠	١١١٦م
عز الدين قليج أرسلان الثانى	٥٥١	١١٥٦م
غياث الدين كيخسرو الأول (المرة الأولى)	٥٨٨	١١٩٢م
ركن الدين سليمان الثانى	٥٩٣	١١٩٦

عز الدين قليج أرسلان الثالث ٦٠٠هـ- ١٢٠٣م

غياث الدين كيخسروا الأول (مرة ثانية) ٦٠١هـ - ١٢٠٤م

عز الدين كيكاوس الأول ٦٠٧هـ - ١٢١٠م

علاء الدين كيقباد الأول ٦١٦هـ - ١٢١٩م

غياث الدين كيخسرو الثانى ٦٣٤هـ - ١٢٣٦م

عز الدين كيكاوس الثانى (المرة الأولى)٦٤٤ ـ ٦٤٧ - ١٢٤٧ ـ ١٢٤٩

ركن الدين قليج أرسلان الرابع (المرة الأولى) ٦٤٦ ـ ٦٤٧ - ١٢٤٨ ـ ١٢٤٩

ركن الدين قليج أرسلان الرابع بالمشاركة ٦٤٧ ـ ٦٥٥ - ١٢٤٩ ـ ١٢٥٧

علاء الدين كيقباد الثانى

عز الدين كيكاوس الثانى (مرة ثانية) ٦٥٥ ـ ٦٥٨ - ١٢٥٧ ـ ١٢٦٤

غياث الدين مسعود الثانى (المرة الأولى) ٦٦٣ - ١٢٨٣

علاء الدين كيقباد الثالث ٦٩٨ ـ ٧٠١ ؟ - ١٢٩٨ ـ ١٣٠١؟

غياث الدين مسعود الثانى (مرة ثانية) ٧٠٢ ـ ٧٠٨ - ١٣٠٣ ـ ١٣٠٨

[ثم ولى المغول ملوك الطوائف ثم العثمانيون]

القا آنات (الخاقانات)

(الخانات العظام)

جنكيز خان ٦٠٣هـ - ١٢٠٦م

أوكتاى ٦٢٦هـ - ١٢٢٩م

شغور فى الحكم: توراكينا أرملة أوكتاى ٦٣٩هـ - ١٢٤١م

كيوك ٦٤٤هـ - ١٢٤٦م

منكو (منككا قا آن) ٦٤٩هـ - ١٢٥١م

خاقانات الصين

(دولة يوثن)

قوبلاى ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م

أولجايتو تيمور ٦٩٣هـ - ١٢٩٤م

كولوك ٧٠٦هـ - ١٣٠٧م

يويانتو ٧١٠هـ - ١٣١١م

كه كن ٧٢٠هـ - ١٣٢٠م

يسونن تيمور (أسن تيمور) ٧٢٣هـ - ١٣٢٣م

راجى بفا ٧٢٨هـ - ١٣٢٨م

كوشالا ٧٢٩هـ - ١٣٢٩م

جياغاتو ٧٢٩هـ - ١٣٣٢م

رينجن جال ٧٣٢هـ - ١٣٣٢م

طوغان تيمور ٧٣٣هـ - ١٣٣٢م

خاقانات بلاد المغول (خانات قراقروم)

أو

(الدولة المقتصرة)

بيليكتو ٧٧١ هـ - ١٣٧٠م

أوسوخال ٧٨٠هـ - ١٣٨٨م

أنكه سوريكتو ٧٩٠هـ - ١٣٩٢م

ألبك ٧٩٤هـ - ١٣٩٩م

كون تيمور ٨٠٢هـ - ١٣٩٩

أولجاى تيمور ٨١١هـ - ١٤٠٨

دلبك (قتل فى ٨١٧) ٨١٥هـ - ١٤١٢

آدساى ٨٣٧هـ - ١٤٣٩

تايسونغ ٨٤٣هـ - ١٤٣٩

أقبارجى ٨٥٦هـ - ١٤٥٢

أو ككتو ٨٥٧هـ - ١٤٥٣

مولون ٨٥٧ - ١٤٥٣

منداغول ٨٦٧هـ - ١٤٦٣

دايان خان ١٠٨٧٥هـ) - ١٤٧٠

الإيلخانيون

١ ـ هولاكو ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦م

٢ ـ آباقا ٦٦٣هـ - ١٢٦٥م

٣ ـ أحمد توكادار ٦٨٠هـ - ١٢٨٢م

٤ ـ أرغون ٦٨٣هـ - ١٢٨٤م

٥ ـ كيخاتو ٦٩٠هـ - ١٢٩١م

٦ ـ بايدو ٦٩٤هـ - ١٢٩٥م

٧ ـ غازان محمود ٦٩٤ هـ - ١٢٩٥م

٨ ـ أولجايتو ٧٠٣هـ - ١٣٠٤م

٩ ـ أبو سعيد بهادر ٧١٦هـ - ١٣١٦م

١٠ ـ آربا معز الدين ٧٣٦هـ - ١٣٣٥م

١١ ـ موسى ٧٣٦هـ - ١٣٣٦م

الخانات المتنافسون

١ ـ محمد ٧٣٦ هـ ١٣٣٦ م ـ ١٣٣٨م

٢ ـ طغاتيمور ٧٣٩ ـ ٧٥٢هـ ١٣٣٨ ـ ١٣٥١م

٣ ـ جهان تيمور ٧٣٩ ـ ٧٤١هـ ١٣٣٩ ـ ١٣٤١م

٤ ـ ساتى خاتون ٧٣٩ ـ ٧٤٠هـ ١٣٣٨ ـ ١٣٣٩م

٥ ـ سليمان ٧٤٠ ـ ٧٤٤هـ ١٣٣٩ ـ ١٣٤١م

أنو شروان ٧٤٤هـ - ١٣٤٤م

انظر زامبور، معجم الأنساب، وانظر أحمد السعيد سليمان معجم الأنساب والأسرات الحاكمة.

المصادر والمرجع

أولا : المراجع العربية:

١ ـ إبراهيم دسوقى شتا: ترجم وحقق، المثنوى، مولانا جلال الدين الرومى.

١ ـ ابن الأثيـــر (ت ٦٣٠هـ/ ١٣٣٨م) على بن أحـــمـد بن أبى الكرم «الـكامل فى التاريخ».

٢ ـ أحمد أمين: «فجر الإسلام» ـ «ضحى الإسلام» ـ «ظهر الإسلام».

٣ ـ أرنولد: «The preaching of Islam» ترجمة الأستاذ : حسن إبراهيم حسن باسم «الدعوة إلى الإسلام».

٤ ـ الأصفهانى: (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) أبو الفرج «كتاب الأغانى».

٥ ـ الإصطخـرى: (توفى فى النصف الأول من القـرن الرابع) أبو إسحـاق إبراهيم بن مـحمـد الفـارسى الإصطخرى المعـروف بالكرخى «المسـالك والممـالك» تحقـيق : د. محمد جابر عبدالعال.

٦ ـ ابن أبى أصيبـعة: (ت ٦٦٧هـ/ ١٢٧٠م) أبو العباس أحمـد بن القاسم الخزرجى، موفق الدين «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء».

٧ ـ إقبال: عباس «تاريخ مفصل إيران».

٨ ـ الألوسى، السيد محمود شكر البغدادى «بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب».

٩ ـ أمير علـى، سيد : «A short hist. of the saracens» نقله إلى العـربية: رياض رأفت باسم : «مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى».

١٠ ـ أنتونى ناتنج: «العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام» ترجمة راشد البراوى.

١١ ـ ابن إياس (٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) مـحـمـد بن أحـمـد «بدائـع الزهور فى وقـائع الدهور».

١٢ ـ بارتولد، ف: «تاريخ الحضارة الإسلامية». الترك فى آسيا الوسطى، تركستان حتى الغزو المغولى».

١٣ ـ بروكلمان، كارل: «تاريخ الآداب العربية»، «تاريخ الشعوب الإسلامية».

١٤ ـ البكرى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٧م) أبو عبيد الله بن عبدالعـزيز «معجم ما استعجم» حققه الأستاذ مصطفى السقا.

١٥ ـ بديع الزمان الهمذانى: المقامات. تحقيق: الإمام محمد عبده.

١٦ ـ تاريخ البيهقى.

١٧ ـ البندارى: تاريخ دولة آل سلجوق.

١٨ ـ التوحيدى: أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة.

١٩ ـ البـلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) أحمـد بن يحيى بن جـابر «أنساب الأشـراف» «فتوح البلدان».

٢٠ ـ ترتون، أ. س: «أهل الذمة فى الإسلام» نقله إلى العربية: د. حسن حبشى.

٢١ ـ الثعالبى (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م) أبو منصور عبـدالملك «لطائف المعارف»، «يتيمة الدهر».

٢٢ ـ الجاحظ (ت ٢٥٦ هـ/ ٨٧٩م) أبو عثمان عمرو بن بـحر «البيان والتبيين»، «التاج فى أخلاق الملوك»، «الحيوان»، «رسائل الجاحظ».

٢٣ ـ ابن جبـير: (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) محمـد بن أحمد بن جـبير «رحلة ابن جبـير» تحقيق د. حسين نصار.

٢٤ ـ الجـهشـيارى: (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م) أبو عـبدالله مـحمـد بن عيـدروس «الوزراء والكتاب» حققه: مصطفى السقا وآخرون.

٢٥ ـ ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١) أبو الفرج عبـدالرحمن على بن الجوزى «مناقب عمر بن عبدالعزيز»، «المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم».

٢٦ ـ حتى، فيليب: «تاريخ سورية ولبنان»، «تاريخ العرب المطول».

٢٧ ـ ابن حـجر (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) شهـاب الدين أحـمـد بن على العـسقـلا «الإصابة فى تمييز الصحابة».

٢٨ ـ الحريرى : «المقامات».

٢٩ ـ حـسن إبراهيم حسن «تاريخ الإسـلام السـياسى»، «النظم الإسـلاميـة» «انتشـار الإسلام فى أفريقيا».

٣٠ ـ حسن أحمد محمود «الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا»، «قيام الدولة السلجوقية».

٣١ ـ الحسينى: أخبار الدولة.

٣٢ ـ خواندمير: حبيب السير فى أخبار أفراد البشر «دستور الوزراء» تحقيق د. فؤاد الصياد.

٣٣ ـ حسن الباشا: «الآثار الإسلامية»، «دراسات فى الحضارة الإسلامية».

٣٤ ـ حنين بن إسحاق: (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) تحقيق ودراسة الدكتور: محمد على أبو ريان، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٨.

٣٥ ـ ابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله «المسالك والممالك»، «مختارات من كتاب اللهو والملاهى».

٣٦ ـ ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) عبد الرحمن بن محمد «مقدمة ابن خلدون» «العبر وديوان المبتدأ والخبر».

٣٧ ـ ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى «وفيات الأعيان».

٣٨ ـ الدميرى (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) محمد بن موسى كمال الدين «حياة الحيوان الكبرى».

٣٩ ـ دى بور: «تاريخ الفلسفة فى الإسلام» نقله إلى العربية: محمد عبدالهادى أبو ريدة.

٤٠ ـ الدينورى: (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) أبو حنيفة أحمد بن داود «الأخبار الطوال».

٤١ ـ الذهبى: (ت٧٤٨هـ / ١٣٤٧م): «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام»، «سير أعلام النبلاء».

٤٢ ـ الرازى (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م) أبو بكر: «الحاوى فى الطب والتداوى»، «الكليات فى الطب».

الراوندى: «راحة الصدور وآية السرور» تحقيق» تحقيق د. عبدالنعيم حسنين.

٤٣ ـ رشيد الدين فضل الله: «٧١٩ هـ ـ ١٣١٨م أو جامع التواريخ» تحقيق د. فؤاد الصياد وآخرون.

٤٤ ـ زكى محمد حسن : «الرحالة المسلمون فى العصر الوسيط»، «فنون الإسلام».
٤٥ ـ زكى نجيب محمود: «جابر بن حيان».
٤٦ ـ الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية.
ابن الساعى : (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) على بن أنجب. «نساء الخلفاء».
٤٧ ـ سعاد ماهر: «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون».
٤٨ ـ ابن سعد: (ت ٢٣٠هـ/ ٨٣٥م) محمد «الطبقات الكبير».
٤٩ ـ السخاوى (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧) شمس الدين «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع».
٥٠ ـ سعيد بن البطريق المعروف باسم أوتيخا (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق».
٥١ ـ ابن سيده (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسى «كتاب المخصص».
٥٢ ـ سيدة إسماعيل كاشف: «مصر فى فجر الإسلام».
٥٣ ـ ابن سينا (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) أبو على الحسين بن على «القانون فى الطب» ٤ أجزاء، تحقيق: إدوار القش، مؤسسة عز الدين، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ـ «الشفاء».
٥٤ ـ السيوطى (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) عبدالرحمن بن أبى بكر جلا الدين «تاريخ الخلفاء» ـ «حسن المحاضرة»، «الشماريخ فى علم التاريخ».
٥٥ ـ صادق رضا زاده حقق: تاريخ أدبيات إيران.
٥٦ ـ شوقى ضيف: «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» ـ «الأدب فى العصر العباسى».
٥٧ ـ ابن طباطبا (ت٧١٠هـ/ ١٣١٠م٩ محمد بن على بن طباطبا «الفخرى فى الآداب السلطانية».
٥٨ ـ الطبرى: (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير «تاريخ الأمم والملوك».
٥٩ ـ ابن طيفور (ت ٢٨٠ هـ/ ٨٩٤م) أحمد بن طاهر الكاتب «مناقب بغداد».

٦٠ ـ عاشور، سعيد عبدالفتاح: «الحضارة الإسلامية»، «الحركة الصليبية»، «عصر المماليك فى مصر والشام».

٦١ ـ عبد الرزاق، أحمد «الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى».

٦٢ ـ عبدالعزيز الدورى «مقدمة فى صدر الإسلام»، «التاريخ الاقتصادى للعراق فى القرن الرابع الهجرى».

٦٣ ـ عبدالمنعم ماجد: «الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى».

٦٤ ـ ابن العبرى (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) أبو الفرج ابن هارون «مختصر تاريخ الدول».

٦٥ ـ عطا ملك جوينى: تاريخ جهانكشاى ـ فاتح العالم. ترجمة وتحقيق د. فؤاد الصياد.

٦٦ ـ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م) أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله «تاريخ دمشق».

٦٧ ـ العتبى: تاريخ اليمينى.

٦٨ ـ عصام الدين عبدالرءوف الفقى: «الحواضر الإسلامية الكبرى»، «الهند فى العصر الإسلامى»، «اليمن فى ظل الإسلام»، «الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق». «تاريخ الفكر الإسلامى».

٦٩ ـ عطية القوصى: «الحضارة الإسلامية».

٧٠ ـ العينى (ت ٨٥٥هـ/ ١٥١٤م) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان».

٧١ ـ فامبرى: تاريخ بخارى.

٧٢ ـ أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) إسماعيل بن على، عماد الدين «المختصر فى أخبار البشر».

٧٣ ـ الفردوسى فى «الشاهنامه» تحقيق وترجمة د. عبدالوهاب عزام.

٧٤ ـ فلهاوزن «تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية». فؤاد عبدالمعطى الصياد: الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين.

٧٥ ـ ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) أبو محمد عبدالله بن مسلم «الإمامة والسياسة» «عيون الأخبار»، «المعارف».

٧٦ ـ القرطبى (ت ٦٧١هـ/ ١٢٦١م) أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى، التفسير «الجامع لأحكام القرآن».

٧٧ ـ القزوينى أحمد الله متوفى: تاريخ كزيده.

٧٨ ـ القفطى (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم «أخبار العلماء بأخبار الحكماء».

٧٩ ـ القلقشندى (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أبو العباس أحمد «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا».

٨٠ ـ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقى: : «البداية والنهاية»، «تفسير ابن كثير».

٨١ ـ الكرديزى «زينة الأخبار»، ترجمة وتحقيق د. عفاف زيدان.

٨٢ ـ كرد على : «الإسلام والحضارة العربية»، «أعلام الإسلام».

٨٣ ـ الماوردى: (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٧م) أبو الحسن على بن حبيب «الأحكام السلطانية».

٨٤ ـ المبرد: (ت٣٨٥هـ/ ٩٥٥م) أبو العباس محمد بن يزيد «الكامل فى اللغة والأدب».

٨٥ ـ متز آدم: «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»، ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة.

٨٦ ـ محمد جمال الدين سرور: «تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق».

٨٧ ـ المسعودى (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين «مروج الذهب» «التنبيه والإشراف».

٨٨ ـ المقدسى: (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٧م) «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم».

٨٩ ـ المقريزى (ت ٨٤٤هـ/ ١٤١٤م) تقى الدين أحمد بن على «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، «إغاثة الأمة بكشف الغمة».

٩٠- ماركبولو: رحلة ماركبولو.

٩١- المعرى (ت ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) أبو العلاء: «سقط الزند»، «لزوم مالا يلزم».

٩٢ ـ مير خواند: روضة الصفا.

٩٣ ـ ابن النديم: (ت٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) محمد بن إسحاق «الفهرست».

٩٤ ـ ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) علاء الدين على بن أبى الحزم: «رسالة الأعضاء» دراسة وتحقيق د. يوسف زيدان، الدار المصرية.

٩٥ ـ نظام الملك: سياسة نامة.

٩٦ ـ نظامى سمر قندى: جهار مقالة.

٩٧ ـ النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى.

٩٨- نيكلسون «فى تاريخ التصوف الإسلامى».

٩٩ ـ ابن الهيثم (ت ٤٣٠هـ ١٠٣٨م) الحسن «كتاب المناظر» تحقيق. عبدالحميد صبرة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت «١٩٨٣م».

١٠٠ ـ الواقدى: (ت ٢٠٨هـ/ ٨٣٢م) أبو عبدالله محمد بن عمر «فتوح الشام».

١٠١ ـ ياقوت: (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى «معجم الأدباء»، «معجم البلدان».

١٠٢ ـ اليعقوبى: (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر «البلدان»، «تاريخ اليعقوبى».

الدوريات:

مجلة التراث العلمى العربى.

دائرة المعارف الإسلامية.

الأبحاث المنشورة فى المجلات العلمية.

✲ ✲ ✲

ثانيا المراجع الأجنبية:

1- Arnold, T.W :Arab Trawellers and Merchnts, A.D 1000 - 1500 London 1929.

2- Ashtor m EHistoire Des Prix et Des Salaires dans L,Orient Medieval, Paris 1969.

3- Cahen G: Economy, Society, Institutions, The Cambridge History of "Islam" Cambridge 1970.

4- Goitein,s : AMediterranean Society of The High Meddle Ages. V.I, New York 1967.

5- Heyd. W: Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age, T.II, Leipzig 1923.

6- Pirenne, H: Histoire Economir et Social du Moyen age, Paris 1969.

7- Rice, D.S : A drawing of The Fatimid Period, BSOAS, V. 21, London 1958.

8 Rosental , F::A History of Muslim Historiography, Leiden 11968.

9- G.Le Strange, Baghdad During The Abbasid Caliphate, Oxford, 1924.

10- G. Lestrange, The Lands of Eastern Caliphate, Cambridge, 1930.

11- Von Kremer, The Orient Under The Caliphs, Frand. By Khuda Buksh, Beirut, 1973.

12- Y. Wellhausen, The Arab Kingdom and Its Fall, Trans. by Weir, Calcutta, 1927.

13- G. Wiet, Matériaux Pour un Corpus inscryptionum Arabicarum, Egypte, MIFAO, LII Le Caire, 1930.

✲ ✲ ✲

رقم الإيداع	٩٩/٤٠١٢
I. S. B. N الترقيم الدولى	977- 10 -211-2

هذا الكتاب

اهتم المؤلف بدراسة المشرق الإسلامى منذ اكثر من ربع القرن، والف فى المشرق العديد من الكتب والبحوث.

وكتب عن الإسلام فى جنوب غرب آسيا والهند، والدول المستقلة فى الشرق، وطبع كتاب «الدول المستقلة فى الشرق» عدة طبعات، والطبعة الاخيرة التى بين ايدينا الآن، تختلف عن الطبعات السابقة، بعد ان تجمع لدى المؤلف العديد من المصادر بمختلف اللغات، فاضطر المؤلف إلى إضافة موضوعات ومعلومات جديدة ومفيدة إلى الكتاب.

وهذا الكتاب بشكله الجديد، يفيد القارئ العام والقارئ المتخصص، ويعطيه معلومات قيمة عن المشرق الإسلامى من الناحية السياسية والناحية الحضارية.

والواقع ان المشرق الإسلامى لعب دورا رئيسيا فى ازدهار الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، ففى جانب الثقافة، اضاف علماء المشرق الكثير من المصنفات والكتب القيمة إلى المكتبة الإسلامية، وطور اهل المشرق فى النظم الإسلامية وفنون العمارة والموسيقى وغيرها.

وفى هذا الكتاب يوضح المؤلف دور القوة السياسية للمشرق الإسلامى فى عصر الدول المستقلة، وهى الطاهرية والصفارية والسامانية والغزنوية والسلجوقية والخوارزمية، ويوضح المؤلف كيف ادى الغزو المغولى إلى تدهور المشرق الإسلامى اقتصاديا واجتماعيا وهاجر العلماء من المدن الإسلامية إلى البلاد المجاورة مثل الهند والصين.

فهذا الكتاب يوضح التطور السياسى والازدهار الحضارى فى دولة الإسلام.



الأستاذ الدكتور

عصام الدين عبد الرءوف

* دكتوراه فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
* اشتغل بالتدريس فى جامعات أسيوط والأزهر وعين شمس والقاهرة حتى وصل إلى درجة أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة.
* حاضر زائرا ومنتدبا ومعارا فى جامعات المملكة العربية السعودية والسودان وصنعاء والجزائر وليبيا والمغرب.
* اشترك فى العديد من المؤتمرات الدولية فى مصر وخارجها.
* تخرج على يديه أعضاء من هيئات التدريس فى جامعات مصر والعالم العربى.
* أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات التى نالت تقدير الهيئات العلمية؛ لأنها كشفت الغموض عن جوانب لم تدرس فى التاريخ الإسلامى تفصيلا، مثل تاريخ اليمن وتاريخ أفغانستان وتاريخ الهند وتاريخ وسط آسيا.